

دلال البزري

يساريون لبنانيون في زمنهم

مذكرات وشهادات

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

يساريون لبنانيون في زمنهم

======================

دلال البزري

الفهرسة في أثناء النشر إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

==

البزري، دلال.

يساريون لبنانيون في زمنهم/دلال البزري.

(سلسلة مذكرات وشهادات)

يشتمل على ببليوغرافية.

IF5 A 1/ 0-.) , -, , - -,) . -1

1. الحزب الشيوعي اللبناني. 2. الشيوعية – لبنان. 3. لبنان – أحزاب سياسية. 4. اليمين واليسار (سياسة) – لبنان. 5. الاشتراكية – لبنان. أ. العنوان.

ب. السلسلة.

320.532095692

==

العنوان بالإنكليزية

Lebanese Leftists of their Time

by Dalal Al-Bizri

==

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن اتجاهات يتبناها

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

==

الناشر

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

شارع الطرفة – منطقة 70 وادي البنات – ص. ب: 10277 – الظعاين، **قطر**

هاتف: 00974 40356888

جادة الجنرال فؤاد شهاب شارع سليم تقلا بناية الصيفي 174

ص. ب: 4965 11 رياض الصلح بيروت 2180 1107 **لبنان**

هاتف: 8 991837 1 00961 فاكس: 00961 1991839

البريد الإلكتروني: SVZcf e` WZTV3 U YRZndeZef eV&cX

الموقع الإلكتروني: h h h &U YRZndeZef eV&cX

الطبعة الأولى: بيروت، أيلول/سبتمبر 2021

«يسبح الإنسان أحيانًا دون بحر ودون مياه»

محمد العبد الله، كتاب حبيبتي الدولة

المحتويات

مقدمة

يتناول هذا الكتاب يساريين شيوعيين في زمنهم، بدءًا من ستينيات القرن الماضي وسبعينياته: سيرةً وممارسة وفكرًا وخواتيم، بصفتهم ثوريين. وكان مقدرًا لهذه المقدمة أن تُكتب بما توافر لها من نقاط جُمعت وفُرزت أثناء الدراسة. ثم اندلعت ثورة 17 تشرين الأول/أكتوبر 2019، فمنحتني فرصة المقارنة بينها وبين ثورة أو ثورات اليساريين المعنيين بهذه الدراسة.

في معنى الثورة لدى هؤلاء اليساريين، ومقوماتها؛ **أولًا**: كانت الثورة حاضرة متأهّبة. «حالة» ثورية يصعب غضّ الطرف عنها من دون انعزال. تستمد قوّتها من الفلسطينيين والسوفيات. كان دعاتها يصرون على ربط طليعيتهم بطليعيتهما، وكان لها «برامج» متكاملة مفصّلة: برنامج حزبي داخلي، وآخر مع الحلفاء اليساريين الآخرين، عنوانه «البرنامج المرحلي للحركة الوطنية اللبنانية». وتحت شمس هذه الثورة، كان الماء والكهرباء مؤمَّنين، وكان كلّ من البحر والجبل والهواء متعافيًا، ولبنان لونه أخضر، ورائحته برائحة مواسم الأشجار المثمرة، ومنها، ومن الأرض، الخضار والفواكه النظيفة ذات الطعْم. وكانت البلاد، رغم صمود الطائفية، ما زالت تتمتع بإصلاحات رئيس الجمهورية الأسبق فؤاد شهاب (1902–1973)؛ أي كان ثمة «دولة» وقوانين ومؤسسات. الطائفية كانت سمحة شفوقة، تتخلّلها بعض النوائب، ففؤاد شهاب لم يُلغ مأسستها، ولا نسف محافلها.

ثم كانت ذاكرتنا الثورية مدموغة بهزيمة جمال عبد الناصر في حرب حزيران/يونيو 1967. كنا عروبيين على طريقتنا، في مخيلتنا. ولكننا في واقعنا كنا ذوي حدود، لا استجابة لثورتنا إلا في الإعلام الصديق، البعيد، كما هي بعيدة الحالات العربية النظيرة لحالتنا: الصحراء الغربية وظفار. وقد فشلنا منذ خطواتنا الأولى. عند أول طلقة رصاص، وقعنا في الفخ الطائفي. وبعد رحيل الفلسطينيين وانهيار الاتحاد السوفياتي، تحولنا إلى مرثاة وحنين ومحاولات حثيثة لـ «تجديد» ما اهترأ من مشاريعنا الثورية.

في 17 تشرين الأول/أكتوبر 2019، اندلعت الثورة في لبنان فجأة بشباب وصبايا ومراهقين، عفويًا، من غير تخطيط. لم تولّدها «حالة» ثورية، بل نارٌ مباشرة، من ذلّ وإفقار وضياع وقرف ونزيف الهجرة ولوعتها. وليس لديها طليعة، طليعتها هي الشعب. الكهرباء والماء فيهما مشكلة مُزمنة. البحر والبرّ مزبلة، والجبال التي نُخِرت والغابات التي احترقت، جُرِّدت من الأشجار. والخُضار والفواكه فقدت طعمها ونظافتها. و«الدولة» في حضيض، فاشلة، فاسدة، كاذبة. عشيتها أيضًا: الطائفية – المذهبية في ذروتها، باغية، طاغية، وذاكرة المواطن مسكونة بالخراب العميم.

الثورة خرقت الطوائف، وهي ليست ثورة «عروبية»، بالمعنى «الحدودي» الذي فهمناه في الزمن القديم، ولكنها عروبة بمعنى أنها تتصل، بطبيعتها، بطبيعة التركيبة السلطوية الواحدة التي تناهضها، وإن اختلفت تلاوينها، أي بالربيع العربي وما تلاه حتى الآن من ارتدادات، في الجزائر والسودان والعراق، خصوصًا العراق، بعد سورية وتونس ومصر وليبيا واليمن. تلك العروبة تحديدًا عميقة، داخلية، عضوية، أشبه بالخفية، لا تتآكل مع الوقت، إنما تنمو معه، فتتغير وترسم ملامحها الجديدة.

أتابع المقارنة، في معرفة أحوال الدنيا **ثانيًا**: كانت الكتُب معْبرنا إلى المعرفة؛ كتبٌ محدَّدة: كارل ماركس (1818–1883)، وفردريك إنغلز (1820–1895)، وفلاديمير لينين (1870–1924)، وماو تسي تونغ (1893–1976)، ومن بعدهم الفيلسوف جان بول سارتر (1905–1980)، وفرانز فانون (1925–1961)، وهربرت ماركوزه (1898–1979)، ولوي ألتوسير (1918–1990)، منهم كنا نستمد «الوعي». كانت «البرامج التثقيفية» بندًا أساسيًا من بنود النضال الحزبي، وكان الأكثر قراءة يستحق الترقي بالدرجة الحزبية؛ تصدّره يعطينا فائضًا من القيمة الثورية، والعالم يبدو لنا بسيطًا على الفهم، استنادًا إلى الأطر «النظرية» التي كنا، وحدنا، نراه من خلالها.

الآن، وعي الثوار يأتي مما عاشوه، مما تسلّخ به جلدهم، مما يرونه ويسمعونه ويتنشّقونه مباشرة، بالملموس، يوميًا، في كل لحظة من وجودهم الحيّ، ولكنْ لهم أيضًا نافذة على العالم عبر الافتراضي منه، ومنه تعوْلموا، وضجّت عقولهم بعالم شديد التعقيد، شديد التداخل والتفرّع، متدفّق المعلومات، سريع، تشابكي، في حركة وتبدّل مستمرَين. يقرّون بغموضه، يلمسون هذا الغموض، ويأخذون به، فيكون وعيهم المركّب مزيجًا من المعيش والافتراضي.

في الشعارات **ثالثًا**: كنا «نحتقر» العلَم اللبناني والنشيد الوطني، ونردد في شعاراتنا: الكفاح المسلح، الفدائيين، العنف الثوري، القضية، البارود والمدفع، التعريب، العمال، الفلاحين، فضلًا عن الإمبريالية والصهيونية. الآن: يرفعون العلم اللبناني، ينادون البلدات والقرى البعيدة، ينشدون أغنيتنا الوطنية، يحاسبون الطبقة الحاكمة برمتها: «كِلُّن يعني كِلُّن» (كلُّهم يعني كلُّهم). و«كلهم» هو «نظام» يريدون إسقاطه. وبعد ذلك، يطالبون بدولة «طبيعية» فقط ذات قانون ونزاهة، بوجه فساد أسطوري، يرفعونها «سلمية! سلمية!»، يخالفون السلمية أحيانًا، لشدّة غضبهم، ولكنهم يعودون إليها، بعد حين.

في القادة **رابعًا**: كانت قيادة ثورتنا من الشخصيات الفذَّة، أمناء عامين، مقيمين حيث هم، كأنهم هنا منذ البداية. هكذا وجدناهم، وحولهم أشخاص لا نعرف بالضبط كيف أصبحوا قياديين. كانت تراتبية جاهزة، معلنة، فوقية، فيها شيء من البيروقراطية، يدعمها مبدأ «المركزية الديمقراطية»، ذو القاعدة اللينينية، الهرمية، بل لم تكن تكتب افتتاحية صحيفتنا، **الحرية**، الصادرة عن منظمة العمل الشيوعي، إلا بعد «التشاور» مع الأمين العام. وكان قائدنا، بل قائد قادتنا كمال جنبلاط (1917–1977)، وله «مساعدان» هما: محسن إبراهيم (1935–2020)، الأمين العام لمنظمة العمل الشيوعي، وجورج حاوي (1938–2005)، الأمين العام للحزب الشيوعي اللبناني. وكمال جنبلاط، الزعيم الإقطاعي الدرزي، صاحب الهوى الاشتراكي، ووزير الداخلية الذي أعطى ترخيصًا لواحد من أحزابنا: الشيوعي اللبناني.

أما الآن، فلا قيادة للثورة. لم تخرج بعدُ قيادة من التجربة الثورية، هي في قيد التشكّل، على صورة تشكّل إعلامها، الذي أصدر جريدته الأولى، **17 تشرين**، حرة طليقة من التوجيهات العليا، أي إنها سوف تكون قيادة حقيقية، ولدت على الملأ، لا تُجاري الحسابات الضمنية والترتيبات الجانبية، ولا «موازين القوى» القهرية ربما، تستمد مشروعيتها من تجربتها المشتركة مع الآخرين في الميدان، والمسترشدة بمبدأ التشاركية في القرار. الذين تختارهم سيكون بوسعها أن تحاسبهم، وربما

تسقطهم، كما أُسقطت بسرعة «قيادات» ادعت تمثيلها، ومحاولات غيرها آيلة إلى السقوط أو النجاح. وفي كل الأحوال محاولات تقع تحت النظر والتعليق والنقد. ثورة قطعت نهائيًا مع الطبقة الحاكمة، ومع أحزابها المتدثِّرة بلحاف تغييري. وليد جنبلاط أبرزُ مثلٍ، بعدما قاد والده الثورة الماضية، صار هو هدفًا من أهداف الثورة الراهنة.

خامسًا: في الأطر قيادة الثورة كانت تعني أحزابًا أيضًا. وهي أحزابٌ كلها سياسية، وذات أسماء مهيبة: «التقدمي الاشتراكي»، «الشيوعي اللبناني»، «العمل الشيوعي»، «القومي السوري الاجتماعي»، «البعثان» السوري والعراقي، «المرابطون»، «التنظيم الشعبي الناصري». هكذا كانت الأسماء، ثقيلة، مهيبة، ذات حمولة تاريخية، عقيدية، ابنة زمنها الأيديولوجي. الآن، بدل الأحزاب مجموعات ذات أسماء متواضعة، منها ما تشكّل أثناء الثورة، ومنها ما وُجد عشيتها: «نحنُ»، «لِحقّي»، «نادي القضاة»، «مواطنون مواطنات»، «المفكرة القانونية»، «المرصد العمالي»، «بيروت مدينتي»، «عن حقك دافع»، «مهنيون ومهنيات»، «ثوار جل الديب»، «عامية 17 تشرين»، «تنسيقيات»، هذه أو تلك من البلدات والقرى، فضلًا عن عدد من الجمعيات النسائية والنسوية ذات أهداف مباشرة: «المجموعة النسوية»، «كفى»، «أبعاد»، «جنسيتي حق لي ولأسرتي»، «النساء للسياسة»، والعديد العديد من المستقلات.

سادسًا: في طبيعة النشاطات كنا نوزّع المناشير والبيانات ونركّب اليافطات العملاقة، نجمع تبرعات، نحضِّر لندوات شعبية، نتصل بالعمال، نتدرب عسكريًا في المخيمات الفلسطينية، نساعد أهلها، ونحضر مهرجانات القادة، نستمع طوال ساعات إلى خطاباتهم الحماسية، المفعمة ببدائع البلاغة، ثم نجتمع في اليوم الواحد مرة ومرتين وأحيانًا ثلاثًا، وكل اجتماع يمتدّ ساعات، ومن بنوده «الوعي» بخطورة المرحلة وتاريخيتها والدفاع عن «خطنا»، معتمدين على النشرات الداخلية والبيانات وتقارير الهيئات القيادية، فضلًا عن الكتب «النظرية». وكنا نتظاهر كثيرًا، بكتل مرصوصة، لكل حزب كتلته، يافطاته، حدوده وشعاراته الجاهزة. يسير القادة، أو من ينوب عنهم، على رأسها بوجوه مكفهرّة رصينة.

الآن: اجتماعات مفتوحة، وكلمات مقتضَبة، وتنظيم النشاطات، والاتصال والنشر للمعلومة أو الاعتصامات أو التظاهرات. وهذه التظاهرات، متفرّقة تسير، أو تتوقف، بحسب نبضها الداخلي، لا قيادات لها، وإن حاول بعض القدماء أن يكونوا في طليعتها. تختلط بداخلها ألوان الهندام والسحْنة واللهجة، والشعارات تستلهمها من المكان أو الوقائع الراهنة، بل يحضر المتظاهرون بشعارات على قطعة كرتون، كتبوا عليها ما تجود به مخيلتهم، كل واحد على سجيّته، الفكاهية غالبًا، والوجوه الفرحة التي تبث ذبذبات الحب واللقاء بعد فراق. ومع الغبطة هذه انطلاق للجسد بالموسيقى والرقص، وعشرات من النكات الخارجة يوميًا، ومعها صور و«اسكتشات» على «يوتيوب»، من وحي اللحظة، وكلها ساخرة، مُرّة، خلّاقة، وتيرتها سريعة. بوسعك أن تقرأ الخبر من موقع الصحيفة المبتغاة، من مواقع التواصل، من التلفزيون عبر البثّ الحي، بل من قناة تلفزيونية، «الثورة». ويعبّر كل واحد منها عن رأيه بها وبغيرها، ويزيد عَجَلة تداوله «الهاشتاغ». خلال قليل من الساعات يصل «الهاشتاغ» إلى الملايين، يرفع منظورية الرأي أو الخبر أو الدعوة، يبث صرخات مدوية لمن لا صوت له، يوسع دائرة النقاش، يروّج للمعلومة ويصنع الحدث، أحيانًا.

في النساء **سابعًا**: كان عددنا، بصفتنا نساء، قليلًا، كنا نقرأ، نذيع الكتابات النسوية، نناقشها وننشئ تنظيماتنا النسائية «الجماهيرية» ذات القضايا الكبرى، لكننا كنا في الواقع نعمل بنظام التقسيم الجنسي للعمل الحزبي؛ للنساء المهمات الهامشية، الداخلية، الشبيهة بمهمات البيت، وللرجال القيادة، من أعلى الهيئات إلى أدناها. والاستثناء لهذه القاعدة، أي النساء في مواقع الرجال، كان يتم بـ «الترفيع» من أعلى: إما بالتعيين وإما بانتخابات مُبرمجة، مضبوطة، في حين كانت تنظيماتنا النسائية بإشراف القيادة الحزبية، وعضوية زوجات القياديين. أما الراغبات في الترقّي بفضل جهودهن الخاصة، الحزبيات الطموحات، فكان عليهن أن يحملن ضعف صفات منافسهن على الموقع. وفي أغلب الأحيان كنا فرادى وجماعة نتكلم عبثًا على حقوق النساء، ولكن في الممارسة كنا أشد هرمية جنسية من أي إطار بطريركي معروف.

اليوم: تصعيد النساء بات اتجاهًا مطلوبًا. يقترب من «الصواب السياسي» (Political Correctness). في الثورة اليوم النساء هن الغالبية، ويتصدّرنها، بتظاهراتها واعتصاماتها وكلماتها وشعاراتها، في «الرتب» كافة، وعلى الدرجات كافة: قائدات وأنفار، محلّلات، فنانات، هتّافات، منظِّمات وطباخات، بل وجوه طاغية وأيقونات. وهن، فوق ذلك، أولى المعنيات بالثورة، أولى المتضرّرات من نزيف إنساني اسمه هجرة الأبناء، أو من إحياء مناخ الحرب الأهلية.

أخيرًا: الصفة التي كان يحملها الفرد المنخرط في الثورة الماضية هي المناضل. و«المناضل»، بحسب السياق الذي شهد ولادته في فرنسا وبُعيد الحرب العالمية الثانية، هو شخص خصّص حياته كلها للنضال؛ هو جندي، قيادي، أمين عام. في كل الأحوال «يضحّي»، من أجل غد مزدهر وطوبى. هو بذلك يحمّل محيطه مترتبات جميله هذا، يتكلم كثيرًا على الجماهير، يريد إقناعها بصوابية خطه، وبـ «الوعي الجديد». والنضال عند المناضل ليس من شؤون حياته الصغيرة التي لا يكترث بتفاصيلها. هو يتجاهل هذه الحياة من أجل الكفاح في ميدان آخر، أعظم وأوسع، غريب عن يومياته، وحبه للجماهير لا يحول دون ابتعاده، وأحيانًا ترفّعه عنها. رداء «الطليعية» يحميه من النزول إلى ما دون، فالكابوس عند المناضل أن تتدنى رتبته، ألا يكون عنده أمل في الصعود إلى رتبة أعلى، فهو بذلك يخسر شيئًا ثمينًا هو دوره، ولكن هذا الدور مبتعد عن شخصه، فالمناضل يضحّي برغباته، بصحته النفسية، بحاجاته الإنسانية، الفردية، دفاعًا عن هذا الدور، أي إن دوره بعيد عن روحه، عن ذاته، قريب من ذاتيته، من «أناه»، لذلك يحكمه غرور «الطليعي»، مهما كانت دماثته، ودرايته بالحديث.

أما «الناشط»، الذي نعرفه الآن، فهو جديد على التداول، أزاح «المناضل» لصالحه. ومع هذه الإزاحة، بدا كأن التراث «النضالي» الفرنسي صار من التاريخ، لم يَعُد «المناضل» متداولًا، تكرّسَ «الناشط»، وتغيرت طبيعة الاحتجاجات، صارت موضوعاتها محددة؛ نقاطًا محددة. لا برنامج مفصل، ولا وعد ولا طوبى، فظهرت عشرات المجموعات التي تصبّ نظرها وجهدها نحو مسائل كان المناضل يعتبرها من الصغائر، مثل البيئة، والفساد، والرقابة، والمراقبة، والمشردين في الطرقات، والسياسة النقدية، والمثلية الجنسية، واللاجئين السوريين، والمتحوّلين جنسيًا. حتى النساء لم تَعُد معركتهن تحت عنوان كبير.

صارت مجموعات نسائية تبحث في حقوق الحضانة والجنسية لأولاد الأمهات المتزوجات من غير اللبنانيين، وفي جرائم قتل الزوجات، وفي اللذة الجنسية، وفي الاغتصاب والتحرّش، وفي حقوق اللاجئات وعاملات المنازل، فالناشط معني مباشرة بنشاطه. الأشياء الصغيرة أو الكبيرة في يومياته هي موضوعه، لا الأفكار المجرّدة أو الكلمات العويصة التي كان ينطق بها «المناضل». هو لا يضحي، أو لا يقدم نفسه بصفته مضحّيًا. هو مرتبط بنفسه، غير منفصل عنها، كما المناضل، لذلك لا تغادره البهجة والابتسامة والنكتة، والموسيقى، والرقص. وكل هذا من بنات خياله الخصب الذي تغذيه مجريات ثورته تباعًا. هو لم يكن ثوريًا في البداية، أصبح ثوريًا مع الثورة، وكل يوم منها يبلور أشكال معركته. قد لا يفلح الآن في إسقاط النظام، ولا في استعادة الأموال المنهوبة، ولا في إنتاج حكام جدد. لكنه توفّق، ومنذ لحظته الأولى، في افتتاح عهد جديد مع التغيير، بأن تخيل، بلا أيديولوجيا، نظامًا سياسيًا يستطيع أن يجمع حوله كل اللبنانيين، مهما كانت طائفة كلٍّ منهم.

الفصل الأول: مجريات هذه الدراسة

أولًا: ما الموضوع؟

الفكرة البحثية كانت في الأصل عن اليسار العربي الذي انقسم حول الانتفاضة السورية. بين مؤيد لها أو مؤيد للنظام. فكان البحث جَولة موسعة بين كتّاب هذا اليسار. ثم استدركنا بأن النصوص التي أنتجها قليلة، بعيدة. كلمة عاجلة من هنا، عبارة مختزلة من هناك، واستنتاجات مثل القفزات في الهواء الطلق. باختصار، كانت جولة ضارة ومفيدة. من جهة تعطيكَ فكرة عن ملامح هذا الذي كنت تفترض أنه سجال قائم بين مؤيد للانتفاضة السورية ومعارض لها من بين اليساريين العرب، ولكنها من جهة أخرى تريحكَ، بأنك حقّقتَ بعضًا من معرفة كانت ناقصة، وإن لم تكن كبيرة الفائدة في تعميق الحجة والحجة المضادة لهذا الفريق أو ذاك.

بعد ذلك، حاولتُ لملمة الموضوع بأن انتقلتُ إلى اليسار السوري نفسه، وانقسامه حول الانتفاضة بين معارض لها ومؤيد أيضًا. تجربة شاقة خضتها خلال أشهر طويلة من الزمن، في المراجع عن سورية أولًا، ثم في النصوص المعبّرة عن تلك المواقف، وأغلبيتها العظمى مقالات نُشرت في صحف أو مواقع إلكترونية، وكلها لم تكن كافية. بدَتْ سورية خلال تلك الأشهر كأنني أتعرف إليها أول مرة. لم تكن يومًا محورًا لاهتمامي، على كل حال. مصر كانت بدلًا منها. ربما أيضًا، كنت أُسقط نفوري من نظام سورية على مشاعري وفضولي، فظلت سورية غريبة عليّ، وأنا غير مبالية بها، حتى اندلاع انتفاضتها الشعبية. حاولتُ خلال تلك الأشهر أن أعوّض عن جهلي بسورية باتصالات مباشرة مع الكتاب المعنيين بالنصوص للتزوّد بها؛ أن أعوّض عن النقص المعرفي بشيء من الميدان، أو المعرفة الإنسانية ولو عبْر الأثير. الذين استجابوا لاتصالي كانوا معدودين. الباقون، إما وعدوا بالردّ، ولم يجيبوا على الإطلاق، وإما تململوا من طلبي من دون سبب محدّد، ولكنهم ربما نسوا، وأنا أفهم ذلك، أو أحاول أن أفهم أن انسلاخ غالبيتهم عن بلادهم وملحمية مأساتهم جعلاهم لا يلقون بالًا إلى سؤال أو طلب بالحديث، ولا يرسلون المعلومات المطلوبة؛ لذلك حينما كتبتُ تقريري عن هذا الاستكشاف الأولي لم أكن أتوقع غير ما صدر عن محمد جمال باروت رئيس قسم الأبحاث في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات يومئذ. بعث لي تفنيدًا لتقريري كان مكينًا وسلبيًا لم ينقذني من تبعاته غير عزمي بشارة، مدير المركز، باقتراحه أن أنتقل في دراستي إلى الميدان اللبناني الذي أعيش فيه وأعرفه أكثر من أي ميدان آخر.

هكذا، عدتُ إلى قواعدي الميدانية اللبنانية، وانتبهتُ بهذه العودة إلى أنني لم أفطن إلى أسبقية اليسار اللبناني على الانقسام حول الانتفاضة السورية، ولا إلى الجذور الحيّة لهذا الانقسام، العائد بدوره إلى الانقسام الوطني اللبناني حول وصاية النظام السوري، المرتبط برعاية هذا النظام لحزب الله، وإلى دور هذا الحزب في حماية ذاك النظام عسكريًا بدءًا من العام الثاني للانتفاضة، وهو موقف غذّى السجال المقصود في دراستي. «تاريخ» طويل نسبيًا، سبق الانتفاضة السورية بعشر سنوات على الأقل: قبيل اغتيال رفيق الحريري (1944-2005)[1]، في عام 2005، وانسحاب الجيش السوري من لبنان في العام نفسه، ورسو الانقسام الوطني حول سلاح حزب الله، وكل ما تبع هذه المحطات من أحداث، خصوصًا حرب تموز/

يوليو 2006، وما نجم عنها من تكريس الانقسام عبر معسكرين كبيرين، تُقاس بهما أدنى الخلافات إلى أعظمها، أو حتى الاختلافات الهامشية، أي بقليل من الاختزال والتبسيط، محور «قوى 8 آذار»، وقد سمي محور الممانعة، المؤيد لحزب الله والنظام السوري والجمهورية الإسلامية الإيرانية، والمحور المعادي له، «قوى 14 آذار»، المدعوم من دول عربية خليجية، فضلًا عن الولايات المتحدة الأميركية وأوروبا.

الآن: ما المقصود باليسار اللبناني؟ إنه موزاييك، فسيفساء بالمعنى المجازي للكلمة، تتكوّن من مكعبات صغيرة، غير متساوية الحجم، ومن أحجار كريمة ونصف كريمة، ذات ألوان مختلفة، وترتسم أحيانًا بتصاميم معيّنة. ومثل الموزاييك يشكّل اليسار اللبناني مشهدًا عامًا، ليس بالضرورة متصدرًا المشاهد الأخرى، أو أكثر حيوية منها، لكنه موجود. يكفي أن تستدعيه ليحيا على جوانب أحزاب أو جمعيات أو شخصيات أو تكتلات؛ تاريخية أو مستحدثة، أو حاملة الاسم، كمن يحمل إرثًا، عزيزًا أو مُهانًا. هناك أولًا اليساريون القدماء (الإكس يساري)، منهم «شخصيات» ما زالت تعتزّ بلقبها الغابر، تقدم نفسها على أساسه.

ومن بين هؤلاء القدماء، هناك، أيضًا، المتبرئ تمامًا من ماضيه، غير المتفاخر به، وهناك المتشدّد بعقيدته اليسارية، يحاول أن يطورها أو يؤهلها أو يحمل المعول لهدم أي هيكل يخالف قواعدها، يتفرع منهم من ارتضوا بالنهايات السعيدة، بأن صعدوا إلى مراتب غير دنيوية، واستشيخوا، فصاروا إسلاميين، ثم الأعضاء الذين ما زالوا ملتزمين بأحزابهم اليسارية، مثل التروتسكيين، وجماعات تابعة لهذه الشخصية اليسارية أو تلك، والتي تحمل أسماء شعبية، أو تابعة للشعب، وقد دُرج على تسميتها «دكاكين يسارية»، فضلًا عن مجموعات تعمل في المنظمات غير الحكومية (NGOs)، لها قضية محددة، مثل المرأة أو البيئة أو المثلية الجنسية؛ لها «صبغة» يسارية أو وجهة يسارية أو خيط يساري في التفكير، ربما لا تعرف هي نفسها من أين وصل إليها هذا الخيط. والنفحة نفسها يمكن أن تخمّنها في كلام أعضاء في «المجتمع المدني» وسلوكهم، خصوصًا أولئك الذين اشتركوا في الانتخابات البلدية الأخيرتَين، والكهول منهم أكثر من الشباب.

المهم: إن اليسار رغم تبعثره هذا، أو ربما بفضله، ليس غائبًا في الكلمات أو في المعاني. صحيح أن أيام الطوبى اليسارية قد ولّت، وأصبحت ماضيًا مرسلًا، فانصرف عنها أهلها منذ زمن، وغدت لبعضهم حالة نوستالجيا. صحيح أيضًا أننا لم نَعُد كما كنا في الستينيات والسبعينيات منقسمين بين قطبين صريحَين، بين مشروعَين واضحَين بالعداء بعضهما لبعض: اليمين واليسار، وأن لا وجود ليسار من دون يمين أيضًا، وأن صفة «مناضل» تراجعت حثيثًا أمام صفة «ناشط»، وعلى خطاهما سارت كلمات كثيرة، فيما باتت الصفة اليسارية تُختزل ببعض الشعارات الموروثة، وإلى ما هنالك من علامات الموت، لكن هذا الموت بقي سريريًا، أي إن نصفه على الأقل ما زال حيًّا. ومن علامات هذه الحياة جانبها الرمزي، فمن الرمزية لا يزال اليسار يمتلك الكثير، خصوصًا إذا أخذت الميدان اللبناني بصفته مشهدًا: تُعِدّ من أجل خشبته أدوارًا من وراء الكواليس، ومن أمامها، ويخرجها تقنيون يساريون على درجة عالية من الاحتراف. من هنا ربما يمكن أن تفهم كثرة «المبادرات» المطروحة لإعادة بناء، أو تأسيس، أو استنهاض اليسار من جديد، وهي لا تُحصى، ولا يضيق بها نصف الموت ونصف الحياة.

وهذا المشهد تصعب لَمْلمته، وربما لا يستحق اللملمة لكثرة الأحجار والألوان والأحجام في الموزاييك الذي يشكله، ولتواضع أثره في المجال الذي يستهدفه، لذلك اخترتُ أن أحصره في حزبين شيوعيين هما الحزب الشيوعي اللبناني، ومنظمة العمل الشيوعي.

لماذا هذان الاثنان؟ لأنهما يملكان إطارًا محددًا، هو البنية الداخلية الحزبية. تهالكت هذه البنية على مرحلة نشأتها، تراخت حبالها بفعل الانشقاقات، تقلصت جماهيريتها وفاعليتها، وكيلت في حق قادتها و«مركزيتهم» شتى النعوت، وفرغت من كوادرها الحية لصالح أحزاب طائفية. لكن بقي الإطار، وبقي التاريخ الخاص، وبقيت الشخصيات والمؤتمرات، وإن بتفاوت بين الحزب والمنظمة، لصالح الحزب، عدّةً وانتشارًا ونشاطًا. بقيت «المؤسسة» على تكوينها الأولي، وبقيت مرجعيتها الأيديولوجية على ما كانت عليه في بداية حياتها رغم المراجعات. كرّست «أمينين عامين» تاريخيين: محسن إبراهيم، وجورج حاوي، وصار لها تاريخ يُروى، المشرق منه والمعتم، تاريخ لوجوهها ومواقعها وصدماتها، وقصص شبه خيالية عن خياناتها ووفائها وأصالتها وانكماشها وتنكرها لمبادئها. والذين تركوا هذين الحزبين إلى طوائفهم، أو إلى غيرها من المستَقَرّات، يحملون في ذاكرتهم على الأقل موضوعات وخيارات وكلمات لا يمكن أن يتنكروا لها إلا بالفطنة والإرادوية.

وإذا أردتَ تجسيدًا لهذه الميزات، بعدما ضمرت وخفتَ وهجها، إليك محسن إبراهيم، الأمين العام الأول والأخير لمنظمة العمل الشيوعي، الذي يتكلم على مقومات المنظمة «الذاتية»، إنها: «الوزن الرمزي لاسم المنظمة، والذي يستحضر موقعها التاريخي [...] الكتلة الحزبية [التي] تناقصت عددًا [ولكنها] ما زالت صامدة [...] الدور القيادي المتميز للأمين العام لمنظمة العمل الشيوعي في لبنان في تاريخ اليسار اللبناني نشأة ونهضة»[2].

ثانيًا: تبلور الموضوع

في البداية أخذتُ أجمع المقالات التي تتساجل مع غيرها حول سلاح حزب الله، وحول الدور السوري والممانعة، وحول الانتفاضة السورية، والمحاور التي تقابلها. وكان الاستنتاج الأولي الذي بلغته وقتها أن هناك أولويتين بين المختصِمين: الأولى، الذاهب إلى تأييد المحور الممانع كان يعطي في حيز نصه، أو ضمنه أو في خلفيته، أولوية شبه مطلقة للصراع مع الإمبريالية والصهيونية، في حين تنْصبُّ أولوية الثاني على محاربة الاستبداد. طبعًا، لا يخلو هذا التقسيم من تلاوين بانت في تفاصيل الموقف أيضًا. وغالبًا ما يكون «المتلوّنون»، أصحاب الغَمْغمة، هم المترددين في حساب «موازين القوى»: لم يقرروا بعد من يكون الأقوى من المعسكرين، قبل أن يستغنوا عن الغمغمات ويصبح كلامهم معلومًا واضحًا.

لكن مع الاستمرار في قراءة هذه النصوص بدا شيئًا فشيئًا أنها تفتقد دسامة المواقف الحيّة. كثرة الكلام وكثرة الكتابة لم تحجبا، بل ربما شجعتا تكرارًا يخفي أشياء أخرى. السؤال الذي شغلني في لحظتها: ما الذي يجعل الكاتب ينحاز إلى هذه أو تلك من الأولويات؟ كنت أوجه هذا السؤال إلى نفسي وإلى الذين قابلتهم لغرض الدراسة. والإجابات كانت تراوح بين الهزلي والذاتي والطائفي، بل حتى التافه من الأسباب، وكلها كانت أسبابًا حقيقية، نسبيًا، جزئيًا. من جهة أخرى، بعد المراكمة والتدقيق والتحليل الأولي، ومراقبة التفاعل بين أصحاب المواقف، بدا لي أن حب التعبير المسترسل لدى أصحابها أقوى من إرادة بلورته؛ أقوى من حب التغيير، فالحجج أو الذرائع، بحسب ما يكون الموقف أو المعسكر، تتكرر على امتداد

العقدين الأخيرين اللذين شهدا مقدمات السجال الانقسامي، ولم يطرأ على هذه الحجج إضافة أو اختراق يُذكر. لم يحصل أي تراكم، لا معرفي، ولا سياسي نتيجةً لهذه النصوص، نصوص عنيفة وصفتْ بـ «الردح» أحيانًا. ومبعث الردح الغضب، وأداته اشتباك لفظي شرس، يجذب الانتباه كأنه فرجة للفضوليين. إنه مشهد أكثر من شيء آخر، وكلامه فيه إهانة وشتيمة وتحقير واستصغار لعقل الخصم؛ كل هذا قبل أن يصل إلى التخوين والاتهامات بالعمالة للعدو. بعد وقت من انكبابي على هذه النصوص «الردحية»، قررت أن السجال الذي أبحث فيه لا يستحق إلا حيزًا ضيقًا من دراستي. عقمه لا يشجع على التوغل في تفاصيله، فأخذت أفكر في الذي جعله هكذا بلا بريق، بلا تفاعل، بلا أخذ ورد حقيقيّين، بلا تطوير للحجة أو العلّة.

أيكون الواقع القاسي هو الذي أذكى ذاك الهلاك في النصوص، أم ضحالة هذا الواقع الذي لا يثمر غير مراوحات ودوران حول النفس؟ أم برانية ديناميكيته، وتغرّب اللبنانيين أنفسهم عن ذواتهم؟ لا يملكون القرار؟ لا عن طوائفهم، ولا عن القوى الإقليمية الصانعة لحدثهم؟ هل هو واقع يبخل في توفير مجالات للتغيير، مهما كان ثانويًا؟ حتى في أوساط «مجتمع مدني» يفترض أنه محصّن من الصراعات السياسية المباشرة، والذي فشل فشلًا ذريعًا في تحريك قضايا ملحّة متراكمة، طال ركودها فاهترأت، أم أن السلطات القائمة نجحت في احتكار التحريك وضبطه ومصادرته وتثميره شعبيًا عند اللزوم؟ أم أنها تفتقد إرادة ذاتية، إلى قوة جوانية، روحية أكاد أقول، تخلق الديناميكية المطلوبة، سواء في هذا الاتجاه أو ذاك؟ أم أنه طغيان فراغ الكلمة، وغربتها هي أيضًا عن مضمونها؟

وتُحيلك هذه الوجوه كلها من السجال إلى طرح إمكانية التغيير من خلال الأفكار، من عدم إمكانيته، ومن ثمّ انعدام «البراكسيس»؛ تلك العلاقة الحيّة القائمة بين الفكر السياسي والواقع المطلوب تغييره، ذاك الطموح الجارف الذي كان يرطن به هؤلاء اليساريون، ليؤكدوا صحة خطهم الحزبي، لتوهّم الخروج من الإحباط إلى الأمل، وانعدام «البراكسيس» من انعدام السياسة في لبنان، من تفريغ معناها، من افتقار ساحتها إلى أي ثغرة يمكن أن تنفذ نحو تغيير. ولطالما كان هذا الاستنتاج، غير الجديد، يحيلك، بخياله الخصب، إلى مرحلة «ازدهار البراكسيس»، في ستينيات القرن الماضي وسبعينياته. ولكن هل كانت تلك المرحلة تحمل طاقات تغييرية فعلًا، أم أن حملها كان كاذبًا؟

الآن، ثمة عنصر آخر يؤدي دوره في تحويل السجال المدروس إلى مادة خائبة. إنه العلاقة القائمة بين المثقفين والكتاب أنفسهم؛ علاقة تجاهل، لا تفاعل، علاقة سلبية لا إيجابية، حتى بين الأقلام غير المتخاصمة. يصفها المؤرخ اللبناني أحمد بيضون، فيتكلم على التغافل الذي يتعرّض له أحد أبرز الباحثين اللبنانيين، وضاح شرارة؛ إذ يقول: «عند طرف الميدان الذي يرسم معالمه كُتاب السياسة اللبنانية – أفرادًا وهيئات – يقف وضاح شرارة وحده في وحشة الخازوق. يسرح بصره في سكان الميدان ويقول، بإسهاب، إن ثمة خللًا هنا وهناك في هندام القوم [...]. ويذهب الظن أول وهلة إلى أنهم لا يرون الواقف إلى جانبهم أيضًا، فلا أحد يردّ عليه ولا يبدو على أحد أنه يسمعه، ولكن نصيب التصنّع في هذا الإغفال سرعان ما يظهر [...]، فلا يندر أن تقع على فارس من الصف الأول يقول – في مجلس خاص طبعًا – إن وضاح شرارة كان على حق في شأن كذا [...] أو تقع على رجل في الصف الأخير، لم يقرأ لوضاح شرارة، يفرغ الكأس ويردد، في صدد

المذكور، فتاوى مالك [...] هو إذن خواء السياسة في لبنان من أية [...] àعلاقة جدلية’ [...] اللغات اللبنانية أسوار، لا مطمح لأحد في الاقتراب من آخر – عبر الجدل – أو في تقريبه»[3].

مثلٌ آخر، هو ذاك الذي يورده ملحم شاوول عن «مفارقة» السجال الذي انطلق في ثمانينيات القرن الماضي، في نهاية الحرب الأهلية، حول «مفهوم الديمقراطية اللبنانية ومبادئها»، والذي تجسَّد قسم بسيط منه في «اتفاق الطائف»، فيلاحظ أن هذا المفهوم «لم يكن له أي أثر في الدورات الانتخابية [في التسعينيات]، ولم نشاهد أي انعكاس للجهد النظري حول النظام اللبناني لابتكار مفاهيم جديدة في قوانين الاقتراع وآلية الممارسة الانتخابية»[4].

وقد يكون عقم السجالات من صميم التقاليد اللبنانية. لا تنتهي إلى شيء، تجْمد عند حججها، تُنبذ أو تُنسى، أو تصبح عناوينها «قضية تاريخية» تصادرها الجماعات الطائفية لحسابها، بغية «تأكيد حقيقة أساطيرها المؤسسة»[5]. وهي «الحقائق» التي تمنح دوام الحياة لعصبية الجماعة الطائفية، وتشدّ أزرها بالمعاني المختلَف عليها مع بقية المكونات الطائفية الأخرى.

مرة ثانية، كانت فرضيتي بشأن النصوص السجالية التي انكببتُ عليها، أن السجال ربما ينطوي على برنامج أو رؤية أو حتى فكرة. كنت أحاول سبر أغوار هذه «الديناميكية الفكرية»؛ إذ كنت أراها كذلك، بصفتها تملأ سطور المواقع أو المجلات أو حتى الكتب، وتحدث ضجة لا تلبث أن تخبو برهةً لتعود مكلّلة بضجيج حدث أو موقف. كنتُ أطمح أيضًا إلى دراستها كخطب تتوسل التحليل على أنواعه، بالذي اخترت منه، وبالذي استبعدتُ، لكنني توقفتُ عن هذا حينما شعرتُ بعدم الجدوى، وهذا ليس انتقاصًا من أصحاب النصوص، وأنا منهم؛ إذ شاركتُ في الكتابة حول نوعية هذه «الخيارات»، وكنت منحازة إلى المحور الذي وصفتُه بالداعي إلى أولوية محاربة الاستبداد. وحينما عدتُ إلى نصوصي هذه، وجدتُ أنه ينبغي ألّا أعفيها من الوصف ذاته الذي رأيته في نصوص زملائي: الدوَران حول الحلقة نفسها، من دون أي «خرق» لها؛ لا يهدي إليها واقعًا جديدًا ولا يخلق معها أفكارًا تحاكيه.

هنا أيضًا غيرتُ وجهة دراستي، فبما أن الديناميكيات المطلوبة مسحوبة من عقل أصحاب النصوص السجالية، حتى لو بدت لوهلة أنها نتيجة «إرادتهم»، وبما أنها، أي النصوص، تستمد مرجعيتها سلبيًا أو إيجابيًا من ذاك العصر والموصوف بـ «الذهبي»؛ منه يستمد أصحاب أولوية محاربة الصهيونية والإمبريالية جذور شرعيتهم، في حين يأخذ على هذا «العصر الذهبي» أصحاب الأولوية النقيض، الذين يرون في تجاربه طليعة انكسار مشروعهم للحرية، وبما أنني مهتمة بعمق التكوين الفكري لأصحاب النصوص، وبما أن أصحاب النصوص كانوا في غالبيتهم، كما سنرى، شبابًا وراشدين ومنخرطين بقوة في ذاك العصر، فقد ارتأيت تتبُّع المواقف من أولها. كيف يتكوّن الموقف السياسي؟ أو بالأحرى كيف تكوّنت المواقف السياسية في ذاك العصر؟ وكيف تطورت؟ ما سياقاتها؟ ما القوى الحيوية التي صاغتها أو تغيرت أو انشقت عنها أو نقدتها؟ كيف بلغت الآن ما بلغته، سواء بالضد مع هذه التجربة أو معها؟

ثم اخترتُ حزيران/يونيو 1967 نقطة انطلاق لوصف هذه المسارات: عشية تلك الحرب، بُعيدها، وما تلاها من مراحل شديدة النشاط والحركة، وذات الأحداث المجلجلة. سوف أعود في الفصل الثاني إلى حيثيات هذا الخيار.

والفكرة هي أن نعيب عصرنا الحالي، بصفاته الكثيرة، التي لا تعِدنا بأي تغيير ممكن، بصفته فاقدًا مكونات «البراكسيس»، لا يصمد أمام فكرة متداولة: أن التغيير كان ممكنًا في ذاك «العصر الذهبي»، ستينيات القرن الماضي وسبعينياته، وما أفضت إليه من حرب أهلية. ففي تلك العقود، بدا التغيير ممكنًا فعلًا، بل في متَناول اليد. والتغيير المطلوب لم يتحقق طبعًا، كما تبين لاحقًا. لذلك، لم يكن الفرقُ بين الآن وذاك العصر، «الذهبي»، إمكانيةَ التغيير التي يُحزن كثيرين أنهم لم «يلتقطوها»؛ فشلوا في التقاطها. إنما الفرق أنه كان هناك أمل في التغيير، مجرد أمل، هو الذي أدخل إلى عقول اليساريين فكرة إمكانية التغيير. طبعًا من السهل هجاء تلك المرحلة وكشف سواترها بعد انقضائها، فهذا ليس سرًّا، بل متَداول بقوة. ويكفي أن تنظر إلى من حكم بعد نهاية الحرب لتخلص إلى استنتاج فشلها، ولكن وصف هذا الوهم، الذي ما زال ينبض، هو الذي ستنكب عليه الدراسة، لتحاول تبيان آلياته وجوانبه المهملة. هكذا، تراجع الغرض الأول من الدراسة، أي السجال في حد ذاته، لصالح السياق الذي أنتجه وكوّنه.

ثالثًا: اليساريون المعنيون بالتجربة

اليساريون الذين قصدتهم منتمون، أو كانوا منتمين، إلى منظمة العمل الشيوعي والحزب الشيوعي، وهم مثقفون بالمعنى الأوسع، أي إنهم لا يتصدرون جميعهم المشهد الثقافي، ولا يُعترف بهم لدى حلقة النخبة منهم؛ نخبة النخبة. والاعتراف في هذا الوسط عزيز ونادر، كما رأينا. بعضهم، إذًا، يكتب منذ عقود، معروف بإصداراته، وبعضهم صار مرجعًا، بينما تأخر الآخر في الكتابة، ولكنه التحق بركبها. بعضهم أصدر كتبًا، ويستمر في الكتابة في المواقع والصحف أيضًا، في حين يكتب الآخر في نشرات داخلية أو مواقع ليست على قدر انتشار سابقتها، والأخير بين البيْنَين، يتنقل بين المنشور المحدود، والآخر الأكثر ذيوعًا، مثل التعليق على مواقع التواصل. أخيرًا: لا يساهم الجميع بصورة مباشرة في السجال الحاصل بين «الأنتي إمبريالي» و«الأنتي استبدادي». منهم من بات اسمه شائعًا بين المتساجلين، ومناوشات بينه وبين خصومه، يقف على خط النار الأول، ومنهم من يتدخل موسميًا في السجال، لكن إنتاجه كله يشي بموقفه، من دون أن يصوغه، بالضرورة، صياغة متكاملة، على أنّ الجميع هنا متدخِّل في السجال، بطريقة ما.

وهؤلاء اليساريون الذين قابلتهم، أو سعيت إلى مقابلتهم، أعرفهم جميعًا ويعرفونني. أعضاء في منظمة العمل الشيوعي، ومنهم من كانوا رفاقي لعقد ونصف عقد من الزمن. أما أعضاء الحزب الشيوعي، فمنهم من كان زميلًا لي في الجامعة اللبنانية، ومنهم من رافقني في التظاهرات والنشاطات وانتخابات مندوبي الطلاب إلى الاتحاد الوطني لطلاب الجامعة اللبنانية التي حفلت بها كليتنا، «كلية التربية»، عشية اندلاع الحرب الأهلية. هل هذا «التموضع» كان مرسومًا في اللاوعي؟ في بعض جوانبه نعم، ولكن في الآخر كان حتميًا. وهذا ما لاحظته خصوصًا عند تدقيقي في أعمار هؤلاء اليساريين؛ إذ تبيّن لي أن الكتلة الكبرى من بينهم تقع سنوات ولادتهم بين العامين 1950 و1954، أي التاريخ الأقرب إلى ولادتي (1952).

سأعود إلى نقطة الأجيال لاحقًا، وأود الآن قبل الشروع في تلك التفاصيل أن أروي الجوانب «السلبية» عن أولى المقابلات. في هذه البدايات، اعتمدتُ على هاتفي لتسجيلها، ولكن جهلي بالتكنولوجيا أضاعها كلها. قمتُ بمحاولات

حثيثة لاسترجاعها بمساعدة تقنيين محترفين، ولكنني لم أفلح، فقررتُ اعتماد آلة تسجيل متطورة، وأن أتمرّن على تشغيلها قبل الشروع في المقابلات. ثم عاودتُ الاتصال بالمعنيين بغية إعادة المقابلة من جديد؛ واحدٌ فقط من بينهم استجاب لتكرارها، أمّا الباقون فلم يردوا أصلًا على اتصالي بالهاتف. ولكن الآلة الجديدة المتطورة لم تسعفني أيضًا. حملتها لمقابلة الفنان زياد الرحباني، بصفته «شيوعيًا»، كما يعلن دائمًا، يتفاعل مع الحزب الشيوعي ويشارك في فعالياته ونشاطاته، ويكتب موسميًا في صحيفة **الأخبار** الممانعة. الآلة الجديدة أعجبته، وراح «يضبط» أزرارها، قبل الشروع في المقابلة. والنتيجة أن هذه المقابلة غابت عن الشريط كليًا، وكأنها لم تحصل، فعدتُ واستجمعتُ شجاعتي، وعوّلتُ على إعادة المقابلة، ولكن الرحباني كان في هذه الأثناء قد أصيب بوعكة صحية. كل هذه المنغّصات كانت حصيلتها خسارة أكيدة للدراسة. وعِبْرتها أنّ على من يتعامل مع التكنولوجيا أن يتحلّى بمعرفة عميقة بآلياتها، وبصبر، وإلا فهو مهدَّد بإضاعة وقته وجهده.

رواية أخرى عن هذه البدايات، من باب أنثروبولوجي بَحت: كان يفترض أن تبلغ قائمة الأسماء التي قابلتها ضعف ما رسَت عليه الآن (42 مقابلة)، لكن المجريات لم تسعفني، وقوبل طلبي للمقابلة بأنواع شتى من الردود، تستحق السرد. كان من الطبيعي أن يكون موقفي المنحاز إلى المعسكر «الأنتي استبدادي»، ذريعة، أو سببًا حقيقيًا، لدى أصحاب الموقف النقيض، لرفض التكلم معي في الأساس. حينما حاولتُ الاتصال بالأسماء التي أعرفها كنت أتسلح بهدوء من يتوقع الرفض، لكن نادرًا ما قوبلت بالرفض، وبالتحديد مرتين أو ثلاثًا؛ إذ لبّى أعتى الممانعين طلب اللقاء معي، في حين حضر آخر إلى الموعد بنية عدم التكلم، والتنديد بموقفي المعادي لحزب الله، وبـ «سنّيتي»، البديهية بالنسبة إليه، نظرًا إلى اسم عائلتي؛ ما اضطرني إلى أن أردّ عليه، بدليل لا يروقني، ولكنه قوي: قلت له إنه لا يعقل أن أكون «سنّية»، فأنا نصف سنية نصف شيعية، وإنني شيعية الهوى منذ طفولتي، وإن أول كلمة تعلمتها بالعربية كانت «بنت المتوالية»[6]، وهذا «دليل» استحسنه رفيقي السابق، إلى حدّ أنه «تكلّم» في النهاية.

وهذا رفضٌ آخر مع مثقف «بارز»، لستُ على خلاف محدّد معه، ردّ عليّ بعد أيام على طلبي، عبر رسالة نصية، يسألني فيها، ممهّدًا لرفضه: «لماذا تضيّعين وقتك بمواضيع خشبية صارت حديدية؟». فوجئت بالجواب وبعد استفسار، فهمتُ أنه يقصد مقالًا، نسيته تمامًا، كتبته منذ سنوات معلّقة بسخرية، ربما مبالَغ فيها، على ما نشره هو في أحد المواقع، فأجبته بأن اللقاء بيني وبينه يمكن أن يساعدني أكثر على فهم مواقفه، فكان جوابه بأنه لا يحتاج إلى «واحدة مثلي» تفهم آراءه، قائلًا باعتزاز: «عندي مئات الصفحات [...] وأنا أشتغل الآن على كتاب جديد»، ففهمتُ هذه الآراء فعلًا وشكرته.

مثقفة «قيادية سابقة» أخرى وافقت على مقابلتي، ولكنها صدّتني أثناء اللقاء، بإعلانها بفظاظة اعتذرت عنها لاحقًا أنها لن تتكلم معي على تجربتها الحزبية. لماذا؟ لأن كتابي، **سنوات السعادة الثورية**، عن سيرتي الحزبية لم يعجبها. حسنًا، وما الذي لم يعجبك يا رفيقة؟ أشياء لم ترد في الكتاب أصلًا، وأشياء واردة في كتاب آخر لي، **دفاتر الحرب الأهلية**. ولما طلبتُ منها مزيدًا من التوضيح، قالت إن أكثر ما نفّرها، وكاد يجنّنها، هو الفصل الذي كتبته عن كلية التربية. عندها، سألتها بلؤم إن كانت عرفت هي كلية التربية، أو كانت طالبة فيها، أو زارتها ذات يوم، أو كانت عضوًا في مجلس فرعها،

أو في الاتحاد الوطني لطلاب الجامعة اللبنانية. بعد صمت، أخذت هذه القيادية تفهمني بأنها لن تتكلم على تجربتها الحزبية، لن تدونها، وأنها اتفقت مع «قياديين» آخرين على ذلك.

ينبغي لي أن أوضح هنا، بخصوص هذين المثقفَين تحديدًا، فأقول إنهما كانا في منظمة العمل الشيوعي، وإنهما صعدا باكرًا إلى مواقع قيادية في هذه المنظمة، في حين أنني لست سوى رفيقة متوسطة الرتبة، أقصى ما بلغته هو «المِنطقية»، الواقعة بين الخلايا وهيئات القطاع من جهة، واللجنة المركزية والمكتب السياسي من جهة أخرى. وحينما نويتُ مقابلة هذين الرفيقين السابقَين لم يكن في ذهني أنهما ما زالا يعيشان في الماضي، على الأقل بهذه العلنية والوضوح. كانت قد مرّت سنوات عديدة على انقطاعي عنهما، وافترضتُ، أو أردتُ الافتراض، أننا كبرنا على التكبّر «القيادي» الآفل، ولكن كلّا: إنهم ما زال أمثالهما «قياديين» كما كانوا منذ عقود، وما زالوا يعاملون من لم «يبلغ» رتبتهم معاملة من هو «أدنى» منهم جاهًا.

خرجتُ من هاتين «الواقعتين»، تحديدًا، منزعجة ومتأملة في حالي، ولُمت نفسي على اندفاعتي، ولكنني في الآن عينه مرتاحة إلى أنني لم أكن قيادية ذات يوم، ولم أضطر إلى المحافظة على هذا اللقب طوال ما تبقى من حياتي، لكي أعطيها معنى، فيكون الأخير عدو كل المعاني الأخرى، عدوًّا لحريتي الداخلية.

كان الرفاق الباقون أقل إشكالية، منهم من أجاب رافضًا بتهذيب والدعاء بالتوفيق، ومنهم من خاف على نفسه، كونه يسكن في حيّ تسيطر عليه أمنيًا حركة أمل، حليفة حزب الله، ومنهم من تجاهل طلبي، ومنهم من راوغ، قبِل ولم يقبل، أو ضرب موعدًا للاتصال ثانية، ولم يتصل أو لم يردّ على اتصال. وهكذا، حتى فهمت، متأخرة، أو إنني لم أرغب في الفهم منعًا لإخفاق فرصة اللقاء. أما رفاق الحزب الشيوعي، فكانوا على «حيادية» القريب البعيد، اثنان منهم فقط لم أبلغ غرضي منهما: الأول لم يجب أصلًا عن طلبي، عبر رسالة آلية على «فيسبوك» حيث ينشط ليل نهار، مع أنه زميل سابق في كلية التربية نفسها، والآخر حدّد موعدًا للقاء في مقهى ولم يحضر. أمّا زياد ماجد، فكانت المقابلة معه نصف محقّقة، بسبب انهماكه في السفر.

ثلاثة من هؤلاء الرفاق كان جوابهم بلسان القدر: الأول جورج ناصيف، الذي اكتشفتُ، وأنا أسعى للاتصال به، أنه يقضي أيامًا صعبة بشأن صحته، وأنه لا يستطيع الكلام أصلًا[7]. والثاني الأمين العام لمنظمة العمل الشيوعي، محسن إبراهيم، الذي رفض الحديث لأسباب تتعلق بمتاعب صحية أيضًا، وتقدمه في السن. وقد تأكد عذره بغيابه عن التعزية بوفاة الرفيق الثالث، خالد غزال، الذي خطفه الموت بسرعة، في شباط/فبراير 2019، فلم أوفّق بمقابلة هؤلاء الثلاثة. أربعة أسماء أخرى كان يمكن، لولا الموت أيضًا، أن تغني اللائحة: سمير فرنجية (1945–2017)، وسليمان تقي الدين (1947–2015)، وسمير قصير (1960–2005)[8]، وجورج البطل (1930–2016). الأولان كانت لهما تجربتان متفاوتتا المدة والشكل مع منظمة العمل الشيوعي، في حين كانت للأخيرين تجربتان متفاوتتان، أيضًا، مع الحزب الشيوعي اللبناني، لكن كتبهم ستغذي بعض مراحل الدراسة، كما ستغذيها ما كتبه رفاق آخرون سواء أُجريت معهم المقابلة أو لو تُجرَ.

هنا يجدر التوقف قليلًا؛ فمن بين الذين قابلتهم من كتب سيرته الذاتية، أو جزءًا منها، عبر السرد المباشر أو الرواية. إنهم حازم صاغية وحسام عيتاني وعباس بيضون وأحمد بيضون ووضاح شرارة. ومن هذه الفئة التي قابلتها، أيضًا، من جمع نصوصًا بيوغرافية لجورج حاوي (يوسف مرتضى، ومصطفى أحمد). وأخيرًا، من الفئة نفسها من أعطى شهادته لباحثين لبنانيين هما فريد الخازن وحسين يعقوب، ولباحث فرنسي هو نيكولا دوت بويار (Nicolas Dot-Pouillard)، ولأصحاب أطروحتَي دكتوراه: واحدة بالإنكليزية لفادي بردويل، والأخرى بالفرنسية لأنييس فافييه (Agnes Favier)، وهُم وضاح شرارة وأحمد بيضون وعباس بيضون ومحمود سويد، فضلًا عن سعود المولى الذي لم أقابله. الآن، بالنسبة إلى هذه الفئة الأخيرة التي لم أقابلها، أو التي امّحت المقابلة معها، هناك كتاب سيرة ذاتية لفواز طرابلسي، ومقدمة كتاب توفيق الهندي، وجزء من كتاب سليمان تقي الدين، وكتاب جورج البطل (حاوره فواز طرابلسي)، وكتيبات لسعود المولى وبلال خبيز، فضلًا عن مقال مطول لسعود المولى.

أما الذين قابلتهم، فلم يمانعوا في غالبيتهم بشأن نشر أسمائهم، لكنّ اثنين من بين اليساريين المعنيين طلبا عدم ذكر اسميهما صراحة،، وثمة اسم ثالث معروف إعلاميًا باسم آخر يوقع به مقالاته وكتبه، إنه كمال حمدان، المعروف بكمال هاني، في حين هناك من تراجع عن أقوال محدّدة، وطلب عدم إيرادها، وهي تتعلق بأشخاص بعينهم، أو تراجع كليًّا عن المقابلة بأسرها وطلب عدم نشرها، واعتماد كتاب سوف يصدر في غضون أيام، وهو ما لم يحدث حتى الآن.

هل تأثرت خياراتي للأسماء بتاريخي ومعرفتي المسبقة، القريبة والبعيدة، بهؤلاء الأشخاص؟ هل ثمة معنيون بالموضوع كانوا يستحقون أن أقابلهم، لم يخطروا في بالي، أو لا أعرفهم أصلًا، أو غضضْتُ الطرف عنهم لسبب من الأسباب، أعيه بنصف وعي؟ الأرجح نعم، وهذا ما يجعل لائحة الأسماء أقرب إلى العينة العشوائية، خصوصًا أن المقابلات كانت نصف مفتوحة، ولم يكن هناك إجماع على التجاوب مع الأسئلة التي تتضمنها، أو كانت إجابة عن أسئلة تدور في عقل المستجيب وحده، أو حساسية مفرطة إزاء بعض النواحي من الحديث. وقوام هذه الأسئلة: ما الذي أخذك إلى هذه المنظمة أو ذاك الحزب؟ ما الذي جعلك تستمر فيه، أو تنشقّ عنه، أو تتركه؟

رابعًا: ملاحظات متعلقة بلائحة اليساريين المعنيين بالتجربة

1. الأجيال وشرائح الأعمار

تضم اللائحة، إذًا، 42 اسمًا. وتتوزع هذه الأسماء بين أجيال تراوح تواريخ ولاداتها بين عامَي 1929 و1977، وقد قسمتها إلى ستة أجيال، تبعًا لشريحة جيلية تمتد عشر سنوات فحسب. غسان الرفاعي هو عميد هذه اللائحة (ولد عام 1929)، ووسام سعادة هو «الابن الأصغر» (ولد عام 1977).

وقبل الشروع في الشرائح الست هذه، لا بد من رواية قصة عميدها، غسان الرفاعي: أصله عراقي، كان شيوعيًا قبل المجيء إلى لبنان للدراسة في الجامعة الأميركية حاملًا معه تجربة الانتفاضة الشيوعية ضد الملكية. ورقة مكتوب فيها عنوان تظاهرة قررت مصيره، كيف؟ دخل الحزب الشيوعي اللبناني طبعًا بعد وصوله إلى بيروت، واشترك في نشاطاته، واحد منها كان تظاهرة وطنية في منطقة الأونيسكو، في أربعينيات القرن الماضي، في ظل حكومة رياض الصلح (1894-1951)[2]. لم

يكن الرفاعي قد أَلِفَ الشوارع البيروتية بعد، فاضطر الرفاق إلى أن يرسموا له العنوان على ورقة وضعها في جيبه. ولما وصل إلى منطقة الأونيسكو، وجد رجال الأمن يحيطون بالمنطقة، فاضطرب قليلًا ووضع يده على الورقة التي في جيبه، تحسَّسَها، وأخرجها بعصبية، ليعيدها بشكل خاطف. في تلك الثواني تحديدًا، رآه صبي كان يتفرّج على ما يجري بين رجال الأمن والمتظاهرين المحتَملين، فوشى به إلى أحد رجال الأمن، الذي سارع إلى انتزاع الورقة من جيب غسان، فكانت دليل «الجريمة». هكذا جُلب إلى السجن، فاعتقال وتحقيق. وبعد خروجه من السجن قرر ألا يعود إلى العراق، لأنه صار شيوعيًا مكشوفًا، وأن ينغمس في العمل السري للحزب الشيوعي اللبناني، ليصبح أكثر قياداته السرية انضباطًا وقدرة على التنظير.

قطعة من الورق قررت مصيره. كان يمكن ألا يضطرب غسان عند رؤيته رجال الأمن، فلا يمد يده إلى جيبه ويسحب الورقة، ويعيدها بغتة. كان يمكن ألا يراه الصبي الواشي وهو يسحب الورقة من جيبه. وكان يمكن أن يراه ولا يشي به. وكان يمكن أن تصل الوشاية إلى رجال الأمن، فيعطفون عليه وعلى صغر سنّه ولا يعتقلونه. كان يمكن أن يكون العراق أكثر رحمة تجاه شيوعيِّيه، فلا غضاضة وقتها من عودته إليه بعد سجنه، بل كان يمكن أن ينتصر الشيوعيون سنتها، فيعود إلى بلاده مكلّلًا بتجربة حزبية لبنانية. ورقة تافهة قررت مصيره وأغرقته في العمل السري، وقد تكون حرمته، بصفته عراقيًا في حزب لبناني، فرصة تبوُّؤ مراتب قيادية أعلى من مكتب سياسي ولجنة مركزية.

شرائح الأعمار إذًا:

1. 1920–1929، تضم: غسان الرفاعي (1929).
2. 1930–1939، تضم: كريم مروة (1930)، محمد كشلي (1936)، محمود سويد (1936)، محسن إبراهيم (1935).
3. 1940–1949، تضم: نهاد حشيشو (1941)، وضاح شرارة (1942)، أحمد بيضون (1943)، الفضل شلق (1943)، جاد تابت (1944)، عباس بيضون (1945)، توفيق الهندي (1947)، محمد علي مقلد (1948)، زين رحمة (1948)، فيصل جلول (1949)، كمال حمدان أي كمال هاني (1949)، وليد نويهض (1949)، حسن منيمنة (1949).
4. 1950–1959، تضم: أحمد الديراني (1950)، زكي طه (1950)، ملحم شاوول (1950)، شربل داغر (1950)، يوسف مرتضى (1950)، حسن داوود (1950)، موسى إدلبي (1950)، منى فياض (1950)، وديع حمدان (1951)، حازم صاغية (1951)، رضا إسماعيل (1951)، جهاد الزين (1951)، طلال عتريسي (1952)، بول طبر (1953)، طلال طعمة (1953)، رياض الدادا (1953)، جمال القرى (1954)، محمد بلوط (1958) زياد صعب (1958).
5. 1960–1969، تضم: لقمان سليم (1962)، حسام عيتاني (1965)، إبراهيم الأمين (1965)، حازم الأمين (1965).
6. 1970–1979، تضم: زياد ماجد (1970)، خالد صاغية (1974)، وسام سعادة (1977).

ملاحظتان:

أ. موسى إدلبي وزين رحمة اسمان مستعاران، بناء على طلب صاحبيهما.

ب. لائحة الأسماء وتاريخ الولادة وتفاصيل أخرى في الملحق 1.

أين تكمن دلالات الأجيال؟ عند كارل منهايم (1893–1947)، وهو ربما أول من نظّر للأجيال، ما خلاصته أن الجيل هو ابن المؤالفة والمجاورة. أن يخوض أفرادٌ تجارب سياسية أو ثقافية مشتركة، وهُم في سن أقصى القابلية للتلقي، فهذا مما يترك بصمات على تفكيرهم ورؤيتهم للسياسة، وغيرها من المجالات الأخرى. إنها قصة التجارب الأولى، الانطباعات الأولى. والأجيال ليست طبقات، ولكنها تشبهها في أنها تأنس مثلها أوضاعًا محددة في مجال سوسيو–تاريخي معين، وتستحسن أنماطًا محددة من التفكير ومن التجارب، وأنماطًا من التأثير في العملية التاريخية أيضًا[10].

عودة إلى أجيالنا: كما لمحتُ آنفًا، أول ما يخرج من هذه اللائحة – العيّنة أن الجيل الغالب عدديًا هو المنتمي إلى الشريحة الرابعة التي ولدت بين عامَي 1950 و1959. وسنّ أبناء تلك الشريحة كانت بين 8 و17 عامًا، وقت هزيمة حزيران/يونيو 1967، أي إنهم، أكثر من غيرهم، السابقين واللاحقين، شبوا على هذه اللحظة التأسيسية بالنسبة إليهم، لتكوينهم ولخياراتهم السياسية. وأنا ما زلت أتكلم على اللائحة، لا على العموم، فشرط التأثر بهذا الحدث هو البيئة القريبة والمتوسطة، فمن الجيل نفسه، من بين اللبنانيين والمثقفين غير اليساريين، لم يكن لحزيران/يونيو 1967 كل هذا الثقل.

كان أبناء الشريحة الثالثة (1940–1949) قد تكوّنوا، أو في طريقهم إلى التكوّن، حينما وقعت الهزيمة، وكانت عيونهم تتفتح في عام النكبة (1948)، فلم يعيشوها. سيطرت على مراهقتهم ثورة الجزائر ضد الاحتلال الفرنسي عام 1954، وانتصارها عام 1962، وقبل ذلك الوحدة المصرية – السورية عام 1958 والانفصال عام 1961. في تلك الآونة ، كان عبد الناصر، داعم الجزائر، قد بلغ شأوًا عظيمًا بعد تسلمه أعلى سلطات مصر، وخوضه بنجاح معركتَي تأميم قناة السويس والعدوان الثلاثي على مصر عام 1956 بعد التأميم بأشهر. وكل هذا لا يلغي وعيهم بهزيمة حزيران/يونيو 1967.

والأكبر منهم سنًّا (1930–1939)، أبناء الشريحة الثانية، ولدوا قبل نكبة عام 1948، ومن بينهم محسن إبراهيم، الأمين العام لمنظمة العمل الشيوعي، فشاركوا مع الشريحة التالية لهم في قيادة الكتلة الكبرى، الخمسينية بتوجيهها وتنظيمها، وهذا ما يسميه منهايم «تفاعل الأجيال»، الذي غالبًا ما يتم بالصراع.

أما الأجيال الأصغر، فكانت لحظاتها التأسيسية تتفاوت بين عام اندلاع الحرب الأهلية (1975)، عندما كانت تخطو خطواتها الأولى في اكتشاف هذا العالم، والاجتياح الإسرائيلي للبنان في صيف 1982.

طغيان هزيمة حزيران/يونيو 1967 على التكوين السياسي الأولي لأبناء الجيل الأكثر عددًا، من بين أصحاب المقابلات، يدعم خيار هذا التاريخ، معه أو عشيته، بصفته الحدث الذي كان له أبلغ الوقع على سياق لاحق، وعلى تجارب لاحقة، صاغت القواعد الرئيسة للعقليات التي خاضت هذه التجارب. كان يمكنني طبعًا «اختيار» حروب أخرى، كون منطقتنا

ولّادة، ولكن كان الأمر سيغدو بعيدًا، كما أشرتُ، أي معيشًا بالنسبة إلى أجيال تكاد تندثر، ومجهولًا بالنسبة إلى الجيل الأصغر الذي ربما يكون قد تعرف إليه من خلال الكتب أو روايات الآباء والأجداد، وربما من آباء أولئك الأجداد.

2. الطائفة

لم أوجّه إلى غالبية من أُجريت المقابلات معهم السؤال عن ديانتهم أو مذهبهم. أعرفهم بـ «الفطرة» المجسّدة في «الكود» اللبناني الوطني. شخصان أو ثلاثة أخطأت في «تطييفهم»، وسألتهم، فتفاوتت الأجوبة بين مقتضب ومفسر، مستنكر أشد الاستنكار، آخذًا على النظام الطائفي اللبناني الذي أفرغ المواطنة من مضمونها. وهذه – للحقيقة – ردة فعل قديمة تعود إلى ما قبل الحرب الأهلية، وذائعة وسط اليساريين: في تعيبيهم الكلام على الانتماء الطائفي، في نكرانهم العامل الطائفي، في الخجل من الخوض فيه؛ شيء من العفّة المتبرئة من خبث الطائفية.

ولكن من فضائل هذا الردّ، الخارج عن التاريخ، أنه حثّني على التفكير في كيفية معرفتي الانتماء الطائفي لأصحاب هذه الأسماء، وفكّ مضمون ذاك الكود اللبناني العتيد: كيف عرفتُ أن فلانًا سنّي أو شيعي، أو ماروني أو أرثوذكسي أو درزي، من دون أن أسأله أو أسأل غيره ممن «يعلم»؟ حسنًا، بعض الأسماء، أولها أو ثانيها، تدلّني إلى الطائفة، وهذا دليل أنني مهتمة بمعرفتها، وإن كنتُ غير طائفية، ولا منتمية إلى حزب طائفي؛ إذ لم تعد الطائفية طلْسمًا أيديولوجيًا معيبًا بالنسبة إلي، كما كانت أيام يساريتي.

وإذا لم تغشّني هذه الأسماء، فأوصلتني إلى طائفة أصحابها، فما الذي أوصلني إلى «معرفة» مذهبهم؟ كنتُ مثل غيري من أبناء جيلي، رغم رفضنا الطابع الطائفي للصراع، نقول «مسلم/مسيحي». لكن هذا التصنيف لم يعد يفي بغرض المعرفة. الصراع ما بعد الحرب، حتى الآن، فرّع الطوائف، كما فرّع أشياء أخرى، فصارت الروافد، أي المذاهب، وحدة القياس الهوياتي الأكثر حيوية لتحريك حدث أو تعطيل آخر، أو لمجرّد فهمه. لم يعد يمكنك أن تفسر شيئًا من الصراع لو قلت كما كنت تقول «مسلم/مسيحي»، بل من باب تأصل المتغيّر المذهبي. المهم أنها، أي المذهبية، الإسلامية والمسيحية، دليل الصراع، والأهم أن المذهبية هذه لم تولد من صفر، إنما من ديناميكية سابقة عليها، انطلقت عشية حزيران/يونيو 1967، وما زالت مفاعيلها قائمة. وتنضم هذه الفكرة إلى جزء من فكرتي، وهي أن محرك تلك المرحلة كان الشباب الشيعي الصاعد منه، والمهيأ لقيادة النهوض، أو لاستلام شعلته لاحقًا.

3. المنطقة

الآن في عينتنا: بعد الأجيال، يحتل الشيعة في هذه اللائحة نحو نصف العدد الإجمالي (23) يليهم السنّة (8)، والموارنة بالتساوي مع الكاثوليك ثلاثة بثلاثة، واثنان من الروم الأرثوذكس، ودرزيان.

ومن بين الشيعة، ثلاثة منهم من البقاع، واحد من الضاحية الجنوبية لبيروت، والباقون كلهم من الجنوب اللبناني. هنا، لا يهم أن «يوضح» بعض المستجيبين أنه «مهاجر» قديم إلى بيروت، تربى فيها وتشرب من أهلها، وذلك تمييزًا له من شيعة جنوبيين هاجروا للتو إلى بيروت، ويكون مصدر التعالي عليهم وتعييبهم على جدّة عهدهم بالمدينة/العاصمة، ونداوة تخلفهم الريفي، لكن «التوضيح» لا يلغي أن الجنوب يبقى مربط فرسهم. أما السنّة، فاثنان منهم من القرى الحدودية في الجنوب،

واثنان من صيدا، وواحد من إقليم الخروب (الشوف) وآخر من الكورة (الشمال)، في حين يتوزع المسيحيون كما يلي: اثنان من الشمال، واثنان من عكار، واحد من زحلة، واحد من البترون، واحد من بحمدون، أما الدرزيان فأحدهما من جبل لبنان، والآخر من البقاع.

حول أربعة من السنّة، الصيداويِّين، والجنوبيِّين: هي صيدا صاحبة لقب «بوابة الجنوب»، بالنسبة إلى الاثنين الأولين، الصيداويِّين. أما القرى الحدودية في أقاصي الجنوب، فهي مسقط رأس الاثنين الباقيين. صيدا غير البعيدة كثيرًا عن فلسطين قبل النكبة، المتفاعلة معها بشتى أصناف العلاقات بمخيمي عين الحلوة والمية ومية، المتداخلين مع أهلها، بتلقيها الضربات الإسرائيلية، بصفتها القاعدة الخلفية للجنوب. وأما القرى التي لا تبعد عن الحدود كثيرًا، فواحدة اسمها كفر رمّان، محورها بلدة النبطية الشيعية. والثانية كفرشوبا التي خاضت معارك مباشرة مع الإسرائيليين بدءًا من عام 1976، والتي ما زالت تلالها محتلة. هذا التقاطع المناطقي بين شيعة الجنوب وسنّته يضع هؤلاء السنّة الأربعة في الحساب الوجودي للشيعة الجنوبيين، بصفتهم يقتسمون معهم ناحية من مصيرهم الجغرافي.

ليس طغيان الشيعة الجنوبيين على العيّنة من باب الصدف العشوائية. كان لهم الدور الأبرز، قيادةً وقاعدةً، في دفع الحدث السياسي نحو التحقق. والانخراط الشيعي في الحدث؛ أي إن الانخراط في الشأن العام، لم يقتصر على أحزاب اليسار، في ذروة عصره «الذهبي»؛ ففي الوقت الذي كان يشهد صعودًا يساريًا، كانت جماهير شيعية ومثقفون ورجال أعمال مغتربون يتحلقون حول الإمام الصدر (1928 – ؛ اختفى في عام 1978)[11]، بدءًا من أواسط الستينيات. وطروحات الإمام الصدر، رافع لواء المحرومين الشيعة، تجاوزت أحزاب اليسار بشعبيتها. سأعود إلى هذه النقطة، ولكن ما يهمّ الآن أن كثافة الوجود الشيعي في أحزاب اليسار، وفي حركة موسى الصدر في آن معًا، هي دليل انخراط الشيعة في الحياة العامة أكثر من أبناء أي طائفة أخرى أو مذهب آخر.

وإذا أضفتَ أعداد المؤيدين للصدر من الشيعة الجنوبيين إلى نظرائهم الشيعة الذاهبة إلى أحزاب اليسار، وخصوصًا الشيوعية منها، وإذا قارنتَ بين هذا الحشد وأي طائفة أخرى، بصرف النظر عن حجمها، أو «نسبتها»، فسوف تلاحظ التالي: إن الشيعة الجنوبيين هم، من بين اللبنانيين من الطوائف الأخرى، الأكثر خوضًا في شأن السياسة، بتفرعاتها المختلفة بميولها ومهاراتها، الفكرية منها، والعسكرية على حدّ سواء. هذا الاستنتاج سوف يكون له تتمة في الفصل الثاني من الكتاب.

4. «المعسكر» السياسي الراهن

«المعسكر» المسيطر على العينة هو المانح أولويته لمحاربة الاستبداد، والمعادي لمحور الممانعة. ماذا يقف خلف هذا الاختلال العددي؟ احتمال أول: كما لمحتُ إلى ذلك من قبل، من زوايا أخرى، أن يكون موقفي المنحاز ضد الممانعة هو الذي قلّص عدد الممانعين الذين تحدثت إليهم. وهذا تقصير، إن وقع، فمسؤوليته تعود إلى مجمل تجربتي الماضية التي لا أستطيع كثيرًا تجاهلها، ولا هي تتجاهلني. أما الاحتمال الثاني، فهو أن تكون أصلًا نسبة المعادين للممانعة من بين المثقفين والكوادر أعلى من نسبة المؤيدين لها. وإذا كان من تفسير مُحتمل لهذا الاختلال، فهو قد يعود إلى الوطأة العقيدية التي ترسخ في عقول اليساريين الممانعين، النابعة من صلابة التكوين الفكري لطليعتهم، أي الأصوليين الشيعة، وهم بين وفائهم

لهذا الخط وإطلاق العنان لما تبقى من سيرتهم الفكرية، يرتضون الوفاء، الأثمن ربما من الحرية، وهُم بذلك أندر إنتاجًا من مثقفي المعسكر الآخر، وربما أقل ضياعًا منهم أيضًا.

5. المهنة

المهنة المهيمنة على هؤلاء المثقفين تتعلق بطبيعة الحال بالكتابة، جلهم كتّاب أو روائيون أو مؤرخون أو جامعيون، باحثون أو صحافيون. الكتابة ليست عند جميعهم ثابتة أو مصدرًا للعيش، فعند بعضهم يمكن أن تكون موسمية أو متقطعة أو متأخرة، وبعضهم الآخر على رأس مؤسسات ذات طابع أهلي أو بحثي (اقتصاد)، أو نقابي (من المهندسين أو العمال)، أو ثقافي (جمعية ضد الحرب)، أو حتى صحي (طبيبة).

لكن هناك استثناءات سياسية تعود في معظمها إلى المهنة والانتماء السياسي، والجيل أيضًا. الاستثناء الأول هو الفضل شلق: مهندس ميكانيك، عضو سابق في حزب البعث، ثم في حزب العمال الثوري (بقيادة ياسين الحافظ 1930–1978)[12]. ولد عام 1943، أي إنه قريب من الجيل الذي استقى من فرنسا وبريطانيا جلّ مفاهيمه ونظرياته، لكنه عاش تجربة سياسية مختلفة مدة سبع سنوات قضاها في الولايات المتحدة مناضلًا في صفوف الحركة المدنية المعادية للعنصرية. وهو مثقف أيضًا وصاحب إنتاج معرفي في التاريخ الإسلامي عبر مجلة أسسها، **الاجتهاد**، وواظب على الكتابة فيها لمدة خمسة عشر عامًا. وحينما اشتغل مع رفيق الحريري كانت بداية عمله ذات صلة بمهارته بوصفه مهندسًا ميكانيكيًا، لينتقل بعد ذلك إلى رئاسة تحرير صحيفة **المستقبل** التي يمولها رفيق الحريري، من دون أن ينسى، ولا لحظة، أنه يساري. قد تكون التجربة الأميركية أكسبته براغماتية، ربما مكنته من ممارسة نوع من «البراكسيس» الذي يختلف عن ذاك الذي تصوره أبناء جيله من المثقفين اليساريين، ما أجازه بالعمل مبكرًا مع رفيق الحريري.

الاستثناءان الآخران هما خالد صاغية وزياد ماجد، والاثنان لم «يمرّا» لا بمنظمة العمل الشيوعي ولا بالحزب الشيوعي، نظرًا إلى سن كل منهما. الأول، صاغية، مولود عام 1974، والثاني، ماجد، مولود عام 1970. لم يكبرا على أحزاب حية، إنما على بقاياها أو حولها. صاغية كانت له لقاءات مع قادة سابقين في منظمة العمل الشيوعي في خضم بحثه عن ماض ليسار اختاره في الجامعة الأميركية، ولكنه لم يجد الأطر المقنعة، في حين أن الثاني جذبته تجربة المجلس الثقافي للبنان الجنوبي الذي كان معظم حضوره من الحزب الشيوعي، ولكنْ هناك وجه إضافي لاستثنائية خالد صاغية؛ فقد خرج من صحيفة **الأخبار** الممانعة، نظرًا إلى تأييده الانتفاضة السورية منذ اندلاعها، وترتب على ذلك انتقال مهني من العمل في الصحيفة الممانِعة إلى شاشة إحدى القنوات اللبنانية، حيث كتب افتتاحيات النشرة الإخبارية، وساهم في صياغة بعض برامجها. تركها من بعدها، ولم «يختفِ»، كما اختفى زملاؤه ممن تركوا الصحيفة نفسها، وللأسباب ذاتها.

خامسًا: حدود الموضوعية والمسافة المثالية

في أثناء إعدادي دراسات ميدانية سابقة، خضتُ تجارب اعتبرتها حينذاك من صميم المغايرة الجذرية، أو النسبية، مع «الإخوان المسلمين» ومشايخهم ورجالاتهم، مع نساء حزب الله وعلاقتهن بالحداثة، وخلال فترة إقامتي في مصر، مع صنوف أصحاب المهن والمواقع من مواطنين مصريين تعرضوا لموجات حداثية. كنتُ طوال البحث والمقابلات والملاحظات

محكومة بشعور داخلي يحذرني من عيوب هذه المغايرة، وقد راقبتُ نفسي آنذاك، أو على الأقل راقبت ما هو واعٍ لديّ، وهذا كل ما كان في وسعي. لا منهج ولا نظرية يحميانني من حِيَل المغايرة، وقدرتها على التحوير. لم أكن في كل مرة على الدرجة نفسها من «اليقظة». في الدراسة عن نساء حزب الله، كانت الفكرة قد نضجت كلماتها، فكتبت الفصل الأول «رحلة في أقاصي البحث الميداني»، أسرد فيه حيرتي ودهشتي لقيامي بدراسة يختلف «موضوعها»، أي نساء حزب الله، اختلافًا يكاد يكون جذريًا مع كينونتي؛ من جهة أنني أنثى سافرة، يسارية سابقة، حداثية.

الآن، في هذه الدراسة، الوضعية هي النقيض. أنا قريبة من كل هؤلاء الذين أطرح عليهم أسئلتي. هذا الذي يتكلمون عليه هو جزء من شبابي ومراهقتي، جزء من حياتي. ومعهم، أو ربما أحيانًا بغفلة منهم، يعودون فيصوغونني عندما يعدّلون الرواية التي حفظتها، أو يضيفون إليها معلومة أو حادثة أو تاريخًا معينًا كان يُفترض أن أعرفه، فيتدفّق كل هذا الجديد عليّ، الواحد تلو الآخر، وأتجمد في مكاني كمن مسّه برق، فـ «يطلع» عليّ سؤال ما زال يعاودني: هل كنتُ «أفكر»، حينما كنت غارقة في نضالي داخل منظمة العمل الشيوعي؟ طرحتُ السؤال على صديقة ورفيقة لازمتني طوال سنوات الجامعة: هل كنتُ أفكر وقتذاك يا هدى؟ نعم، أجابتني. حسنًا، السؤال الآخر: وكيف لم أنتبه إلى هذا الذي أكتشفه كلما تقدمت في البحث والتقصي، والذي كان يحصل في موازاة نشوتي النضالية؟ فكان جوابها مثل نافذة إضافية نحو التفكير: تفكير في التفكير. قالت: «كنت تفكرين، وبشغف أيضًا، ولكنك لم تفكري خارج الأطر àالتفكيرية’ للمنظمة التي كنتُ أنا وأنت منتسبَتَين إليها. كنتِ تقرئين كل ما àيعزّز ثوابت’ خط المنظمة، كل ما يؤكد صحته، بل أحيانًا كنتِ تقرئين ما يناقضه، لكنك كأنك لم تقرئيه، كأنك لم تفكري».

وقد وهبتني مجريات أخرى للدراسة مادة إضافية للتفكير، هي عبارة عن مؤشرات «سلوكية»، تنمّ عن استعادة القيم التراتبية التقليدية لدى بعض القيادات السابقة لهذا اليسار. كان مفهومًا بالنسبة إلي أن يكون الحزب الشيوعي اللبناني «تراتبيًا»، فهو صاحب الإرث العريق بالمراتب والألقاب والمؤتمرات، وبرمجته لـ «الانتخابات» والطقوس المرسخة لها كلها. أما منظمة العمل الشيوعي، فلم تبنِ تلك التقاليد، ولا كانت لها أطر ثابتة تعززها وتضفي عليها استقرارًا، أو بنية داخلية، ولو شكلية. كانت أطرها التنظيمية رجراجة، مضطربة على الدوام؛ على الرغم من شللية قيادتها، وسيطرة أمينها العام؛ منذ تأسيسها على هذه «القيادة»، واعتمادها على تعيينات، لا انتخابات، وعلى الرغم من كسلها الفادح في عقد المؤتمرات والانتخابات، لتثبت على الأقل لنظيرها، الحزب الشيوعي، أنها أقل منه «مركزية». على الرغم من كل ذلك، كانت النزعة المساواتية حادة لدى الذين انجذبوا إليها، أو عادوا فانشقوا عنها، أو تركوها وغيروا سبيلهم، لكن هذه النزعة لم تصمد في مجتمع أصحاب الجاه والمقامات.

والأنثروبولوجيا أفضل مسعف هنا أيضًا. مثلًا: في التعازي التي تقيمها منظمة العمل الشيوعي لأحد أعضائها القياديين الراحلين: كما في التعازي التقليدية، يجلس «الوجيه» في الصدارة مُحاطًا بأهل الفقيد. يُفترض، بحسب هذا العُرف، أن يكون الأمين العام للمنظمة صاحب هذه الصدارة جالسًا في ما يمكن اعتباره مركز القاعة، لكن لا: أسباب صحية تحول دون حضوره، فتحلّ زوجته مكانه. وهكذا يكتسب العزاء منزلة؛ إذ يتم برعاية «السيدة الأولى» المناسِبة للمكان وللسياق؛

سيدة أولى في الوسط الذي يقوده زوجها. بعد ذلك، يدخل إلى القاعة «قيادي سابق» برفقة عضوين سابقين مرموقين من المنظمة نفسها، والثلاثة تركوا المنظمة منذ أكثر من عقدين. يدخلون، إذًا، إلى مجلس العزاء، فيتلقى القيادي السابق دعوة عفوية ممن جلسوا في الصدارة أن يأخذ مكانهم، إلى جانب زوجة الأمين العام؛ إذ احتلوه «من غير حق»، فهم أقل جاهًا منه، فيجلس هو إلى جانب زوجة الأمين العام وحولهما، ثانية، أهل الفقيد. حينها، يتفرق المرافقان، ويأخذان وضعيتهما مع الجماهير ذات الشأن الأدنى، الجالسة جانبًا يمينًا ويسارًا، أي إن القيادي السابق، مثل الوزير السابق، لا يقبل التخلي عن لقبه، يشاركه الباقون، يباركونه، لأنهم يقتسمون معه تقديرًا عاليًا لهذا الصنف من المكانة، فهو صاحب رأس مال رمزي ثمين: يتكوَّن من «قيادته» السابقة، مصدر رِفعته، التي ما زال يجلّها المحيطون به أو الحاضرون في مكانه نفسه، رغم انفضاضه عنهم كلهم منذ سنوات.

«جديد» آخر، انكشف مع المقابلات، يخص منظمة العمل الشيوعي أيضًا: «انهيار» قيادتها بُعيد الاجتياح الإسرائيلي للبنان (عام 1982)، بكلمات محسن إبراهيم، الأمين العام للمنظمة، الذي رأى فيه «انهيارًا أساسيًا في الحلقة القيادية الأولى للمنظمة. وعاد العام 1987 ليشهد مع عودة القوات العسكرية السورية إلى بيروت تكرارًا لذلك الانهيار في الحلقة القيادية، ومع مضاعفات سلبية إضافية أشد وطأة من السابق هذه المرة»[13]. وحينما سألتُ أحد مسؤولي المنظمة عن الذين يقصدهم الأمين العام، وعن معنى الانهيارَين، الأول والثاني، ومن يقصد بـ «الحلقة القيادية»، روى لي حكاية أحد المنهارين القياديين على الصورة الآتية، طالبًا مني عدم الإفصاح عن اسمه، فهو ليس بصدد «التشهير»، على نحو ما قال. الرفيق فاروق (اسم مستعار إذًا) عزم بعد هزيمة المقاومة عام 1982 على السفر إلى باريس، لإتمام دراسته ونيل شهادة الدكتوراه، وقد سمى رحلته «إعادة تأهيل»، فكان له من المنظمة تغطية للنفقات التي استوجبتها الرحلة والإقامة وتكاليف الدراسة ...إلخ. ظل في باريس ثلاث أو أربع سنوات، عاش خلالها على حساب المنظمة، بصفته «متفرغًا»، أي كما كان أيام «اشتراكه» مع قياديين آخرين في النضال في لبنان، مع فرق في التكاليف بين بيروت، المنكوبة، وباريس، الباهظة التكاليف. بعدما حقق الرفيق فاروق هدفه، بأن نال شهادة الدكتوراه، طلبت منه قيادة المنظمة العودة إلى لبنان واستئناف النضال في صفوفها. لبى الطلب الأول، ولكنه امتنع عن الثاني، من دون أن يوضح الأسباب أو «الحيثيات» الحزبية والسياسية. وبعد ذلك، شرع الرفيق فاروق في تأسيس وإعادة تأسيس يسار جديد.

ما يهمني في هذه الرواية نقطتان: الأولى أنني حينما عشتُ في باريس عامَي 1983 و1984 لإنهاء أطروحة الدكتوراه ومناقشتها، فهمتُ شيئًا مختلفًا: الأوساط القريبة من هذا الرفيق فاروق، وهي أوساط ذات صلة بالمنظمة، كانت قد أشاعت، أو «فهمت»، أن هذا الرفيق مقيم في فرنسا على حساب أمواله وأموال زوجته الثرية. لم ترغب المنظمة في ذيوع خبر تفرغ الرفيق المترف على حسابها. محسن إبراهيم فقط، في كتابه الآنف، يسمح لنفسه بأن يلمّح إلى هذه الحقيقة، ولو بالإشارات نصف المفهومة. هذا التصرف تحديدًا، أي نقل الحقائق مغمغمة، أو عدم نقلها أصلًا، لاحظته، كما سبق، في مجالات أخرى، لعل أبرزها أن منظمتنا كانت تقبض الأموال من دول عربية، عبر قنوات فلسطينية أو من دونها، في حين

كانت تنادي وسط جماعتها بطهرانية لم يكن يصدقها إلا الرفاق «القاعديون»، أو المتوسطون، مثلي. الرفاق الذين «صدقوا» المشروع وبذلوا حياتهم من أجله.

النقطة الثانية هي أن هذا الرفيق المدلَّل، فاروق، الذي لم يكن يخرج أثناء الاجتياح الإسرائيلي من دائرته الضيقة المريحة، كوفئ، كما أشرتُ آنفًا، بتفرغ على مدى ثلاث أو أربع سنوات، في حين أنّ رفاقًا آخرين، لم يبلغوا مرتبة القيادة قاوموا الاجتياح بما ترتب عليهم من مهمات، تعرضوا للتنكيل والخطف في نهايته. والمنظمة كانت معهم مثل الأب الذي ينكر أبوة جاءت بعد طيش. كأن هؤلاء الرفاق المخطوفين، المنكَّل بهم، ليسوا برفاق؛ لهم اسم آخر، هو النسيان. أحد هؤلاء المخطوفين المنسيين فُرِضت عليه شروط للخروج من الخطف؛ منها أن يشتري بطاقة سفر، من غير رجعة، إلى أي بلد يختاره، فكان ما كان. واختفى الرفيق المناضل في صحارى الخليج؛ يكابد الوحدة والضيق، ولا يسأل عن أخباره من المنظمة إلا صديقه الحميم، أي إننا أمام حالة تمييز شبه صريحة لا تتسع لخطاب المساواة، ولا حتى أدنى ادعاءات الذوق أو الإنسانية أو الكرم الأخلاقي. رفيق مغنج مرفَّه لأنه «قيادي»، ورفيق، غير «قيادي» بما يكفي، ضحى وناضل بإيمان قست عليه المنظمة بأن نسيته تمامًا. مثله مثل الكثيرين من بين «غير القياديين» البارزين صنعتهم الصدفة التاريخية، كما صنعت القياديين، والتمييز بين الاثنين على يد منظمة بنت «مجدها» الأيديولوجي على عدم التفريق بين البشر، فما بالك بين الرفاق أنفسهم؟ الفكرة الأولى التي طرحتها على نفسي بعد هاتين القصتَين: كان يمكن أن تمرا بي مرور الكرام، لو لم أكن في حالة دراسة، أو في دراسة لموضوع آخر، بل كان يمكن – لعمري – أن ينتهي وأنا شبه مغمضة العينين على تجربة خضتها في شبابي، وأحببت لحظاتها الأولى، وسعدت بها. وهي الآن بصدد التحول إلى هباء منثور.

هكذا، استأنفتُ التفكير في اتجاه آخر، ربما أقل عقمًا: ألم أكن أعرف كل هذه الأشياء قبل إعدادي هذه الدراسة؟ بلى: معرفة جزئية، عابرة، واقعة في مكان ما من إدراكي. ثم إنها قديمة تعود إلى عقود خلتْ، منسية ربما، ويغطي على تذكرها الجانب الرومنطيقي، و«ذهبية» عصرها، لكن الإعداد للدراسة أيقظها، جمعها تحت مشهد واحد، فكانت إعادة اكتشاف للمنظمة التي ناضلتُ في صفوفها عقدًا ونصف عقد من حياتي، إعادة اكتشاف بطعم المفاجأة المرّة، مفاجأة من استُغفل، أيضًا وأيضًا.

وهذا ما أخافني، فأنا لا أريد لدراستي أن تكون ساحة لتصفية حسابي مع المنظمة، أو للانكباب على فضح شوائبها العديدة. أعود فأفكر في الموضوع من ناحية أخرى: مواردي في هذا المجال ليست قليلة، وأنا خضت السؤال هذا حينما بحثتُ في «الإخوان المسلمين» وفي نساء حزب الله. كلاهما طرح عليّ موضوع المسافة الفاصلة الأفضل لأيّ دراسة، لكن في البحث الثاني، أي نساء حزب الله، تبلورت قليلًا مسألة المسافة هذه، وقد أشرت آنفًا إلى نقاطها. الآن، الحالة مختلفة: لستُ أيديولوجيًا على صراع مع أحد، وأدعي أنني أصبحت من دون أيديولوجيا، على الرغم من انحيازي إلى مواقف سياسية معينة، وهذا لا علاقة له بالأيديولوجيا، والدليل أن أصحاب الأيديولوجيا نفسها منقسمون حولها، حول الشيوعية والعلمانية والتقدمية، وحول المواقف السياسية، وذلك على الرغم من تصنيفي الذي لم أفهمه حتى الآن من كوني أصبحتُ

«ليبرالية». والدراسة عن الشيوعيين اللبنانيين كانت صدفة اللاوعي عندي، كما أرجّح. ربما كنت مهتمة، وغير عارفة، غير فاطنة، أنني مهتمة بهذا التاريخ الذي أهملته لصالح تيارات نقيضة دراسيًا، ولصالح تجارب مختلفة حياتيًا.

لا تقتصر الاكتشافات على هذين المثلَين، بعضها سيَرِد في صلب الدراسة، والآخر لا يفيدها، والحاصل أن ما فهمته وما علمته أثناء هذه الدراسة غيرني؛ غيَّر ملامح ذاكرتي، فأصبحت كالعاشق الذي افترق عن حبيبته رغم إرادته، فيحزن ويعزّي نفسه بذكريات حبه لها، الجميلة دائمًا، ولكنه يكتشف بعد برهة، بعد هذا الافتراق، أنها كانت تخونه، وهي في غمرة الغرام به، فتغيرت ذكرياته، بل بشعت، وأمضى وقتًا ثمينًا يستعيد شريط قصته معها، محاولًا إيجاد تفسير لهذه أو تلك من الإيحاءات، أو التصرفات، أو الكلمات، التي يبني عليها وعيه الجديد بحبه لها، فيخرج خالي الوفاض من هذه الذكريات.

وكان لهذا الاضطراب، الشبيه باضطراب العاشق الحزين، أن أعاد عليّ طرح سؤال المسافات. فإذا كنت على هذه الدرجة من الشغف السلبي بجزء من موضوعي، فما المسافة الفاصلة الأنجع للقيام بالدراسة؟ كيف يمكن إدارة الشغف الذي أصابني أثناء إعدادي الدراسة ومحاوراتي ولملمة ملاحظاتي؟ قبل هذه الدراسة، طرحتُ على نفسي سلبية المسافة البعيدة. أما الآن، فالوضع أكثر تركيبًا: إنّ جزءًا من موضوعي، أي منظمة العمل الشيوعي، ينطوي على مسافتين: قريبة وبعيدة. قريبة لأنها جزء من ماضيّ، وبعيدة لأنها خارج حاضري، وربما مستقبلي أيضًا.

والحال أن المسافتين، القريبة والبعيدة، الإيجابية والسلبية، لا تملكان حق الأفضلية في الموضوعية، كلتاهما تساهم في وضع غشاء العواطف على ما يمكن أن يكون واقعًا، ولا أقول حقيقة، لأن الحقيقة المطلقة والنهائية خصوصًا، هي من بنات الخيال. وأنا لست بغافلة أثر هذه المسافة في دراستي. وربما وعيي بها سيساعدني على سرد حكاية مختلفة عن الأدبيات المتداولة لدى الشيوعيين، لا تدعي النهائية ولا الشمول. حكاية نسبية، ناقصة. قطع من تاريخنا القريب، متقطعة مثل لوحة الفسيفساء، تطمح إلى وضع السجال الرائج بين اليساريين في سياقه، تمهيدًا لفهمه بأعمق مما فُهم حتى الآن.

سادسًا: كيف أكتب هذه الدراسة؟

سبق أن لمحتُ إلى استحالة بلوغ الموضوعية في الدراسات الإنسانية، وهذا استنتاج لستُ وحدي من توصل إليه. والواقع الذي أزمع وصفه في الفصول التالية، واقع لبنان عشية هزيمة 1967 وما بعدها، تنطبق عليه استحالة الموضوعية بصفة خاصة. والمؤرخون اللبنانيون مختلفون حول تفسيره، حول رواياته، بدايته وخواتمه؛ إذا جاز القول إن ثمة خاتمة لتلك النيران التي أشعلها، وإن غذّته نيران سابقة عليه. من جهة أخرى، لا منظمة العمل الشيوعي ولا الحزب الشيوعي أخذا نصيبهما من التأريخ البارد. بعض السير الذاتية من هنا، المقتصرة على الاحتفاء بهما في غالبيتها، أو على «النقد» المفتعل، والقليل جدًّا من «التاريخ» الجزئي هناك، والأقل منه مقالات سريعة ومنفعلة غالبًا، لم تصنع مرجعيات يمكن الركون إليها لرسم خريطة هذين الحزبين الشيوعيين. وهذا اكتشاف فاجأني، ودفعني إلى تلك المقابلات الكثيرة مع المعنيين بهما، لكنني عزيت نفسي بالقول إنه لو وجد تأريخ «شامل» وجاد لسيرة هؤلاء الحزبيين، فلن يكون سوى تاريخ المنتصرين عليهم، فهذا نقصان يعفيني من ثقل الموجود، ويمنحني فرصة أو حرية الخوض في ملء ثغراته على طريقة الفسيفساء.

والأمثلة المعاصرة على هذا النوع من المراجعة للتاريخ تعطيك فكرة عن الجهد المبذول من أجله، والمقرون أحيانًا بتضافر جهود جماعية. فالمؤرخ الفرنسي فرنسوا فوري (1927–1997)، مثلًا، أمضى حياته ينسف كل «الحقائق» المعتمدة بشأن الثورة الفرنسية (1789)، والقائلة إنها، أي هذه الثورة، إنما هي المرحلة الأولى من عملية ذات خط واحد مستقيم، تنتهي بالمنطق التاريخي بـ «ثورة أكتوبر» البلشفية (1917). ويحلل فوري إرهاب اليعاقبة الذي يلي الثورة الفرنسية، فيقارنه بالإرهاب الذي مارسه الحزب البلشفي في «ثورة أكتوبر»، واصفًا الرعب الذي بثه هذا الحزب بعد استيلائه على السلطة. ويكتب: «لا يوجد تفسير بريء للتاريخ. والتاريخ القابل بأن يُكتب ما زال ضمن التاريخ، من التاريخ، وهو، بالتعريف، نتاج علاقة مضطربة بين الماضي والحاضر، أو نتاج تقاطع بين خصوصيات عقل بعينه، والمجال الواسع لاحتمالات تجذره في الماضي»[14].

من ذلك أيضًا، رواية **المصارعون** (*Gladiators*) للشيوعي البريطاني آرثر كوستلر (1905–1983)، وهو من أصل مجري، منشق عن حزبه. وفي هذه الرواية، يُسقط كوستلر تجربتَه الشيوعية على الشخصية التاريخية المعروفة، سبارتاكوس، المعروف بمحرّر العبيد من قبضة روما، من بداية التجربة، حيث المشاعر الصافية، إلى صعود سبارتاكوس، الذي يجرّ العبيد إلى جحيم الحصار والجوع، الذي لا يفلح في جذب بقية عبيد روما، الذي يشهد انشقاقات في صفوفه ومكائد وفخاخًا يديرها هو أو منافسوه أو أعداؤه. والخلاصة التي تخرج منها أنْ لا ثورة تبدأ كما تنتهي. لا ثورة تنجح في تحقيق غايتها. لا ثورة يبقى قادتها على فطرتهم الثورية الأولى، بل إن تربص الإرهاب اليعقوبي بالثورة الفرنسية، الذي يصفه فوري، تجد له نظيرًا في ثورة العبيد، يساويه شكوكًا وريبة ومؤامرات. والفرق بينهما هو في أشكال العقاب، بين قطع الرؤوس والصلب، قطع الرؤوس هو عقوبة من تمرّدوا على الثوار الفرنسيين، والصلب عقوبة العبيد الذين تمردوا على جلادهم وعلى محرّرهم[15].

كانت محاولة لتجميع اللوحة الموزاييكية، الفسيفسائية، بالقدر المتوافر من الذين ما زالوا على قيد الحياة من الشيوعيين. ولم أغشّ نفسي هنا أيضًا: كنت واعية جدًّا بحدود المعرفة التي يقدمها صاحب الكلام، والتي ترسم، في حد ذاتها، حدود الموضوعية. الرجل الذي أمامي حزبي سابق أو حاليّ، وعواطفه السياسية محكومة بتجربته، سلبية أكانت أم إيجابية، مع ميل عارم إلى تجميل الماضي، ماضيه الشخصي، أكثر من ماضي حزبه، فالموضوعية نادرة في السرديات المروية، وأكثر ما لفت انتباهي في المقابلات الميل الصريح لدى بعض أصحابها إلى تفخيم أدوارهم، ووضع أنفسهم في طليعة الحركة التي انتموا إليها. وما خفّف من حفلة النرجسية هذه أن معظم «القياديين» رفض الكلام، فكان عيار التباهي أقل، فالكوادر، إذا جاز تسمية الباقين بهذه الصفة، كانوا أكثر ميلًا إلى رواية تجربتهم من دون الحاجة العارمة إلى التفاخر بمواهبهم القيادية وبلقاءاتهم مع «الكبار» من نظرائهم، على ما هو دارج بين «القياديين».

بعد هذا، في المقابلات التي أنا بصددها، هناك نوع آخر من الحواجب على الموضوعية، أولها الطبائع: بين المحب للكلام والمقلّ منه، بين الموارب والمصارح، بين المجيب عن السؤال والمجيب عن سؤال آخر لم يُطرح، بين حاجب التفاصيل والمغرق فيها، بين مستعجل ومُسترسل. ثاني هذه الحواجب هو النسيان، والسن التي بلغها معظمهم يذكي النسيان. أنا في النهاية أطلب منه أن يسرد جزءًا من حياته، يعود معظمه إلى الطفولة والمراهقة ويمتد حتى سن الرشد. وفي بعض الحالات، التي

أكون قد وثّقتها، مثل تواريخ إنشاء كذا، أو كيت من المنظمات، أو الاتفاقيات، أو غيرها من التواريخ الحية لتلك الفترة. قد أتدخل للتصحيح وقد ينقلب أيضًا مزاج المتحدث لهفوة ارتكبتها، ولا أنتبه إليها إلا بعد حين، أو قد يتحمس زيادة عن اللزوم، فأتدخل لتعديل مزاجه، بصعوبة؛ كوني أنا نفسي لستُ منضبطة المزاج، فتكون المقابلة عبارة عن إدارة مزاجين: مزاجي ومزاج المتحدث، لكن الجامع المشترك بينهم أنهم يروون قصتهم، كلٌّ بحسب اعتباراته الماضية والحاضرة.

هذا من جهة المستجيبين، أما من جهتي شخصيًا، فكان ثمة مصفاتان لموضوعيتي: الأولى وصفتها آنفًا، واسمها «المسافة» المثالية المستحيلة الفاصلة بيني وبين موضوعي. والمصفاة الأخرى اكتشفتها أثناء المقابلات، فالموضوع الذي أعالجه لي موقف فيه، أي إنني أكتب بانتظام ضد المحور الممانع، وهو أحد قطبي السجال السياسي، أي الموضوع الأول لهذه الدراسة. لم أعِ انحياز أسئلتي إلا عندما قابلتُ أول «ممانع». انتبهتُ إلى أن أسئلتي التفصيلية وتعليقاتي على أجوبته كانت تعتمل في دواخلها رفضًا لمواقفه. في لحظتها حاولت الانعطاف بأن أؤدي دور الحياد التام. ولعلني لم أنجح تمامًا، فحينما عدتُ إلى نفسي، وجدتُ أن دور الحياد هذا ينقصه العمق، ويضر به الافتعال. كان عليّ أن أحيّد نفسي في أعماقي، في دواخلي، أن أتمرّن على تخيّل نفسي مكان هذا الممانع الذي أمامي. ولم يكن هذا المسعى التخيلي صعبًا عليّ، فأنا كنتُ «ممانعة» أيضًا، أو أقرب إلى الممانعة، قبيل عام 2000، أي عشية انسحاب إسرائيل من جنوب لبنان. ولم يكن وقتها تعبير الـ «ممانعة» قد استقر بصفته تأييدًا غير مشروط لسياسة حزب الله اللبنانية، وصرتُ أتساءل ما الذي جعلني أقف إلى هذا الصف وقتها، أدافع عنه، حتى في ما صرت أعتبره لاحقًا موقفًا خاطئًا: إلام كان يستند «تفكيري»، أو ربما عدم تفكيري؟ وكان جوابي خليطًا من بقايا اليسار الذي كنت في صفوفه، ومحوره جنوب لبنان وفلسطين، رافعتا الممانعة الخطابية.

تذكرتُ أنني كتبت عام 1996، قبيل عملية «عناقيد الغضب» الإسرائيلية ضد الجنوب اللبناني، مقالًا في **السفير** اللبنانية، أدحض فيه مقولة وضاح شرارة في كتابه **دولة حزب الله: لبنان مجتمعًا إسلاميًا**. سنعود إلى هذا الكتاب لاحقًا. أما المهم الآن، فهو أن هذا الشرود في النفس أسكنني في جلد الممانع الراهن، وصرتُ أكثر هدوءًا واطمئنانًا إلى عمق موقفي المأخوذ من تجربتي، وليس من نظرية أو مقولة «موضوعية» أخرى، من دون أي أوهام حول انزلاقات الغفْلة التي يمكن أن أنجر إليها بحكم ما صرت عليه الآن؛ إذ لم أكن دلال واحدة في هذه الأثناء، بل اثنتين، واحدة قديمة أحتاج إلى جهد لأتذكرها وأعود فألبس روحها، وواحدة أخرى راهنة أحتاج إلى الجهد نفسه، وربما أكثر، لأنساها، وهذه حركة لم يكن بمقدوري تجنبها حينما كنت أحاور الشيوعيين الممانعين. أبذل جهودًا للموضوعية، ولكنني لا أعتقد أنني بلغتها، أو أنه يمكن بلوغها، فأحدس ما يهدئ من روعي: بأنه إذا أخذت ذاتيتي على عاتقي، على مسؤوليتي، يمكنني بلوغ موضوعية ما ذات قيمة.

يُضاف إلى كل هذا أن السياق الذي أحاول رصده لوضع لَبِنات المواقف الراهنة هو واقع التاريخ القريب الذي نشأت الوقائع الحالية على أنقاضه. هذا الأخير يجمع سمات لبنانية خالصة، زيادة على أن لا اتفاق أصلًا بين المؤرخين على سرد

فصوله وتفسيرها، كما أسلفتُ. إنه واقع خاضع لأقصى أنواع التقلبات، ولا يستقر على شيء، متعدد الأوجه، غزير، متناقض، مركّب، غير محصّن، مراوغ، مذرَّر، أبوابه مشرعة على مصراعيها لرياح متلاطمة «إقليمية» أو «دولية».

كل هذه الاعتبارات جعلتني أنحاز إلى كتابة الدراسة على طريقة «التجريب» (Essay)، أو بالأحرى كنت منحازة منذ البداية إلى هذا النوع من الكتابة؛ بصفتها متواضعة، جذابة، اختبارية، يختلط فيها الكاتب مع مادة كتابته، وينفصلان في لعبة الموضوعية – الذاتية، المستمرة، وغير المستقرة على حال؛ متواضعة لأنها مثل مخترعها، ميشال دي مونتين (1533–1592) في كتابه **التجارب**، كلما حرثتُ في المعرفة، انكشف لي جهلي بها. والقول الشهير لدي مونتين «إن المعرفة تفضي إلى الجهل»، أي الوعي بالجهل، ثم درس التواضع الآخر الذي يمليه علينا بسؤاله: «لماذا يتكبر الإنسان؟ لماذا يريد أن يعرف كل شيء ما دامت طبيعته ضيقة الأفق وجهله لا شفاء منه، وما دام لن يكون في مقدوره أن يفسر كل ما يراه؟»، وما دامت «الحقائق التي بلغها كلها نسبية، كلها مفتوحة على غيرها»[16].

تكمن جاذبية دي مونتين، أيضًا، في تلك اللعبة التي يسميها «الميزان»، والتي يستنفر من أجلها كل طاقاته النفسية – المعرفية. هي لعبة ممتعة، فالميزان حكمٌ داخلي، يلطف الشغف، يبرّد الروع الذي يبثه في ثنايا العقل، فتكون متعة الكتابة ومعها القراءة أو بالأحرى متعة الاثنتَين معًا؛ إذ لا يمكن أن تنتج المتعة من دون أن تكون قد عرفت آليتها، أو طريق الوصول إليها عبر الكتابة. موزاييكية طريقة «التجريب» هذه تناسب الواقع اللبناني أيضًا، المستعصي على الوصف الشمولي غالبًا. و«الطريقة» هذه خصص لها دي مونتين مروحة واسعة من التعبيرات تضم: المونولوغ، والحجة، والدليل، واستحضار مناخات أو أشخاص، والمعلومة، والنقد، والوصف، والبورتريه، والحكاية، والنوادر، والأقوال المأثورة، والفكرة؛ إنها مثل بئر من التعبير، لكنها ليست ملزمة بحذافيرها، فهي ليست نظرية، ولا مقولة، ولا مفاهيم، إنما هي طريقة مستوحاة من كينونة الكاتب نفسه، من كون الدراسة أحد مفاتيح معرفته لنفسه، لهويته وتاريخه، بل قد يكون الاختيار اللاواعي لموضوع الدراسة، هو الولوج في هذه النفس، عبر معرفة غير القريب، بواحدة من المسافات، من هذا الباب الذاتي معرفة للإنسان الذي فينا.

هذه الدراسة هي من النوع «التجريبي» إذًا، لا هي تاريخ، الأفكار خصوصًا، ولا سوسيولوجيا، ولا علم نفس، ولا أنثروبولوجيا، إنما الجميع مصهور في بوتقة الواقع وموارده اللذين وحدهما يحددان المجال.

(1) رئيس وزراء لبنان في الفترة 1992-1998، ثم في الفترة 2000-2004.

(2) منظمة العمل الشيوعي في لبنان، **أوراق يسارية: نصوص حزبية لمنظمة العمل الشيوعي في لبنان** (بيروت: منشورات بيروت المساء، 2016)، ص 62-63.

(3) نقلًا عن: أحمد بيضون، **مداخل ومخارج: مشاركات نقدية** (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1985)، ص 136-138.

(4) ملحم شاوول، **التفكك والانطواء** (بيروت: منشورات شرق الكتاب، 2018)، ص 265-266.

(5) حسام عيتاني، **هويات كثيرة وحيرة واحدة: سيرة لبنانية** (بيروت: دار الساقي، 2007)، ص 117.

(6) المتاولة هم من تولوا الإمام علي بن أبي طالب. كانت تطلق على الشيعة اللبنانيين للحطّ من شأنهم، ولكنها الآن تكاد تختفي، ربما لأن الشيعة لم يعودوا الفئة المستَضعفة كما كانوا.

(7) توفي في أثناء إعداد هذا الكتاب للنشر، في 5 أيلول/سبتمبر 2021.

(8) صحافي ومؤرخ لبناني، اغتيل أثناء موجة الاغتيالات التي شملت مناهضي السياسة السورية في لبنان عام 2005.

(9) أول رئيس وزراء لبناني بعد الاستقلال.

(10) Karl Mannheim, *Le problème des générations*, G. Mauger & N. Perivolaropoulou (trads.), G. Mauger (intro.) (Paris: Nathan, 1990 [1928]), pp. 53-68.

(11) رجل دين شيعي، مؤسس «حركة المحرومين».

(12) سوري، مفكر ومؤسس حزب العمال الثوري العربي.

(13) يورد محسن إبراهيم هذا النص نفسه في كتابين: منظمة العمل الشيوعي في لبنان، **أوراق يسارية،** ص 6؛ محسن إبراهيم، **الحرب الأهلية اللبنانية وأزمة الوضع العربي** (بيروت: بيروت المساء، 1985)، ص 6.

(14) Francois Furet, *Penser la révolution française*, Collection Folio histoire 3 (Paris: Gallimard, 1985), p. 13.

(15) Arthur Koestler, *Spartacus* (Paris: Calman-Levy, 1945).

(16) Michel De Montaigne, *Les Essais,* V. L. Saulnier (ed.), Pierre Villey (intro.) (Paris: PUF, 1965).

الفصل الثاني: عشية حزيران/ يونيو) 1. / (

أولًا: لماذا حزيران/يونيو 1967؟

لماذا لم أختر النكبة الفلسطينية (1948) التي تشكل ذيولها واحدًا من محركات الحدث، أو الوحدة السورية – المصرية (شباط/فبراير 1958) التي ألهبت التطلعات القومية المتوقدة، صاحبة الثقل في تحديد أوجه عديدة من الحدث، أو الحرب الأهلية اللبنانية الصغرى التي تلتها (تموز/يوليو 1958)، وقد حركتها أسبابٌ، طائفية – قومية، سوف تعود ملامحها لتتأكد مرة أخرى، خلال الانفصال السوري – المصري (أيلول/سبتمبر 1961) الذي أخرج أفرادًا من البعث إلى اتجاهات أخرى، أو خلال الحدث الجلل، أي الحرب الأهلية اللبنانية الكبرى (1975–1990)؟

يرى أحمد بيضون في الانفصال المشار إليه ما يجدر اعتباره مفصلًا من مفاصل الحدث؛ إذ يقول إن الأجيال الأخرى، أي الأصغر منه «لا تتوقف بما يكفي أمام العام 1961، ويفضلون العام 1967. أما بالنسبة إلينا، فإنه كان عامًا حاسمًا»[17]. بعد أحمد بيضون، فإن الكتلة الكبرى من الأعمار المولودة بين شريحتَي الأربعينيات والخمسينيات، عاشت حزيران/يونيو 1967، وكأنه منعطف في سيرتها السياسية، وإن كانت شريحة الأربعينيات قد صاغت مجمل تصوراتها قبل هذا التاريخ، في حين أن غالبية أفراد شريحة الخمسينيات انجرَّت إليها. ويلخص وضاح شرارة هذا «الاستيعاب» بقوله إن حرب حزيران/يونيو كانت بمنزلة «حظنا التاريخي». كانت صدمة هائلة، حيث تبين لنا «هزيمة الأنظمة العربية»[18].
أما الباقون، أي المولودون في الثلاثينيات، أو بدءًا من الستينيات، فسوف تراوح لحظاتهم المصيرية في السياسة، بناء على تعاقب تواريخ ولاداتهم، وتعرجات السياسة. ومن هذه الشريحة، كريم مروة (ولد في 1930) ومحمود سويد (ولد في 1936). يشرح مروة عمق مشاعره القومية، المتناقضة مع اختياره الحزب الشيوعي اللبناني؛ إذ يقول: «كان عمري حوالى 15 سنة. كنت قوميًا عربيًا رومانسيًا، قبل أن أسمع بحركة القوميين العرب، كان ذلك خلال الفترة 1944–1945 في المرحلة الأخيرة من نهاية الحرب العالمية الثانية. وكنت في قوميتي العربية مختلفًا عنهم؛ كانوا إلى جانب هتلر باعتباره معاديًا للصهيونية والإمبريالية، وكنت معاديًا للنازية وللعنصرية». ويتابع مفسرًا نزوعه القومي: «كنت من قرية اسمها حاريص قريبة على الحدود من فلسطين، وكانت العلاقة مع فلسطين: يعني شقيقي ذهب إلى حيفا واشتغل هناك، وكان أهل القرى المجاورة يذهبون إلى عكا وصفد وحيفا ويافا، إما للعمل وإما لشراء حاجياتهم بدلًا من الذهاب إلى صور وصيدا والنبطية. وكانت àالخزْجية' [مصروف الجيب] عبارة عن قرش فلسطيني، المعروف بـàالمخروم' [المثقوب]، لذلك، منذ طفولتي، دخلت فلسطين إلى وجداني من دون تحديد، وعندما أصبحتُ قوميًا عربيًا كنت في الآن ذاته وطنيًا لبنانيًا وقوميًا عربيًا وأرى فلسطين [...] ورومانسيًا أيضًا»[19].

أما الثاني، محمود سويد، فيألف فلسطين في نهاية الثلاثينيات وبداية الأربعينيات، عشية طرد الفلسطينيين من أرضهم وإقامة دولة إسرائيل: «كانت منطقتنا مفتوحة على فلسطين والجولان، أكثر مما هي على صيدا والنبطية. عندما كنتُ طفلًا، والناس في قريتنا، كفرحمام، تُصاب بمرض، كانوا يأخذونها إلى الحولة الفلسطينية، لا إلى صيدا. كانت فلسطين أقرب من

صيدا [...]. أذكر أيضًا البرتقال الآتي من حيفا. كان التبادل التجاري بين قرى الجنوب اللبناني وشمال فلسطين نشطًا. هكذا يتم بالتبادل: يأتي البرتقال من حيفا، مقابل القمح والشعير والعدس والذرة من عندنا. أنا رأيتُ بأم عيني العمْلة الفلسطينية، قبل أن أتعرف إلى العملة اللبنانية»[20]. وبعد النكبة ينتقل سويد إلى مدينة صيدا الجنوبية. كان آنذاك في الثانية عشرة، وكان هو ورفاقه من التلامذة في مدرسة فيصل الأول: «كنا نحمل على ظهرنا أكياس التموين والعلب، وندور على البيوت نجمع الشراشف والمخدات والثياب، ونأخذها ونضعها في مكان معين بالمقاصد [مدرسة] وهم يتولون توزيعها على اللاجئين [...] ومن وقتها علاقتي بالمقاومة الفلسطينية». وهذه الجملة الأخيرة تحديدًا يجب أخذها على محمل الجدّ، فمحمود سويد تخلى عن مغامرة سياسية مغرية عام 1971 مع «لبنان الاشتراكي» الذي كان واحدًا من مؤسسيه، مقابل العمل المهني في مركز البحوث الفلسطينية. وقبل هذا التخلي كان صحافيًا في مجلة **الأسبوع العربي**، تسلم فيها ملف المقاومة الفلسطينية والعلاقة مع قادتها. وهذا ما أفرحه: «هذا مجالي الذي أريده، منذ ولادتي»[21].

بين مروة وسويد من جهة، ووسام سعادة المولود عام 1977 من جهة أخرى، هوة في الذاكرة، وهوة في اللحظات التأسيسية. بين الاثنين الأولين اللذين سمح لهما العُمر بمعرفة فلسطين، والتبادل والتفاعل مع أهلها، وبين وسام سعادة الذي ولد بعد الحرب الأهلية بعامين من أبوين مسيحيَّين شيوعيَّين أصرا على البقاء في المناطق «الوطنية» الإسلامية، خلال السنوات الأولى للحرب الأهلية الكبرى، بين هاتين الشريحتين العمريتَين المتباعدتين، عقود من التضييق على الحدود، ومن الجهل بالآخر، وصلت مع سعادة، وربما معه أبناء جيله أيضًا، إلى بناء تصورات خاطئة عن مسيحيي لبنان، بسبب انحباسه في الشطر المسلم من العاصمة. يقول إنه عندما انتقل مع أهله إلى المنطقة المسيحية، هربًا من الأهوال الأمنية، فوجئ بخلْقة التلامذة المسيحيين في المدرسة: «كنت أتخيل المسيحيين شيئًا آخر. كانوا على قدر عال من السَمار في البشرة. كنت أتخيل المسيحيين شقرًا بعيون ملونة [...] كنت أتصورهم أقل تدينًا من المسلمين، فيما هم [...] كل يوم معجزة، ولا يكفي قديس أو قديسون، صاروا يريدون أكثر»[22].

أما وضاح شرارة، المولود عام 1942، فلحظته جزائرية، أولى مشاركاته السياسية: «كان عمري إحدى عشرة سنة، كنت في صف السرتفيكا [الشهادة الابتدائية]، عندما اندلعت أحداث الجزائر. لن أنسى كيف مشينا في تظاهرة تحت الشتاء [...] ولا أنسى تلك الكيمياء السرية بين الصور والكلمات والأفكار والانفعالات التي اعتمرت بداخلي [...]. غمرتني الانفعالات. تلك هي معموديتي»[23].

في المقابل، وليد نويهض، الذي يصغر شرارة بسبع سنوات، يرى حرب 1967 بصفتها المحور: «كانت صدمة رهيبة. كان عمري 17 سنة. بدأنا نفكر في هذه الكارثة وكيفية الرد عليها. اكتشفت موقع مصر في قلبي. لم أستطع تحمل هذه الأوضاع»[24].

مقارنة أخرى بشريحتين عمريتين أخريين، المولودة في بداية الخمسينيات: الأول جهاد الزين (1951) يصف حزيران/يونيو 1967 بهذه العبارة: «هناك قبل 1967 وهناك بعد 1967»، أي إنه من بعدها صار «أكثر جدية» في اندفاعته السياسية[25]، في حين يلحّ رياض الدادا عليّ بأنه ولد في «نهاية» عام 1953. لماذا هذا الإلحاح؟ أسأله، فيجيب بأنه في

عام 1967 «كان مهمًا جدًّا كم كان عمر الواحد وقتها. كان حدثًا كبيرًا في حياتي. وكنت أود لو ولدت في أول 1953، ليس في آخرها، كي أسند والدي الذي كان زعله كبيرًا من الضربة التي تلقاها عبد الناصر»[26].

الاثنان يليهما لقمان سليم[27] المولود في مطلع الستينيات (1962)، وبالمعادلة نفسها، التي يعتمدها جهاد الزين، ولكن مقلوبة، بتاريخ مختلف؛ إذ يقول: «هناك قبل حزيران/يونيو 1982، وهناك بعد حزيران/يونيو 1982»، مشدِّدًا وقاصدًا، الاجتياح الإسرائيلي للبنان، والذي يصفه على النحو التالي: «هي اللحظة المشهدية الكبيرة التي أسميها الاجتياح، والذي عشته هنا [منزله وحديقته وجواره في الضاحية الجنوبية لبيروت]. تشعرين بها بحواسك الخمس. في 1982 كأن الكون انتهى، شيء يشبه نهاية العالم. في 1982 ثمة شيء انتهى، وإذا خرج الواحد حيًّا من هذه الحرب، يكون عن حق قد ولد مرة ثانية، وصار عنده أفق جديد يبدأ من مكان ثانٍ، إذ لم يعد يوجد أفكار. انتهت الأفكار. ضعيها جانبًا»[28].

ثمة استثناءات أخرى، بعضها يقلّل من حزيران/يونيو 1967، مثل وصف ضرب الطيران الإسرائيلي مطار بيروت في 28 كانون الأول/ديسمبر 1968، هي اللحظة التي ضخّت الزخم لاندفاعتهم السياسية. أحمد الديراني الذي حفظ بدقة تاريخ هذه الضربة، هو المقيم في الضاحية الجنوبية بالقرب من المطار، حيث حصلت الضربة؛ إذ يقول: «كانت أولى مشاركاتي النضالية عام 1968، بعد 28 كانون الأول/ديسمبر من هذه السنة، تاريخ ضربة المطار [اللبناني]، عملت وقتها قصة كبيرة بمخّنا»[29]. فيصل جلول، الذي يصغره بعامين، يستقبل الضربة بالنَّفَس ذاته، ويتحدث عن عنفها قائلًا: «كنا ساكنين بعين الدلبة، بعيد كيلومتر واحد عن المطار. أذكر قبل امتحان البروفيه [الشهادة المتوسطة] عندما حصلت الضربة، نزل بي السرير وارتفع، لشدة ما كان الضرب عنيفًا ومرعبًا»[30].

في الاستثناءات أيضًا: سمير فرنجية (1945–2017)، عرف لحظة انعطاف أخرى، لا علاقة لها بلحظات مجايليه، وإن كانت النتيجة أنه انضوى بعد 1967 في اليسار الشيوعي؛ إذ يعيّن «الأسطورة المؤسسة» للعنف الحربي الأهلي القادم بالسادس عشر من حزيران/يونيو 1957، قبل عقد من هزيمة حزيران/يونيو 1967، فيصفها بقوله إنها «مجزرة مزيارة» التي بدأت في كنيسة قرية مزيارة، المجاورة لزغرتا (شمال لبنان)، بإطلاق نار بين آل فرنجية، أهله، وآل الدويهي، وانتهت بقتلى وجرحى. ويكتب: «بالنسبة إلي هذه المجزرة هي الإعلان الأول عن الحرب التي ستنفجر عام 1975»، بل يورد أحداث عام 1958 وكأنها ملحق لتلك المجزرة التي وقعت قبلها بسنة واحدة. علمًا أن هذه الأحداث عُدّت حينها أزمة وطنية حادة انقسم حولها اللبنانيون بين مؤيد للمحور الغربي ومناهض له، وكادت تفضي إلى حرب أهلية[31]، في حين أن مجايله توفيق الهندي لا يعرف من ذاك العصر سوى كراهية الأجانب والتأميمات الاشتراكية وقمع المخابرات، وجميعهم نالوا من أهله، فتوزّعوا وتشتّتوا: منهم من هرب إلى سورية ولبنان، ومنهم من كابد البقاء تحت حكم مصر الناصرية[32].

لكن جميع من ينتمون إلى الشريحة المولودة في الأربعينيات والخمسينيات، كما أسلفنا، كانت «حزيران» بالنسبة إليهم منعطفًا تاريخيًا، وقد أصابهم شخصيًا في الصميم، ما يلخصه عباس بيضون بالقول: «جاءت في 5 حزيران [يونيو] 1967 هزيمة العرب أمام إسرائيل. وبالطبع وجدت لموتي الشخصي ما يبتلعه أو على الأقل ما يساويه»[33].

تبدأ محورية الحدث بالذبول عند الذين ولدوا في نهاية الخمسينيات، مثل محمد بلوط وزياد صعب. الاثنان انعطفت بهما الحياة السياسية وهما في الرابعة عشرة من العمر، عام 1973، في حين أن الثاني، زياد صعب، ورث عن أجداده لحظة تأسيسية أخرى، أقدم؛ إذ يقول: «لما كان الأهل يجتمعون ونحن أولاد صغار، كانوا يحكون عن بطولات أجدادهم. عام 1925 وقت الثورة ضد الانتداب هي بداية التماهي مع سلطان باشا الأطرش في جبل الدروز. أجدادي شاركوا بهذه الثورة. قوة المثال عندي هي جدي الذي لا أعرفه. أقوم بمقارنة بين جدي الذي كان يقاوم الانتداب الفرنسي، وبين الفلسطيني الواقع تحت الاحتلال الإسرائيلي»[34].

قبل عام 1967، كان لبنان بلدًا «طبيعيًا» تموج في دواخله اضطرابات ويسار متنامٍ وحركة فكرية جديدة وعواصف من التيارات التجديدية في الثقافة في الفن، ودولة أشبه بالفاعلة، خارجة من تجربة شهابية إصلاحية، حاولت أن تبني مؤسسات، أخفقت هنا وفشلت هناك. ثم إن كل ذلك يمر من دون انفجار كبير. أما بعد حزيران/يونيو 1967، فبدت هذه القوى التغيرية الصاعدة كأنها قد وجدت اندفاعتها للتغيير؛ مجرد اندفاعة. كيف؟ هذا ما سوف نلاحظه في الصفحات التالية.

المهم الآن تسجيل تلك المفارقة المتمثلة في أن لبنان الذي لم يشترك في حرب حزيران/يونيو 1967، إلا بدهن مصابيح السيارات باللون الأزرق، وبتعليق أوراق الجرائد على زجاج النوافذ؛ لبنان الذي لم تُحتل أرضه، لبنان الذي لم يعمِّد استقلاله بالمليون شهيد أو بالانقلابات العسكرية، اللهم الانقلاب الفاشل للحزب السوري القومي الاجتماعي عام 1949، الذي حاول تقليد جيراننا بدعم من أحد رجالات حسني الزعيم. فشل الانقلاب وأودع أبطاله السجنَ، ونُفذ حكم الإعدام في زعيمه أنطون سعادة (1904-1949)[35]، وحُلّ الحزب السوري القومي الاجتماعي. لبنان هذا الذي كان يسخر من استقلاله «النظيف»، سوف يتأهّب لأطول عسْكرة عرفها تاريخه، ألهبت معظم نيرانها هزيمة حزيران/يونيو 1967.

ثانيًا: زمن جمال عبد الناصر والناصرية

جمال عبد الناصر يخرج قويًا بعد عام 1956؛ ففي حزيران/يونيو من ذلك العام، يقرر عبد الناصر نقل ملكية قناة السويس من الحكومة الفرنسية إلى الحكومة المصرية، بعدما رفض البنك الدولي تمويل بناء السدّ العالي. وبعد أشهر من هذا القرار، يشنّ الفرنسيون بالاشتراك مع الإسرائيليين والبريطانيين عدوانًا عسكريًا على مصر، لا يحقق غرضه، وينتهي بتثبيت قوة عبد الناصر. ولا يهم ما قيل وقتها إن الانتصار «السياسي» هذا عائد إلى تراجع الاستعمارَين البريطاني والفرنسي، حليفَي إسرائيل القديمين، لصالح الإمبريالية الأميركية، الصاعدة، صاحبة الفضل في إنهاء العدوان وفرض شروطه، فمصر، الريادية بالأساس، ضوعفت رياديتها هذه باستلام الضباط الأحرار السلطة، وإخراجهم الملك فاروق منها.

جورج حاوي، الأمين العام السابق للحزب الشيوعي اللبناني، يضع حزبه، غير المنضوي أصلًا تحت الجناح الناصري، بين الأحزاب التي كانت تتظاهر يوميًا في تلك السنوات تأييدًا لعبد الناصر، وغمزًا، طبعًا، من قناة اليمين اللبناني المتمثل في الرئيس كميل شمعون (1900-1987)[36] وسياسته الغربية الملتحقة بمحور حلف بغداد، المعادي لعبد الناصر. يقول حاوي: «كل الناس كانت مع عبد الناصر»، ثم يفصّل: «خفّف كمال جنبلاط انتقاداته لممارسات جمال عبد الناصر

وأصبح حتى رشيد كرامي، صبري حمادة، صائب سلام وأحمد الأسعد، وكل هذا الجناح من البرجوازية وحتى بقايا الإقطاع، إضافة إلى البعثيين وحركة القوميين العرب والحزب الشيوعي والنجادة والشارع البيروتي والوطني بشكل عام [كلهم] يؤيدونه»[37].

كان سن وضاح شرارة عشر سنوات وقت صعود عبد الناصر، ولا يزال يتذكر رائحة الورق والحبر من مجلات مصرية تصل إلى والده؛ **الاثنين**، **وآخر ساعة**، و**المصور**، يقرأها بلهفة المشتاق[38]. هذه اللهفة تغذي العقول المفكرة الباردة، الباحثة عن المعرفة، تطاول غالبًا القلوب، عاطفتها تساوي ثوابتها، أو تكاد. طفولة وليد نويهض، مثلًا: «الطفولة في وعيي السياسي: كنت طفلًا عائشًا في بيت يحب جنبلاط وعبد الناصر. نواظب على الاستماع إلى خطب عبد الناصر عبر جهاز الترانزستور [...] إذا بكى عبد الناصر نبكي معه، يوميًا نستمع إلى صوت العرب، من دون انقطاع»[39].

بعيدًا عن جبال الشوف الدرزية، في القرى الشمالية المسيحية أيضًا، يصف حازم صاغية حضور عبد الناصر الطاغي وسط أهله. خاله سليم يرى في شجرة الأرز «رمز لبنان والموارنة»، في حين أن خالته رمزية تصف عبد الناصر «روحًا ووجهًا يُقاس بهما الجمال والبشاعة، الصواب والخطأ». ويتذكر صاغية صديق طفولته، علي، المثابر على برنامج أحمد سعيد، اسمه «أكاذيب تكشفها حقائق»، والذي حفظ غيبًا ما تردده هذه الإذاعة، وصار مع الوقت حقيقة دامغة: «وزيرة خارجية إسرائيل عجوز شمطاء، والملك الأردني قزم عمان، وتشومبي [المتهم بقتل باتريس لومومبا] ذَنَب الاستعمار وعميله، وهؤلاء كلهم يتعرضون تباعًا لحذاء أبو خالد [عبد الناصر]، يدوس جباههم في غد عربي عزيز». ويروي صاغية: «كنت في الثامنة حين وُجّهت لعبد الناصر الرسالة التي عرفتُ، من طريقها، بوجود البريد أملاها عليّ العم أبو مروان [...] ولم يمض على إرسال وريْقتي غير أسبوعين حتى وصلت إلي صورة له بالأبيض والأسود، وواحد من ردوده الجاهزة ممهورًا بتوقيعه. هكذا علقتُ الصورة الصغيرة [لعبد الناصر] إلى جانب الكبيرة التي كانت في غرفة نومي أصلًا»[40].

سمعة عبد الناصر جليلة، شعبية، منبسطة، جارفة، طوفان يمحو الحدود الوطنية – القُطرية؛ حدود رسمها الاستعماران الفرنسي والبريطاني باتفاقية سايكس – بيكو المشهورة والمكروهة. ولبنان أرض خصبة لإنكار «القُطرية»، بعد تكوّن متسرع، لم يأخذ وقته للنضوج الكافي، المعصوم عن إغراءات الخارج. هكذا يصف عباس بيضون أثر الناصرية في تصور الهوية الوطنية أو القومية: «الموجة العارمة العابرة للجغرافيا [...] واللاغية في طريقها كل معاني الحدود [...] كنا جزءًا من هذه الموجة، يبدو لنا التاريخ وكأنه تاريخ عربي واحد، تقوده قوة واحدة»[41].

هذا وصف لعباس بيضون، وجد لدى محمد كشلي الصدى العملي. فكشلي، القائد الشاب في حركة القوميين العرب، يروي لحظة لقائه بعبد الناصر بُعَيد الوحدة السورية – المصرية عام 1958: «وقال عبد الناصر للحاضرين: محمد [كشلي] مسؤول عنكم. قالوا له حسنًا. فنظر إليّ عبد الناصر وقال لي àماذا تريد؟ ماذا تقول أنتَ؟’. قلتُ له كل الشباب يريدون ضم لبنان إلى الجمهورية العربية المتحدة. فقال لي بكل وضوح: ماذا تقول يا محمد؟! هذا الكلام لا يمثل الوضع اللبناني. أنتم عندكم وضع خاص. وأنا مع أي رئيس جمهورية سيأتي بعد الأحداث التي حصلت عام 1958». فيعقّب كشلي أن عبد الناصر كان قد تعرّف إلى فؤاد شهاب لأن هذا الأخير زاره، فينقل اقتراح عبد الناصر في الاجتماع نفسه: «اختاروا

واحدًا حسب خصوصية وضعكم». وهذه «الخصوصية» هي، في رأي كشلي، السبب الذي دفع عبد الناصر لطلب رؤية فؤاد شهاب وترشيحه لرئاسة الجمهورية اللبنانية[42]. لكن المهم، بعد هذه المحادثة بين الزعيم المصري والمناضل القومي العربي أن الناصرية، بالنسبة إلى القوميين العرب، «ظلت تشكل [...] أعلى مراحل تطور القومية العربية»[43].

محمد كشلي يتكلم هنا بصفته واحدًا من قادة حركة القوميين العرب، إلى جانب محسن إبراهيم. وهذا الأخير يتردّد اسمه كثيرًا في كتاب جورج حبش (1926–2008) **صفحات من مسيرتي النضالية**. تتكرر زيارات الاثنين، حبش وإبراهيم، إلى عبد الناصر في القاهرة. هو يرى فيهما دعمًا من الدعائم الشعبية الموفورة في العالم العربي أجمع. وهما ينظران إليه بصفته مدَدًا أساسيًا في توطيد توسعهما الجماهيري. وكلمة «جماهير» هذه كان لها وقع سحري، بصفتها تجسيدًا لعمق الوجود. من جهة ثورية رسمية، عبد الناصر، ومن جهة أخرى ثورية شعبية، القوميون العرب، كأنها نوع من أنواع «تقسيم العمل» بين الجهتين، يصوغها جورج حبش بالعبارات التالية: «إذ قلتُ إن عبد الناصر يشكل القيادة الرسمية للثورة العربية، أما حركة القوميين العرب فيجب أن تبقى لتشكل القيادة الشعبية للثورة العربية»[44]. ترجمة هذا التقسيم للعمل تجدها في بداية تكوين مجموعات مسلحة وتدريبها وتنظيمها على يد الحكومة المصرية، تارة تحت اسم «الصاعقة»، وأطوارًا أخرى تحت أسماء مختلفة.

محمود أمين العالم (1926–2009)، المثقف الشيوعي المصري الذي سُجن في بداية العهد الناصري، وأُطلق سراحه بعدما تحسنت علاقة عبد الناصر بالسوفيات، صار الآن شخصية تحظى بثقة عبد الناصر، بل أصبح يمثل وجهة نظره ويتحدث، إلى حد بعيد، باسمه. وبعد حين، صار المعلّم المبعوث غير الرسمي لعبد الناصر، يؤكد الزيارات المتكررة لمحسن إبراهيم إلى القاهرة، وعلاقته الوطيدة مع عبد الناصر، ليقنع قادة الحزب الشيوعي اللبناني بتغيير موقفهم من عبد الناصر. يقول جورج حاوي: «جاءنا محمود أمين العالم محاورًا من قبل جمال عبد الناصر، ومن قبل الاتجاه اليساري الوطني التقدمي في الاتحاد الاشتراكي العربي في مرحلة الستينيات من العام 1964 لغاية 1966». ثم ينقل حاوي عن العالم، الذي «يتكلم من منطلق عبد الناصر وباسم عبد الناصر»، إشادته بمحسن إبراهيم: «أفهمنا [العالم] بأن [عبد الناصر] يحترم محسن إبراهيم ويقدره، وسبق أن دُهش لمشاهدته عند عبد الناصر، فازداد احترامًا لرأيه عندما علم بدوره في مصر وقرب علاقاته بالدوائر العليا»[45].

وجورج حاوي نفسه كالمؤمن الذي يُهدى إلى الإيمان؛ فهو لم يكن يحتاج إلى «خارج» ليحب عبد الناصر؛ فخياراته منذ البداية، التي أفضت به إلى الانتساب إلى الحزب الشيوعي، كانت ذات محورين: فلسطين وعبد الناصر، فموقفه بصفته شيوعيًا كان متلائمًا مع «بيئته وتربيته ومنطلقاته في الموضوع القومي». أما في الحزب الشيوعي نفسه، الذي أصبح جورج حاوي قائده فيما بعد، فإن «انحيازاته الناصرية المبكرة تتسبب بخضة داخل الحزب، الذي كان ما يزال يقوده وقتها خالد بكداش» (1912–1995)[46]، والذي كان «ضد علاقة عبد الناصر بالسوفيات». دور بكداش اللاقومي امتد «وأصبح خلافه مع عبد الناصر خلافًا بين كل الشيوعيين العرب وكل القوميين العرب بشكل عام». وأدى ذلك إلى «إساءة للعلاقة بين السوفيات والحزب الشيوعي السوري [...] وتخطى الاتحاد السوفياتي مصالح الحزب الشيوعي السوري،

حفاظًا على مصالحه مع عبد الناصر»، واعتقال القائد الشيوعي اللبناني فرج الله الحلو (1906–1959) عام 1959، وتعذيبه وتذويب جسمه بالأسيد على يد رئيس جهاز المخابرات السورية آنذاك، عبد الحميد السراج (1925–2013): قصة لها علاقة غير مباشرة ببراعم الناصرية القومية التي كانت تتفتّح داخل الحزب الشيوعي اللبناني. وعبد الناصر نفسه استاء شخصيًا من هذه الجريمة؛ ليس فقط لأن السراج هو عدوه اللدود، وسيكون له لاحقًا دور في الانفصال، ولكن «لأن الجريمة حطّت من قدر عبد الناصر أمام السوفيات» أيضًا. ينقل عنه جورج حاوي أنه قال بعد سماعه نبأ استشهاد فرج الله الحلو: «ماذا أقول للسوفيات؟»، وكان قد أخفى عنهم هذا الخبر عندما بدأوا، أي السوفيات، يراجعونه فكان ينفي[47].

ثالثًا: الحرب الباردة

عبارة «الحرب الباردة»، لم يخترعها الأديب البريطاني جورج أورويل (1903–1950)، ولكنه روّج لها بشرحها وتغذيتها بمضامين معاصرة. إنها حرب من نوع آخر، دُشِّن عهدها بعد عامين من انتهاء الحرب العالمية الثانية. حتى الآن لم يتفق المؤرخون على أسبابها، وإن اتفقوا على سياقها، أي انخراط الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفياتي في منافسة عالمية على مجاليهما الحيوي، قسمت العالم إلى قطبين متعاديَين. وكان من حظ عبد الناصر التاريخي أن العدوان الثلاثي على مصر حصل في مرحلة من هذه الحرب، بين عامي 1953 و1960، بلغ في أثنائه التوتر بين القطبين العالميين أدنى درجاته.

طبعًا، ساهم تراجع الاستعمارين الفرنسي والبريطاني، أمام صعود القوتين العظميين في تحويل اعتدائهما على مصر، بمشاركة إسرائيل، إلى انتصار لعبد الناصر، ولو اقتصر على السياسة دون العسكر، وعلى حلّ موضوع تمويل بناء سد أسوان بمال السوفيات وخبرائهم، في حين انكبت الولايات المتحدة على دعم إسرائيل. والمبالغة في هذا الدعم بنت تصورًا للعلاقة بين الاثنين، وصفت بـ «العضوية».

هكذا، صار العالم مقسومًا بين قطبين واضحين: الأول أميركي، رأسمالي، معاد لتطلع الشعوب الخارجة من استعمار قديم في بناء اقتصادها وكيانها؛ والثاني سوفياتي، محب لهذه الشعوب، تقف خلفه الصين التي صارت بدورها شيوعية (1949)، في حين أطلق الشيوعيون الفيتناميون حرب استقلالهم الأولى من الاستعمار الفرنسي، تلتها حرب استقلال ثانية ضد الإمبريالية الأميركية. والذي أضفى المزيد من الأريحية على القطب السوفياتي أن سعيه لمجاله الحيوي يختلف عن التوسع الأميركي: هي نفسها المستعمرات القيصرية الروسية تحولت كلها إلى «جمهوريات سوفياتية»، أي مذوبة الهوية وبقيادة روسية. أما الدول الأوروبية الشرقية القريبة من حدود هذا الاتحاد، فهي تدور جغرافيًا في «الفلك» السوفياتي. والسيطرتان السوفياتيتان تتفاوتان بين الإلحاق والضم والإمساك بالقرار الداخلي وبتركيبة للسلطة، بحيث يجب أن يكون هناك دائمًا حزب شيوعي قائد لها. وأما الثانية، الإمبريالية الأميركية، فتوسعها مفضوح، يقع بعيدًا عنها، وقد ورث الأميركيون ممرّاتها ومنافذها من الاستعمارين السابقين، الفرنسي والبريطاني، اللذين كانا يسيطران على بلادنا وعلى البلاد التي تشبهنا.

في هذه الأثناء، كان مسؤول الثقافة في الاتحاد السوفياتي، أندريه جدانوف (1896–1948)[48]، قد أطلق «عقيدته» التي أصبحت شعارًا رافق مرحلة الحرب الباردة حتى نهايتها، عام 1991، مع انهيار الاتحاد السوفياتي نفسه. وتقول العقيدة

إن العالم منقسم إلى معسكرين: «المعسكر الديمقراطي المعادي للإمبريالية»، ويقوده الاتحاد السوفياتي، و«المعسكر الإمبريالي المعادي للديمقراطية»، وتقوده الولايات المتحدة. وجدانوف هو ساعد جوزف ستالين الأيمن في شؤون الثقافة، قاد الرقابة السوفياتية على الكتب والأفلام والموسيقى والفن التشكيلي، على نحو أودى بالعديد من المبدعين إلى اليأس والصمت. أن يكون هو نفسه صاحب الشعار يروي شيئًا عن البروباغندا السوفياتية، والمقصود منها كسب ودّ الشعوب الخارجة لتوها من الاستعمار والباحثة عن طريقها الجديد، تسويق سياسي دام بدوام الاتحاد السوفياتي، وإن أخذ في السنوات اللاحقة طابع الأكذوبة المفضوحة، وذلك ربما بفضل الأدب، ومنه رواية سولجنتسين (1918-2008)[49] **أرخبيل الغولاغ** التي تصف الحياة اليومية لمعسكر اعتقال تحت الحكم «الديمقراطي المعادي للإمبريالية». خرجت الرواية في السبعينيات من القرن الماضي، وقد قرأها الشيوعيون الأوروبيون، وكانت فاتحة تغيير موقفهم من هذه العقيدة، وبدء تصدّيهم للستالينية السوفياتية[50]. وما يهمنا في حالتنا أن ثنائية العقيدة الجدانوفية، أي الإمبريالية والديمقراطية، لم تتغير؛ أضيفت إليها مع الوقت الصهيونية، وإن تغيرت علاقتهما، المفترض أنها جدلية. الشيوعيون اللبنانيون عاشوا طويلًا على حساب «اقتران» الديمقراطية بالسوفياتية.

ولكن الآذان وقتها لا تسمع «عقيدة» جدانوف بما نسمعه اليوم. فبعد انتصار عبد الناصر سياسيًا على إسرائيل وفرنسا وبريطانيا عام 1956، يروي جورج حاوي ما يلي عن الانتخابات النيابية التي تلت ذلك العام : «في ظل العدوان الثلاثي على مصر، وإنذار نيكولاي بولكانين [بولغانين] الشهير[51]، وزير الدفاع السوفياتي آنذاك، الذي هدّد بالتدخل العسكري وضرب لندن وباريس بالسلاح النووي إذا لم توقفا العدوان ضد مصر، والذي تلاه الانسحاب الفرنسي والبريطاني والإسرائيلي من سيناء [...] بدأت شعبية الاتحاد السوفياتي تكتسح العالم العربي من أقصاه إلى أقصاه والعطف على الشيوعيين»[52].

فالمشهد وقتها كان مشبعًا بمناخ ورياح لا يحتاجان إلى من ينطق بهما. مناخ واحد أو بالأحرى مناخان: اليمين واليسار. اليمين هو الرجعية والتقاليد والإمبريالية والتجزئة والولاء للغرب ولحلف بغداد والمعادي للعرب وعبد الناصر وفلسطين، في حين أن اليسار يسبح في بحر من الشغف؛ عكسهم تمامًا: هواؤه شبه محمي، قبّته سماوية تبعد عنه الشكوك والسؤال. إنه شيء يشبه الإيمان بالتقدم وبعبد الناصر بالوحدة العربية، بفلسطين، بفيتنام وكوبا، بكفاح تشي غيفارا في أدغال بوليفيا، بالعالم الثالث، بوحدته، باشتراكية ما. والجميع في هذا الشغف الجماعي منشغل في السياسة، يتلقفها في المدرسة، في الجامعة، في الحيّ. وصحافة مزدهرة وجامعات ومسرح. نداوة الحياة وغضب من عدم تحقق الطموحات القومية الوطنية. كل هذا عائم على سطح من النقصان، ثمة شيء غير مكتمل في هذه القبة. من جهة ما يشبه اكتمال الثورة الحقيقية، ولكن من جهة أخرى ما يشير إلى أنها متعثرة بقدومها. لكي تخرق التاريخ هي في حاجة إلى إذن منه، إلى فراغ تملؤه قوى مؤمنة ومستنفرة، فتأخذ دورها، ويكون لها ما تبغيه من لعبه، كما كانت براعم فكرتها تشير. الفكرة مورد، والتنظيم مورد، والاثنان في حالة من شبه الجاهزية في انتظار اللحظة التي سوف تُخرج ماردًا من نوع آخر. يصف عباس بيضون ذاك الزمن: «كنا مليئين بالحماسة والطاقة والإيمان. لو تُصنّع هذه الحماسة لأمكن كهْرَبة لبنان على مدى قرن»[53]. العملاق عبد

الناصر، يقول عنه عباس بيضون: «عبد الناصر لم يكن يكفينا. كنا في حاجة إلى أكثر من شخص. كنا في حاجة إلى دعوة، أي شخص ما كان يكفي. كنا نريد شخصًا يعبي. شخص مثل لينين. عبد الناصر لم يكن كافيًا»[54].

عبد الناصر أم لينين؟ الاثنان عزوة. يصف حسام عيتاني سعادته السوفياتية وهو طفل: «رسخ في أذهاننا الطرية أن السعادة في ما يقوله أبي عن هذا العملاق، فيما تسعى أمي ونظيراتها ومن تستعين بهن من عجائز إلى إقناعنا به. هذه القوة لم تكن سوى الاتحاد السوفياتي». ويتابع بعد سطور: «كنتُ أشعر بفخر عندما تسير حافلتنا المدرسية أمام مبنى السفارة العالية والمرصوفة عليه صور دعائية عن الاتحاد السوفياتي، كثيرًا ما كانت تبرز من بينها صور لتلميذات بشعورهن المجدولة وضحكاتهن الواسعة دليلًا على الأمل بالمستقبل المشرق الذي يبنيه السوفيات لهم»[55].

رابعًا: المثقف اليساري

الفقر «النظري»، أو الوعي بهذا الفقر، عشية حرب حزيران/يونيو، يعطي دفعًا للقراءة والكتابة، وقيمة خاصة لمن يتعامل معهما. الأحزاب القائمة كلها تعاني إما فقرًا نظريًا وإما جمودًا نظريًا. الحزب الشيوعي، على الرغم من السوفيات، أو ربما بسببهم، شحيح فكريًا ومتحجّر، تنقصه الوجوه، ولن يتمكن من اللحاق إلا متأخرًا، مع تكريسه مهدي عامل (1936-1987)[56] منظِّرًا «جدليًا» للحزب، مسؤولًا عن «تثقيف» الرفاق. الحزب السوري القومي الاجتماعي لا يعلو فوق عقيدة أنطون سعادة. حزب البعث لا يقل عوزًا، لا تسعفه لمعات ميشيل عفلق (1910-1989)[57]، ولا فلسفة زكي الأرسوزي (1899-1968)[58]. القراءة فعل نضال يساري تستعيد دور المثقفين في التحالف الذي سيقود إلى جنة الاشتراكية والتحرر من الإمبريالية وتحرير فلسطين، وهو دور طليعي يتكبد صاحبه مشقة القراءة والترجمة والشرح والنقل.

في مجال الوظيفة. إذًا، ثمة بديهية عن دور مطلوب للمثقف، ومعها بديهية أخرى عن المصدر الذي يفترض أن ينهل منه هذا المثقف، أي الماركسية، ولكن بغير ترجمتها السوفياتية التي أحلت عليها قيادة الكومنترن (الأممية الشيوعية) مفاهيم ومقولات ليست صحيحة ولا دقيقة، ولم يكن غرضها إلّا تقوية الرقابة السوفياتية على نشاط الأحزاب الشيوعية التابعة لها، ومنها الحزب الشيوعي اللبناني، لذلك فسوف تغرف العقول المدبِّرة من فرنسا، ثم من بريطانيا، مادة تحررها من أسر الشيوعيات المقنّنة والبعثيات الخاذلة والقوميات المتناهية الإخلاص لفكر القائد، وسوف تكون القراءة في حد ذاتها سبيلًا إلى الارتقاء الحزبي.

جملة موجزة لعباس بيضون، وهي «ساعدتني القراءة على أن أكون مسؤولًا حزبيًا»[59]، تلخص المسارات الموازية لمثقفين يساريين كان الكتاب عندهم سببًا من أسباب قيادتهم المحيط الحزبي الذي هم فيه، أو على الأقل الانسجام مع مكوناته السياسية، ولو عن بعد. يروي بول طبر الذي انتسب إلى منظمة العمل الشيوعي وهو مهاجر إلى أستراليا: «التقيتُ شخصًا درس الفلسفة في الجامعة الأسترالية. سألني: ماذا تقرأ؟ أجبته: أقرأ àنشوء الأمم’، فقال لي àما لك بهذه القراءات؟! إقرأ الماركسية!’، فأعطاني كتابًا وقتها، كتاب àالثورات’ عن دار الطليعة لجورج طرابيشي [1939-2016][60] عن ثورات العالم الثالث، وكتابًا عن فرانز فانون àمعذبو الأرض’، وكتابًا عن النظريات الثورية في العالم الثالث. من وقتها صار عندي اهتمام بالماركسية»[61].

المثقف اليساري هو المكرَّس، الذائع، المرغوب، وضحيته أسماء متفاوتة من المثقفين: اليميني والديني. المثقف اليميني يتمثل بثلاثة مثقفين متفاوتي القدر يجمعهم نبذ المثقف اليساري لهم. الأبرز هو شارل مالك (1906–1987)، أستاذ الفلسفة الموسوعي، الذي يتقن، إلى جانب العربية، كلًّا من الألمانية والفرنسية والإنكليزية، وسفير لبنان إلى الولايات المتحدة التي لا يخفي إعجابه بها، ومندوب لبنان إلى مؤتمر سان فرانسيسكو، المكلف بصياغة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان عام 1948. في كلماته في مجلس الأمن كان يؤكد، باسم لبنان، أولوية الإنسان على الدولة وعلى الدين، فاصطدم بالمندوب السوفياتي، وسوف يكون له معه سجالات علنية، حيث كان مالك من أشد منتقدي الاتحاد السوفياتي. ومعروفة عنه حادثة أنكرها بعدما وصلت إلى لبنان، بصفتها وجهًا من أوجه تطبيعه مع إسرائيل؛ إذ يقول إن وجوده في الجناح الإسرائيلي لأحد المعارض، في أثناء توليه مهماته الرسمية في نيويورك، كان فخًّا، انسحب منه بسرعة وكتب بصدده مقالًا في صحيفة **نيويورك تايمز** لنفي معرفته المسبقة بالوجود الإسرائيلي[62].

المثقف الثاني هو كمال الحاج (1917–1976)، الفيلسوف، وأستاذ الفلسفة في الجامعة اللبنانية، وصاحب نزعة عروبية لغوية في بدايته، ولكنه تراجع بعدها وصار منظِّرًا للقومية اللبنانية، رابطًا بينها وبين جوهرانية فلسفية لبنانية، كان يوجزها بصيغ من نوع «تلبْنن الفلسفة»، أو «تفلْسف لبنان». يختار كمال الحاج اسم «اللبنانولوجيا» لمذهبه، ويعلق عليه جورج طرابيشي في معجمه الفلسفي: «كيف تكون اللغة عربية والقومية لبنانية؟ فهذه صعوبة لا تجد [...] لها حلًّا إلا عن طريق تمييز مصطنع وغير مقنع بين مفهومي àالأمة العربية’ وàالقومية اللبنانية’»[63].

الأخير هو الشاعر سعيد عقل (1912–2014)، وهو الذي نال القدر الأقل من التسخيف والتهشيم، ربما لطول حياته (102 سنة)، مقارنة بنظرائه، خصوصًا كمال الحاج الذي قضى مقتولًا في ظروف غامضة، أو شارل مالك الذي عاش ما يعيشه مجايلوه وقتها القدر الكافي من الحياة، وربما أن «لاتينية» سعيد عقل أيضًا التي حاول عبرها أن يكتب بالعامية اللبنانية وبالأحرف اللاتينية، لم تعمر سمعتها طويلًا، عكس قصائده بالعربية الفصحى، وربما أخيرًا حصانة معنوية اكتسبها من الرحابنة، وقد غنت المطربة فيروز بعض هذه القصائد.

كان هؤلاء الثلاثة في تلك الفترة تحديدًا مضرب مثل عما يجب ألّا يكون عليه المثقف، أي اليساري حتمًا: مشيدًا بالإمبريالية والقومية اللبنانية. كان استصغار عقول هؤلاء المثقفين الثلاثة، والاستهزاء بمواقفهم وشروحاتهم، منتشرين في الوسط اليساري؛ فالزمن ليس زمنهم. ينقل نهاد حشيشو هذا الجو بأمانة؛ إذ يقول: «عام 1962، كنتُ سنة أولى في الجامعة. شتمتُ كمال الحاج. وقتها صار كمال الحاج يضايقنا ونحن نريد أن نتوسع. وعنده 200 طالب يلقي عليهم محاضرات كلها ضد الشيوعية، فقال لي جورج حاوي ما قصته هذا؟! وآخرتها معه؟! هذا قادم إلى الجامعة، وكل عمله أن يشتم الشيوعيين. المهم أنني كنت متحمسًا إلى حد أنني دخلت إلى الصف شتمته، وقلت له أنت يا أستاذ جاسوس أمريكاني!»[64].

المثقف الديني – ثانيًا – في الجنوب العاملي خصوصًا، حيث كان الشيوخ هم المولعين بأمور الثقافة، ولا يُعرف عنهم، قبل هذا المناخ الجديد، أنهم مثقفون غير دينيين. يقرن عباس بيضون هذا التراجع لرجال الدين الجنوبيين بالحَيَوات التي مضى بها

أصحابها: «بدأت الأرض تهتز. تلك هي الفترة التي خلع فيها علماء دين عمائمهم وراح بعضهم يثبتون إيمانهم بشهادات غريبة في نبيهم ودينهم. أكثرهم انضباطًا كانوا أشد معاناة. بينهم من جن أو انتحر أو قتل امرأته أو هام في الشوارع، بينهم من ابتلعته كآبة لم ينج منها إلا بالموت، منهم من ابتأس وافتقر واضطر إلى التسول وطلب الصدقة، بينهم من انسل كحوليين ومجانين، بينهم من قتله شحّ لم يعهده في أول حياته، بينهم من صار يرتشي علانية ومن أخذ يقرض بالربا. الأكثر انضباطًا كانوا الأشد إنهاكًا. لم يعودوا قادرين على حماية شيء. رغم كل مظاهرهم كانوا الحلقة الأضعف. حين تجاوزناهم انعزلوا. كنا بدأنا نبحث عن أسطورة أخرى»[65]. وهو ربما يقصد حسين مروة (1910–1987)، وكان مرسومًا له أن يتعمّم، يذهب إلى حوزة النجف الأشرف بالعراق لدرس العلوم الدينية، ولكنه عاد منها شيوعيًا بتأثير من صديقه الشيوعي العراقي، الشاعر محمد مهدي الجواهري (1899–1997)[66]، ثم يكتب **النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية** (نشر عام 1978)، حيث يقرأ الفكر الإسلامي قراءة مادية جدلية، تضفي انسجامًا بين التراث بوجهه المادي وحركة التحرر الوطني[67].

الحلبة إذًا حكْر على المثقف اليساري: تضعه فوق الجميع وظيفته، دوره، طبيعة نشاطه، والواضعون ليسوا دائمًا من محبي الكتاب والكتّاب، ليس بالضرورة أن يكونوا كذلك، وربما، أيضًا، ليس من الضروري أن يكون الكتَّاب من محبي الكِتاب، فضلًا عن كتاب غيره، لكن الوثبة منطلقة، ومكتوب لها عمر طويل. المثقف وحده، قبل غيره من الفئات، جذاب وفاتن، مطعّم بروح النجوم؛ هو هذا وقته، زمنه. فكان ذاك الغرور، ذاك التشاوف على الذين لم يقرأوا، لم يعرفوا. يصف عباس بيضون هذا التعالي: «حسبنا أننا وحدنا الذين نفكر وأننا نأتي بعد قرون من عدم التفكير، وأننا تقريبًا مختارون. كان العالم الذي حولنا لا يفكر لدرجة تخيلنا معها أنه غير موجود. كنا وحدنا في منطقة انعدام وزن جلنا فيها بخفة وسهولة، لم نصادف فيها سوى ظلالنا الكبيرة، وبدون أن نكون فعلنا شيئًا بدأنا بتصديق أنفسنا. محابيس في أقفاص من ورق وكلام. نحتقر حياة الآخرين المليئة بالسخف، ونفضل عليها حياة راشدة ليس فيها شيء»[68].

المقارنة بين الزمنَين مغرية: اليوم، يتحسّر المثقف، ولا بد من أنه «كان» مثقفًا ويساريًا، يلعن التلفزيون والإنترنت، يحمّلهما المسؤولية كاملة، يحزن على ما كانه في ماضيه، يتذكر، بحنين موجع، الصورة القديمة التي بنى من أجلها دوره، وكانت مشرقة، وهو لا يستطيع أن ينساها: كان مرموقًا، مسموعًا، نجمًا ساطعًا في محيطه الضيق والأوسع. هو الذي يفسر ويشرح ويصف ويترجم. هو المرجع، كان هذا هو دوره. الآن، الوضع تغير، تراجع المثقف إلى مصاف المواطن البسيط، مثله يبحث عن دور، أو يئس من البحث عن دور، مثله فاقد التأثير في الجموع، ومحروم من موارد هالته التي كان يتمتع بها نظيره في عصور الازدهار، فتراه جالسًا في زاويته، يسخر ويندب وينقّ وينظر إلى المهانة بصفتها نهاية حكايته ودوره، ومعها نهاية السياسة والتاريخ.

بعضهم، الأكثر ذكاء من آخرين، يريد أن يثبت العكس؛ أي أن المثقف ما زال بألف خير. يتجه صوب الأداة الجديدة، مثلًا، التلفزيون، ويصبو إلى احتلال شاشاته، ولو برهة من الزمن: خبيرًا في شؤون قضية أو ملف، مقدمًا للبرامج أو محاورًا، لكنه لا يبلغ مبلغ بقية النجوم الجدد، الشيوخ أو مغنيات الفيديو، أو الإعلاميين الشباب، فينسحب بعضه.

يروي عباس بيضون، ابن تلك المرحلة، تجربته الجديدة مع التلفزيون، يبدأها بقناة **المستقبل**: «كان برنامجًا ثقافيًا، عاش ثلاث عشرة حلقة، ولم يستمر بعد ذلك: لم يستمر، لأن أول حلقة كانت مع أمين معلوف [روائي لبناني – فرنسي فرنكوفوني]، وأنا مع أمين معلوف لم أكن مهذبًا. هم جاؤوا بأمين معلوف إلى لبنان ليحكي كل شي، وإنه فخر البلد وأخذ جائزة الغونكور الفرنسية، وهم سعداء جدًّا به. غطوا كل النفقات [...] ولكن أنا تكلمتُ بشكل لا يناسب أمين معلوف. عقدنا لقاء، ورأى كيف أشتغلُ على البرنامج، وفرح كثيرًا. انبسط كثيرًا، فأنا قرأتُ كل رواياته. وعندما بدأت أطرح أسئلة مركّبة، من نوع أنه في روايته àسمرقند’، من الواضح أنه يواجه بها الإسلاميين، وأن هذا ليس بالجديد في الرواية التاريخية، وذكرت له جورج لوكاتش[69] [...] تبرّم كثيرًا [...] كان يمكن أن يرد عليّ ببساطة أكثر، ألا يأبه بلوكاتش، كأن يقول لي مثلًا: حسنًا أنا لست فرانز كافكا[70]، بل جرجي زيدان[71]. ماذا كان سيفرق معه؟ ولكن أبدًا: هو لا يحب هذه الأسئلة ولا اللبنانيون يحبونها. في لبنان كمية غير محدودة من الدجل، خاصة عند المثقفين [...] فأنا قلتُ له أنت عندك طريق واحدة لكل رواياتك، وأنت تعرف عدة لغات، وعدة بلاد. تمرّ بقصة حب سريعة، وكل شخصياتك يشبه بعضها الآخر [...]. فروايته الأولى àليون الأفريقي’ [1986]، وهي الأجمل، بنى عليها أمين معلوف كل رواياته اللاحقة. أما عندما تقرئين رواية àصخرة طانيوس’ [1993] أو àسمرقند’ [1988]، كل شيء يتزعزع: الجميع فيها يعرفون لغات وقوميات وشعوبًا مختلفة، يخوضون قصص حب تمر بسرعة، مثل الغيمة».

بعد هذه التجربة الأولى، يحط رحال عباس بيضون في القناة الرسمية، المملوكة للدولة، فيخوض تجربته التلفزيونية الثانية، وهو يروي: «بعد قناة àالمستقبل’ جاء فؤاد نعيم، مدير القناة الرسمية، وعملنا حلقة واستفدنا من تجربة قناة àالمستقبل’، منها أنني لستُ شخصية تلفزيونية لا بصوتي ولا بشكلي فأنا اختفيت، وعملت بطريقة مختلفة: أحضر البرنامج، ولكنني لا أظهر على الشاشة [...] كان عملًا أكثر ديناميكية»[72].

آخرون غير عباس بيضون، لكي يستمروا، يرون ضرورة تغيير طبائعهم الثقافية، ويتحول الواحد منهم إلى «إعلامي»، أي صحافي بالصورة، لا يحب الكتاب، لا يقرأه، لا ينوي قراءته، مع أن برنامجه، مثل برنامج بيضون، عبارة عن «تقديم» كتب و«مناقشتها». مثلًا، لا حصرًا، أذكر منذ سنوات، أثناء صدور كتابي الأول **دنيا الدين والدولة**[73]، اتصل بي مثقف، شاعر، و«من الجو اليساري»، وكان لتوه بادئًا تجربة تلفزيونية من هذا النوع «الثقافي». قال لي إنه يريد أن أظهر في برنامجه، لأنه سوف يعرض فيه كتابي الجديد ويناقشه. فرحتُ، وسألته ما رأيه فيه، أي في كتابي. أجاب بأنه لم يقرأه. تعجبتُ وطرحتُ عليه السؤال الطبيعي، وقتها: «كيف تريد أن تقدم كتابًا على الشاشة ... لم تقرأه؟!». أجاب بأنصاف العبارات، فهمتُ منها أن التلفزيون «لا يحتاج إلى قراءة»، وأنه يكفي أن يطرح عليّ أسئلة يعرف هو كيف يصوغها من دون العودة إلى الكتاب، وأنه في وسعي إذا شئتُ، أن أقترح عليه الأسئلة، فأسهّل عليه المهمة وغير ذلك. رفضت وقتها إجراء المقابلة. أما هو، فأصبح الآن أهم مقدِّم لأهم برنامج ثقافي.

على الرغم من خروج بعضهم إلى الشاشة، مقدمًا للبرامج، أو مجيبًا عن أسئلتها بصفته فاهمًا للأمور، فإن شأن المثقف لم يرتفع، ولا الثقافة معه، وبقيت الحسرة لدى الأكثر تجهّمًا: ماذا يفعل المثقف بالضبط؟ ما دوره؟ هل كان عصره فعلًا

«ذهبيًا»، أيام المثقف التقليدي، الثوري، المرغوب، المتألق؟ بل هل يمكن الاسترسال في الحسرة إلى الأبد، في انتظار انقشاع لن يأتي؟ وما العمل من أجل أن يكون الفعل الثقافي، خصوصًا الكتابي منه، ممارسة محبوبة لنفسها؟ من أجل أن يقرأ المثقف، أن يكتب، أن يسأل الميدان، الإنسان، مادتَيه الحيويتَين، من دون أن يلهث خلف «الأكثر مشاهدة»، من دون أن يضطر إلى الكتابة الترفيهية، عن الجنس أو الدين أو الرعب؟

خامسًا: الشيعة في قلب اليسار

أشرتُ في الفصل الأول، بسرعة، إلى طغيان الشيعة في العيّنة التي نحن بصددها. تضاف إليه المنافسة غير المتكافئة بين أحزاب اليسار وحركة موسى الصدر. كان الشيعة قبل العهد الشهابي أكثر الطوائف حرمانًا في لبنان، في الموارد والتعليم والوظائف. وكان الشيعة يتوزّعون وقتذاك بين ثلاثة أقطاب: الأول العائلات القديمة، من عشائر وملّاك أراض شبه إقطاعيين؛ والثاني حركة موسى الصدر، «المحرومين»، التي انضمت تحت لوائها البرجوازية الجديدة والمهاجرون الأثرياء والنخب المتعلمة الجديدة. وطروحات الإمام انطوت على رفع لواء المحرومين الشيعة، وعلى مشاريع إنمائية ومؤسسية (المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى)، وعلى إنجازات خاصة بالطائفة الشيعية، وبالخصوص لجنوبييها (هيئة نصرة الجنوب، مجلس الجنوب). أما القطب الثالث، فهو اليسار، ويضم نخبًا جديدة، مثقفين ومدرسين ومحامين وصحافيين وصغار الفلاحين وعمالًا زراعيين[(74)]. ومعلوم أن حركة الصدر هي التي استحوذت من بعده على الجمهور الأكبر من الشيعة. يقارن أحمد بيضون بين الحشدين الصدري واليساري، فيعلق: «كان هناك شعور بأن موسى الصدر يدعو إلى مهرجان في [مدينة] صور يجمع 100 ألف واحد، فيما نحن نفخر بإنزال àبلوك' من 500 متظاهر، قد يكون قسم منهم لا علاقة له بنا»[(75)].

وصفة نجاح الصدر؟ موسى الصدر كان قصده صائبًا؛ بمعنى أنه يدخل في صميم الهندسة السياسية اللبنانية، من جهة أن لكل طائفة حصة، والمقصَون من هذه الحصة عليهم الاجتماع والتنظيم للمطالبة بها، فالطائفة الشيعية كانت محرومة من الموارد الاقتصادية والإنمائية والسياسية. تسيطر عليهم بضع عائلات إقطاعية، زادت الهوة بينها وبينهم، كقاعدة شعبية، وكان الشعور قويًّا بأن السنّة صادروا تمثيليتهم الإسلامية واحتكروها[(76)].

وقد يكمن جذر الصراع، أو بالأحرى أحد جذور الصراع المذهبي الآن، بين السنّة والشيعة، المجسد بالصراع بين السنية السياسية والشيعية السياسية، في تلك المرحلة من تاريخ لبنان، حينما كان الشيعة فاقدين نوعًا من الاستقلالية السياسية يجرون هجرتهم وتهميشهم وإفقارهم بوجه مسلمين آخرين، لا يختلفون عنهم إلا بالمذهب. وقتها لم يكن هذا الجذر على القدر الكافي من التبلور، ربما لأن الصراع الطائفي كان يدور بين مسلمين ومسيحيين، بين كتلتين كبيرتين، تختفي خلفهما الفروق؛ بسيطة في آنها، وخطِرة بعد حين.

كيف نفهم، إذًا، أن تستيقظ الطائفة في هذا الوقت تحديدًا؟ ما الديناميكية التي حرّكتها، أو – بعبارة أخرى – الحظوظ التاريخية؟ شيء من الجواب تجده في الإصلاحات التي أدخلها الرئيس فؤاد شهاب، بعدما انتهت «ثورة» 1958، وأثمرت اتفاقًا بين شهاب وعبد الناصر؛ أن يكون له، أي شهاب، حرية إطلاق الإصلاحات الضرورية التي سوف تمنع «ثورة»

أخرى، مقابل تأييد الجماهير المسلمة لعبد الناصر، والتظاهر لنصرته، بالقدر الذي يعتمل في صدورها حماسة له ولمواجهته الإمبريالية وإسرائيل. فحصل أن دعم فؤاد شهاب جهاز الدولة، وزاد عدد العاملين في إداراتها، وطبق المناصفة بين الطوائف، وقلّص حجم الدوائر الانتخابية، وأزال «نسبيًا» الحواجز التي كانت قائمة حول المراكز المحلية الريفية الشيعية، فدخلت هذه القرى أول مرة في قلب النظام الإداري والسياسي. وفضلًا عن الإصلاحات التنموية التي أصابت هذه القرى، كان لتنمية الجهاز التعليمي، في المدرسة والجامعة الرسمية الوطنية، أثر في إنتاج شبان شيعة وتكوين مدرسين «كان لهم تأثير سياسي واجتماعي وثقافي أكيد في حساب رجال الدين التقليديين والأعيان المحليين»[77]، وذلك بعدما كان الشيعة الأقل تعلمًا من بين الطوائف الأخرى، في إحصاء يعود إلى عام 1932[78]. باختصار، «تكونت طبقة متوسطة شيعية متعلمة ذات تطلعات إصلاحية وجذرية، حاولت تدعيم مركزها وإنهاء الوضع الطرفي الهامشي للطائفة»[79].

ليس فؤاد شهاب وحده هو الذي أتاح للشباب الشيعي فرص التعليم. الحزب الشيوعي اللبناني، الذي ساهم في تأسيسه الأرمن، كان في بدايته حزبًا مسيحيًّا، وعدد الشيعة فيه أقل بكثير من المسيحيين. يسترسل جورج البطل في وصف حال المثقفين الشيعة داخل الحزب في تلك الأيام: «كان لدينا ثلاثة من الشيعة تعلموا هم السيد الشريف الحسيني الذي درس في دمشق، وحسن عواضة [اليسوعية في بيروت]، وعبد الله محسن الذي كان أبوه مهاجرًا في أميركا». ثم يتابع: «باستثناء هؤلاء الثلاثة لم يكن هناك أي شيعي يحمل شهادة حتى فترة الخمسينيات والستينيات، قبل أن تساهم المدارس المهنية أولًا، ثم المنح الدراسية إلى الدول الاشتراكية في تبديل هذا الواقع». وللحزب طبعًا يد في هذه المنح. ففي قرية جورج البطل وحدها (مشغرة) «خصص الحزب الشيوعي اللبناني من 75 إلى 80 منحة من طبيب ومهندس وأستاذ جامعي». «أما أين هؤلاء اليوم؟» (يتساءل البطل بحسرة)، فـ «فحدث ولا حرج»، فقط «أربعة أو خمسة منهم يحنّون إلى الذين نقلوهم من حالة اجتماعية إلى حالة أخرى»[80].

يعي أفراد العينة هذه الخصوصية الشيعية، وإن بدرجات. كمال حمدان لا ينفي شيعيته، ولكنه يود تأكيد، قبل البدء بالحديث، قِدمَ هجرته أو هجرة أهله من الريف إلى المدينة، أي أن ينزع الصفة الطبقية عن شيعيته، الموصومة وقتها بالفلاحية؛ إذ يقول «نحن في بيروت منذ سنة 1907. وكان عندنا محل في سوق سرسق بدءًا من عام 1910. وجدي كان أمّيًا [...] ولكنه كان وجيهًا. وكان رجل خير وإيمان [...] أعمامي وعماتي [شخصيات مرموقة]. عائلة قومية يسارية. درستُ في الليسه الفرنسية دخلت إليها وأنا عمري ثلاث سنوات، وليس بالمقاصد [مدرسة إسلامية]. وبعد ذلك انتقلتُ إلى الجامعة اليسوعية [الفرنكوفونية]»[81].

عند عباس بيضون، التمايز مختلف. لا يريد الانتماء إلى المدينة المتكبِّرة التي هاجر إليها، هو وأترابه. ولا يريد البقاء على انتمائه الريفي أيضًا. يريد أن يتميز من الاثنين، فيبتدع لهجته الخاصة. «صنعتُ لهجتي قطعة قطعة»، يقول «لهجة عجيبة»، ويضيف: «هي مزيج من المصري والفلسطيني واللبناني ساحلًا وريفًا، من نشرات الأخبار والأغاني»[82]. هكذا تخلّص من لهجته الريفية، وهو يوضح في المقابلة معه أنه وأحمد بيضون ووضاح شرارة، الثلاثة «بدرجات متفاوتة كنا نصنع لهجتنا الخاصة». (هو يذكر الثلاثة تحديدًا لأنني أنا التي سألته عن التشابه بين لهجته ولهجتيهما). ويضيف «مع أنني

أستبعد أن أكون متأثرًا بواحد منهم، ولكن في الوقت نفسه أتصور أننا نحن الثلاثة كنا نهدف أن نعمل لهجتنا الخاصة».
حول وعي هذا الموضوع: «لا أعرف إن كنت واعيًا. لا أتصور أنني كنت واعيًا، أو عن قصد»، لكنه في النهاية يجد لهذه اللهجة تفسيرًا: «في رأيي كان هناك مشكلة مع اللهجة لدى كل الموجودين. أولًا، هم ناس قادمون من الريف أو أصلهم ريفي، وكانت هذه مشكلة فعلية؛ لأن بعضهم كان يفكر أن تركه لهجة الريف خيانة للريف، فاستعاد بعضهم لهجته الريفية. أتذكر [الشاعر] عصام العبد الله الذي سكن في بيروت طول حياته، ويمكنه التكلم باللهجة البيروتية براحة تامة، كان يتكلم باللهجة àالخيامية' [قرية الخيام جنوب لبنان]، ومثله أناس آخرون عرفوا هذه المشكلة بدرجات متفاوتة، فمشكلة اللهجة كان لها علاقة بجماعات تبحث عن هويتها وعن نفسها»[83].
سوف يتطور الحضور الشيعي، ويترسخ مع الأجيال الجديدة لاحقًا، وذلك بفضل العزوف النسبي والمتقلب لأبناء الطوائف الأخرى. امتناع سنّة المدن، خصوصًا بيروت، عن الشيوعية، يقارنه حسام عيتاني بإقبال نظرائهم البيارتة من الروم الأرثوذكس على الخوض في الحزب الشيوعي: «وكان جمهور الحزب الشيوعي بين مسيحيي بيروت، وخصوصًا من الطائفة الأرثوذكسية، حاضرًا حضورًا مؤثرًا في مناطق تواجده، خلافًا للشيوعيين السنّة الذين ظلوا طوال عقود يُعدون على أصابع اليدين»[84]. يوازي هذا الاعتكاف السنّي البيروتي انضمام غالبية المسيحيين إلى أحزاب اليمين، ويناظره التدفق الشيعي على مجمل المجال العام، ومنه أحزاب اليسار.
يؤكد ذلك أحمد بيضون في رصده نشأة «لبنان الاشتراكي» (ذكره آت)، فيروي: «إن ابتعاد [أفراد محددين عن المجموعة] قد عزز تعزيزًا ملحوظًا موقع العنصر الشيعي الجنوبي في الإدارة الفعلية للنشاط. وكانت هذه الغلبة، من قبل هذا الوقت، كاسحة على مستوى àالقاعدة'، فالحال أن الحلقتين اللتين توليتُ أمرهما في حيّ اللجا وفي النبعة كانتا مشكَّلتَين حصرًا من شباب شيعة جنوبيي المنابت، وكانت هاتان الحلقتان تمثلان، في سنة 1967، ما يقرب نصف التنظيم، ولم يكن النصف الآخر يختلف عنهما اختلافًا بينًا لهذه الجهة [...] بقي المدينيون الأصل والمسيحيون والسنّة قلّة»[85].

سادسًا: الأحزاب، وفرة يسارية

1. الحزب الشيوعي اللبناني

«التقى [فؤاد] الشمالي [1894-1939][86] مع [جوزيف] برجر [1904-1978[87]، مندوب الأممية الشيوعية]، في أوتيل أوروبا ببيروت. أخبره بأن مجموعة شيوعية من العمال قد تكونت في بكفيا [بلدة مسيحية في جبل لبنان]، وقد حاول هو الاتصال بالأممية الشيوعية عن طريق الحزب الشيوعي المصري فلم ينجح. ولا بد لنا من الحصول على الشروط الـ 21 للأممية حتى نعمل على أساسها. وهكذا، مساء اليوم نفسه، الجمعة 24 تشرين الأول [أكتوبر] 1924: عُقد اجتماع في منزل بالحدث (ضاحية من بيروت). وتشكلت، في الاجتماع، نواة قيادية شيوعية من خمسة أشخاص: أربعة عمال، من مجموعة بكفيا نفسها، ومثقف كادح واحد هو: يوسف إبراهيم يزبك [1901-1982][88]، الذي اختير سكرتيرًا للحزب. وأعلمت الأممية الشيوعية بالخبر: تأسيس الحزب الشيوعي اللبناني»[89]، أي الحزب الشيوعي اللبناني – السوري بقيادة خالد بكداش (ينفصل الحزبان أحدهما عن الآخر عام 1964).

إنه الحزب الشيوعي اللبناني، أقدم الأحزاب اللبنانية، وبالمرجعية السوفياتية المشار إليها بالشروط الواحدة والعشرين للأممية: وهي وثيقة كتبها لينين عام 1920، وترأسها غريغوري زينوفييف (1883-1936)، تتضمن الشروط التي يجب أن تتوافر لدى الحزب الراغب في الانضمام إلى الأممية الثانية، وعلى رأسها العمل بقيادة الأممية من أجل استلام السلطة وإقامة الحكم الشيوعي، بإرشادات من المركز السوفياتي. والشروط المطلوبة بالغة العدد ومفصلة على القياس الأيديولوجي والتنظيمي السوفياتي[90]، والنظام الداخلي للحزب الشيوعي اللبناني يعتمد على شروط الأممية الثانية هذه[91].

أما فؤاد الشمالي، فهو لبناني من كسروان (جبل لبنان). عمل في مصر في معامل السجائر، وساهم في تأسيس أول نقابة مصرية عام 1899، وكان من مؤسسي الحزب الشيوعي المصري أيضًا. تنقل بين القاهرة والإسكندرية، وخاض معارك نقابية فيها أفضت إلى طرده إلى بلده الأصلي، لبنان، فعاد بخبرة عمالية تسبق الخبرة اللبنانية، بما لا يقل عن عقدين من الزمن؛ فالمصانع المصرية شغلت محركاتها في بداية القرن الماضي، أما المصانع اللبنانية فقد لحقتها بعدها في عشرينياته[92].

مكونان آخران «خارجيان» ساهما في نشأة الحزب الشيوعي اللبناني: الفرنسيون والأرمن. الأرمن لأنهم، بعد لجوئهم إلى لبنان وسورية، كانوا يحملون في جعبتهم تجربة مقاومتهم الأتراك، وتهجيرهم من مدنهم وبلداتهم، قبيل الحرب العالمية الأولى، في أثنائها وبعيدها، فضلًا عن تأسيس جمهوريتهم السوفياتية قبل عامين من تأسيس الحزب الشيوعي اللبناني (عام 1922). «الشروط الموضوعية» تجمع بين هؤلاء الأرمن واللبنانيين التائقين إلى إقامة حكم بلشفي، بل إن الأرمن يكادون، مع جمهوريتهم السوفياتية، أن يكونوا نقطة قوة للحزب الناشئ؛ فأرتين مادويان (1904-1990)[93]، القيادي في الحزب الشيوعي وقتها، يزور يريفان، عاصمة أرمينيا، عام 1935، ويصف سعادة سجنائها: «وقد أتيح لنا حضور جلسة محاكمة وزيارة السجن. تحدثنا بحرية إلى السجناء واستمعنا إلى شكواهم. هناك مكتبة تحت تصرف السجناء وقاعة كبيرة للمسرح، وكان السجناء يحضرون ويتولون إعداد مسرحيات بأنفسهم».

لكن داخل الحزب، تشكّل هيمنة الأرمن واللغة الأرمنية مشكلة للقيادة السوفياتية المهتمة بنفوذ عربي، والفاهمة أن الأرمني منه تنقصه المحلية، لذلك كانت هذه القيادة تلحّ عليه بضرورة تعريب الحزب. وفي عام 1933، «بعث الكومنترن برسالة مطولة حول تعريب الحزب مطالبًا بالإسراع في محاسبة التكتل المعادي للتعريب»[94].

تُستكمل برانية المكونات الرئيسة لتأسيس الحزب الشيوعي اللبناني بالدور الذي أداه الحزب الشيوعي الفرنسي في تثقيفه ومدّه بالخبرات النقابية، بالزيارات والدعم، بل تصور الشيوعيون اللبنانيون أن فوز اليسار الفرنسي مع حلفائه، في انتخابات الجبهة اليسارية، عام 1925، وانتداب مندوب سامٍ فرنسي جديد إلى بيروت، هو الجنرال موريس ساراي لمدة عام واحد (1924-1925)، وتمتع هذا المندوب بصفات من نوع أنه «علماني، ماسوني، يساري، معاد للإكليروس». كل هذه المعطيات سوف تمكّن الحزب من انتزاع الإذن بإقامة احتفالات الأول من أيار/مايو 1925 بسهولة، وإراحة الحزب من متاعب العمل السري[95].

بين هذا التاريخ وعشية حزيران/يونيو 1967، كانت النكبة، وكان صعود عبد الناصر، والحزب على ما عليه منذ تأسيسه. سيطرة أرمنية، وإن متناقِصة، وجمود في الموقف، ووصمة الاعتراف السوفياتي بدولة إسرائيل فور قيامها، وعزلة وقلّة جماهيرية

يصفها نهاد حشيشو، يوم الإعلان عن الوحدة السورية – المصرية بقوله: «كنت بالبكالوريا [الشهادة الثانوية]، وقتها كان مشروع الوحدة المصرية – السورية، ونحن [الحزب الشيوعي] كنا ضد الوحدة. فلما صارت الوحدة اكتشفتُ أننا ضد الناس، وكل الناس مع الوحدة: البعثيون والناصريون والقوميون العرب. صيدا الشعبية كلها مع الوحدة ونحن ضد الوحدة، فصرنا ضد العالم. شعرنا أننا معزولون جدًّا، في الحزب الشيوعي. قبْلنا كان هناك حزب آخر، اسمه حزب àالتحرير الإسلامي'. كان حزبًا ممنوعًا، وهو ضد الوحدة أيضًا، ولكنهم كانوا مقموعين من الدولة بقوة، وكنتُ أسمع عنهم، فصرنا [نحن الشيوعيين] مثلهم [...]، وصرتُ أبحث وأتساءل: لماذا نحن ضد الوحدة؟ فاكتشفت أن خالد بكداش أخذ هذا الموقف وقتها. أنا العضو بالحزب، عندما أصادف المظاهرات المعادية للوحدة، أهرب منها [...] كنا أقلية. كل البلد مع الوحدة ونحن وحدنا ضدها»[96].

ويجد نهاد حشيشو صدى هذه الانطباعات في كلام جورج حاوي عن خلافه مع خالد بكداش الذي أصبح الآن الأمين العام للحزب الشيوعي السوري، بعد انفصال الفرع اللبناني عنه عمليًا عام 1964. أقول «عمليًا» لأن القرار بالانفصال بين الحزبين اتُّخذ في المؤتمر الأول للحزب في عام 1943، عام استقلال لبنان، لكنه لم ينفذ إلا بعد عقدين من الزمن، كأن الميل إلى الانصهار اللبناني السوري أعمق من تطلعات الأنظمة الحاكمة؛ ميل يشمل الأحزاب على أنواعها. يقول حاوي إن الخروج من هذه العزلة هو، «عمليًا»، كالخروج من سطوة خالد بكداش السوفياتية. كان بكداش «ضد علاقة السوفيات مع عبد الناصر»، وكان خطأ الشيوعيين أنهم لم يربطوا مهمات التحرر بـ «مهمة تحقيق الوحدة القومية»، بل يضيف أن التقرب من عبد الناصر هو من صميم السياسة السوفياتية[97].

المهم في كل ذلك أن الحزب الشيوعي اللبناني، البراني النشأة والعقيدة، يقف عشية حزيران/يونيو 1967 على أهبة الاستعداد لملاقاة غيره من اليسار اللبناني في الموقف الموحد من هذه الحرب، فقد بدأ يميل نحو العروبة وفلسطين.

2. حركة القوميين العرب

حركة القوميين العرب مرتبطة بتاريخ النكبة. تأسست بُعيدها عام 1948، في بيروت، على يد طالبَي طب في الجامعة الأميركية، هما جورج حبش ووديع حداد. شعاراتها الأولى كانت «الوحدة والتحرر والثأر». عام 1959، أضافت إلى شعاراتها هذه شعار «الاشتراكية»، واستبدلت «الثأر» بشعار استرداد فلسطين. وصار هدفها: الوحدة والتحرر، الاشتراكية، فلسطين. توسعت الحركة في أقطار عربية مثل الكويت واليمن وسورية والعراق والأردن. وكان لمحسن إبراهيم دور القيادة لفرعها اللبناني. صلات إبراهيم وحبش بعبد الناصر سبق أن أشرتُ إليها، تعود إلى تعاملها العسكري معه في الدعم والتدريب. حاولت الحركة أن تقوم بعمل عسكري في بداياتها، فاصطدمت بالجيش الأردني بقيادة البريطاني غلوب باشا (1897-1986)[98].

هناك التباس في تسمية الجناحين اليساري واليميني داخل الحركة؛ فالذين تعاونوا مع محسن إبراهيم لاحقًا، وأرّخوا لشيء من مسيرة القوميين العرب، يصفون الحركة على أنها جناحان انبثقا من مؤتمر عام 1962. الأول «محافظ»، بقيادة جورج حبش وهاني الهندي ووديع حداد. والثاني «التيار اليساري»، بقيادة نايف حواتمة ومحسن إبراهيم ومحمد كشلي[99]، في

حين أن جورج حبش لا يرى خلافًا مع محسن إبراهيم؛ إنه متفق معه حول الدور القيادي لعبد الناصر «في تحقيق وحدة أداة الثورة»، ولكنه يختلف معه في تقييمه دور حركة القوميين العرب في جنوب اليمن المحتل، بل إنه لم يناقش إبراهيم حول القضية الخلافية، ولا موضوع «يمينيته»، مقابل «يسارية» محسن إبراهيم؛ إذ يروي: «وما زاد الأمور تعقيدًا، ما كان يطرح خارج الاجتماعات من قضايا وتقييمات، إذ أشيع في بعض الأوساط في لبنان أن الحركة منقسمة بين يمين ويسار، واليسار يمثله الرفيق محسن إبراهيم ورفاقه»[100].

3. لبنان الاشتراكي

البعث، منافس القوميين العرب في الوحدة القومية، يخرج منه في هذه الأثناء عدد من الأفراد، من بينهم محمود سويد ووضاح شرارة وفواز طرابلسي. يقول محمود سويد: «حتى العام 1961 كنت أنا ووضاح شرارة وفواز طرابلسي أعضاء في حزب البعث. بعد ذلك تركنا الحزب احتجاجًا على الانفصال الذي حدث بين سورية ومصر، بعد وحدة دامت ثلاث سنوات فقط»[101]، أي إفلاس الوحدوية البعثية، وسقوط أسباب الانضمام إلى حزبها القائد. العواطف الوحدوية ومشاعر استنكار الانفصال ليست وحدها هي الحافز على الخروج، بل ثمة حاجات فكرية خالصة أيضًا. ففي الصف الثانوي، كان حظ شرارة كبيرًا في أساتذته المولعين بالفلسفة الفرنسية، ومنهم حسن إبراهيم (شقيق محسن إبراهيم) الذي عرّفه إلى كتب جان بياجيه وموريس ميرلو بونتي وألبير كامو وجان بول سارتر؛ إذ يقول «تركت حزب البعث بعد نقاشات في داخله، كان سلاحي خلالها سارتر وميرلو بونتي ولوفيفر»[102].

كان لقاء الثلاثة، فواز طرابلسي ووضاح شرارة ومحمود سويد، عام 1965، وقد اتفقوا على تأسيس مجموعة يسارية جديدة تتجاوز الحزب الشيوعي الذي «لا يستنفد إمكانات العمل المتاحة ليسارٍ خليق بهذا الاسم»[103]. ولا تلبث الماركسية أن تفرض نفسها، بفضل سمعتها الحسنة وسط الراغبين في التحرر. الحزب الشيوعي مرفوض، موقفه القومي، وتصلبه البيروقراطي، وابتعاده عن الماركسية: «على هذا راح مناضلون كثيرون كان إيمانهم البعثي أو الناصري قد اضطرب يتحدّثون عن àتعريب الماركسية' أو عن àتجديد' اليسار العربي أيضًا»[104].

الفردية عزيزة على هؤلاء، يغذونها بقراءتهم الجديدة وتجاربهم الأوروبية؛ ما يشعرهم بالتفوق والتميز، ولازمة «ولكن ... أين تميزنا يا رفيق؟»، يرددونها في ما بينهم، عندما يناقشون القرارات. والتميز موجود بقوة في صيغة اللجان الأفقية، لتنظيم نضالهم الطلابي، ونضالهم من أجل دعم المقاومة الفلسطينية. يديرها أساتذة، ويتلقى دروسها تلامذة يتعلمون منهم الماركسية الجديدة؛ الماركسية المطعّمة بنقد الحزب الشيوعي، وبالتجارب اليسارية الأوروبية الجديدة: «الهدف من هذه الجهود [التعليمية] التحليل النظري والسياسي وفي كسب الملتحقين الجدد وتنشئتهم»[105]، وذلك بروح فردية فائقة، تصل إلى حدّ تجسيدها علاقة أفرادها بالمدينة، وكأنها قائمة على الندية. يصف أحمد بيضون حال المجموعة، أمام كبرياء المدينة: «وعلى مستوى أعمق، كانت المجموعة تشكّل ردًّا موائمًا لقابليات الأعضاء على النَبْذ الذي كانوا يجدون أنفسهم غرضًا له من جانب مدينة هي بيروت بقيت بناها المولّدة للسلطة مغلقةً إغلاقًا محكمًا في وجوههم. في وجه هذه المدينة، رَفَعت

المجموعة رمزيًّا سبّابة الماركسية الثورية المتوعّدة، وهو ما كان يتيح لهؤلاء المثقّفين أن يجبهوا رفض المدينة المعاندة لا بموقف الاستعطاف ولا بموقف الإغراء أيضًا، بل بما هو خلاف ذلك، أي بنظرةٍ ملؤها الازدراء لأسلوب الحياة الذي تعرضه ولنمط أدائها وظائفها وجداول قيمها. ذاك هو ما سبق أن سمّيناه مشروع àتحرير الذات’ منظورًا إليه في مرآة العلاقة بالمدينة»[106].

4. المجموعات المسيحية التقدمية

في ستينيات القرن الماضي، ظهر في أميركا اللاتينية تيار ديني مسيحي، يجمع بين العقيدة الإيمانية المسيحية والنضال من أجل الفقراء والمهمّشين. تيار يلتزم بالمباشرة، بإقامة مملكة الله على الأرض؛ مملكة العدالة الإنسانية، قبل إقامتها في السماء. سميت هذه الحركة «لاهوت التحرير». وكُتب عنها بصفتها تستمدّ تحليلاتها من المفاهيم الماركسية، رغم نفي أبرز وجوهها ذلك، وإعادة تأكيدهم أنهم يستوحون أفكارهم من الإنجيل. من بين أبرز وجوه «لاهوت التحرير» أوسكار روميرو (1917–1980)[107]، والبرازيليان ليوناردو بوف (ولد عام 1938)[108] وهيلدر كامارا (1909–1999)[109] وجميعهم كاثوليك، تأثر بهم الفاتيكان، رأس الكنيسة الكاثوليكية.

فكانت تعليمات هذه الكنيسة، التي وصلت إلى ملحم شاوول، وهو تلميذ. يروي شاوول عن بدايات اهتمامه بالشأن السياسي: «كنتُ في مدرسة الجمهور للرهبان. هبط علينا المجمع الفاتيكاني الثاني سنة 1964 أو 1965. كنتُ يافعًا. قالوا لنا تعالوا [...] يجب أن تشتغلوا على القرارات الكنَسية، أن تشتغلوا من أجل عالمنا. لا تكتفوا بالصلاة. هناك فقراء بحاجة إليكم، ثم أعلنوا أنهم بصدد إنشاء مؤسسة سموها à409’ تنفيذًا لتعاليم الكنيسة والفاتيكان. قالوا لنا إن علينا أن نشتغل أيام العطلة، السبت أو الأحد، في مخيمات الفقراء؛ أكانت فلسطينية أو لبنانية. أنا أول مخيم اشتغلت فيه كان مخيم شرشبوك الكردي في الكرنتينا[110]. كنا فرق عمل. والمسؤول عن فرقتي أول مرة كان كريم بقرادوني، كان عمري حوالى 14 والتحسس بالتغيير قوي»[111].

عن مكان آخر، قريب، يكتب بول طبر دراسة عن حركة اجتماعية نشأت عام 1966، في بلدة زغرتا (شمال لبنان) التي ينتمي إليها أبناء العشائر الزغرتاوية المتقاتلة. تعيد نفسها إلى تاريخ المعارضة في القرية، مثل المعركة التي خاضها الحزب الشيوعي اللبناني في الانتخابات النيابية عام 1952. تنبذ التقاتل العشائري الذي سُفكت دماء غزيرة من أجله، وتطالب بمنع إطلاق الرصاص وضرورة الاحتكام إلى القانون. وكان الأب هكتور الدويهي، محركها الأساسي، ينتمي إلى ما يسميه طبر «التيار الإصلاحي في الكنيسة المارونية»، حاملًا أفكارًا «ليبرالية يسارية إنمائية». وبسبب حيوية حركته، المهدِّدة لأعيان القرية العشائريين، صدر أمر من الكنيسة بإبعاده عام 1969[112].

وعلى نطاق أوسع، يرصد فريد الخازن، من جهته، هيئات، أو مجموعات، مسيحية لبنانية حملت هذا الطابع المسيحي الكفاحي: «كنيسة من أجل عالمنا» (1965)، فيها كهنة وعلمانيون موارنة، تقرّب بين الكنيسة والناس، ثم «الحركة الاجتماعية» التي أسسها، في العام نفسه، مطران الروم الكاثوليك، غريغوار حداد[113]، المعروف بـ «المطران الأحمر»، وسوف يُكتب لها التسيّس لاحقًا وطول العمر، كما سيُكتب للحركة الثالثة، التي تأسست في ثلاثينيات القرن الماضي،

نوع من إعادة الحياة في فرعها اللبناني الذي انحاز في مرحلتنا هذه إلى اليسار: «الشبيبة الطالبية المسيحية»، إلى أن أصبحت الأوضح تمثيلًا لتيار «لاهوت التحرير» الأصلي. أما الرابعة، فهي «حركة الشبيبة الأرثوذكسية»، الأقدم من الجميع (1942)، ومطرانها جورج خضر (ولد عام 1924)[(114)]، رافع شعار دعم فلسطين باسم الإيمان المسيحي[(115)].

(17) Fadi A. Bardawil, «When All This Revolution Melts Into Air: The Disenchantment of Levantine Marxist Intellectuals,» Dissertation, Columbia University, New York, 2010, p. 132.

(18) Ibid., p. 102.

(19) مقابلة مع كريم مروة، 5/11/2018.

(20) Bardawil, p. 166.

(21) مقابلة مع محمود سويد، 22/3/2019.

(22) مقابلة مع وسام سعادة، 20/1/2019.

(23) Bardawil, p. 270.

(24) مقابلة مع وليد نويهض، 5/5/2018.

(25) مقابلة مع جهاد الزين، 11/9/2018.

(26) مقابلة مع رياض الدادا، 24/1/2019.

(27) اغتيل في أثناء إعداد هذا الكتاب للنشر، في 4 شباط/فبراير 2021.

(28) مقابلة مع لقمان سليم، 27/1/2019.

(29) مقابلة مع أحمد الديراني، 21/1/2019.

(30) مقابلة مع فيصل جلول، 28/11/2018.

(31) Samir Frangié, *La révolution tranquille* (Beyrouth: L'Orient des Livres, 2017), pp. 21-22.

(32) Toufic Hindi, *Une troisième guerre mondiale pas comme les autres: Stratégie pour confronter un djihadisme sans frontières* (Paris: Les éditions du Panthéon, 2018), p. 18.

(33) عباس بيضون، **ألبوم الخسارة** (بيروت: دار الساقي، 2012)، ص 197.

(34) مقابلة مع زياد صعب، 6/1/2019.

(35) لبناني، مؤسس الحزب السوري القومي الاجتماعي.

(36) ثاني رئيس للجمهورية اللبنانية بعد الاستقلال.

(37) **جورج حاوي... شهيداً: البدايات 1938-1967**، إعداد وتوثيق يوسف مرتضى ومصطفى أحمد، تقديم جورج البطل (بيروت: دار الفارابي، 2006)، ص 56.

(38) Bardawil, p. 144.

(39) مقابلة مع وليد نويهض.

(40) حازم صاغية، **هذه ليست سيرة** (بيروت: دار الساقي، 2007)، ص 13، 25، 39.

(41) Bardawil, p. 109.

(42) مقابلة مع محمد كشلي، 27/12/2018.

(43) محسن إبراهيم، **الحرب وتجربة الحركة الوطنية اللبنانية** (بيروت: بيروت المساء، 1983)، ص 232.

(44) جورج حبش، **صفحات من مسيرتي النضالية**، تدوين هيلدا حبش، تحرير وتقديم سيف دعنا (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2019)، ص 94.

(45) **جورج حاوي... شهيداً**، ص 97، 164.

(46) سوري، الأمين العام للحزب الشيوعي السوري.

(47) **جورج حاوي... شهيداً**، ص 25-26، 105، 136-137.

(48) أندريه ألكسندروفيتش جدانوف، روسي، سياسي سوفياتي صاحب نظريات عديدة.

(49) ألكسندر سولجنتسين، روسي، أديب وروائي عُرف بمعارضته الحكم السوفياتي.

(50) Michael Scott Christofferson, *Les intellectuels contre la gauche: L'idéologie antitotalitaire en France* (1968-1981), Philippe Olivera (préf.), André Merlot & Françoise Jaouen (trad.) (Paris: Éléments, 2014), p. 163.

(51) نيكولاي بولغانين (1895-1975)، روسي، رئيس مجلس وزراء الاتحاد السوفياتي.

(52) **جورج حاوي... شهيداً**، ص 60.

(53) عباس بيضون، «الحزب الذي لم يقع»، **بدايات**، العدد 14 (ربيع-صيف 2016)، ص 2.

(54) مقابلة مع عباس بيضون، 20/10/2018.

(55) حسام عيتاني، **هويات كثيرة وحيرة واحدة: سيرة لبنانية** (بيروت: دار الساقي، 2007)، ص 16-17.

(56) مهدي عامل، واسمه الحقيقي حسن حمدان، والأسماء المستعارة من إرث السرية التي كان يعتمدها الحزب في نشاطاته. مهدي عامل إذًا، من الجنوب أيضًا، من قرية حاروف. ولد عام 1936، حامل شهادة دكتوراه فلسفة من جامعة ليون الفرنسية. عمل في الثانويات ثم في الجامعة اللبنانية. انتخب هو أيضًا عضو لجنة مركزية في الحزب الشيوعي.

(57) سوري، منظر قومي عربي، معروف بدوره في تأسيس حزب البعث العربي.

(58) سوري، منظر للقومية العربية.

(59) عباس بيضون، **مرايا فرانكنشتاين** (بيروت: دار الساقي، 2011)، ص 70.

(60) سوري، فيلسوف وكاتب وناقد ومترجم.

(61) مقابلة مع بول طبر، 26/9/2018.

(62) Lisa Romeo, «Charles Habib Malek,» *Les clés du Moyen-Orient*, 2/3/2018, accessed on 2/2/2021, at: https://bit.ly/36yWUvS

(63) جورج طرابيشي، **معجم الفلاسفة: الفلاسفة، المناطقة، المتكلمون، اللاهوتيون، المتصوفون**، ط 3 (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 2006)، ص 274.

(64) مقابلة مع نهاد حشيشو، 8/1/2019.

(65) بيضون، **مرايا فرانكنشتاين**، ص 140.

(66) عراقي، شاعر، يُعتبر من بين أهم شعراء العرب في العصر الحديث.

(67) Bardawil, p. 190.

(68) بيضون، **مرايا فرانكنشتاين**، ص 143.

(69) (1885-1971)، مجري، فيلسوف وكاتب وناقد.

(70) (1883-1924)، تشيكي، روائي كتب بالألمانية، رائد الكتابة الكابوسية.

(71) (1861-1914)، لبناني، أديب وروائي ومؤرخ وصحافي.

(72) مقابلة مع عباس بيضون.

(73) دلال البزري، **دنيا الدين والدولة: الإسلاميون والتباسات مشروعهم** (بيروت: دار النهار، 1994).

(74) سليم نصر، **سوسيولوجيا الحرب في لبنان: أطراف الصراع الاجتماعي والاقتصادي 1970-1990** (بيروت: دار النهار، 2013)، ص 161.

(75) مقابلة مع أحمد بيضون، 18/1/2019.

(76) فريد الخازن، **تفكك أوصال الدولة في لبنان 1967-1976** (بيروت: دار النهار، 2002)، ص 67-68.

(77) نصر، ص 147.

(78) الخازن، ص 95.

(79) نصر، ص 148.

(80) جورج البطل، **أنا الشيوعي الوحيد**، حاوره فواز طرابلسي (بغداد: دار المدى، 2019)، ص 41-42.

(81) مقابلة مع كمال حمدان، 21/11/2018.

(82) بيضون، **مرايا فرانكنشتاين**، ص 111.

(83) مقابلة مع عباس بيضون.

(84) حسام عيتاني، «عن أبي الشيوعي وعن بيروت الناصرية»، **الأوان**، 23/2/2018، شوهد في 3/2/2021، في: https://bit.ly/2MV7kPO

(85) أحمد بيضون، «àلبنان الاشتراكي’ ظهور جماعة من شبيبة àاليسار الجديد’ ومسارها في لبنان الستينات»، **كلمن**، العدد 8 (خريف 2013)، ص 3، شوهد في 23/3/2021، في: Yeead2'SZe&y'3)/yb1H

(86) لبناني، أحد مؤسسي الحزب الشيوعي اللبناني.

(87) نمساوي يهودي، مندوب الكومنترن، أحد مؤسسي الحزب الشيوعي الفلسطيني، ومن بعده اللبناني.

(88) لبناني، سياسي وصحافي وأديب، من مؤسسي الحزب الشيوعي اللبناني ومن رموز الحركة الشيوعية فيه.

(89) محمد دكروب، **جذور السنديانة الحمراء: حكاية نشوء الحزب الشيوعي اللبناني 1924-1931**، ط 2 (بيروت: دار الفارابي، 1984)، ص 135-136.

(90) «Relire les 21 conditions...,» *histoire-41.fr*, accessed on 3/3/2021, at: https://bit.ly/3jfCME9

(91) أرتين مادويان، **حياة على المتراس**، تقديم جورج حاوي، ط 2 (بيروت: دار الفارابي، 2011)، ص 301.

(92) دكروب، ص 85، 225؛ مادويان، ص 76.

(93) أرمني، قيادي في الحزب الشيوعي اللبناني، ومؤسس «اتحاد طلاب الهنشاق» و«شبيبة سبارتاكوس».

(94) مادويان، ص 189، 226.

(95) دكروب، ص 140.

(96) مقابلة مع نهاد حشيشو.

(97) **جورج حاوي... شهيداً**، ص 137-139.

(98) ضابط بريطاني عُرف بقيادته الجيش العربي الأردني بين عامَي 1939 و1956.

(99) سليمان تقي الدين، **اليسار اللبناني وتجربة الحرب: منظمة العمل الشيوعي، اللحمة والتفكك** (بيروت: دار الفارابي، 2013)، ص 48.

(100) حبش، ص 129.

(101) مقابلة مع محمود سويد.

(102) Bardawil, p. 120.

(103) أحمد بيضون، «ãلبنان الاشتراكي'»، ص 4.

(104) المرجع نفسه.

(105) المرجع نفسه.

(106) المرجع نفسه؛ سامي ذبيان، **الحركة الوطنية اللبنانية: الماضي والحاضر والمستقبل من منظور استراتيجي** (بيروت: دار المسيرة، 1977)، ص 220 (للمعلومات المتفرقة عن لبنان الاشتراكي).

(107) أسقف كاثوليكي من إلسلفادور ورئيس أساقفتها.

(108) عالم لاهوت.

(109) كاهن برازيلي، رئيس أساقفة الكنيسة الكاثوليكية البرازيلية.

(110) لم يكن حي شرشبوك كرديًا صرفًا، بل فيه سكان فقراء من جنسيات وطوائف مختلفة (أكراد، أرمن، فلسطينيون، لبنانيون من طائفتَي السنّة والشيعة...).

(111) مقابلة مع ملحم شاوول، 14/2/2019.

(112) Paul Tabar, «Le mouvement de la jeunesse zghortiote: Le destin d’une association civile en confrontation avec le pouvoir clanique,» in: Joseph Bahout & Chawqi Douayhi (eds.), *La vie publique au Liban: Expressions et recompositions du politique*, Les cahiers du cermoc 18 (Beyrouth: Centre d'Etude et de Recherches sur le Moyen-Orient Contemporain, 1997), p. 67.

(113) اسمه نخلة أمين حداد (1924-2015)، لبناني، رجل دين إنجيلي، عُرف بمواقفه العلمانية والإصلاحية، وبمشاريعه الإنمائية الثقافية.

(114) لبناني، رجل دين أرثوذكسي، عُرف بتأملاته الفلسفية المستنيرة.

(115) الخازن، ص 112-116.

الفصل الثالث: ما بعد حزيران/ يونيو / .1 (

«كان صرحًا من خيال ...»[116].

إبراهيم ناجي

في أيار/مايو 1968، أي بعد هزيمة حزيران/يونيو بسنة واحدة، تظهر السيدة العذراء في كنيسة الزيتون القاهرية، ويخرج البابا كيرلس السادس (1902-1971)[117] ببيان يؤكد المعجزة، مُرفقًا به صورة «اعتُبرت تسجيلًا فوتوغرافيًا للعذراء، أو لطيفها الذي ظهر». وقد أذاع البابا المصري هذا النبأ في مؤتمر صحافي «حشدت له جميع إمكانات الصحافة المصرية ووسائل الإعلام في الجمهورية». في المؤتمر الصحافي، شرح أحد المطارنة كيف التُقطت هذه الصورة. في اليوم التالي، يتصدر الخبر الصفحة الأولى من صحيفة **الأهرام** القومية، أي المملوكة للدولة، والتي يقودها الاتحاد الاشتراكي العربي، الحزب الرسمي للدولة الناصرية، أي الحزب الذي حارب قائده وملهمه «الإخوان المسلمين»، وأضفى على هذه الدولة شيئًا من العلمانية الممزوجة بشيء من التقدمية والاشتراكية. بل تذهب الصحيفة القومية بالخبر بعيدًا: «وبعد ذلك انغمست الصحافة المصرية بأسرها تقريبًا في هوس ديني مفاجئ، فتبنّت àهذه القضية الوطنية الكبرى’، وأخذت تروّج لها وتجهد نفسها في البحث عن àالبراهين العلمية القاطعة’ على حقيقة المعجزات، والتنقيب عن العلماء وأساتذة الجامعات، ليشهدوا بأن ظهور العذراء حقيقة واقعة لا يمكن أن يشك فيها [...] وبيّنت الصحافة بكل وضوح أن ظهور العذراء يتضمن مغازيَ سياسية واجتماعية وكفاحية وسياحية بعيدة المدى، بالنسبة إلى الشعب العربي في مصر، وبالنسبة إلى استعادة الأراضي المحتلة بعد الخامس من حزيران [يونيو]»[118].

صادق جلال العظم يؤرِّخ لهذه «المعجزة» بصفتها نذير دخول الإسلام السياسي على الخط السياسي، مجددًا، بعدما هزمت إسرائيل التيار التقدمي الناصري، فيُلاحظ أن عبد الناصر في حياته شهد بنفسه، بل نفخ الروح في النبض الديني وقتها، وفتح الطريق أمام خلَفه أنور السادات ليسهّل على «الإخوان المسلمين» مهمة الانخراط مجددًا في الحياة السياسية؛ أخرجهم من السجون، فتح لهم المنابر، ورحب بالشيوخ السلفيين، بعدما كان عبد الناصر قد لاحق رموزهم، وزجهم في السجن، وأعدم منظّرهم الأشد راديكالية، سيد قطب. هكذا انقلبت الشعارات، وصار «الإسلام هو الحل»، وأتت معجزة سيدة الزيتونة إيذانًا بانطلاق عصر هذا «الحل».

هذا ما كان يُفترض أن يحصل في لبنان: أن تفضي هزيمة حزيران/يونيو 1967 إلى تراجع الموجة اليسارية، ودخول الإسلام السياسي على الخط، لكن حصل العكس تمامًا: «صارت الماركسية هي الحل»، يقول عباس بيضون عما بعد 1967.

صارت «في كل المطارح. وكان هناك مناخ لصالح الماركسية بين كل المثقفين، وكل المثقفين زحطوا [تزحلقوا] على الماركسية»[119].

كانت الهزيمة تاريخًا موصوفًا، يتذكره جميع من كان في سن التذكر الطري وقتها، بصفته منعطفًا في حياته. جاد تابت ينفتح على العروبة بعد حزيران/يونيو 1967: «مهم جدًّا حزيران 1967، لأنني، بعد هذا التاريخ، انفتحتُ على الثقافة العربية على القراءة والكتابة بالعربي [...] ووقتها لم أكن أحسن الكتابة باللغة العربية. نجحتُ في شهادة البكالوريا اللبنانية [الشهادة الثانوية]، ولكنني لم أكن أعبّر بالعربية. كنتُ أحكي العربية الدارجة، وأشتغل بالنصوص العربية كما في المدرسة.

لا أهتم بالأدب العربي مثل كثير من الناس الذين درسوا بمدرسة الليسه الفرنسية وقتها»[120]. أما وليد نويهض، فيلخص حالة الباقين من رفاقه بالقول «هناك ما قبل 1967، وما بعد 1967»[121]. وكلها صُعد شخصية تختلط بالسياسة، بالمجموعات، أو الأفراد ذوي الجاهزية. يقول حازم صاغية: «سريعًا ما صعقتنا هزيمة 1967 التي قصمت ظهر عبد الناصر وشتّتتنا، نحن الطليعيين، كل في سبيله»[122].

الواقع أن الماركسية أو اليسارية لم تهبط على لبنان بقدرة حزيران/يونيو 1967، بل كانت تحوم حول أحزاب عُرفت بالتقدمية أو «اليسارية عمومًا»، لذلك لم تجد صحيفة **الأنوار** اللبنانية صدى يُذكر لتبنيها المعجزة المصرية، ولا لمزايدتها «العلمية» على الخبر الأصلي؛ إذ أضافت «تحليلًا» علميًا للمعجزة بناءً على «دراسة علمية جادة» تثبت أن «ظهور العذراء في القاهرة حقيقة واقعة»، أو بتشديدها على أن هذه الدراسة تعتمد على «العلوم» التالية: «تحضير الأرواح، التقاط الصور الروحانية للأموات، وتجسيد الأرواح عن طريق الوسطاء ...إلخ»[123].

أحزاب، لا نظام أحزاب

حزب العمال الثوري العربي، وقد أسسه ياسين الحافظ عام 1965، إثر انشقاقه عن البعث، وفرعه اللبناني الذي جذب مثقفين مهتمين بإنتاجه وبشخصه، أكثر من حزبه. وهذا الحزب بقي محدودًا جماهيريًا، في حين جذبت كُتبه مثقفين وقرّاءً من خارج الحزب الذي يقود. حازم صاغية يتذكر ياسين الحافظ بهذه العبارات، وقد تعرَّف إليه في أروقة صحيفة **السفير** اللبنانية، حيث كان يحضر لتسليم مقالاته: «هو كان في الجريدة وخارجها في الوقت نفسه. [...] خارجيته تغذّت على مصادر أخرى. [...] كان أكبر سنًا منا، يحمل في وجهه غجريًا جوالًا ويقول من الكلام ما لا نقول، فهو بوداعة متمكّنة منه، كان يتحدث عن ماركسية تغاير الماركسيات التي نعهد، تولي العقلانية وâالثورة البرجوازية' وحال الأقليات ما لم توله التلاوين اليسارية السائدة»[124]. وياسين الحافظ هو من بين الذين بكّروا في اعتماد الماركسية غير المسفْيَتة، المقرونة بعروبة ذات جذور بعثية قديمة، تتوجهما «تاريخانية» هي ثمرة قراءاته أعمال المفكر المغربي عبد الله العروي، ومراسلته طويلًا.

الأحزاب الأخرى سوف تذهب عكس ما ذهبت إليه الوجهة المصرية بعد هزيمة حزيران/يونيو 1967: سوف تتمرْكس، إلى هذه الدرجة أو تلك، من دون أن تفقد شخصيتها الأصلية. الحزب التقدمي الاشتراكي، الذي كان منذ عام 1965، يدعو إلى التعبئة من أجل فلسطين ومساندة منظمة التحرير الفلسطينية، وهو ناشط كثيرًا في الندوات والمهرجانات المندِدة بإسرائيل. زعيمه، كمال جنبلاط، الإقطاعي الوطني التقدمي، صاحب الثقافة المتنوعة، من مهاتما غاندي (1869–1948)[125]، إلى روجيه غودل، إلى بيير تيار دي شاردان (1881–1955)[126]، إلى بعض نظريات العقيدة الموحدة الدرزية، ولكن الواصل إلى السلطة عبر النيابة أيضًا، ثم وزارة الداخلية، يتحول إلى شخصية يسارية نافذة: يعطي الترخيص لثلاثة أحزاب، صار بعضها يُعتبر «يساريًا»، هي: الحزب الشيوعي اللبناني والحزب السوري القومي الاجتماعي وحزب البعث العربي الاشتراكي في لبنان. وينخرط كمال جنبلاط في تنسيق محموم مع الفصائل الفلسطينية المقاومة، ويوطّد علاقته بياسر عرفات، وتحتدم معركته مع اليمين اللبناني وأحزابه، ويدافع عن عمال معمل غندور وعمال التبغ المطالبين بحقوقهم[127].

أما قصة الحزب السوري القومي الاجتماعي، فتختلف: بعد الهزيمة، عام 1968، أُخرج بقية معتقليه المتورطين في محاولة الانقلاب عام 1961. وكان الغرض من إطلاقهم أن يؤدي هذا الحزب دورًا يمينيًا في وجه الموجة اليسارية العاتية، وذلك استنادًا إلى الدور الذي أداه قبل سنوات حليفًا لحزب الكتائب اليميني، لكن حصل عكس المطلوب: القوميون السوريون الخارجون من السجن اتصلوا بالأجواء اليسارية، وبدأوا يكتبون في **النهار** مقالات تنمّ عن «خياراتهم اليسارية»، وعن «التقائهم مع القوى التقدمية ككل»، فبرز على الأثر جناحان داخل الحزب السوري القومي الاجتماعي، جناح إنعام رعد (1929–1998)[128]، اليساري، وجناح إلياس قنيْزح (1913–1997)[129] اليميني. وفي عام 1969، عقد الحزب مؤتمرًا، أعلن إلياس قنيْزح في إثره أن نقطة مهمة برزت في المؤتمر وهي «الانعطاف الفكري نحو الماركسية، دونما تخل عن القومية السورية، ومحاولة الربط بين أفكار أنطون سعادة [مؤسس الحزب] وبين أفكار كارل ماركس»[130].

ولكن لحازم صاغية رأيًا آخر في هذا «الانتقال»؛ إذ يصف «المنعطف» اليساري القومي السوري بالعبارات التالية: «وراحت تجرى، فيما الحزب يحاول الظهور بمظهر يساري، مقارنات لا تثير إلا الشفقة بين âماركس وسعادة’، كما لو كان يكفي لمساواتهما نزع اسميهما الأولين والاقتصار على اسمي عائلتيهما، أو تُرسم الخطابيات الإنشائية التي خطها بعض القوميين، ونشرها âملحق النهار’ فتوحات غير مسبوقة في تاريخ الأفكار، فتوحات تدور حولها احتفالات الحزبيين المتواصلة بذواتهم. ولم يخلُ الأمر من مساخر نجمت عن لقاح جسم هرم ولفظية يسارية تصل إلى بعضنا مشوهة مجتزأة»[131].

حزب العمل الاشتراكي العربي في لبنان، المنبثق من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بقيادة جورج حبش، هو من نتائج المخاض اليساري الجديد أو الماركسي غير المسفْيَت الذي اندفعت إليه حركة القوميين العرب، والاجتماع الذي عقدته هذه الحركة في أيار/مايو 1969، حيث قامت بتصفية إرث القوميين العرب، مع بداية مشوّشة حول التبني الماركسي توضحت تدريجيًا عام 1970. يقول جورج حبش، الأمين العام لهذا الحزب، عن التحول الذي تعرضت له الحركة بعد حرب حزيران/يونيو: إن الاسم الجديد لحزبه «حزب العمل الاشتراكي العربي، ليكون الاسم معبرًا عن حقيقة التغير الجذري في البنية النظرية والطبقية لحركة القوميين العرب»[132].

حتى تنظيم «المرابطون»، ورئيسه إبراهيم قليلات، الذي يعتبر نفسه أنه «ينتمي إلى عبد الناصر القضية الفكر المتكامل للإنسان العربي وتطلعاته»، تراه يحدّد هوية حركته على أنها «تقدمية يسارية»، رغم أنها تمشي «على طريق عبد الناصر نفسها»[133].

ذكرتُ هنا أهم الأحزاب التي أخذت من اليسار صفة وهوية، بعد حرب حزيران/يونيو، وكان في محيط هذه الأحزاب الواسع مجموعات لا تحصى من الشباب، تتجه من وقتها نحو مزيد من التجذر، خصوصًا المسيحيين التقدميين منهم، العاملين في المنظمات المسيحية المذكورة آنفًا. ملحم شاوول، أفضت به تجربته المسيحية إلى منظمة العمل الشيوعي، ثم إلى حركة التحرير الوطني الفلسطيني «فتح». يقول عن مرحلة ما بعد 1967: «بعد 67 كان هناك عدة مجموعات مسيحية انطلاقًا من المجمع الفاتيكاني دخلت بقوة في العمل الاجتماعي. مؤتمر يسوع الملك، الذي انعقد عام 1968، كان فيه

أمين معلوف وسمير فرنجية وسمير ناصر والأبونا خضر والأبونا غريغوار حداد وكان أبونا بولس مطر. هؤلاء قرروا أن يمسكوا الحالة الجديدة، ويستفيدوا منها ليخرجوا من الانغلاق الذي عانته الكنيسة، وخرجوا ببيان شهير ضم مجموعات مسيحية أوسع سموه àالمنعطف اليساري للكنيسة’. وقتها البرازيلي دون كمارا، المسمى àالكاردينال الأحمر’ كان يتصدّر الكنيسة، وحتى بولس السادس وقتها جاء إلى لبنان متعاطفًا. يعني البابا نفسه كانت ميوله يسارية. واليمين المسيحي لا يتكلم مع البابا بولس السادس، فهو يعتبره أكبر كارثة حصلت في الفاتيكان»[134].

الحركات المسيحية التقدمية سوف تمنح الأحزاب اليسارية شبابًا مسيحيين مؤمنين وماركسيين، منتسبين إلى تلك الأحزاب، أو منسقين معها، أو متحالفين معها، أو المنابر الثقافية الإعلامية المشتركة ذاتها. وأشهر زوجين كانا ناذرين نفسيهما للرهبنة، خلعا ثوب الكنيسة الأرثوذكسية ودخلا بعد عام 1967 إلى منظمة العمل الشيوعي، هما نجاة نعيمة وجورج ناصيف. يقول جورج ناصيف عن خروجه من «حركة الشبيبة الأرثوذكسية»: «تركتُ الشبيبة، ولكنني لم أتخل عن إيماني. عام 1973، وجدتُ أن إطار الشبيبة أصبح ضيقًا جدًّا مقارنةً باهتماماتي السياسية. صرتُ أنظر إلى التزامي الاجتماعي بقضايا الفقراء باسم المخلّص بصفته ممرًا إلى السياسة. بمعنى أنه لم يَعُد بوسعي تأليف قصائد الحب حول أحوال الفقراء، وأنه إذا أردتُ أن أكون مع المخلّص، عليّ تغيير الوضع الاجتماعي والاقتصادي، وكذلك البنى السياسية، فخدمة المخلّص أصبحت تتم عبر الالتزام السياسي الذي أصبح هو الأولوية. الوسائل تغيرت فقط»[135].

1. منظمة العمل الشيوعي

هي حصيلة انشقاقات. الأول عن حركة القوميين العرب؛ الفرع اللبناني من الحركة، بالاشتراك مع الفرع الفلسطيني، يقرر أن «يتمرّكس»، فتنشأ الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، ومنظمة الاشتراكيين اللبنانيين (1968). وتصدر هذه الأخيرة كتابًا **لماذا منظمة الاشتراكيين اللبنانيين؟** تشرح فيه أسباب تمركسها بعد هزيمة 1967، ورغبتها في حمل السلاح لتحرير الأرض التي عجزت الأنظمة العربية عن حمايتها، وطبعًا جنبًا إلى جنب مع المقاومة الفلسطينية. هكذا، بدأ القوميون العرب «مع عبد الناصر عام 1955 من أجل فلسطين، ثم تركوه بسبب الحرب الخاسرة من أجل فلسطين»[136]. تركوا عبد الناصر، قرروا أن يغيروا أيديولوجيتهم؛ وفي الوقت نفسه، قبل أن يكتمل تمرْكسهم، أخذوا يغْرفون من شعبية عبد الناصر المكسورة كل الجماهيرية التي احتضنت قضيتهم المقدسة، أي تحرير فلسطين بالكفاح المسلح. ومنظمة الاشتراكيين اللبنانيين هي أحد الحزبين اللذين ستتشكل منهما منظمة العمل الشيوعي.

الحزب الثاني، أو بالأحرى المجموعة الثانية، هي لبنان الاشتراكي التي سبق أن تحدثت عنها. النشاط الثقافي المكثف يولّد داخل هذه المجموعة شعورًا باللافاعلية أمام تأجج الأوضاع، وصعود جماهيرية منظمة الاشتراكيين اللبنانيين. يتحدث وضاح شرارة عن هذا الشعور قائلًا: «قُدامى الدعاة منا [والأرجح المؤسسون] كانوا يستحون، في سرهم وفي علانيتهم، من فقر مادة àالعمل السياسي’ التي يخوضون فيها، ومن اقتصار معظمها على الاجتماعات والمناقشات والشروح والتعليق. وكان يخيم على تلك الاجتماعات، في أحيان كثيرة، يأس يتفاوت قتامة من يوم إلى آخر، أو من ساعة إلى أخرى في اليوم

الواحد. والباعث عليه هو ضآلة رابطتنا بالحوادث السياسية والاجتماعية والثقافية، وهزال انخراطنا فيها قياسًا إلى رغباتنا في المرتبة الأولى، وإلى مزاعمنا في فهمها وتعليلها»[137].

في حين يتكلم أحمد بيضون على الصمم الذي يصيب الأعضاء الخاضعين لبرامج «التثقيف السياسي» في لبنان الاشتراكي، وما يقف خلفه من تشبّع مبالغ فيه بالنظريات؛ إذ يقول: «نشرح نص ماركس باجتماع للحلقة، وممكن لعضو الحلقة أن يطرح أسئلة حول النص، من نوع: أين كان هذا الرجل الذي كتب هذا الكلام؟ وماذا كانت معالم البلاد التي عاش فيها، والمرحلة التاريخية التي مرّ بها؟ وهذه أسئلة تحتاج إلى سنوات لكي يحصلها المرء. وكان هناك من مرت عليه هذه السنوات، وآخرون لم تمرّ عليه»[138].

كان ثمة دور للتنافس بين تخمة ثقافية لدى لبنان الاشتراكي وافتقار منظمة الاشتراكيين اللبنانيين إلى المثقفين، وكان التنافس متعاكس الوجهات: الأولى، منظمة الاشتراكيين، قوية بجماهيرها، والثانية، لبنان الاشتراكي، غالب بمثقفيه. الكمية تنشد إلى النوعية بحركة تجاذبية تناقضية. يفسر موسى إدلبي هذه الجاذبية المتبادلة: «هناك دعامتان لليسار الجديد: منظمة الاشتراكيين اللبنانيين ولبنان الاشتراكي. دعامة الأولى تقوم على إمساكها بالخطة السياسية وبالجماهير. ولسان حالها: صحيح أننا جُدُد على الماركسية، ولكن نحن لنا علاقة بالواقع. أما دعامة الثاني، لبنان اشتراكي، فهي النظرية والثقافة»[139].

يروي عباس بيضون كيف علم بالاندماج بين المجموعتين، وما كان عليه المناخ بينهما، وهو داخل منظمة الاشتراكيين اللبنانيين: «أمّا كيف جاء الحزب؟ لم يتغير البلد بالتأكيد، وبالطبع لم يتغيّر التنظيم. بالضبط لم يتغيّر نسيجه الاجتماعي. كلّ ما في الأمر أنّ الأمين العام [محسن إبراهيم] أبلغنا أنه حان الوقت لنندمج مع تنظيم آخر. قبل هذا الخبر لم يظهر شيء منه على الأمين العام. كنّا مع التنظيم الآخر في احتكاك قلما كان سهلًا، فالصراع على نفس الأهداف قد يترك حزازات أكبر، ونحن كنا على وشك ذلك حينما أبلغنا الأمين العام. كانت هذه فكرته وحده، لكنّه كالعادة كان قادرًا على [كذا] توقيت صحيح. كان أفضل عناصر التنظيم يكادون ينجرّون إلى التنظيم الآخر، والسبب أنّه يحوي عددًا من مثقفين متمكّنين. كنّا بعشرين مثقفًا جيدًا قادرين على أن نصنع تنظيمًا. عشرون مثقفًا محترفًا يكاد كل واحد منهم أن يكوّن حزبًا. كان المهمّ أن نملك نظرية اقتصادية عن البلد. هذا ما كان ينقص وبدونه لا نكون حزبًا. كان ينقص أيضًا أن نشبك بين الاقتصادي والسياسي والأيديولوجي، أن نشبك بين الأحداث وبين محصلة ذلك، أن نشبك بين عناصر التنظيم، ونسهّل اندماجهم في جملة واحدة وإنشاء واحد»[140].

أحمد الديراني مناخه مختلف، ربما لأنه عاش التجربة في بيروت، لا في مدينة صور الجنوبية، كما هو الشأن بالنسبة إلى عباس بيضون: «منظمة الاشتراكيين اللبنانيين [...] نعم ثمة ميزة وقتها، أن المنظمة أقل ثقافة. إنها منظمة الشعب، منظمة الحركات الاجتماعية. لبنان الاشتراكي كان شديد النخبوية، وكنا نسخر من طرق ترقيتهم. عندنا، في المنظمة، àقولٌ فنظرة فابتسامة فلقاء’. كانت هذه هي àالمراحل’، التي لا تدوم أكثر من شهرين. أما في لبنان الاشتراكي، فكان هناك حلقة àعادية’ وحلقة àمتقدمة’: يعني يكون عضو الحلقة وصل إلى شهادة الماجستير أو الدراسات العليا ليصير عضو خلية، في

حين أننا كنا نقول: àهذا قبضاي’، فندخله وندعو الله أن يقويه. كنا نبض الشارع [...] وكانوا في لبنان الاشتراكي مثقفين جدًّا. ووقتها راجت الفكرة: إن الشعب [منظمة الاشتراكيين] والمثقفين [لبنان الاشتراكي] يريدون أن يندمجوا»[141].

أيضًا، وديع حمدان يسجل الاجتماعات المشتركة التي كانت تنظم بين «كوادر» المجموعتين: «عام 1969 صارت عملية التقارب بين لبنان الاشتراكي ومنظمة الاشتراكيين اللبنانيين، وأذكر أن عملية الاندماج وقتها صارت في مركز àالرواد’. عملنا اجتماعًا كنت فيه عن طلاب منظمة الاشتراكيين، وكان في الاجتماع عن لبنان الاشتراكي مختار حيدر، وكان محمد عبد الحميد بيضون ورياض الدادا وعلي يوسف»[142].

«مفاوضات» قصيرة، وتجربة صحافية في مجلة **الحرية**، يتخللها تقاسم بينها وبين الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، وتعارف بين أعضاء التنظيمين، وأخيرًا الاندماج في أيار/مايو 1971. في مؤتمر عقد على عجل، وأعلن فيه تأسيس منظمة العمل الشيوعي، واختيرت فيه القيادات «المشتركة»، وبوشر بالعمل، ولكن لم يدم الوئام طويلًا، فكان انشقاق اكتملت دوراته في أواسط عام 1973. انفصل بموجبه، تباعًا، معظم الأعضاء السابقين للبنان الاشتراكي، أو طردوا، وصدر في حقهم بيان في مجلة **الحرية**، هنا مقتطفاته: «اتخذت قيادة المنظمة عددًا من قرارات الفصل والطرد والتجميد بحق بعض المساهمين في تكتل تخريبي نما في صفوف منظمتنا على امتداد العام الماضي، ومع أن المنظمة أتاحت لهم عرض وجهات نظرهم والدعاية لها داخل صفوفها، فقد رفضوا التقيد بأصول العلاقات الديمقراطية المركزية اللينينية في حسم النقاشات الداخلية [...]. الارتداد على الديمقراطية المركزية نفسها [...] لم يكن إلا الوجه التنظيمي لانحراف نظري وسياسي كامل أخذ يعيد النظر بالماركسية اللينينية وبدور الطبقة العاملة»[143].

يتحدث عباس بيضون عن هذه القرارات قائلًا: «هكذا ما إن صدر قرار التجميد بحق أربعة أعضاء، حتى بدأ التنظيم يغلي، وبسرعة غير متوقّعة ساند أعضاء أكبر هيئة في التنظيم الأعضاء المجمّدين الذين كان القرار يلزمهم بمقاطعتهم. ساندوهم وهكذا انفرط جزء كبير من التنظيم وخرج في ضربة واحدة معظم أعضاء التنظيم الآخر المندمج، لبنان الاشتراكي. لم يكن مضى شهران على المؤتمر الذي بدا ما جرى كأنه من ذيوله». ويتابع بيضون معلقًا على هذه الشحْنة الحزبية: «كانوا في معظمهم من التنظيم الآخر الذي بالكاد اندمجنا معه. لم نفهم هذه المكابرة àضدّ لينين’، لم نفهم إصرارهم عليها. كان المؤتمر الأوّل للتنظيم انتهى بإقرار المركزيّة الديمقراطية وبانتخاب مكتب سياسي لم يضمّ بعض العشرين مثقفًا. كان هذا بديهيًا، فعدد أعضاء المكتب السياسي لم يبلغ العشرين، لكنّ هذا لا يمنع أنّ واحدًا أو اثنين أبعدا عن قصد. حتى عمليّة الإبعاد هذه لم تكن ملحوظة، على الأقلّ بالنسبة لنا، فكلّ هذا جرى فيما كان حتى وقت قريب التنظيم الآخر. الذين أبعدوا والذين كانوا وراء الإبعاد كانوا منه، والذي قال إنّ الخلافات خلافات مثقفين فحسب كان أيضًا منه. لم يكن الوقت [قد] حان حتى لنلاحظ ذلك»[144].

لماذا انفرط العقد بين المجموعتين؟ نقاط عديدة، يرويها أحمد بيضون بعد حين: «في وقت من الأوقات الفردية تعود فتطلع وتستفيق: لماذا لا يستمعون إليّ؟ لماذا يستمعون إلى فلان أو فلان مفترضين أنهم يملكون الحقيقة. كنتُ أشعر أنني لستُ

مأخوذًا كفاية بعين الاعتبار، أو هناك طغيان آت من بؤر أخرى قريبة مني، ويصبح هناك نفور. بكل الأحوال أنا كتبت في آخر هذا المقال àلبنان الاشتراكي: ظهور جماعة شبيبة...' أن لبنان الاشتراكي àانتحر' باندماجه مع المنظمة. المقصود بـàالانتحار' [...] نوع من تغليب الشغل على الأرض على مهمات النظر والتفكير. وكان الشعور وقتها أن هذه المهمات لا تُسمع، وأنها محدودة، ولا نعرف إلى أين نحن ذاهبون. إزاحة التضخيم عن الحركات الجماهيرية وقتها: كثر هم الذين رأوا في قصة غندور [إضرابات عمال معمل غندور] أنها كانت عظيمة: àانظروا إلى التظاهرات والتضامن وحملة التحصين وإلى آخره...!' فعليًا في الوقت الذي كانت تحصل فيه هذه الأشياء، كان الشعور الطاغي أن هذا ليس بنجاح، وأنه àالحال مش ماشي'، وأنه كلما نقفز إلى محل تعود الأشياء فتنْفرط. كأننا نضرب بالحيطان، ولكن السائد أن àحالنا ماشي'، وأننا ذاهبون نحو الحزب الجماهيري، وهم قيادة الجماهير. وقصة قيادة الجماهير تحديدًا هي النقطة المشكلة. لم يكن عندنا أبدًا شعور بأننا نقود الجماهير. بالعكس الجماهير كان هناك أحد آخر يقودهم. اكتشاف الشللية وبلْعَطة الناس شمالًا ويمينًا بحسب علاقاتهم مع بعض، وهي العلاقات التي كان لها علاقة بالنموذج التنظيمي المفترض. كل صورة التنظيم، يكون الواحد منا معتقدًا أنه يبني تنظيمًا، ويعطي لهذا البناء معنى قويًا. وشيئًا فشيئًا يطلع علينا فلان وفلان وفلان وفلانة [...] وأن القصة هي قصة أصحاب، وأن أي اختلاف على موضوع سياسي أو تنظيمي الذي يظهر، هو علاقات الأصحاب»(145).

موسى إدلبي له رأي قريب؛ إذ يفسر الانشقاق: «لأنه في المؤتمر الأول، صيغ شيء اسمه نظام داخلي قيادة لينينية ومركزية ديمقراطية وما إلى هنالك، ومشى التنظيم في اتجاه المركزية. هم، لبنان الاشتراكي، يعتمدون حلقات وخلايا، ومندوب الخلية ينسق مع مندوبين آخرين، ولا يذهب إلى قيادة تتحكم في الخلايا، فاعتبر جماعة لبنان الاشتراكي أن منطق منظمة الاشتراكيين اللبنانيين منطق استبدادي، غلب على التنظيم الجديد، لذلك ثاروا على وضاح [شرارة]: من أننا سائرون في اتجاه الستالينية»(146).

ينقل أحمد الديراني أجواء ما بعد الانشقاق داخل المنظمة: «الجو في الخلايا بعد الانشقاق؟ بعد الانشقاق تم التداول بتقرير حزبي، اسمه تقرير 249، باسم عدد صفحاته، وفيه كلام سياسي عالي النبرة، من نوع أن التغيير الاشتراكي والتغيير الديمقراطي لا يقومان في لبنان إلا في الرحاب العربية، ما يعني أنه حكي فاضي ذاك الذي يتكلم عن مقومات لبنان بلدًا اشتراكيًا من دون المنطقة العربية، فلا تغيير ديمقراطي ممكن، من دون تغيير ديمقراطي في المنطقة العربية. يعني دور العامل العربي بالتركيبة اللبنانية هو النقطة السياسية الفكرية الجوهرية التي ركز عليها تقرير 249 [...] وعندما تنضج الظروف العربية نحو التحول الاشتراكي يجب أن يكون الوضع اللبناني قد نضج»(147).

ولكن ما هو نافر في هذا الانشقاق هو بقاء أحد مؤسسي لبنان الاشتراكي في المنظمة، في الوقت الذي خرجت منها الغالبية العظمى من أعضائها، وعلى رأسها وضاح شرارة. وحده فواز طرابلسي من بينهم بقي في هذه المنظمة.

كيف يعلل صاحبا الشأن حركتي وضاح شرارة وفواز طرابلسي المتعاكستين؟ يقول فواز طرابلسي إن وضاح، قائد الانشقاق، هو صاحب «الديمقراطية الخليوية الوجه التنظيمي للفصام الأصلي الذي كان يحترم التنظيم الموحد بين نخبوية

الفكر وشعوبية الممارسة. ولا تغرنك الديمقراطية المباشرة، مثلها مثل سلطة اللجان والروابط في ليبيا، كانت تخفي إدارة فرد أو اثنين يتوليان القيادة الفعلية لكنها قيادة غير معلنة وبالتالي غير مسؤولة». ويتابع في مكان آخر واصفًا نفسه بوجه هذه الديمقراطية الخليوية، أنه يقف مع دعاة الديمقراطية المركزية، ومرجعه مقالة نشرها يوم كان في لبنان الاشتراكي «تنطوي على قراءة ديمقراطية للمركزية الديمقراطية اللينينية»[148].

وضاح شرارة، من جهته، يفسر بقاء فواز في المنظمة بطبائعه البيروقراطية: يصفه بـ «الشخص الجهازي»، ويتذكر تباهيه بكتاباته أمام الأعضاء القاعديين، الذين يتلقون التعاليم من مثقفي لبنان الاشتراكي: «كان عليكِ أن تريه وهو لابس البدلة الكاكي، وهو يحكي ويشرح لأعضاء الحلقة [يعني القاعديين] ما كتبه حول الديمقراطية المركزية فكرته ورأيه [...] واكتشافه أن تنظيم الماركسيين يمرّ بمراحل وأوقات يلعن فيها الديمقراطية [...] وكان عدوه وقتها شيئًا كان يسميه المساواتية الذي سماه فيما بعد àالقاعدية’. فهم التشخيص غلط [...] ولكن هو فكرته عن نفسه أنه سياسي مهم، يتغنى ويتطور بهذا الرصيد حتى اليوم»[149].

موسى إدلبي له رأي قريب، وبعبارات أخرى: «انتهى الأمر، وصار محسن إبراهيم متحكمًا في الموضوع كله. وصار فواز ضعيفًا. هكذا اعتبره الذين خرجوا، فشخصيته ليست واقفة على الأرض: فلا هو سياسي ولا هو حزبي. إنه مثقف، ولكن على ذوقه، مثقف بمراجعه العائدة إلى العشرينيات [...] لينين وستالين وليو تولستوي. من العام 1973 وما بعد، انتهى الموضوع، ولم يعُد مطروحًا موضوع أننا نريد مثقفين»[150].

هكذا يُنظر إلى الاختلاف بين وضاح شرارة وفواز طرابلسي، بين الخروج عن القيادة، بسلاح ثقافي متين، والإذعان لـ «ديمقراطيتها المركزية»، والبقاء فيها بالمخزون الثقافي نفسه. ولكن، هل كانت ثقافة واحدة، أو ثقافة مندمجة ببعضها؟ أو هل قربت الثقافة، والمعرفة بالغرب، والاتصال به على وجه من الأوجه، بين جميع من كانوا يتولون الشؤون الفكرية داخل هذه المجموعة؟ الأرجح لا؛ فثمة فرق بسيط، درجة باللون، بين المنبعين الثقافيين المعتمدين لدى الاثنين، وقد يقف هذا الفرق خلف بقاء فواز طرابلسي في المنظمة، وخروج وضاح شرارة منها، ومعه أصدقاؤه. وهذا الفرق هو بين الثقافتين الفرنكوفونية والأنكلوفونية؛ وقد استقى فواز طرابلسي ووضاح شرارة، كل على حدة، من منظومة المركزَين الأوروبيين، ما يتعلق بهما من مفاهيم حول الثقافة وقيمة المثقف. وهي، أي المفاهيم، تتناقض كليًّا من حيث جذرها.

فواز طرابلسي، العائد من بريطانيا، والمتسلح بما أغدقته عليه المعرفة الغربية من نِعَم، حمل معه من بريطانيا إرثًا مضمرًا حول المثقف، يقوم على العداء له والسخرية منه. يفسر جيرمي جينينغز قواعد هذا العداء بتفضيل البريطانيين النخبوية الاجتماعية على النخبوية الثقافية، بحذر التقاليد البروتستانتية من النظريات والتمايزات الفئوية، بتفوق الحواس على العقل المجرّد، بالأولوية التي يعطيها البريطانيون للتربية على حساب الوعظ، بالاعتقاد أن الأخلاق ليست ثمرة مبادئ مطلقة، بل عائدة إلى طبائعنا[151]. ويضيف كاتب آخر أن التقاليد البريطانية المعادية للإنتليجنسيا تعود أساسًا إلى رفض ما ترحّب به الكثْلكة، أي «تطور هرمية إكليركية تقوم بالوساطة بين الله والكائن المقيم في هذه الأرض»[152].

أما الفرنسيون، فبالعكس: مثقفوهم لديهم وظيفة وقيمة. كان تأثيرهم مبكرًا في الحياة السياسية في بلادهم، بدءًا من القرن التاسع عشر مع الدور الذي أداه الروائي إميل زولا (1840–1902)[153] دفاعًا عن الضابط اليهودي ألفريد دريفوس (1859–1935)[154]، المتهم بقضية خطِرة، الخيانة الوطنية، واعتبار زولا أن القضية مكيدة قضائية تستهدف دريفوس، بصفته يهوديًا، ثم نجاحه في حشد المثقفين وتنظيمهم للدفاع عنه عبر مؤتمرات ونشرات ومقالات. دشن زولا بذلك عهدًا جديدًا للمثقفين الفرنسيين، يمنحهم شرعية الإدلاء بدلوهم في الشأن السياسي. وقد تطور هذا التصور في العصر الذي نحن بصدده، مع الفيلسوف الفرنسي اليساري جان بول سارتر، ومن علاماته تعزيز فردية المثقف، بل تحويل تحقيق الحرية الفردية إلى معيار رئيس لتحليل المجتمع وتغييره، وعنصر مركزي في المشروع الثوري[155].

قد يكون المصدران المختلفان لثقافة الرجلين هما اللذين حددَا لاحقًا مصير انتظاميهما السياسيين: الأول فواز طرابلسي، الذي في أصل ثقافته الأنكلوفونية، لا يرى في العمق دورًا أو وظيفة للمثقف، تستحق حريته الخاصة والفردية، فانضوى إلى «البيروقراطية» الحزبية، الموصوفة، في حين أن وضاح شرارة، المشْبع بفرديته الفرنكوفونية، المؤمن بوظيفته بصفته مثقفًا، لا يمكنه القبول بلعبة «الديمقراطية المركزية» المكبِّلة لفرديته ولحريته في التفكير. في الحصيلة: الاندماج، ثم الانشقاق، لم يكونا «انتحارًا» فحسب، كما يصفهما أحمد بيضون، بل نصف انتحار ونصف جريمة أيضًا. كانت نتيجة ذلك أن المنظمة أُفرغت من مثقفيها، وبدأت الحملة في داخلها «ضد المثقفاتية»، في حين انتهى وجود لبنان الاشتراكي، وبقيت منظمة العمل الشيوعي على قيد الحياة، إلى حين.

لكن خسارة المنظمة هذا العدد الهائل من المثقفين، بعدما كانت تحلم بهم، سوف تُشعرها بالفراغ، فتسعى للتعويض عن خسارتها بجذبها ثلاثة مثقفين أتوا من الحزب السوري القومي الاجتماعي، هم وليد نويهض وحازم صاغية وجوزيف سماحة (1949–2007)[156]، وجميعهم صحافيون، أي مثقفون «أكثر عضوية»، أكثر التصاقًا بالحدث السياسي من المثقف – الأستاذ. يروي وليد نويهض هذا التحول الذي أتى به إلى منظمة شيوعية قائلًا: «كنا، يعني أنا وحازم صاغية وجوزيف سماحة، بدأنا نطّلع على الكتابات الماركسية [...] الثورة الطلابية ربيع براغ عام 1968. الحزب السوري القومي الاجتماعي لم يكن قادرًا على تحمّلنا، مع أن àيساريي' الحزب كثرت أعدادهم، ولكنهم كانوا متمسكين بالفكر القومي الكلاسيكي [...] كنا نحاول الخروج من هذا الإطار، ثم طردونا نحن وحوالى أربعين واحدًا، من بينهم جوزيف سماحة، حازم صاغية، يوسف شويري وعبد الله إسكندر ورالف رزق الله وغانم بو غانم [...] وأنا. طردٌ بالجملة. شكلنا àالتجمع الديمقراطي الثوري'، نصدر باسمه بيانات وننشرها في الصحف، نعطي آراءنا بالوضع اللبناني والعربي. هنا انتبهت إلينا الأحزاب اليسارية فهجمت علينا، نحن الشباب الصغار الواعدين والحركيين. هجمت علينا جماعة مجلة àالراية' يسار البعث، صلاح جديد [1926–1993][157]، وصرنا نكتب فيها بأسماء مستعارة، ثم مجلتا àالحرية' وàالبلاغ'، أكثر ما نشرنا في àالبلاغ' [...] والحزب الشيوعي وصحيفة àالنداء'، وحتى الحركات الفلسطينية صاروا يتصلون بنا: شعبية [الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين] ديمقراطية [الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين]. بعد عامين، تعرفنا إلى منظمة العمل الشيوعي، وتحديدًا فواز طرابلسي الذي كان صلة الوصل بيننا وبين المنظمة. كانت المنظمة بأمسّ الحاجة إلى مثقفين،

بعدما انشق عنها وضاح شرارة وأحمد بيضون. حصل فراغ بعد خروجهم، فصاروا يطلبون منا الدخول إلى المنظمة. ونحن بدأنا نعتبر أن àالتجمع الثوري الديمقراطي’، الذي أسسناه بعد طردنا من الحزب السوري القومي، هو مرحلة انتقالية من القومي إلى اليساري. اعتبرنا أنه في العامين السابقين فهمنا التركيبة. وكان القرار أن نحلّ تجمعنا [الثوري الديمقراطي] لأنه لا قيمة له بوجود يساريين [...]. هنا صار نقاش داخلي بيننا: أين نذهب؟ أعلنّا حلّ التجمع، وليذهب كل واحد في حال سبيله إلى المكان الذي يريد. واحد أو اثنان ذهبا إلى الحزب الشيوعي، واحد أو اثنان ذهبا إلى الشعبية، والعدد نفسه ذهب إلى الديمقراطية، وثلاثة أو أربعة ذهبوا إلى حركة àفتح’. المجموعة الأساسية قالت نذهب إلى منظمة العمل الشيوعي. أصدرنا بيانًا باسم àالتجمع الثوري الديمقراطي’، نشر على حلقتين في مجلة àالحرية’، واندمجنا في المنظمة ونقدنا حزبنا القديم [السوري القومي]، وقلنا لماذا أصبحنا يساريين، والوضع اللبناني وتناقضاته والطبقة العاملة وكل الكلام النظري [...] يساريتنا كانت ما زالت نظرية ناتجة من قراءات، ولا تجربة. وفي المنظمة عيّنتنا القيادة في مواقع عليا. ملأنا الفراغات التي تركها المنشقون عن المنظمة، لهذا السبب أخذنا مواقع في مفاصل المنظمة. أنا صرت عضو لجنة مركزية، وجوزيف سماحة عضو مكتب سياسي، وصرنا ماسكين مجلة àالحرية’»[158].

أما حازم صاغية، فيصف تلك المرحلة بقوله: «كان الناشطون بيننا يلهثون وراء المسائل مثلما يطرحها اليسار اللبناني، لا سيما الشيوعيون في حزبهم ومنظمة عملهم. وقد ربطتني بهذه الأخيرة علاقة لم تخلُ من التباس وتداخل، فأثناء العودة من بريطانيا، جمعني جوزيف [سماحة] ووليد [نويهض] بفواز [طرابلسي]، القيادي فيها، وكان انتساب صديقين إليها ما مهد الطريق التي عبّدها فواز في سهرتنا تلك، فهو بدا مقنعًا؛ إذ تحدث عن النموذج الفيتنامي [...] ولئن حمل كلامه على كمال جنبلاط والتحالف معه إقناعًا أقل، فقد كان للمنظمة جاذب آخر هو تحديدًا أنها ليست الحزب الشيوعي، فهي إذ تصلني بماض عروبي ما، ناجم عن مصادرها في الحركة القومية، يبقى الشيوعيون [الحزب الشيوعي] أكثر مسيحية وأشد ريفية مما أهضم وأستسيغ»[159].

هذا عن «المداخيل» البشرية التي عوّضتها المنظمة بانتساب القوميين السوريين الثلاثة البارزين. في الاتجاه الثاني، حصلت الحركة العكسية؛ فكان خروج وخروج: بعضه فردي، أو ربما احتجاجي على تفرد ما، هو خروج محمد كشلي، ومجموعة سميت بالعمالية. تبعها خروج ثلاثة من بينهم قيادي واحد، رفعت النسر، ومعه كادران آخران، نحو الحزب الشيوعي اللبناني.

يروي رضا إسماعيل، وكان واحدًا من أولئك الثلاثة: «التمهيد للذهاب إلى الشيوعي بدأ باكرًا. ليس في الخلية كان النقاش [...] بل خارج الخلية. وذروة التنسيق بين المنظمة والحزب كانت في إضراب معمل غندور عام 1973، وكانت اجتماعات التنسيق تحصل أحيانًا في مركز الحزب، بالإضافة إلى بيت أحمد الديراني بالشياح [...] يعني صار هناك تنسيق يومي، وبنفس الوقت على المستوى النقابي مع الاتحاد الوطني للعمال، وعلى مستوى العمل الوطني غير النقابي، وفي الجامعة أيضًا كنا متحالفين وفي القيادة محسن إبراهيم وجورج حاوي وكمال جنبلاط وياسر عرفات، اعتبرتُ وقتها أن كل هذه العوامل مقنعة لدخولي إلى الحزب الشيوعي. بعد تجربة إضراب معمل غندور عام 1973، كان هناك أيضًا مرشح مشترك

للحزب الشيوعي والمنظمة، وكان هناك أيضًا تنسيق. الحزب أكبر أكيد. صرت أقول إن اعتراضنا على الحزب في بداية وجودنا في المنظمة أنه حزب تحريفي إصلاحي، وأن عمله نقابي صرف. وإذا نحنا الآن نمجّد العمل النقابي ونعتبره بأهمية العمل السياسي. إذًا، لماذا هناك حزبان شيوعيان؟ السؤال طرحته على محسن إبراهيم: لماذا لا نكون حزبًا واحدًا؛ إذ كنا نناقشه، ونقول إننا نريد الذهاب إلى الحزب. لم تكن نيتنا سرية»[160].

ثم كانت هجرة أفراد من منظمة العمل الشيوعي إلى الحزب التقدمي الاشتراكي التي يصفها أحدهم، وهو جهاد الزين، على القاعدة نفسها التي انجذب بها لبنان الاشتراكي إلى منظمة الاشتراكيين اللبنانيين: أي إنهم مثقفون لا يجدون في منظمتهم الجماهيرية التي يصبون إليها، في حين أنهم يلاحظون غياب المثقفين عن الحزب المتمتع بتلك الجماهيرية المشتهاة، أي الحزب التقدمي الاشتراكي بقيادة كمال جنبلاط. جهاد الزين، وهو أحد الذين قاموا بهذه الخطوة، يقول عن انتقاله إلى الحزب التقدمي الاشتراكي: «كمال جنبلاط كان زعيمًا لكل الأحزاب. وقتها وصلت إلى نتيجة أنا ومجموعة: أنه إذا الأحزاب ملتحقة بكمال جنبلاط [...] لماذا لا أذهب إلى جنبلاط؟ كان معي الفضل شلق، جنان شعبان، صفوان حيدر ورشيد حسن. مجموعة من اليساريين وبعض البعثيين. وقد تبين أنني كنت متوهمًا. بينت سذاجة أن الالتحاق بكمال جنبلاط هو الالتحاق باليسار. هو حزب للطائفة غير قابل للتغيير. كان خطأ كبيرًا وتصرفًا خفيفًا، ذاك الربط بين وزن جنبلاط الجذاب وبين دخول الحزب الذي يقوده، الحزب التقدمي الاشتراكي»[161].

الفوج الأخير الخارج من منظمة العمل الشيوعي يقوده شباب، ذهبوا جميعهم إلى منظمة «فتح» الفلسطينية، بصفتها أيضًا القائدة العليا للقوات المشتركة اللبنانية – الفلسطينية، وقد انضووا إلى «الكتيبة الطلابية»، التابعة لـ «فتح»، وأشهرهم، سعود المولى، طلال عتريسي، طلال طعمة ورياض الدادا.

شهادة سعود المولى عن التجربة: «أعلنتُ انشقاقي عن المنظمة [تموز/يوليو 1972] على رأس مجموعة طلابية. وكان السبب المباشر تأييد الأحزاب التقدمية اللبنانية لصدام حسين عند تأميمه النفط. والأسباب غير المباشرة كثيرة، أولها أننا كنا ماويين ننتمي إلى خط ماو تسي تونغ ضمن الحركة الشيوعية العالمية، وكنا نرى أنه يجب الالتزام بتيار الثورة الفلسطينية الرئيسي [حركة فتح] وليس بيسارها المرتبط بموسكو [...] وكنا نقول إن فلسطين هي طريق الوحدة العربية، وإن الثورة الفلسطينية هي رأس الحربة للثورة العربية الشاملة، وإن حرب الشعب طويلة الأمد هي طريق النصر [...] استمرت المجموعة سنة واحدة [1972–1973] ارتبطنا فيها بحركة àفتح' من خلال الشهيد جواد أبو الشعر والدكتور محجوب عمر، وعملنا خلالها في المصانع [قصارجيان وغيره] وفي الأحياء الشعبية، [...] وكنا على اتصال بالماوي الفتحاوي منير شفيق (1934)[162] وبممثله في الجامعة الأميركية أبو سليم إيدي، [...] إلى أن أعلنا التزامنا بالانتماء إلى التنظيم الطلابي لحركة فتح، ودخولنا في تيار منير شفيق بشكل كامل عام 1973»[163].

أما طلال عتريسي، فيقول: «كان ذلك سنة 1973–1974. الكتيبة الطلابية لم تكن التزامًا حزبيًا. والكتيبة الطلابية كان عندها تميز داخل àفتح' والتنظيمات الفلسطينية الأخرى: إنه لا علاقة لها بالفساد والصراعات التي كانت قد بدأت، من أجل التسلط والتدخل. تجربة الكتيبة؟ شباب قاتلوا راحوا على المخيمات وعلى الجنوب قاتلوا في صنين ورأس النبع

وخندق الغميق ومنهم شهداء. وهذه ميزة، وكانت علاقتهم بالناس جيدة، وقدموا شهداء. التجربة الماوية في الكتيبة: بدأت بعض قياداتها تدرس تجربة الماوية وعلاقتها بالشعب لأن ماو تسي تونغ قدم أطروحات جديدة ومهمة: إنه خط الشعب، الثورة التي قادها أنه لا عمال في الصين، بل فلاحون. فإذا الماركسية تقول بثورة مع العمال والمصانع، فكيف نقوم بثورة؟ بالنسبة إلي وإلى هذه الكتيبة كان هذا مدعاة للتفكير في خصوصيات بلادنا، فإذا الواحد أراد أن يعمل ثورة في بلاده مثلما عمل ماو، عمل ثورة في بلاده استنادًا إلى الفلاحين [...] علينا أن نعمل ثورة ونحن نعرف ثقافة بلادنا. هكذا بدأ النقاش»[164].

ويروي طلال طعمة: «بعد حرب السنتين بدأنا بمشاركات عسكرية مختلفة مع القطاع الطلابي لحركة فتح. لماذا سميناها àالكتيبة الطلابية’؟ لأن قوامها الرئيسي كان التنظيم الطلابي لحركة فتح زائدًا الطلاب اللبنانيين الملتحقين بالعمل الفلسطيني الفتحاوي. كانوا يشاركون معًا بمعارك في محاور ببيروت والجبل، فيما بعد، بما أن الفلسطينيين عندهم قدرة تنظيمية أعلى، وقدرات جاهزة وموجودة، وعندهم قدرة عسكرية وتجهيزات أفضل. اتخذ قرار بإنشاء الكتيبة الطلابية التي تضم الطلاب اللبنانيين والفلسطينيين. اتخذ القرار من القيادة، بعد عقد مؤتمر. أما البنية التنظيمية، فتشكيل عسكري كامل. كانت أخلاقية وضد التجاوزات والتشبيح الميليشياوي. نموذج سليم للناس. تميزت الكتيبة بالجانب الأخلاقي. كان شبابها يقاتلون من قلبهم. كانت سمعتهم أنهم مقاتلون جيدون، وفي رأيي هم مقاتلون جديون. علاوة على أنهم كلهم متعلمون»[165].

رياض الدادا، انتقل أيضًا من المنظمة إلى «فتح» عام 1973، وهو يروي: «كان التفكير أنه من الأفضل أن نضع يدنا بيد اليسار الفلسطيني لنعمل مشروعًا عربيًا. وقتها خرجت من منظمة العمل الشيوعي، وبما أن نشاطي كان مع الفلسطينيين في ظل المنظمة، وكان يقوم على الاحتكاك مع أوساط àفتح’، تعرفت إلى التيارات الفلسطينية. عندما حصل الانشقاق [انشقاق وضاح شرارة] في المنظمة، اعتبرتُ أن وضع اليسار هش، ضعيف. وبما أنني مهتم بالقوة، ونحن بصدد بناء التنظيم لنصبح أقوياء [...]؛ لهذا السبب تحديدًا، استهوتني حركة àفتح’ لأنها تيار شعبي وسلاح، ولديها قدرة على التوسع وبناء القوة وفي الشارع. تأسست الكتيبة سنة 73 من أنصار الثورة الفلسطينية بمختلف القطاعات. التنظيم الطلابي الطاغي كان يسار àفتح’، أي ناجي علوش ومنير شفيق وأبو داوود ومحمد عودة. وكنت أميل إلى رفض النقاط العشر والطروحات التي كانت تروجها الجبهة الديمقراطية [نايف حواتمة] وقيادة فتح. حرب 1973 كانت انتصارًا للسلاح الروسي وللتحالف مع روسيا ضد إسرائيل وأميركا. عاد وتأكد أن الإطار العربي هو للرد على الهزيمة، وكان هناك أفكار يساروية من نوع أنها حرب شكلية وللتحريك، ونحن كنا نراها حربًا وطنية، وبالتالي ممكن أن يكون الواحد تحت جناح البرجوازية الفلسطينية في àفتح’، ويطرح خطًّا أكثر جذرية، ويشتغل ضمن الجبهة الوطنية ويعمل على تحرير خطه»[166].

2. الحزب الشيوعي اللبناني

عشية حرب حزيران/يونيو 1967، يتعرض الحزب الشيوعي اللبناني لانشقاق، تقوده كتلة يتصدرها نخلة مطران ونسيب نمر وإدمون عون. لا ترضى هذه الكتلة بانعطافة الحزب الداخلية، ولا بالمسافة الفاصلة مع الحزب الشيوعي السوري، وقد

انفصل اللبناني منه على نحو لا يعجبها. تحاول المجموعة الجديدة استقطاب الشباب، كما يروي جاد تابت عن العلاقة الخاصة التي جمعته بنخلة مطران شخصيًا: «في الستينيات، عندما توفي أبي كان عمري 19 سنة، وكنت أدرس في سويسرا أول سنة جامعة. عدتُ إلى لبنان، وكان وقتها أول انشقاق في الحزب الشيوعي؛ نخلة مطران وإدمون عون ورفاقهما كانوا قريبين جدًّا من أبي. هم الذين ثقفوه بالحزب الشيوعي وكانوا مسؤولين عن المثقفين. بعدما توفي أبي، صاروا يأتون لعندنا في البيت ويهتمون بنا. وقتها كانوا أول ما بدؤوا بالظهور. ولا أعرف كيف أقاموا علاقة مع مجموعة àالإيكول دي ليتر' Ecole des Lettres [جامعة فرنسية]، وقسم كبير منهم كان يهوديًا. إنهم هؤلاء اليهود الشباب الذين ثاروا على عائلاتهم. وقتها، بين الخمسينات والستينيات، كان اليهود مرتبطين بحزب الكتائب. كل الجالية اليهودية كانت تحت حماية حزب الكتائب؛ هي المقاطعة الخامسة التي كانت في وادي أبو جميل. كان ثمة مركز للكتائب بشارع سكة الترام، وحزب الكتائب كان يحمي يهود وادي أبو جميل. هؤلاء الشباب اليهود كانوا ثائرين على أهلهم وعلى الجو العام بتأثير من مدرسة الليسه الفرنسية، فتحولوا يسارًا واكتشفوا الماركسية. جمعهم نخلة مطران وإدمون عون، وأنا دخلت معهم على أساس أن نعمل ماركسية في جو فرنكوفوني. أذكر من النساء بيننا يولا بوليتي التي التحقت لاحقًا بلبنان الاشتراكي، وكانت الزوجة الأولى لوضاح شرارة. نوال عبود ذهبت إلى لبنان الاشتراكي أيضًا وتزوجت فواز طرابلسي. فضلًا عن مادونا غازي وهاني سرور [...] نخلة مطران لم يكن عنده جماعة. كان هو يعطينا كتبًا ماركسية، ويقول: اقرؤوا ما العمل وخطوة إلى الإمام خطوتين إلى الوراء. [...] كنا مستقلين بشكل كامل يعني نخلة ما كان يقعد معنا، كان يعطينا كتبًا، يحكي، ولكن لم يكن هناك تنظيم مع نخلة مطران»(167).

المجموعة، اتحاد الشيوعيين، كانت نشيطة في مجال آخر أيضًا: تصدر الصحيفة اليومية **إلى الأمام**، ومجلة نصف شهرية **الفكر الجديد**، ولكنها لم تعمر طويلًا، أفرادها توزعوا بين أحزاب اليسار الجديد والانسحاب التام من الحياة العامة. وينقل أحمد الديراني «الجو الطبقي» الذي حمله معهم هؤلاء الأفراد قائلًا: «أنا شعرت بالطبقية وقت جاء بعض اليسار من اتحاد الشيوعيين. هنا رأيتُ أن هناك طبقات ثانية. ما زلت أذكر كوليت وبيتها الثري، لكن اتحاد الشيوعيين دخلوا منظمتنا كأفراد»(168).

بقي الحزب الشيوعي إلى أن اندلعت حرب حزيران/يونيو 1967. عشيتها، لم يكن الباحثون عن أحزاب تستجيب للنداءات التحررية، الرائجة وقتذاك، يقتربون من الحزب، لِما وُصم به من تساهل مع إسرائيل، ومن تبعية تجاه السوفيات الذين اعترفوا بقرار تقسيم فلسطين عام 1947، لكن الغليان كان مشتعلًا بين شباب الحزب الطامحين إلى الاستجابة لهذا التوق العارم تجاه القضية الفلسطينية وتجاه أسلوب الكفاح المسلح من أجل تحرير فلسطين. وهؤلاء الشباب هم جورج حاوي وكريم مروة وجورج البطل. إنهم يتململون من قيادتهم، ويريدون بحماستهم الشبابية أن ينسجم الحزب مع المناخ المتفجر في لبنان، وأن يأخذ قراره بالمضي في الكفاح المسلح. فكان الامتعاض السوفياتي من الحزب اللبناني: «بدأ التناقض مع السوفيات يأخذ طابعًا تشكيكيًا من قبلهم، بالقول إن هناك انحرافًا قوميًا، وهم كانوا حساسين جدًّا حيال الانحرافات القومية. وتحت هذه التهمة أدين كل من تيتو وماو تسي تونغ، وكل الذين خرجوا عن الصيغة الأممية السوفياتية. لقد بدأوا

ينبهون القيادة بأن طرح هؤلاء الرفاق الشباب المخلصين مخيف، يجب أن تنتبهوا منهم [...] إنهم يبالغون في طرح القضايا القومية»(169).

فكان المؤتمر الثاني للحزب في عام 1968، بعد خمس وعشرين سنة على مؤتمره الأول (1943)، وأربع وأربعين سنة على تأسيسه (1924). وهو من أهم المؤتمرات؛ لأنه كان منعطفًا: أولًا، بحله التناقض القائم في سياسته بين محاربة الصهيونية والقبول بتقسيم فلسطين. ثانيًا، بظهور نوع من الاستقلالية عن القيادة السوفياتية الرافضة حل هذا التناقض. ثالثًا، بطرح الصيغة الديمقراطية في التعامل بين الأطر الحزبية، على الأقل طرحها. رابعًا بمرور هذا المخاض من دون خسائر جسيمة، اللهم «انشقاق»، أو طرد، الجناح الرافض لهذا التحول، وبطلَيه الشهيرين، صوايا صوايا وحسن قريطم، واحتدام العلاقة مع السوفيات، بعدما اعتمد هذا المؤتمر الثاني الكفاح المسلح(170).

أقول «على الأقل»، يطرح الصيغة الديمقراطية، مجرَّد طرحها، وهذه رواية جورج البطل، أحد أطراف التحول البارزين، للطريقة التي طُرد بها المخالفان للتوجه «الثوري» الجديد، صوايا صوايا وحسن قريطم؛ إذ يقول: «قمنا بتسويات لمعرفة ما يجب فعله [بعد اندلاع الخلاف]، واستنتجنا أن صوايا هو الحلقة الأضعف فهو لا يملك خلفية، رجل كاثوليكي من كفرحونة، والده جنبلاطي وهو ذهب إلى الكورة وأصبح أرثوذكسيًا، وجاء إلى بيروت وأصبح شيوعيًا كما لا يحتمل الحزب الذي يكرهه، بينما حسن قريطم أصعب على اعتبار أنه من بيروت ومن آل قريطم، من قبضايات بيروت. وبناء عليه توجب علينا البدء من الحلقة الأضعف، وهي صوايا»(171).

عودة إلى المؤتمر الثاني للحزب، عن عشيته وعن حدوثه، كما يرويه اثنان من الشيوعيين. الأول هو كريم مروة، شريك جورج حاوي وجورج البطل في تزعم هذا الجناح. يروي عن هذا الفصل: «نتفق باجتماع اللجنة المركزية على عقد المؤتمر ونحدد موعده ونشكل هيئاته. حصل هذا في تشرين الأول [أكتوبر] من سنة 1967، [...] في موقف مبدئي قبل اجتماع اللجنة المركزية. كان حسن قريطم وجماعته يرفضون هذا التوجه. وأنا يومها قلت لحسن قريطم: نحن حزب شيوعي، رمز الوطنية، أول من يقاتل دفاعًا عن وطن. والدفاع عن الوطن يكون بالسياسة والعلم والسلاح، فعندما تقول إنك لا تريد استخدام السلاح، فلمن إذًا تترك المقاومة؟ [...] كنا أكثرية ساحقة، وبدأنا التحضير للمؤتمر. المؤتمر عُقد في تموز [يوليو] سنة 1968. وفي تلك الفترة كان لبنان يغلي ومعه المنطقة كلها [...] قبل هذا التاريخ كان موقفنا السياسي يتطور مع تطور الأحداث في لبنان والمنطقة، وصار الوضع مختلفًا عما كان عليه سابقًا. كانت بداية لانتعاش الحزب والتحضير للمرحلة القادمة. الفكرة الرئيسية خلال التحضير كانت: نحن، أولًا، حزب شيوعي لبناني عربي. كل ما يتصل بلبنان والعالم العربي نحن أصحاب القرار فيه. لا سوفيات ولا شيء. السوفيات موقعهم في الحركة الأممية، وهم قادة الحركة الأممية ضد الإمبريالية، ونحن أعضاء في هذه الحركة. أما في ما يتعلق بشؤوننا، فنحن أصحاب القرار. ثانيًا، ألغينا دكتاتورية البروليتاريا، كانت àطقْ حنَكْ' [كلام لا قيمة له ولا فائدة]. ثالثًا وقفنا عند رسالة فرج الله الحلو التي تنطوي على النقد الذاتي، واعتبرناها إهانة وخطأ تاريخيًا فُرضت على فرج الله، ويجب إلغاؤها من التاريخ، فألغيناها باسم فرج الله الحلو الشهيد لأنهم كانوا قد قتلوه. أما الأمر الرابع، فهو الديمقراطية: نحن في بلد نظامه ديمقراطي. نريد أن نكون ديمقراطيين بكل معنى

الكلمة. صيغتنا للاشتراكية تمر بمرحلة حكم وطني ديمقراطي، فكتَبنا مشروع برنامج. أقول لك كل هذا لأننا في اللجنة التحضيرية كتبنا وثائق، وخضنا نقاشات حولها تضمنت هذه النقاط، وحصل نقاش واسع جدًّا وتجاوب كامل. وصلنا إلى المؤتمر. طبعًا نحن حزب سري، أنا غُيبت عن الاجتماع [...] لأسباب أمنية؛ فمن الممكن أن تُضرب اللجنة المركزية. على الأقل يكون بوسع أحدنا أن يكمِّل، وكنت يومها وجهًا معروفًا [...] في المؤتمر، أخذوا قرارات وناقشوا الوثائق ووافقوا عليها وانتخبوا كل قيادات الحزب: نقولا الشاوي أمين عام للحزب وأنا نائب الأمين العام [...]، بعدما أعلنا قرارات المؤتمر أرسلنا وفدًا إلى موسكو مؤلفًا من نديم عبد الصمد وجورج البطل. عرضوا أولًا وثائق المؤتمر، ثم نتائج المؤتمر. الروس لم يناقشوا البتة، قالوا أنتم عقدتم مؤتمرًا وهذه قراراتكم. أعطيناهم درسًا، يعني ولو مرة واحدة يكون هناك من يعترض عليهم، مع إصرارنا على البقاء معهم كدولة شيوعية اشتراكية. الآن بدأت القضية الفلسطينية، الفلسطينيون دخلوا وبدأت المقاومة [...] فنحن أخذنا قرارًا أن نكون شركاء مع الفلسطينيين باسم الحزب، ولنا منظماتنا الحزبية على الشريط الحدودي كله تكون مساعدة للمنظمات الفلسطينية بالقتال»(172).

ثاني المتحدثين عن هذا المؤتمر هو نهاد حشيشو، وهو لم يعد حزبيًا منذ عقود، يصف هذه الأجواء قائلًا: «عام 1967 كان مفصلًا مهمًّا. في هذه السنة كان شيوعيو خالد بكداش قد انتهوا، وخرجت جماعة نخلة مطران، وسيطر على الحزب جورج حاوي وجماعته [...] قبل مؤتمر العام 1968، نوى جورج حاوي شرًّا على صوايا صوايا وحسن قريطم». ردّ صوايا بأن شنَّ حملة على جورج حاوي واتهمه بأنه ماكر، ونقولا الشاوي يعلم بالموضوع. «عندها، قامت جماعة جورج حاوي تكتّلت حوله، وقالت àإما نحن أو هم'، إما صويا صوايا أو جورج حاوي. وكانت أكثرية الحزب مع جورج حاوي. وجورج وجماعته يحكون أن لهم علاقة بالواقع وقريبون منه، فيما حسن قريطم وصوايا صوايا من جماعة السوفيات وخارج الواقع، ويتفاعلون مع كمال جنبلاط. السوفيات وجدوا في هذا الاضطراب ما يشبه الانشقاق: ناس قعدوا بـ [صحيفة] **الأخبار** وناس قعدوا بـ **النداء**. فقالوا انتهى الحزب، وسوف ينشق. كانوا يعلمون أن كتلة جورج حاوي هي الأساسية. هنا لعبوا اللعبة كلها، وأبقوا على نقولا الشاوي، فيما أرتين مادويان ينحاز لجورج حاوي؛ يعني جزء من القيادة التاريخية والجزء الثاني يمهدون لهم ليوصلوهم. جاءت حرب 1967، وجعلت جورج حاوي وجماعته يطحشون [يهجمون]؛ على أساس أنه هو وجماعته الذين عملوا الثورة بالحزب، وكانوا يسيرون بخط مسايرة عبد الناصر وجماعته بلبنان. وأنا قلت لهم: كيف تحكون مع الناصريين؟ هؤلاء كنا أمس ضدهم. صار جورج حاوي يزايد علينا [...]. وعلق الشيوعيون بعضهم ببعض وقتها في الجرائد، في àالنداء'، وجريدة àالأحرار' العائدة للبعثيين [...]. ينعقد المؤتمر الثاني عام 1968، وأُطرد أنا من الحزب [...] وهذا المؤتمر بقي منعقدًا لمدة 36 ساعة. وصدرت القرارات في حق صوايا صوايا وحسن قريطم [...] صوايا صوايا الذي هو لينين حزبنا العظيم يصبح مجرد عضو. وحسن قريطم الذي هو نائب لينين، ينزل من مكتب سياسي، وهو كان كل شيء، إلى مرشح عضو لجنة مركزية. خربوا بيتهم [...] فلان وفلان [...] كسروا كل جماعتهم، طردوهم، وقتها عرفت أنهم طردوني [...] ونقولا الشاوي الرئيس الفخري وأمين عام الحزب. وقتها لم يضعوا جورج حاوي أمينًا عامًا: كانت اللعبة التكتيكية. قال لهم في الخارج حتى نخلص من هؤلاء، صوايا صوايا وحسن قريطم، فكان الطرد شكليًا. طبعًا

جماعة صوايا كانوا يشكلون 15–20 في المئة من جسم الحزب، أكثريتهم في الجنوب من عيترون. وثمة أشخاص كانوا في الحزب، ما زالوا حتى الآن يعتبرون صوايا هو المهم»[(173)].

بعد المؤتمر الثاني بعام واحد، يعلن الأمين العام الجديد للحزب، نقولا الشاوي، إثر إطلاق النار على متظاهرين مؤيدين للمقاومة الفلسطينية، في تاريخ سوف يحمله لمدة طويلة اسم الشارع الذي حصلت فيه المقْتلة: 23 نيسان/أبريل 1969؛ يعلن نقولا الشاوي على أثره عن تأسيس الفصيل المسلح التابع للحزب الشيوعي، في مقال نشرته مجلة **قضايا السلم والاشتراكية**: «إن حركة المقاومة الفلسطينية المشروعة، التي تحظى بدعم القوى التقدمية في البلدان العربية والعالم، تحتل مكانًا خاصًّا في حركة التحرر في العالم العربي. ولكن ما ينبغي التأكيد عليه هو كونها جزءًا لا يتجزأ من هذه الحركة [...] وكأحد أشكال النضال التي تفرضها هذه المهمات في الظروف الراهنة، قام حزبنا بتشكيل الحرس الشعبي لحماية الحدود اللبنانية»[(174)]. الكثيرون اعتبروا وقتها أن هذا إنما مجرد قرار، لم يسلك طريقه داخل الحزب. لكن الأيام التالية أثبتت أن الحزب الشيوعي، مثله مثل بقية الأحزاب اليسارية اللبنانية، يتجهز لهذه النوعية التي يتصورها من الحروب.

3. المثقفون بين الحزب الشيوعي ومنظمة العمل الشيوعي

لطالما اقترن اسم منظمة العمل الشيوعي بالمثقفين، بصرف النظر عن الدور الذي قاموا به في داخلها، فالصورة كانت خارجية، مصدِّرة إلى ذاك المناخ حيث يصبو الشباب الصاعد إلى «التمرْكس»، أن يخرج إلى العالم بختم ماركسي، من توقيع اسم مشهود له بالكتابة، وحيث يتنافس الحزب مع المنظمة، الآتية من اليسار الجديد، المهددة للعرش الشيوعي المقيم منذ عشرينيات القرن الماضي، فإذا بسباق محموم بينهما، المنظمة والحزب. عباس بيضون، الذي تنقل بين الحزب والمنظمة بعمر مبكر، يصف الحاجة الملحّة لدى الأول، الحزب، لإظهار درجة راقية من المعرفة الماركسية: «لكنّ أحدًا لم يكن يعرف ما هي الماركسية، كانت هناك قلة صغيرة في الحزب تعرفها جزئيًا. كانوا أشبه بكهنوت حزبي يحتفظون بالعقيدة كما لو كانت لغة أجنبية، لم يكن تعميمها واردًا ولا مطلوبًا. الثقافة ينبغي أن تكون تحت رقابة كافية، هكذا انتميت إلى إحدى عائلات الحزب، بل صرت من أركانها، من سلالة معتبرة من إحدى الأرومات التي ترقى إلى أحد بارونات الحزب. صرت مرشحًا للجنة المركزية، موازيًا للقيادة الحزبية. صرت عضوًا في اللجنة التثقيفية حيال منافسة الجماعات اليساروية. تحولت اللجنة التثقيفية إلى قيادة موازية، مجموعة من المبادئ: المعرفة أن لا تتعارض مع مبادئ الطاعة والالتزام. مطالبتنا بعارف يشرح لنا العقيدة. كان الإيمان بلا معرفة مناسبًا أكثر للالتزام الحزبي. فالإيمان بلا أي مقابل هو التضحية والتفاني الأكيدان»[(175)].

ولكن ثمة أوساط «طرَفية» في المنظمة نفسها، بعيدة عن العاصمة، وعن تلك المرحلة الصاعدة، لا تلتزم بهذه الأولوية الممنوحة لهذا النوع من الثقافة؛ فالذي أدخل محمد بلوط إلى المنظمة، مثلًا، كان ثقافة أخرى؛ إذ يروي: «يومها كان ثمة قناعة بالقرابة بين التشيع والشيوعية، قرابة عميقة جدًّا. وعلي بن أبي طالب كان ممكنًا أن يكون شبيه غيفارا أو الحسين. نفس الوجه، وهذا أمر سهل بتكويننا الشيعي. قصة التمرد والثورة. وكان معروض علينا الخطاب أننا لسنا بعيدين كثيرًا عن التشيع. وأنت طالع من تربيتك الشيعية ورايح على الماركسية. وأذكر مرة لاحظ المندوب عن خليتي [في منظمة العمل

الشيوعي] أنني كنت أكتب تقارير أبدؤها ببسم الله الرحمن الرحيم [...] وأنا في المنظمة! وأنسب أشياء إلى علي بن أبي طالب [...] كانت الأشياء مختلطة في ذهني ولا أعرف أين أنا بالضبط. والفكرة أن اليسار والتشيع ثورة واحدة أو خط واحد. وماركس لو كان بزمان علي بن أبي طالب كان يمكن أن يكون شيعيًا، وكان دخل مع علي بن أبي طالب في معركة بدر [...] مؤكد أنه كان وقف معه»[176].

كثرة المثقفين المتصدرين واجهة المنظمة لم تدم طويلًا، ولكن البصمة استمرت، وسمحت بتوحيد السيناريو: تجذبهم المنظمة، ثم تطردهم، أو تنفّرهم، بعد حين. ومن هذه الزاوية تحديدًا، ثمة فرق بين المنظمة والحزب. العلاقة بين الأولى ومثقفيها كانت عاصفة، محمومة، وأحيانًا دراماتيكية. تنتهي دائمًا بقطيعة وضغينة شخصية يصعب أن يمحوها الزمن. يروي وضاح شرارة لقاءه مع وداد شختورة، القائدة النقابية، والرفيقة القديمة في لبنان الاشتراكي التي قررت البقاء في منظمة العمل الشيوعي بعد الانشقاق: «وحين التقيتها مرة، غداة عشرين عامًا على جفائنا وقطيعتنا وخروجي من جماعة أقامت هي علىàالانتماء' إليها، [أي المنظمة]، وأردتُ أنا الاحتفال باللقاء غير المتوقع، والترحيب بالصداقة القديمة، أفهمتني النظرة الباردة والجانبية أنني وحدي المحتفي والمرحب»[177].

أما العلاقة الثانية، أي بين الحزب الشيوعي ومثقفيه، فبالعكس: مثقفو الحزب نعموا بالطمأنينة والاستقرار، بل ارتقوا إلى مصاف أصحاب الامتيازات. عباس بيضون أيضًا، في معرض رصده «البارونات» في الحزب، يذكر «تقنيي التثقيف»، إلى جانب تقنيي المجالات الأخرى، وجميعهم «بارونات رئاسة»[178]. وفي الحزب، دائمًا ما يتم «استيعاب» الرأي الآخر. ونادرًا ما يخرج منه ساخطون وحاقدون، على الدرجة نفسها التي خرج بها مثقفو المنظمة. القرارات التي تؤخذ في المؤتمرات يتكلم عليها الحزبي، بصفتها قراراته الشخصية، وإن كان لا يهتف قلبه لها. خُذْ مثلًا: أرتين مادويان الذي يصف القرارات الخطِرة للمؤتمر الثاني للحزب بعبارات باردة تختلف عن حماسة كريم مروة وجورج حاوي لها، أي بصفتها منعطفًا حاسمًا نحو فلسطين والقومية العربية. هو الذي يتبرأ طوال كتابه من عرقلة جهود التعريب داخل الحزب، مقابل الوجود الأرمني الكاسح فيه، يكتب عن المنعطف الجديد للحزب بأشد العبارات اقتضابًا وشكلية، بل يوردها في نهاية الفقرة المتعلقة بنتائج المؤتمر الثاني، فيقول: «إن المؤتمر الثاني وجه الحزب باتجاه خلاق وديناميكي ومن أجل تحويله إلى حزب جماهيري واسع»، ثم يتكلم على «آفاق جديدة»، عن «القيادة الوطنية التقدمية والتحررية» عن العداء للإمبريالية» ...إلخ[179]، من دون أن يذكر فلسطين أو القضية المركزية أو الكفاح المسلح، والذين كانوا يملأون الآذان صخبًا، وكأن الحزب في هذا المؤتمر تحديدًا لم يتخذ قرار اعتلاء موجتهما. تختلف الهواجس في الحزب، تختلف الأهواء والعواطف السياسية، ولكن الحزب لا يُترك، الآن على الأقل، وهو في عزّ قوته، مسنود من عملاق دولي، وإن اختلف معه حول سياسته الجديدة، ولكنه أيضًا اختلاف ممسوك، حتى الآن على الأقل.

في المنظمة بقي مثقف واحد، فواز طرابلسي، كما أشرتُ. وقد أدّى دور «المسؤول الفكري»، كما يسمي نفسه[180]، أي المسؤول عن كسب جماعة المثقفين، عن إبقائهم في المنظمة؛ على أساس ثقافي قوامه «صحة الخط السياسي، من ناحية النظرية الماركسية». أما الحزب، فلديه مثقفَان كبيران، بقيا على عرش الحزب الثقافي حتى بعد اغتيالهما لاحقًا عام 1987

ضمن موجة اغتيالات استهدفت مثقفين وصحافيين ينتمون إلى الحزب الشيوعي، هما حسين مروة ومهدي عامل: الأول، سبق ذكره. يصفهما كريم مروة[181]، ويصف نشاطاتهما في ندوات الحزب ومحاضراته «الثقافية»، ويأسف أن يبقى وحده مثقفًا في موقع القيادة الثقافية: «في القيادة لا أذكر أحدًا كانت لديه نفس اهتماماتي [الفكرية والثقافية]»[182].

كيف كان تأثير مثقفي الحزب في أعضائه، من خلال أفراد من الجيلين؟ حسن داوود، المولود عام 1950، أي إنه كان «شابًا» وقتها، عشية الحرب الأهلية، عام 1974، يصف وظيفة مهدي عامل داخل حلقة المثقفين المنتظمين في فرق الحزب: «قليلة كانت اجتماعاتنا التي كان لها علاقة بالسياسة. كانت ذات علاقة بالثقافة أكثر. كان سكرتير فرقتنا مهدي عامل: مفكر أو منظِّر الحزب الشيوعي، ومهدي كان شخصًا مثقفًا، ونحن كنا ساعين للثقافة أكثر من سعينا للسياسة. كنا نجتمع اجتماعًا حزبيًا باستمرار، والاجتماع الحزبي يتحول إلى نقاشات بين الأصحاب بما هبّ ودبّ. [...] وكنا فرقة فكاهية بالحزب بلا مهمات حزبية إطلاقًا، ونحول الاجتماع لنوع من التنكيت [...] مع مهدي عامل، كنا نعمل نقاشات نظرية كنا نسمعه بالحقيقة أكثر ما نناقشه، لأنه كان أكبر منا بالعمر وتجربته أوسع. ومهدي محدث كبير بأفكاره، مذهل بتسلسل هذه الأفكار من ضمن نظامه الفكري. وأيضًا في إحدى المرات، حاول الحزب أن يتقدم خطوة لتنظيمنا وذهبنا إلى الاجتماع المعتاد في بيت مهدي عامل، وكان الاجتماع مقررًا الساعة السادسة عصرًا، رحت حوالى السادسة والثلث لأفاجأ باثنين من القيادة قاعدين وعابسين ومستنكرين ... كيف لا نأتي على النظام؟! ولكن لحسن حظي جئت باكرًا [...] فقط ثلث ساعة تأخيرًا. الآخرون حضروا بعد حوالى الساعة. الشاعر حسن عبد الله عندما وصل إلى الاجتماع، سأل الحاضرين لماذا ما زالوا قاعدين؟ اعتقدَ أن الاجتماع انتهى وهو قادم إلى هنا للسهر، وليس للاجتماع، فأحبطت هذه المحاولة لدفعنا نحو الجدية»[183]. قارن فكاهية اجتماعات المثقفين في الحزب الشيوعي بتراجيدية أجواء المثقفين في منظمة العمل الشيوعي.

الثاني من بين الجيل الأصغر هو حسام عيتاني، المولود عام 1965، يروي عن أثر مهدي عامل أولًا، ثم حسين مروة: «أما مساهمتي المرجأة في مجال الفكر – الذي قررت أنني سأبرع فيه – فكانت اكتشاف الصيغة التي تنهي الحكم الطائفي في لبنان، وتمهد لقيام الدولة العلمانية الديمقراطية. دليلي ومرشدي في هذا السبيل كان مهدي عامل الذي سحرني أعوامًا فقرأت له، قبل اغتياله وبعده، كل ما كتب، أو للدقة، كل ما وصلت إليه يداي من مؤلفاته. لم تكن لغته المقعرة لتصمد أمام عنادي وإلحاحي على فهم ما يقول. والجمل التي يرفض إدراكي استقبالها من المرة الأولى، كنت أعود لأحشوها حشوًا في ذهني وذاكرتي عن طريق التكرار وكتابة الفقرات بخط يدي على دفتر مسودة كنت أضعه على منضدة بجانب سريري. وأذكر أني حفظت غيبًا مقاطع كاملة من âالدولة الطائفية’، وغيرها مما اعتقدت أن أحدًا لا يستطيع تغيير فاصلة فيها. استعنتُ بالإعجاز الحمداني [نسبة إلى كنية اسمه الأصلي، لمهدي عامل] مرات في ندوات كنا ننظمها مع طلاب من الأحزاب الشيوعية العربية، وصرتُ أنزل مقولاته عن تمرحل التاريخ وأزمة البديل الثوري العربي إنزال الصواعق على رؤوس زملائي الذين أرفض مجادلتهم في ما كنت أستعير من مدونات مهدي عامل». ويتابع حسام عيتاني: «كان مهدي عامل أول شخص فكرت فيه أثناء مشاهدة أرتال الدبابات تدخل إلى موسكو بعد فشل المحاولة الانقلابية في آب [أغسطس]

1991 [انهيار الاتحاد السوفياتي]. شعرتُ بارتياح غريب لغيابه عن المشهد هذا، لاعتقادي أنه كان سيعجز عن تقديم تفسير شاف ومقنع، مثل تفسيراته السابقة عن نمط الإنتاج الكولونيالي وعن البرجوازيات الطائفية وعن الفكر الظلامي. àالاشتراكية الفعلية’ أو القائمة تنهار فإلى أين المفر؟».

وينتقل حسام عيتاني إلى التكلم على حسين مروة: «الجزء الثاني من àمقرر الدراسة’ في الصفوف العليا للماركسيين اللبنانيين في ذلك الوقت، أي حسين مروة، بلغتُه بعد عودتي من الاتحاد السوفياتي. كنتُ قد قرأت مقدمة àالنزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية’ أثناء المرحلة الثانوية من دراستي، فدهشتُ كيف يمكن الحديث عن التراث العربي بمصطلحات ماركسية، ثم قرأت جزأَي الكتاب بعد عودتي، وكان الرجل قد اغتيل قبل حسن حمدان، فطرأت دهشة من نوع مختلف على رأيي ونظرتي إليه. [...] كان حسين مروة أو àأبو نزار’ من الأسماء التي طافت في بيتنا أثناء طفولتي. àقال أبو نزار’ àفعل أبو نزار’ وàما رأي أبو نزار؟’ [...] لا أدري لماذا كان àأبو نزار’ يمثل ضميرًا يملي الحقائق ويطلب الطاعة»[184].

فحسام عيتاني، في هذه الأثناء، اكتشف ياسين الحافظ. بعد عودته من الاتحاد السوفياتي، ينكب على القراءة، فيجد كتابًا على أحد الرفوف: «وبدأتُ قراءة الكتاب هذا كغيره مما أجد في البيت، عنوانه àالهزيمة والأيديولوجيا المهزومة’ لياسين الحافظ. لا أذكر أني سمعت بالاسم قبل رؤيتي الكتاب، أنهيته في يومين، وذهلت. هناك من ملك من الجرأة والذكاء ما يمكّنه من نقد ما كنا نعتبره مقدسات ومسلّمات قبل سنوات من ارتفاع أي صوت ضد àالمنظومة الاشتراكية’ والأنظمة العربية àالتقدمية’. كانت قراءة الكتاب من الأحداث التي غيرت نظرتي إلى عالمي، ووضعتني على بداية طريق جديدة من الاهتمامات والأفكار»[185].

مجايل حسام عيتاني، إبراهيم الأمين، له ما يضاهيه؛ إذ يقول: «كان هناك ميل (Trend) لدى الشيوعيين بأن يقرؤوا تولستوي ويستمعوا إلى الموسيقى أو يقرؤوا أفكار مهدي عامل. ما ولد àحالة’ خاصة، لكن كنا نتعامل مع مهدي عامل كجزء من مقرر الحزب. ليس له قيمة استثنائية بحد ذاته. وإذا لم تخُنّي ذاكرتي، فإن أكثر الكتب رواجًا لمهدي عامل كان كتابه عن نقد الفكر اليومي، لأنه كان بالنسبة للشيوعيين وسيلة للتواصل اليومي، بصراعاتهم اليومية، سواء بالجامعات أو غيرها [...] ولكن لم يكن هناك غذاء فكري استثنائي. لا تنسى أن قيادات الحزب الشيوعي في ذلك الحين، أو البارزين منهم مثل جورج حاوي وبقية الشلة، لم يكونوا شخصيات ثقافية مهمة. يعني أنه لم يكونوا يملكون بنى ثقافية استثنائية. كانوا سياسيين مياومين»[186].

(116) إبراهيم ناجي، **ديوان إبراهيم ناجي** (بيروت: دار العودة، 1980)، ص 132.

(117) بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية خلال الفترة 1959–1971.

(118) صادق جلال العظم، **نقد الفكر الديني**، ط 3 (بيروت: دار الطليعة للطباعة النشر، 1972)، ص 98–99.

(119) مقابلة مع عباس بيضون، 20/10/2018.

(120) مقابلة مع جاد تابت، 14/2/2019.

(121) مقابلة مع وليد نويهض، 5/5/2018.

(122) حازم صاغية، **هذه ليست سيرة** (بيروت: دار الساقي، 2007)، ص 43.

(123) العظم، ص 98.

(124) صاغية، ص 67.

(125) قائد حركة الاستقلال الهندي من الاحتلال البريطاني، وصاحب نظرية السلمية في النضال.

(126) فرنسي، فيلسوف ديني.

(127) سامي ذبيان، **الحركة الوطنية اللبنانية: الماضي والحاضر والمستقبل من منظور استراتيجي** (بيروت: دار المسيرة، 1977)، ص 151–153.

(128) لبناني، أحد الأمناء العامين للحزب السوري القومي الاجتماعي.

(129) أو إيلي قنيْزح، لبناني، أحد قادة الحزب السوري القومي الاجتماعي.

(130) ذبيان، ص 203–205.

(131) صاغية، ص 52.

(132) جورج حبش، **صفحات من مسيرتي النضالية**، تدوين هيلدا حبش، تحرير وتقديم سيف دعنا (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2019)، ص 100.

(133) ذبيان، ص 242.

(134) مقابلة مع ملحم شاوول، 11/3/2019.

(135) Agnes Favier, «Logiques de l'engagement et modes de contestation au Liban: Genèse et éclatement d'une génération de militants intellectuels (1958–1975),» PhD. Dissertation, Université Paul Cezanne, Aix Marseille III, Marseille, 2004, p. 105.

(136) باسل الكبيسي، **حركة القوميين العرب** (بيروت: دار الطليعة للطباعة النشر، 1974)، ص 56.

(137) وضاح شرارة، **أحوال أهل الغيبة: خاتمة الأحزان والمراثي** (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، 2018)، ص 297.

(138) مقابلة مع أحمد بيضون، 18/1/2019.

(139) مقابلة مع موسى إدلبي، 22/9/2018.

(140) عباس بيضون، «الحزب الذي لم يقع»، **بدايات**، العدد 14 (ربيع-صيف 2016)، ص 10.

(141) مقابلة مع أحمد الديراني، 7/1/2019.

(142) مقابلة مع وديع حمدان، 10/1/2019.

(143) ذبيان، ص 221.

(144) عباس بيضون، «الحزب الذي لم يقع»، ص 10-11.

(145) مقابلة مع أحمد بيضون، 20/10/2018.

(146) مقابلة مع موسى إدلبي.

(147) مقابلة مع أحمد الديراني، 22/9/2018.

(148) فواز طرابلسي، **صورة الفتى بالأحمر: أيام في السلم والحرب** (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، 1997)، ص 118.

(149) مقابلة مع وضاح شرارة، 1/1/2019.

(150) مقابلة مع موسى إدلبي.

(151) Jeremy Jennings, «L'anti-intellectualisme britannique et l'image de l'intellectuel français,» *Mil neuf cent*, no. 15 (1997), pp. 110-119, accessed on 4/2/2021, at: https://bit.ly/3cy9lfs

(152) Shlomo Sand, *La fin de l'intellectuel français?* (Paris: La Découverte, 2016), p. 48.

(153) فرنسي، روائي ومثقف، من روّاد «الرواية الطبيعية».

(154) فرنسي، ضابط يهودي في الجيش.

(155) Michael Scott Christofferson, *Les Intellectuels contre la gauche: L'idéologie antitotalitaire en France (1968-1981)*, Philippe Olivera (préf.), André Merlot & Francoise Jaouen (trads.) (Paris: Éléments, 2014), pp. 100-101, 110.

(156) لبناني، صحافي، مؤسس صحيفة **الأخبار** اللبنانية.

(157) سوري، عسكري، أحد قادة حزب البعث العربي، الأمين العام المساعد لشؤون القطر السوري (1966–1970).

(158) مقابلة مع وليد نويهض.

(159) صاغية، ص 67–68.

(160) مقابلة مع رضا إسماعيل، 27/1/2019.

(161) مقابلة مع جهاد الزين، 11/9/2018.

(162) فلسطيني، مفكر إسلامي.

(163) سعود المولى، «سعود المولى: شبه سيرة ذاتية غير مكتملة»، **مدونة سعود المولى**، 13/7/2011، شوهد في 4/2/2021، في: https://bit.ly/3oL9z5s

(164) مقابلة مع طلال عتريسي، 8/11/2018.

(165) مقابلة مع طلال طعمة، 9/1/2019.

(166) مقابلة مع رياض الدادا، 24/1/2019.

(167) مقابلة مع جاد تابت، 19/2/2019.

(168) مقابلة مع أحمد الديراني، 7/1/2019.

(169) **جورج حاوي... شهيداً: البدايات 1938–1967**، إعداد وتوثيق يوسف مرتضى ومصطفى أحمد، تقديم جورج البطل (بيروت: دار الفارابي، 2006)، ص 146.

(170) المرجع نفسه، ص 135–148.

(171) جورج البطل، **أنا الشيوعي الوحيد**، حاوره فواز طرابلسي (بغداد: دار المدى، 2019)، ص 215.

(172) مقابلة مع كريم مروة، 5/11/2018.

(173) مقابلة مع نهاد حشيشو، 8/1/2019.

(174) ذبيان، ص 180.

(175) عباس بيضون، **الشافيات** (بيروت: دار الساقي، 2014)، ص 175–176.

(176) مقابلة مع محمد بلوط، 23/1/2019.

(177) شرارة، **أحوال أهل الغيبة**، ص 296.

(178) عباس بيضون، **الشافيات**، ص 242.

(179) أرتين مادويان، **حياة على المتراس**، تقديم جورج حاوي، ط 2 (بيروت: دار الفارابي، 2011)، ص 510.

(180) طرابلسي، **صورة الفتى بالأحمر**، ص 311.

(181) ولد عام 1910، جنوبي، من قرية حداثا، وكان يتابع دراسته الدينية في النجف. وهناك تعرف إلى الكتب الماركسية، وتابع نشاط الحزب الشيوعي العراقي، فمشى على خطى الشاعر محمد مهدي الجواهري، وتبنى الماركسية ودخل إلى الحزب الشيوعي اللبناني وأصبح عضو لجنة مركزية.

(182) مقابلة مع كريم مروة.

(183) مقابلة مع حسن داوود، 15/12/2018.

(184) حسام عيتاني، «قبر أبي»، **كلمن**، العدد 4 (خريف 2011)، ص 5، شوهد في 23/3/2021، في:

https://bit.ly/2PgMZFC

(185) المرجع نفسه، ص 6.

(186) مقابلة مع إبراهيم الأمين، 7/1/2019.

الفصل الرابع: الفلسطينيون، القوة والجاذبية

إذا ما قارنتَ بين استقبال الفلسطينيين في لبنان واستقبال السوريين الآن، الهاربين من مقتلة رئيسهم، فسوف تلاحظ أن الاثنين يكادان يختلفان جذريًا. الفلسطينيون، بصفتهم لاجئين أولًا، بعد النكبة، ثم بصفتهم قادة وطنيين، من بعدها، وجدوا في لبنان الأرض الوحيدة المرحبة بفتح جبهتها مع إسرائيل، بعدما أُغلقت الجبهات العربية الأخرى تباعًا. أما السوريون: إذا استثنيتَ بعض الإعلام وبعض المثقفين المتعاطفين، فلن تجد ذاك الصدى الشعبي الهائل لتوافد القيادات الفلسطينية إلى لبنان، في الأوساط اليسارية والإسلامية، بل بعض المسيحية أحيانًا. بيروت «الخيمة»، التي تغنى بها محمود درويش، كانت مبهورة بالفلسطينيين، أعطتهم أحلى بناتها: ملكة جمال الكون، جورجينا رزق، تقترن بأبو حسن سلامة (1940-1979)[187] «قائد قوات 17» المسؤولة عن أمن الرئاسة. ويُضاف إلى هذا الاقتران معنى آخر، عندما تلاحظ أن هذا النوع من الشخصيات الفلسطينية، تحديدًا، الآتية من شرائح اجتماعية عليا، بل التي تستخدم فلسطينيي المخيمات في نشاطاتها كافة، كانت لها جاذبية خاصة لدى نساء لبنان المنتميات إلى هذه الشرائح. مثل أبو حسن سلامة عديدون، كانت بيروت بالنسبة إليهم أكثر من ملجأ. الحياة السعيدة لبسام أبو شريف (ولد عام 1946)[188] في بيروت تنقل شيئًا منها: الفنادق، المرابع الليلية، السهر، الإعجاب، التقدير العالي، الزواج من ابنة الجبل اللبناني. يكاد بسام أبو شريف، القائد السياسي في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، ومن ثم المستشار الأبرز لياسر عرفات، يزهو بهذه المدينة، التي ينسبها إليه، ويكون عنوان كتابه **بيروت مدينتي**[189].

وإذا بحثتَ سريعًا في معالم هذا الفرق، فسوف تجده، في المناخ الحاضن للفلسطينيين، سلفًا قبل هزيمة حزيران/يونيو 1967. وهذه الهزيمة حولت الاحتضان إلى الحق بحمل السلاح لتحرير الأرض، وبمشاركة اللبنانيين. في حين يحصل العكس تمامًا مع الوجود السوري في لبنان، المتمثل الآن، خصوصًا، في اللاجئين الهاربين من المقتلة، فهذا الوجود محمول على التباس: كون النظام الذي يطردهم من ديارهم يحمل لواء الوطنية، ومقارعة العدو الإسرائيلي، ولكن تستقبله عواطف سابقة على هذا اللجوء، يتغلب فيها النفور على التعاطف. فقبل الانتفاضة السورية كان ثمة وجودان سوريان في لبنان: الأول متواضع، يقتصر على عمال البناء وعلى نواطير العمارات، وينتمي أصحابه إلى أدنى الطبقات؛ يناظره وجود ثانٍ، ممثلوه من ضباط ورجال أمن، في أعلى هذه الطبقات الشديدة القبضة، تمسك به أجهزة المخابرات السورية. قبل عام 2005، كان يمارس وصاية أمنية – عسكرية على لبنان، وقد مارس هذه الوصاية على امتداد ثلاثة عقود، ذاق اللبنانيون خلالها شتى أنواع القهر والتسلط.

أما الوجود الفلسطيني، فخلفه نضال، لم تقتصر نشاطاته على المخيمات، وقد لقي سكانها، قبل أن يستقروا فيها، تضامنًا هائلًا، بل خرجت هذه النشاطات إلى الجامعات. جورج حبش يبدأ سنوات نضاله الأولى في الجامعة الأميركية في بيروت. وبعد تخرجه فيها لا يريد العودة إلى الأردن تحاشيًا للاعتقال. يرفض ترك لبنان: «كان جوابي أن أبقى في العام القادم في لبنان وفي الجو الطلابي نفسه كي نستمر في الإعداد والتنظيم فترة أطول»، ومن ثم العمل على «تأسيس عمل قومي

جديد»؛ ففي الجامعة الأميركية «يتشوق الرأي العام الطلابي إلى أي عمل يهدف إلى استرجاع كرامة الأمة العربية التي هُدرت عام 1948»[190]. كل هذا يحصل بدءًا من عام 1951؛ النشاط الفلسطيني متجذر في لبنان، يحتضنه اللبنانيون بُعيد استقلالهم عام 1943 بأعوام قليلة، أي بأقل من عشر سنوات: حينما كانت العواطف السياسية على نداوتها الأولى.

محمود سويد الذي كان ما يشبه «المندوب» الفلسطيني عن «لبنان اشتراكي» في صحيفة **الأسبوع العربي**، ذات التوجه الفلسطيني الحماسي، يروي السهولة التي كانت تطرح بها القضية الفلسطينية في الصحيفة، والإقبال على قراءة ما تنشره، ويقول: «ياسر هواري، رئيس التحرير àالأسبوع العربي’، كان من أجمل الناس الذين يمكن الواحد أن يشتغل معهم [...]. كان يترك هامشًا [كذا] من الحرية ومهذبًا [كذا]. وعندما بدأت المقاومة الفلسطينية في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات [...] كان صاحب الجريدة جورج أبو عضل، أحد كبار أثرياء البرجوازية المسيحية الكاثوليكية اللبنانية، ووكيلًا للعديد من الشركات الأجنبية، وهو ثري كبير [...] وترك المجال لياسر الهواري لأن الجريدة، على هذا النحو، الفلسطيني، تجلب إعلانات كثيرة [...]. يعني استطاع ياسر هواري أن يعمل مجلة على نبض الوضع العربي في لبنان»[191].

كان اسمها ثورة فلسطينية، أكثر من مقاومة، لا أقل منها. مناخ يحلّ على الجميع ويحول كل النقاش السياسي وكل المهمات إلى كفاح مسلح تعاضدًا واستلهامًا. في الحزب الشيوعي، كما في منظمة العمل الشيوعي، وفي بقية الأحزاب القومية اليسارية، لا يدور النقاش إلا حول هذه الوظيفة العظيمة التي يتولاها رجال المقاومة الفلسطينية. جاد تابت، ينقل بعضًا من هذا النقاش: «النقطة المحورية كانت دور الثورة الفلسطينية: أين نحن؟ وهل الثورة الفلسطينية هي كل شيء؟ [...] في النقاشات بين الحزب الشيوعي ومنظمة العمل الشيوعي، كانت المنظمة تعطي للثورة الفلسطينية الدور الأساسي. والحزب يقول لا [...] ليس دورًا أساسيًا، بل دور مكمل دور مهم ولكن [...] كل هذا الكلام بدأ عام 1969 وامتد عمليًا حتى اندلاع الحرب الأهلية بقليل». ويتابع جاد تابت قائلًا إنّ تدشين الحزب منظماته المسلحة، «الحرس الشعبي»، و«الأنصار»، تسبّب في خلاف مع العرابين السوفيات، قادة الكومنترن؛ فيردد تابت، ما سبقه إليه جورج حاوي، أنه بعد تقرّب الحزب من القضية الفلسطينية «دخل الحزب في معركة كبيرة مع السوفيات ومع الشيوعيين العرب الآخرين»[192].

فكانت الأحداث تتوالى. يعتريها صراع علني من أجل تكريس الوجودَين: الفلسطيني واليساري على حد سواء. واحد من الأحداث المحورية، هو التظاهرة التي حصلت في إحدى ساحات بيروت، البربير، والتي سميت في مراحل لاحقة باسم تاريخ وقوعها، 23 نيسان/أبريل 1969: محاولة فاشلة لنيل ترخيص من الحكومة لتنظيم تظاهرة دعم للمقاومة الفلسطينية، احتجاجًا على الصدامات المتكررة بين الجيش اللبناني والقوات الفلسطينية في الجنوب اللبناني. وكل الأحزاب المشتركة فيها غير مرخصة، باستثناء الحزب التقدمي الاشتراكي، بقيادة كمال جنبلاط. كانت التظاهرة دموية، قتلى وجرحى، يصفها محسن إبراهيم وقتها: «وقعت صدامات نيسان [أبريل] في منعطف زمني كانت فيه منظمة التحرير الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات تحاول إشعار العالم العربي بوقع وجودها، وبهذا المعنى فإن منظمة التحرير كانت الرديف المنافس لعبد الناصر. من

هذه الزاوية، تبدو فترة العامين 1969–1970 بالنسبة لإبراهيم جسرًا زمنيًا جسَّد «العبور من الناصرية إلى الثورة الفلسطينية»[193].

أما منظّر الحزب الشيوعي، مهدي عامل، فيصف التظاهرة بالانتفاضة الشاملة، وبأنها ذات ملامح طبقية، كما يبتغيها الحزب الشيوعي؛ إذ يقول في مقابلة مع فريد الخازن: «إن انتفاضة نيسان كانت إنجازًا أيديولوجيًا ذا أهمية. [معها] انطلق كفاح لبنان الطبقي [...] وسياسة جديدة لكسر طوق النظام السياسي الذي تسيطر عليه البرجوازية [...] ولحماية المقاومة»[194].

فكان ما أرادته المقاومة الفلسطينية، مع صدامات أخرى وتظاهرات ومهرجانات ولقاءات وبدء تدريبات عسكرية لبنانية، إلى اتفاق سوف يكرس هذه المقاومة بالقانون. إنه المعروف باتفاق القاهرة لعام 1969: الدولة اللبنانية تضيق بالديناميكية الفلسطينية الآخذة في التنامي والانتشار، فيما عبد الناصر ما زال حيًا. ولا يريد أن يخذل المقاومة، حفاظًا على ما تبقى له من رصيد قومي. بعد سبعة أشهر على تظاهرات نيسان/أبريل، ومثيلاتها من نشاطات، إما صدامية وإما تضامنية مع الفلسطينيين. وبعدما كادت الأمور تفلت من يديه، يرسل الرئيس اللبناني، شارل حلو (1913–2001)[195]، وفدًا لبنانيًا بقيادة قائد الجيش، إميل البستاني، وكان معه وفد فلسطيني بقيادة ياسر عرفات، إلى القاهرة، حيث يجتمعون بمسؤولين مصريين كبار وبوزير الخارجية المصري محمود رياض (1917–1992)[196] ووزير الدفاع محمد فوزي (1915–2000)[197]، وذلك لمناقشة الوجود الفلسطيني المسلح في لبنان. وبعد مداولات ومشاورات مع عبد الناصر، يخرج اتفاق مطرَّزة جوانبه بكل الألفاظ المطمئنة، من نوع «مصلحة لبنان والثورة الفلسطينية»، «ضمن نطاق الأمن اللبناني ومصلحة الثورة الفلسطينية»، «ضمن نطاق مبادئ سيادة لبنان وسلامته» ...إلخ. ولكن في لبّ الاتفاق، خمسة عشر بندًا، جميعها يمنح الكفاح الفلسطيني أرضية حرة للتنقل والوجود والتدرب والتسلح والقتال. وإذا كان البند الخامس عشر من الاتفاق ينص على أن «يبقى هذا الاتفاق سريًّا للغاية، ولا يجوز الاطلاع عليه إلا من قبل القيادات»[198]، فإن السرّ لم يُحفظ لأكثر من سنة، فقد نشرته صحيفة **النهار** في 20 نيسان/أبريل 1970، أي بعد سنة بالضبط من التظاهرة الدموية (23 نيسان/أبريل 1969)، التي فجرت الحاجة إليه (الحاجة إلى إعطاء الكفاح الفلسطيني المسلح شرعيةً قانونية)، ومن ثمّ حدوث زخم إضافي لأحزاب اليسار، وقياداته اللبنانية. من بعده، عُيّن قائد الحركة الوطنية كمال جنبلاط وزيرًا للداخلية. وكان أول قراراته، كما أسلفتُ، إعطاء الرخصة لثلاثة أحزاب يسارية، هي، بعد الشيوعي، كل من السوري القومي والبعثي القُطري في لبنان.

الكتمان حول اتفاق القاهرة لا يستهدف الشق اليساري الإسلامي، إنما المسيحي اليميني؛ فاليمين المسيحي لا يعيش استقواء اليسار بالمقاومة بصفتها نعمة. المقاومة الفلسطينية ترعبه أصلًا، والاتفاق يرفع درجة خوفه وحذره. بعد اتفاق القاهرة، يذهب اليميني الكتائبي بول عنداري إلى قرية كفرحاتا، في شمال لبنان، فيصف أجواءها: «دخان معامل شكا [للأسمنت] يقذف به الهواء ناحية تلك المنطقة، فتبدو طبيعتها داكنة كئيبة يزيد جوها الخانق اكفهرارًا دخان تيارات سياسية اجتاحت الناس: الناصرية، القومية السورية، الشيوعية، الأحزاب اليسارية والمادية بكل أشكالها». يتأسف على

«قرية الإيمان والصلاة» التي أصبحت غريبة، ومنحطة أخلاقيًا. ويتكلم على ثانوية القرية: «ولا أذكر أن الثانوية أضربت يومًا، إلا لسبب حدث عربي أو فلسطيني أو يساري. وكان يتبارى الخطباء في كلام تعرف أنه من كل مكان إلا لبنان». وعندما يصعد إلى القرية الشمالية المسيحية زغرتا، يستغرب عنداري أنها، هي أيضًا أصيبت بهذا المناخ: «زغرتا من البلدات العريقة التي تعتبر عرين الموارنة، وعلى الرغم من ذلك فقد فازت فيها الخلية الشيوعية، وكان يعتبر رجعيًا من ينادي بلبنان اللبناني». ويتابع على هذا المنوال، ويستهول أن ياسر عرفات أصبح «الحاكم المطلق لبيروت»، وأن اللبنانيين «أصبحوا ضيوفًا مرغمين في الدويلة الفلسطينية»[199].

بُعيد اتفاق القاهرة بأقل من سنة، تعطى المقاومة الفلسطينية في لبنان دفعةً جديدة من الطاقة القتالية؛ ففي آب/أغسطس 1969، تخطف الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين طائرات، أميركية وسويسرية وإسرائيلية. يتوسط خلالها عبد الناصر نفسه لمنع اعتقال منفذي العملية، وتنتهي بتفجير كل الطائرات في قلب الصحراء الأردنية. كانت ردة فعل السلطات الأردنية سريعة؛ فبعد التفجير بيوم واحد تخوض اشتباكات مع القوات الفلسطينية المسلحة، تنتهي بمصالحة شكلية بين ياسر عرفات والملك حسين بن طلال، وتُتوَّج بخروج المقاتلين الفلسطينيين من الأردن، وتكون الساحة اللبنانية الأرض المتبقية التي يرسون عليها. بعد أيلول/سبتمبر 1970، يطمئن المناضلون الفلسطينيون إلى اتفاق القاهرة وإلى الظلال اللبنانية الوافرة، فتكون ديناميكية أخرى تضاف إلى الأقدمية والتنظيم والسلاح، والأهم من كل ذلك حمل القضية في القلب.

سُميت هذه الاشتباكات في الأردن «أيلول الأسود»، وكان لها القليل من المضاعفات الأردنية؛ اغتيال رئيس الوزراء الأردني وصفي التل (1919–1971)[200]، الذي قاد هذه الاشتباكات، كان واحدًا منها: بعد سنة، وفي القاهرة، يقترب منه أربعة شباب فلسطينيين، ويطلقون عليه الرصاص. إنها جماعة «أيلول الأسود» التي لن تعمر طويلًا، ولكن قبل ذلك، أي بعد ثلاثة عشر يومًا على «أيلول الأسود» هذا، يرحل عبد الناصر، الرجل الذي جهد لفضّ اشتباكات «أيلول الأسود». الحزن على رحيله لا يقاس بالحزن على هزيمته ثم استقالته، ولا بالحزن المصري العارم على هذا الرحيل المبكر والمفاجئ؛ تظاهرات أحيائية متفرقة، إحراق دواليب هنا وهناك، لا يمكن مقارنتهما بالبركان الذي خرج ليلًا من بطن العاصمة احتجاجًا على استقالته إثر هزيمة حرب 1967. صحيح أن التنظيمات الناصرية سوف تعشش، وسوف تدعمها المقاومة الفلسطينية، ولكن «عجز الأنظمة العربية» عن تحرير فلسطين صار واقعًا فعلًا حيًّا مع غياب قائد هذه الأنظمة. وهذه الأنظمة ستكون من الآن فصاعدًا داعمة للمقاومة، بالمال والسلاح، خصوصًا تلك التي تصورت أنها ورثت عبد الناصر، مثل ليبيا والعراق، في البداية؛ فشُعاع القضية يُقلق أنظمة أخرى، ويخجلها، فتنضم إلى قافلة المموّلين؛ هكذا، يتدفق «المال الفلسطيني» إلى لبنان، إلى منظمة التحرير الفلسطينية التي أصبحت «الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني»[201].

الجنوب اللبناني يتعرض لضربات إسرائيلية انتقامية بصورة شبه منتظمة، ردًّا على مناوشات أو عمليات داخل إسرائيل، أو على حدودها، لكنّ الإسرائيليين يتسلّلون إلى قلب العاصمة، بيروت، ينفذون عمليات اغتيال دقيقة في حق رموز فلسطينية ثقافية وسياسية. اغتيال رئيس تحرير **الهدف**، الناطقة باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، غسان كنفاني (1936–1972)[202]، ومعه ابنة أخته، في تموز/يوليو 1972، في تفجير سيارته، ثم اغتيال ثلاثة قادة فلسطينيين:

اثنان من «فتح»، هما أبو يوسف النجار (1930–1973)[203]، ومعه زوجته وهي تحاول حمايته، وكمال عدوان (1935–1973)[204]، فضلًا عن كمال ناصر (1924–1973)[205]، وذلك في عملية سماها الإسرائيليون «عملية فردان». وكان الحشد الهائل المشارك في تشييعهم أبرز تأكيد دالّ على التلاحم بين اللبنانيين والفلسطينيين، ولكنه أيضًا ألقى نظرة أخرى على الحياة المترفة التي يعيشها القادة الفلسطينيون في قلب المأساة، كانت الامتيازات تتكلم عليها؛ ففردان حي راق في بيروت، وشققه تباع بأعلى الأسعار، والحيّ ليس سوى واجهة لما هو أكثر من ذلك.

يغالي عباس بيضون في وصف هذه الواجهة؛ إذ لا يفرق بين القادة الفلسطينيين وعمومهم، ويحكي عن تفضيل المنظمات الفلسطينية تعبئة البنغلاديشيين للقتال: «صاروا بضعة بنغلاديشيين جاؤوا إلى لبنان للعمل في المنازل فاستقطبتهم âفتح’، بعد أن صار الفلسطينيون نوعًا من أرستقراطية عسكرية»[206]. أما حسام عيتاني، فيفرّق قليلًا، ويطرح ردة فعل والده، الشيوعي، المتعاطف مع المقاومة، على عملية «فردان» برمتها: «وفي ذلك الحين، عرض أبي، لزواره ولأمي وعلى مسامعنا، رواية للحادث لا تخلو من نقد قاس للفلسطينيين، على شكل أسئلة بسيطة إنما حادة: تريدون محاربة إسرائيل التي هزمت العرب جميعًا، وتسكنون الشقق الفاخرة في بيروت؟ هل تخاض الثورات على هذا النحو؟»[207].

ولكن أحزاب اليسار اللبناني في مكان آخر، أصبحت قوية مع المقاومة. وبعدما كانت هذه الأحزاب تجتمع تحت مسميات مختلفة من قبيل «جبهة الأحزاب والهيئات والشخصيات الوطنية والتقدمية» عام 1964، و«تجمع الأحزاب الوطنية والتقدمية» عام 1969، سمّت نفسها «الحركة الوطنية اللبنانية» عشية الحرب الأهلية عام 1975. هذا انزياح لغوي، سوف يكشف مضمون بيانه التأسيسي الأول عن الحصانة التي صارت أحزاب اليسار اللبناني تتمتع بها؛ من «تجمع»، إلى «جبهة»، إلى «حركة»، أي من أجسام إلى جسم واحد متماسك، غير ساكن. وهذا البيان الصادر عن «الحركة الوطنية اللبنانية» فيه ثقة عالية بما تراه: إذ تلاحظ خطورة «النهج الانعزالي»، القائم «على محاولة فصل لبنان عن المنطقة العربية والانسحاب الكلي من ميدان الصراع القومي الشامل مع العدو الصهيوني وحلفائه». ويطالب باسم الأكثرية الساحقة من اللبنانيين، وباسم الجماهير الحاشدة التي يمثلها بـ «تكريس الاختيار الوطني العربي قاعدةً لانخراط لبنان الرسمي في المواجهة القومية الشاملة مع إسرائيل». ويتابع واصفًا النظام «الطائفي الإقطاعي الاستغلالي الانعزالي»، مستنتجًا أن مهمة الحركة الوطنية هي النضال من أجل «لبنان عربي وطني ديمقراطي متقدم»، بديلًا من هذا النظام البائد، العاجز والمتخلف، مسجلًا تناقضًا صارخًا بين «طبيعة التركيب الطائفي شبه الإقطاعي لهذا النظام وبين حاجات وضرورات تطور البلاد الديمقراطي». وإضافة إلى الحرب الشاملة مع إسرائيل، يضع البيان مقترحات «إصلاحية» للحكم، لا ذكر فيها لاسم أي طائفة من الطوائف، تعديلات فقط تمنح رئيس الوزراء السنّي «حقوقًا» في الحكم، تأخذها من حقوق رئيس الجمهورية، الماروني، مرفقة بمطلب مكرّر: «إلغاء الطائفية السياسية»[208].

يعلق أحمد بيضون على الحركة التي أصدرت هذا البرنامج: «كانت الحركة الوطنية وحواشيها مثل قشرة الجرح الجديد: لها في اللحم غرزات متباينة المواقع والعمق، ولكن لحم الطوائف تحتها في دم يجري ويقاوم العدوى مقاومة سلبية لم تمنع توسع الجرح، إلا أنها حفظت كثيرًا من شروط العافية للجسد»[209].

(187) مسؤول أمني رفيع في حركة «فتح».

(188) أحد مؤسسي الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، ومن بعد ذلك أحد مستشاري ياسر عرفات.

(189) بسام أبو شريف، **بيروت مدينتي** (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، 2010).

(190) جورج حبش، **صفحات من مسيرتي النضالية**، تدوين هيلدا حبش، تحرير وتقديم سيف دعنا (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2019)، ص 69-70.

(191) مقابلة مع محمود سويد، 22/3/2019.

(192) مقابلة مع جاد تابت، 19/2/2019.

(193) محسن إبراهيم، **الحرب وتجربة الحركة الوطنية اللبنانية** (بيروت: بيروت المساء، 1983)، ص 190.

(194) مقابلة مع فريد الخازن في: فريد الخازن، **تفكك أوصال الدولة في لبنان 1967-1976** (بيروت: دار النهار، 2002)، ص 199.

(195) رئيس جمهورية لبنان (1964-1970).

(196) وزير خارجية مصر (1964-1972)، الأمين العام لجامعة الدول العربية (1972-1979).

(197) قائد الجيش المصري في عهد عبد الناصر، وزير الدفاع (1968-1971).

(198) «نص اتفاق القاهرة المعقود ما بين السلطات اللبنانية والمنظمات الفدائية الفلسطينية»، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، شوهد في 4/2/2021، في: https://bit.ly/3pO70Ro

(199) بول عنداري، **هذه شهادتي: لبنان 1975-1992**، ط 5 (بيروت: [د. ن.]، 2010)، ص 13-14، 27.

(200) شغل منصب رئيس الوزراء ثلاث مرات، في الأعوام 1962، و1965، و1970 حتى 1971، تاريخ اغتياله.

(201) بخصوص الدعم المالي، ينظر: الخازن، ص 100-110؛ رشيد الخالدي، **تحت الحصار: صناعة القرار في منظمة التحرير الفلسطينية خلال حرب 1982**، ترجمة نسرين ناضر، مراجعة الترجمة جابر سليمان (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2018)، ص 65-66؛ كريم بقرادوني، **السلام المفقود: عهد الياس سركيس 1976-1982**، ط 7 (بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 2010)، ص 55.

(202) فلسطيني، روائي وصحافي. من أبرز قادة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ومؤسسيها.

(203) فلسطيني، أحد قادة منظمة «فتح».

(204) فلسطيني، أحد قادة منظمة «فتح».

(205) فلسطيني، المتحدث الرسمي باسم منظمة التحرير الفلسطينية.

(206) عباس بيضون، **ألبوم الخسارة** (بيروت: دار الساقي، 2012)، ص 220.

(207) حسام عيتاني، **هويات كثيرة وحيرة واحدة: سيرة لبنانية** (بيروت: دار الساقي، 2007)، ص 27.

(208) «النص الكامل للبرنامج المرحلي للحركة الوطنية اللبنانية»، **الأنباء**، 14/12/2018، شوهد في 4/2/2021، في: https://bit.ly/39McCpJ

(209) أحمد بيضون، **ما علمتم وذقتم: مسالك في الحرب اللبنانية** (بيروت: المركز الثقافي العربي، 1990)، ص 145.

الفصل الخامس: الطائفية والحرب الأهلية

الطبقات اللبنانية مربوطة بطوائفها، والسوسيولوجيا، مهما تكن درجات الماركسية المعتمدة لديها، لا تستطيع إشاحة النظر عن الترابط بين الطائفة والطبقة. بعد تشريح البرجوازية اللبنانية عشية الحرب، بين كبار المُلّاك والصناعيين والتجار والمصرفيين، يتابع صاحبَا كتاب **الطبقات الاجتماعية في لبنان: مقاربة سوسيولوجية تطبيقية**، فرزهما هذه الطبقات على قاعدة انتماء أصحابها إلى طوائف، فتكون النتيجة هَرَمًا تقف البرجوازية المارونية (المسيحية) على رأسه: إنها البرجوازية الأقدم، ذات الصلة الوثيقة بالحكم السياسي، والتي يغطي نشاطها القطاعات كافة. تليها البرجوازية المسيحية غير المارونية، الكاثوليكية والأرثوذكسية، المحصورة في التجارة والصناعة، ثم البرجوازية السنّية، المدينية، ذات الأسواق العربية والنشاطات الصناعية والتجارية والعقارية. وأخيرًا، في أسفل الهرم، تأتي البرجوازية الشيعية، الحديثة العهد، ومنشؤها رؤوس الأموال المتراكمة بفعل أموال الهجرة، وتوجهها نحو الفروع الاقتصادية الثانوية. ومع هذا الوصف، لا بد من أن تكون الطبقات الأدنى من العمال منتمية إلى الطائفة الشيعية، وأن يكون التراتب التعليمي هو نفسه، مع الفرق أنه بين المسيحيين، يحتل المسيحيون الكاثوليك المرتبة الأولى[210].

ليس هذا المعطى الطائفي من صناعة الأجنبي، كما يود أن تكون عليه الأمور لدى أصحاب وجهة النظر التقدمية الذائعة، المتمسِّكين بفكرة أننا نعيش «عصر الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية». يفسر وضاح شرارة الطائفية على نحو تاريخي، بصفتها من جذور إقامة دولة لبنان الحديث. هي ليست «خدعة» ولا «تزييفًا» ولا «تغطية» ولا شيطانية، في حين أن الطبقات لم تكن متجانسة على امتداد هذا التاريخ. ويخلص شرارة بعد معاينته تاريخ لبنان الحديث، وأثَر «التنظيمات العثمانية في أطره المحلية»، إلى أن «الطائفية لم تكن مفتعلة، وهي ليست وليدة àأفكار’ جهنمية أو àتأريث أحقاد’ تغذّيه السفارات والقنصليات [...]. ولم تكن الطائفية، بالتالي، موقفًا هبط من علوّ، افتعلته الكنيسة أو ولد في مخيلة المرابين [...]، بقصد إلهاء الشعب»[211].

التشابك بين الطائفة والطبقة معقد وقديم، لكن تجد من يختصره، كما فعل أحمد بيضون في العبارات التالية: «الطائفة هيئة اجتماعية متعددة الوظائف، تستحوذ تبعًا لذلك على جوانب متعددة من حياة المنتمين إليها، أفرادًا وجماعات، فإذا كان التضامن الطبقي يسهّل زيادة الأجر، فإن الانتماء الطائفي مدخل للحصول على العمل نفسه – وأحيانًا – على الترقية، وإذا كانت الطائفة ذات تراتب يقرب [...] من الاستبداد الصارخ، فهي مقابل ذلك إطار تنافس مع الجماعات الطائفية الأخرى»[212].

في التصور الواضح للحركة الوطنية اللبنانية، اليسارية التوجه، كل الديناميكيات الداخلية تدعو إلى التفاعل مع الديناميكية الفلسطينية الخارجية، لتطلق العنان للصدام المسلح: طائفة مغبونة، مستضعفة، شيعية في الأساس، لا يوجد فيها من السنّة إلا أبناء الأطراف، الجنوبية خصوصًا. فعلى الرغم من أن قائدها، كمال جنبلاط، يرى نفسه ممثلًا للسنّة، البيارتة خصوصًا، بعد الدروز واليساريين ومعهم الشيعة، فإن الأمر في الواقع مختلف. السنّة ليسوا مستعدين للانفجار الأهلي، ولا

راغبين في المشاركة في الحرب. لماذا؟ يصف حسام عيتاني، مرة أخرى، حال الشيعة اللبنانيين «الذين تحملوا مظالم وàحرمان’ دولتَي الانتداب والاستقلال لهم، ما انعكس راديكالية اجتماعية وسياسية تجسدت في كثافة انضمامهم إلى الأحزاب اليسارية في الستينيات والسبعينيات». ويقارن قبل ذلك، بين حالهم وحال السنّة، فيلجأ إلى السوسيولوجيا والأنثروبولوجيا، ليكتب: «إن الكتلة الكبرى من أبناء السنّة هم من سكان المدن المعتادين تغليب التفاوض والمساومة، والبحث عن الحلول الوسطى نتيجة اشتغال أقسام مهمة منهم في الأعمال التجارية منذ عقود، ومن ثم فإن التأثير الريفي الأقرب إلى الإعلاء من شأن روابط الدم والعشيرة وغيرها، كان أضعف حضورًا في القيادات الإسلامية السنّية [...] والمسلمون السنّة كانوا شركاء أساسيين في صيغة الحكم السابقة على الحرب الأهلية، ومآخذهم على تطبيق تلك الصيغة، خصوصًا في ما يتعلق بصلاحيات رئيس الوزراء [...] كانت أقل من مآخذ الشيعة»[213].

الطائفة، الحرمان، الطبقات، وأحزاب تتبنى التحرر من تلك الأغلال، باسم الحرية والديمقراطية، ولكن بقاعدة طائفية واضحة، وملامح طائفية ملتبسة في برنامجها، ثم مدعومة بحركة تحرر وطني تحمل السلاح لتحرير فلسطين، أخذت حقها القانوني في حرية الحركة، بل تجاوزته في غالبية الأحيان، تواجهها أحزاب يمينية مسيحية، فكان لا بد من أن تبدو الدنيا سوداء في نظر حاملي هذا السلاح. إنه وضع متفجر بذاته، محمول على أكتاف ديناميكيات حرب طائفية بامتياز.

أولًا: هل كانت الحرب حتمية؟

على خلاف الرؤية اليسارية، القائلة بـ «الحتمية التاريخية» للوضع اللبناني، ثمة من يرى في الحرب غيابًا تامًّا لمبرراتها. عشية الحرب، يقول فريد الخازن، كان لبنان «ظاهرة سعيدة». رغم اعتراف الخازن بأن الطوائف اللبنانية كانت مختلفة السرعة في تطورها، وبأن ذلك يعود إلى عوامل تاريخية، فإن الإصلاح في نظره لم يكن مستحيلًا، ولا كانت الآفاق مسدودة تمامًا، وكان لبنان يمشي على خطى «الإصلاح التدريجي»، بحسب قوله، في حين كانت الديمقراطية بخير نسبي، ودليله انتخابات رئيس الجمهورية عام 1970، التي فاز فيها سليمان فرنجية (1910–1992)[214] بفارق صوت واحد، تجاه منافسه شارل حلو. أما الطائفية التي يرفع لواء إلغائها برنامج الحركة الوطنية، فشهدت، في رأي الخازن، عشية الحرب «أدنى مستوياتها منذ الاستقلال». والفروق الطبقية، حجة اليسار الشيوعي الأرسخ، يصفها الخازن بهذه العبارات: «بين إنشاء دولة لبنان الكبير واندلاع الحرب، كانت تلك المسافة الهائلة من اللامساواة بين الطبقات والطوائف قد تقلصت كثيرًا، خصوصًا بعد العام 1960 عندما أطلقت الحكومة سياستها الإنمائية البنيوية». وهو يخلص إلى أن التغيير كان ممكنًا من دون حرب أهلية[215]. ولا يختلف سمير خلف عن الخازن في تقييم انعدام السبب المنطقي لديه في اندلاع الحرب؛ إذ يعدد مظاهر التقدم «والانخراط في مجريات الحداثة والسير في ركب التقدم»، يقارن بين لبنان وجيرانه ويراه «أفضل منهم بدرجة كبيرة»[216]. ويُذكر أن سمير فرنجية يساري النشأة، وأنّ سمير خلف وفريد الخازن أكاديميان وأستاذان في الجامعة الأميركية في بيروت.

لكن سمير فرنجية، الآتي من منظمة العمل الشيوعي، يملك درجة أخرى من الألوان. عنده أن الحرب هي المفارقة بعينها. في نظره، يصحّ القول إن الدولة، عشية الحرب، بذلت جهودًا ارتقت بفضلها الطوائف والمناطق المتروكة سابقًا إلى مصيرها.

ولكنه يملك تفسيرًا ربما يكون مستوحى من أعمال الفيلسوفة الألمانية حنة أرندت (1906–1975)، خصوصًا كتابها عن **أصول التوتاليتارية** (1951)؛ إذ يكتب أن الدولة الشهابية وجّهت ضربة قوية إلى المجتمعات المغلقة، طائفيًا ومناطقيًا، فحرمت الفرد من «وضعيته الشخصية السابقة، من اختلافه»، ليجد هذا الفرد نفسه مع آخرين في رغبته في الترقي الاجتماعي. ويتابع قائلًا: «ولكن خسارته، في هذه الأثناء لاختلافه، والذي ينظر إليه في البداية على أنه تحرر، يتحول مع الوقت إلى منافسة». وهذه المنافسة، المتولدة من «الاقتحام» المفاجئ للحداثة في حياته، لا يمكنها إلا أن تفضي إلى العنف. سيكون لبنان عشية الحرب قد خسر «آلياته القديمة للضبط الاجتماعي والسيطرة على العنف، بسبب إبطال بناه التقليدية من دون أن يكون قد بنى في المقابل آليات جديدة شبيهة بتلك المعتمدة في المجتمعات الحديثة، إذ لم تبلغ الدولة بعد الأفق الذي يسمح لها باستبدال عنف كل فرد بعنفها»[217].

ثانيًا: من بدأ الحرب؟

لا اتفاق على الجواب. كل طرف يجد أن الآخر هو الذي أطلقها. اليمين المسيحي يجدها في مؤامرة فلسطينية لإنهاء وجود لبنان، ويستدل على التسلح المبكر للمقاومة الفلسطينية وحلفائها اليساريين، ويأخذ على المسلمين أنهم كانوا في «أقصى وعيهم وتحضيرهم [للحرب]، وكان المسيحيون في أدنى وعيهم وتحضيرهم»[218]. ويقترب هذا الجواب، وإن ناقضه في الموقف، مما يقدمه سامي ذبيان من وصف للطاقة الهائلة التي كانت تمتلكها الحركة الوطنية اللبنانية من «القدرة الذاتية الثورية [التي] كانت ستمكّنها من أن تخوض معركة حماية المقاومة فعلًا [...]. إنها المعنية بالرد على اليمين، وبدحره، لأن دعم المقاومة مهمة لبنانية تقدمية، قبل أن تكون فلسطينية»[219]. وهذا جواب ينطوي على فكرتين: الحرب كانت ممكنة وحتمية في آن، في وجه يمين ضار. أصحاب الأمر في هذه الحرب، أيضًا لم يكونوا بواردها، إنما كانت «خيار الطبقة المسيطرة»، بحسب تعبير محسن إبراهيم، الأمين العام لمنظمة العمل الشيوعي[220]. ياسر عرفات لم يكن يريدها أيضًا، على حد قول أحد مستشاريه، بسام أبو شريف: «إن الإسرائيليين جرّوا الفلسطينيين إلى القتال ضد اليمين اللبناني المسلح، أرادوا أن تشتعل المعركة بين الفلسطينيين واليمين اللبناني لإلهاء الفلسطينيين عن أهدافهم، وهذا ما حاول ياسر عرفات منعه»[221].

في الحزب الشيوعي، ثمة من يملك رأيًا موازيًا عن الحرب، ويعلن عنه، على لسان اثنين من قيادييه. الأول، جورج البطل: «من بديهيات القول إن الحرب اللبنانية كانت سيئة، ولكن خلافًا لقول كريم مروة إننا انجررنا إلى الحرب، نحن قلنا في المؤتمر الثالث عام 1972 إنه يجب الرد على عنف البرجوازية بعنف ثوري. نحن نقلنا الأسلحة على أكتافنا، جورج حاوي وأنا، منذ عام 1969. يجب ألا نزوّر التاريخ بقولنا إننا جُررنا إلى الحرب [...] نحن كنا نرى أن حزب الكتائب يتسلّح ويستعد فقلنا يجب أن نتسلّح ونعد أنفسنا»[222]. أما الثاني، فهو جورج حاوي، القيادي الآخر، الذي يؤكد الأمر نفسه: «إن الحزب انخرط في الحرب دفاعًا عن الثورة الفلسطينية وعن وحدة لبنان»[223].

ثالثًا: أسباب الحرب؟

مثل كل الأسباب، تخترع الحرب نفسها بنفسها، أو هكذا يصفها عباس بيضون: «الحرب لها بالتأكيد أسبابها، ولكن الأسباب نفسها لا تكفي لتصنع حروبًا، أحيانًا تفكر بأن الحرب تخترع أسبابها، الأسباب عندئذ تكون لاحقة عليها»[224]. لا يرى الجيل القريب من عباس بيضون أسباب الحرب بعين التسليم الفلسفي هذه، إنما يعتبر أنها، أي الحرب، كانت فرصة لنزع الأقنعة الثورية. يقول وليد نويهض عن الحرب: «اكتشفتُ زيف النظريات الثورية بعد الحرب. من بداية عام 1975، اكتشفنا أن هناك شيئًا آخر لا علاقة له بما نفكر. بدأنا نناقش أنّ هناك شيئًا غير الطبقة، ودخلنا في نقاشات مع الحزب الشيوعي، في محاولة لإنتاج نظرية محلية: من يسار ànظري’ إلى يسار مرتبط بالواقع. بالتجربة، اكتشفنا أن كل هذا الكلام؛ أن المسيحي الغني والمسلم الفقير أو المسيحي الفقير بالضرورة مع الحركة الوطنية، وأن المسلم الغني هو بالضرورة مع الكتائب [...] تبين أن كل هذا كلام بكلام [...] الفقراء المسيحيون كانوا يقتلوننا في عين الرمانة والشياح [...] عندما اندلعت الحرب، وانهارت الدولة»[225].

الجيل الذي يلي وليد نويهض يطرح تساؤلات أخرى حول الحرب هذه. حسام عيتاني، الأصغر منه سنًّا، يصفها بـ «حروب القبائل»، ويصوغ رؤيته لها هكذا: «هل صحيح أن العنف في لبنان في القرنين التاسع عشر والعشرين مرتبط بالخلفية التاريخية التي جاء اللبنانيون منها؟ أم هو ناجم عن جملة àالتناقضات’التي يعيد الواقع وضعهم أمامها، أو التي يعيدون إنتاجها؟ أم أنّ àالآخرين’ من خارج الحدود هم المسؤولون الوحيدون عن تكدير àهناءة العيش’ التي ينعم اللبنانيون بها لولا تآمر المتآمرين وغاياتهم الخبيثة؟»[226]. حسام عيتاني، وأولئك الأكبر منه سنًّا، ينسحبون إما بعد انشقاقات، وإما مع اندلا ع الحرب واشتراك منظمتهم أو حزبهم فيها.

الشباب اليافعون هم الذين سيتابعون المهمة المتروكة. محمد بلوط وزياد صعب، لا يتجاوز سن كل منهما ستة عشر عامًا عند اندلا ع الحرب. وفي هذه السن، ينخرطون فيها، يتدربون، ويشتركون في معاركها. الثاني، زياد صعب، أكثر منه مدة وأعلى مسؤولية، يروي حماسته للحرب، وأنه كاد، في البداية، يترك حزبه الشيوعي، لفرط إلحاحه على خوضها، وتلكؤ الحزب فيها: «كنا ثلاثين شخصًا في الثانوية [المدرسة] وعمري سبع عشرة سنة. خرجنا من الحزب لأنه تأخر في الكفاح المسلح. كنا نلتقي مع بعضنا، نفكر بماذا نعمل ونشتغل لنحقق التغيير. مضى شهران واندلعت الحرب. الذي أتى لزيارتي هو الدكتور عبد الله رزق، من المجلس الثقافي للبنان الجنوبي [المقرب من الحزب الشيوعي]. قال لي نحن جئنا لنعيدكم. يجب أن تعودوا [إلى الحزب]، فناقشته في نقطة خلافنا معه، حول استخدام العنف، واتفقنا، فعدنا جميعًا، الطلاب الثلاثين. هكذا، انتقلنا إلى مرحلة أخرى، بعد نضالنا المطلبي الصرف. مع الحرب صارت الفكرة مطروحة للتغيير الجذري، وكنت من الناس المعتقدين أننا ذاهبون إلى كزدورة [نزهة] لمدة أسبوعين، ونحقق من بعدهما التغيير [...]. يعني: كنت ولدًا، حينما كان لا يحق لي المشاركة في القرار، وأصبحت رجلًا عندما أصبح مطلوبًا مني أن أموت [...] أول عمل قمت به في نيسان [أبريل] 1975، أنني ذهبت إلى البيت، وأخرجت السلاح من التتخيتة [العلّية]»[227].

أما محمد بلوط، فيعبر عن مزاج قريب، وإن كان أسرع انقلابًا على هذا المزاج، والخروج من التجربة تدريجيًا: «بصراحة كنت سعيدًا جدًّا باندلا ع الحرب، ولما يعلن عن اتفاق وقف النار، يكون نهارًا تعيسًا بالنسبة إلي. كنت في محور شارع

عبد الكريم [الضاحية الجنوبية لبيروت]، وبعد ذلك اشتغلت مع حركة àفتح’ في الجنوب، وكانت àفتح’ أكبر تنظيم بالمنطقة. في البداية شاركت في الحرب، ولكن شيئًا فشيئًا بدأت بالانسحاب منها»[228].

تراجع الثقافة مع الحرب؟ الحرب توقف التثقيف وتجلب إلى الحزب والمنظمة أفرادًا لم يبلغوا، مثل أسلافهم، الثقافة والكتب والماركسية التي كان هؤلاء قد «هَضَموها»، على طريقتهم، عشية الحرب. يروي زياد صعب «حادثة» حصلت معه بصفته مسؤولًا عسكريًا، لا يتقن، مثل قدماء الحزب، التحدث عن الثقافة أو السياسة في اجتماع حزبي. هو المسؤول العسكري في الحزب الشيوعي لمنطقة مرجعيون وحاصبيا العرقوب: «كان ما زال عمري ثماني عشرة سنة. دعوتُ كل الشيوعيين في المنطقة لاجتماع حزبي عام. جاء حوالى ثلاثمئة رفيق. احترتُ [...] عم أكلّمهم؟ كان معي الرفيق هاني عساف، وهو أكبر مني سنًّا، فاتفقتُ معه على توزيع الأدوار، أنا أتكلم عن الجانب التقني العسكري، وهو يتناول الجانب السياسي. هاني عساف، كانت القيادة المركزية قد أرسلته إلى المنطقة. وهو كان ممسكًا بكل أسرار الآلهة»[229].

في حين كان بلال خبيز، الذي يصغر زياد صعب بخمس سنوات، وهو قاتل في صفوف منظمة العمل الشيوعي، يتحدث عن وعيه بجهل المراجع المفترضة لمنظمتهم، وطريقة تعامله معها، وارتباكه بها: «لا نجرؤ على الاعتراف لأي كان بأخطائنا الصغيرة، بما فيها تلك التي كنا نقترفها، ونحن ندير نقاشات نجهل أصولها، فنستشهد بلينين وإنجلس [إنغلز] من دون أن نقرأ أيًّا منهما، ولا نعترف لأحد، كائنًا من كان، بأننا نقرأ لهؤلاء شيئًا يعتدّ به. كما كنا نحاذر الاستشهاد بماركس وتنصيبه في موقع الاحتجاج المفحم، لأن الرأي الشائع آنذاك كان يفيد أن ماركس عسير الفهم على من هم على شاكلتنا وفي مواقعنا الدنيا [...]. لذا، كنا نتجنب ماركس ونكثر من استعمال لينين وإنجلس [إنغلز]»[230].

(210) سليم نصر وكلود دوبار، **الطبقات الاجتماعية في لبنان: مقاربة سوسيولوجية تطبيقية**، ترجمة جورج أبي صالح (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1982)، ص 135، 206.

(211) وضاح شرارة، **في أصول لبنان الطائفي: خط اليمين الجماهيري** (بيروت: جداول للنشر والتوزيع، 2011 [1975])، ص 13، 21، 30، 32، 126.

(212) أحمد بيضون، **ما علمتم وذقتم: مسالك في الحرب اللبنانية** (بيروت: المركز الثقافي العربي، 1990)، ص 128.

(213) حسام عيتاني، **هويات كثيرة وحيرة واحدة: سيرة لبنانية** (بيروت: دار الساقي، 2007)، ص 192-193.

(214) رئيس جمهورية لبنان (1970-1976).

(215) فريد الخازن، **تفكك أوصال الدولة في لبنان 1967-1976** (بيروت: دار النهار، 2002)، ص 25-26، 29، 34، 47، 100، 309.

(216) سمير خلف، **لبنان في مدار العنف: قراءة في تدويل النزاعات الفئوية**، ترجمة شكري رحيم (بيروت: دار النهار، 2002)، ص 223.

(217) Samir Frangié, *La révolution tranquille* (Beyrouth: L'Orient des Livres, 2017), pp. 178-179.

(218) بول عنداري، **هذه شهادتي: لبنان 1975-1992**، ط 5 (بيروت: [د. ن.]، 2010)، ص 22.

(219) سامي ذبيان، **الحركة الوطنية اللبنانية: الماضي والحاضر والمستقبل من منظور استراتيجي** (بيروت: دار المسيرة، 1977)، ص 25.

(220) محسن إبراهيم، **الحرب وتجربة الحركة الوطنية اللبنانية** (بيروت: بيروت المساء، 1983)، ص 100.

(221) بسام أبو شريف، **بيروت مدينتي** (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، 2010)، ص 319.

(222) جورج البطل، **أنا الشيوعي الوحيد**، حاوره فواز طرابلسي (بغداد: دار المدى، 2019)، ص 74.

(223) علي بردى، «الحزب الشيوعي بعد ثمانين عامًا: منعطفات المآثر والمآسي»، **النهار**، 25-27/3/2004، ورد في: **الشاهد**، 20/5/2011، شوهد في 4/2/2021، في: https://bit.ly/3cGE0XN

(224) عباس بيضون، **الشافيات** (بيروت: دار الساقي، 2014)، ص 302.

(225) مقابلة مع وليد نويهض، 5/5/2018.

(226) عيتاني، **هويات كثيرة وحيرة واحدة**، ص 164.

(227) مقابلة مع زياد صعب، 6/1/2019.

(228) مقابلة مع محمد بلوط، 23/1/2019.

(229) مقابلة مع زياد صعب.

(230) بلال خبيز، **سقطت سهواً مرتين: سيرة مقاوم يبحث عن وطن** (بيروت: هيا بنا، 2008)، ص 16.

الفصل السادس: الثورة الإسلامية في إيران

الحرب الأهلية تندلع إذًا، وتتوالى فصولها: الجيش السوري يدخل لبنان في حزيران/يونيو 1976 لإنقاذ القوات اليمينية المسيحية من اختلال الميزان العسكري لغير صالحها. «القوات المشتركة»، أي تحالف الفصائل الفلسطينية واليسارية، كانت قد وصلت إلى جرود الجبال. وتصور أحد قادتها، أبو إياد (1933–1991)[231] أن «طريق القدس تمر بجونية»، مركز جبل كسروان الماروني العتيد. بعدها وقبلها مجازر بالجملة، انتقامية، تطهيرية، ديموغرافية، طائفية بالتأكيد. في العام نفسه 1976، بين أوله، كانون الثاني/يناير، حيث حصل الهجوم العسكري على بلدة الدامور المسيحية الشوفية، الواقعة في منتصف الطريق بين العاصمة والجنوب؛ وبين أواسطه، أي عشية الدخول العسكري السوري بأيام، ومن بعده بشهرين يكون حصار مخيم تل الزعتر، الواقع في قلب الضاحية الشمالية الشرقية للعاصمة، أي في قلب منطقة نفوذ اليمين المسيحي. وبالنتيجة، جرى محو المخيم نفسه من الوجود، بعد قتل الآلاف من أهله، وطُرد الباقون إلى المنطقة الغربية (تحت سيطرة القوات المشتركة)، إلى مخيماتها الفلسطينية. ثم اغتيل كمال جنبلاط، قائد الحركة الوطنية اللبنانية بعد ذلك بسنة واحدة، في آذار/مارس 1977؛ وما تَداخَل مع هذا الاغتيال من ضربات إسرائيلية في الجنوب اللبناني، كانت ذروتها «عملية الليطاني» الإسرائيلية في آذار/مارس من السنة التالية، وهي الأولى من نوعها من حيث توغلها إلى الداخل اللبناني، وطردها الآلاف من الجنوبيين من ديارهم، وقد اعتُبرت وقتها «عملية وقائية» لحماية اتفاقية كامب ديفيد، التي كانت في أول أطوار صياغتها، وصراع أجنحة وتيارات بين المنظمات المسلحة، فلسطينية – فلسطينية، لبنانية – لبنانية، أو فلسطينية – لبنانية، فشل أمني داخل أقرب المربّعات، وفشل إداري في تنظيم شؤون الحياة، واستعار العواطف الطائفية الفئوية بكل جوارحها. هذا كله، دفع بالقليل الباقي من المسيحيين اليساريين إلى العودة إلى أحضان الطائفة الدافئة.

يروي توفيق الهندي من ضمن ما واجهه في أواسط عام 1977، كم كان مفعمًا بالمثالية حينما صدق في بداية الحرب من جهة أنه «يمكن خلق نواة لبنانية – فلسطينية، ما يشبه الحزب الشيوعي العربي، يكون نواة لجبهة وطنية معادية للإمبريالية والصهيونية، وإلى جانبها جيش شعبي يقوم بحرب تحرير طويلة النفَس [...] ودولة اشتراكية، وبعد ذلك دولة شيوعية على امتداد àالوطن العربي’»، لكنه يكتشف أنه «أخطأ»، والضربة الأساسية بالنسبة إليه كانت فشل الثورة الثقافية الصينية التي كان هو واحدًا من معتمديها؛ إذ أصبح ماويًّا، بعد انتقاله إلى الصفوف الفلسطينية. ويلاحظ، فضلًا عن ذلك، أن الرفاق الذين من حوله «وإن كانوا شيوعيين، أي غير متدينين، فإنّ الصراع الذي كانوا يخوضونه كان موجهًا ضد المسيحيين»، في حين أن العروبة توصل إلى نتيجة مفادها أنها خرافة: «الأمة العربية لم تنوجد يومًا»، وذلك بعدما تبين له أن القادة الفلسطينيين التقدميين لا همّ لهم «سوى مصلحة بلادهم وديمومة سلطتهم الشخصية على حساب مصلحة àالأمة العربية’»[232].

الملاحظة نفسها يسجلها سمير فرنجية: «حتى لا يخسروا قضيتهم، الشباب الشيعة المنتسبون في الأصل إلى الأحزاب اليسارية سوف يتخلون عن مشروعهم، ويتوجهون تدريجيًا نحو الأشكال الهوياتية في التنظيم، ذات دلالات اجتماعية، مثل حركة àالمحرومين' [حركة àأمل'] التي أسسها موسى الصدر، ومن بعدها àحزب الله'»[233].

أصبحت حالات الهجرة الفردية، من بين اليساريين المسيحيين إلى المناطق المسيحية، وتركهم أحزابهم اليسارية التي باتت لا تحميهم، ظاهرة شبه يومية، تواكب ظاهرة هجرة عدد من اليساريين المسلمين إلى المربع الإسلامي، الطائفي. وقد أتى بعضهم من المجموعة التي انشقت عن منظمة العمل الشيوعي، والتحقت بحركة «فتح»، وصاروا معروفين باسم «الكتيبة الطلابية»، المذكورة آنفًا.

يحكي سعود المولى، وهو أحد عناصر «الكتيبة» المعروفين، عن العلاقة الباكرة التي أقامها مع موسى الصدر، عشية الثورة الإسلامية في إيران. كانت بدايتها أن الإمام الصدر «يمنح [الكتيبة] ثقته ويمدحها في خطبه العلنية». والعلاقة تطورت بعد ذلك، فصار توجه الصدر و«لبنانيي فتح»، أكبر من المديح، صار ما يشبه المشروع المشترك، وقوامه، بحسب سعود المولى: «بناء مقاومة لبنانية فعلية في الجنوب، توجيه كافة البنادق نحو العدو الصهيوني، باعتبار ذلك الطريق الوحيد للخروج من الفتنة الداخلية ووقف الحرب الأهلية المدمرة [...]، ضرورة إنجاح التسوية السلمية اللبنانية [...] التي كان الإمام الصدر عرابها وراعيها». والمولى يذيع فضائل الإمام السياسية، ويعيب على الحركة الوطنية عدم انتباهها إلى «منهجه» الإيجابي: «ولعل هذا البعد التغييري في حركة الإمام الصدر ما غاب فهمه عن اليسار التقليدي يومها، أو لعلهم فهموه ولذلك خافوا منه». فالإمام، بتأسيسه حركة أمل، و«توجيه الأنظار نحو الجنوب»، وبدعوته إلى أن «يكون قرار الجنوب لبنانيًا»، لاقى تجاوبًا «شعبيًا شيعيًا كبيرًا». والسبب أن «الشيعة كانوا قد بدأوا يضيقون بالسلطة الفلسطينية الوطنية المشتركة، بالأمن الشعبي والإدارة الذاتية والتجاوزات المختلفة»[234].

وكأن وقت التأسلم قد حان، بعد مضي وقت التمرّكس، وهو يجب أن يكون سريعًا ومكثفًا، كما كان التمرّكس بغية كسب الوقت. هذا لسان حال شباب «الكتيبة الطلابية». تندلع الثورة في إيران، فيمضي سعود المولى في مديحه، غارفًا من عبارة «خط الشعب» الماوية مشروعية هذا المديح. ومن الشعب إلى الشعوب المسلمة مسافة طفيفة، يتيسر على المولى تخطيها؛ إذ يقول: «بدأنا بالاهتمام بنضال الشعوب المسلمة [...]. حاولنا أن نقلد المسلمين السوفيات بين العامين 1919–1920، خصوصًا سلطان غالييف، ثم بدأنا ندرس الإسلام، وقد بدأنا بذلك، فور تطبيقنا مبادئ الماوية، منها أنه علينا أن نعرف أفكار الشعب، أن نهتم بالشعب، بما يفكر به الشعب [...] علينا أن نعرف تقاليد الشعب». وبوحي أيضًا من الثورة الثقافية الصينية يقول المولى إن «الكتيبة الطلابية»، أنشأت لجانًا شعبية في الميادين كافة، «في تلك الميادين التي على المثقفين أن يغيروا آراءهم، أن يعملوا على تغيير آرائهم، أن يعملوا من أجل تغيير أفكار الجماهير، امتلاك آراء الجماهير، إذن خلق تفاعل بين المثقفين والجماهير»[235].

عشية الثورة الإسلامية، يتابع المولى، في مقابلة مع باحث فرنسي، أن «الكتيبة» تقيم علاقة وطيدة مع الإيرانيين: «بدأنا نتصل بالإيرانيين؛ ذلك أن الإيرانيين، في بداية الحركة الثورية الإيرانية التي لم تكن كلها خمينية، صاروا يرسلون كوادرهم

للتدريب في مخيمات àفتح’. وكانت àفتح’ ترسلهم إلينا، لأن شباب الكتيبة كانوا مثقفين، يتقنون اللغات، ويمكنهم أن يعطوا نموذجًا صالحًا، بدلًا من أن يرسلوهم إلى النواحي الضائعة للمقاومة الفلسطينية [...]. هكذا أقمنا صلات مع ثائرين ومناضلين إيرانيين، منهم حفيد الخميني، وابن آية الله منتظري، والقادة والشيوخ الذين سيقودون لاحقًا الثورة، وكان هناك مجاهدو خلق وفدائيو خلق أيضًا، ماركسيون، إسلاميون [...] كانوا يترجمون لنا كتبًا من الفارسية، مثل كتب علي شريعتي. هكذا، وفي مخيمات àفتح’، انكببنا على الآداب الإسلامية الإيرانية». ومع بداية الثورة الإسلامية يلاحظ المولى أن العبارات والمفردات بدأت تتغير في صحيفة **الوحدة** التي تصدرها الكتيبة «كنا بدأنا نستشهد بياسر عرفات وأبو جهاد ولينين وماو تسي تونغ، ثم شيئًا فشيئًا، حضر القرآن وأحاديث الرسول والإمام علي، إلى جانب ماو ولينين. مراجعنا تأسلمت تدريجيًا. كنا نستشهد بلينين على يسار الصفحة، وبآية من القرآن على يمينها [...]. كانت آيات القرآن، خصوصًا الآيات القريبة من ماو أو لينين، تحض الناس على مقاتلة إسرائيل». كانوا حوالى عشرين مناضلًا في صفوف المجموعة على هذه الصلة مع الإيرانيين، عشرين «مثقفًا ميدانيًا». ولذلك، يتابع المولى: «عندما اندلعت الثورة الإيرانية، كنا جاهزين لتلقي الإسلام، لأننا اعتمدنا ماركسية غير دوغمائية. ولم تقم قناعاتنا على قواعد أيديولوجية أو دينية، أي إننا نظرنا إلى الإسلام كقوة حضارية وسياسية يمكن أن تجمع المسيحيين والماركسيين والمسلمين. الإسلام كرد، كطريق نضال ضد الإمبريالية، ومن أجل تجديد مقارباتنا وأفكارنا وممارساتنا السياسية»[236].

رفيق آخر من منظمة العمل الشيوعي، طلال عتريسي، انتقل إلى الكتيبة الطلابية في بدايتها، يذهب إلى ما هو أبعد من سعود المولى في تبنّيه الإسلامية، بعد الماوية، وأحيانًا بالتناغم معها؛ إذ يقول: «ميزة شباب àالكتيبة’ أنهم قاتلوا وقدموا شهداء، وليسوا من الناس القاعدين في المقاهي ويتكلمون عن الحرب والسياسة، كلا! إنهم شباب قاتلوا وذهبوا إلى المخيمات، وإلى الجنوب وجبال صنين وأحياء رأس النبع والخندق الغميق [...] ومنهم الشهداء. تلك هي ميزة àالكتيبة’ إن علاقتها مع الناس كانت جيدة [...] في البداية، بدأ بعض القادة في الكتيبة يدرسون التجربة الماوية وعلاقتها بالشعب، لأن ماو تسي تونغ قدم أطروحات جديدة ومهمة، منها خط الشعب. الثورة التي أشعلها قامت على فكرة أنه لا عمال في الصين، بل فلاحون، فإذا كانت الماركسية تقول بثورة بالعمال والمصانع، فكيف نعمل ثورة، إن لم يكن بالفلاحين؟ بالنسبة إلي وإلى الكتيبة الطلابية، كان هذا مدعاة للتفكير في خصوصيات بلادنا. منير شفيق طبعًا لعب دورًا أساسيًا في هذا التوجه، كنا نجتمع ونقرأ أدبيات جديدة غير مقطوعة عن الماركسية، لذلك كانت هذه مرحلة انتقالية، لأن الماوية ماركسية، ولكن لديها شخصيتها وهويتها أيضًا. في تقديري الشخصي إن الماوية هي التي جعلتنا نبحث لاحقًا عن الشكل التالي: إذا أراد المرء أن يعمل ثورة في بلاده لأن ماو عمل ثورة ببلاده استنادًا إلى الفلاحين، وإلى ماركسية لم تتكلم عن الفلاحين، إذا أردنا أن نعمل ثورة في بلادنا فإلى ماذا نستند؟ كيف نعمل ثورة ونحن لا نعرف ثقافة بلادنا؟ هكذا بدأ النقاش».

ويتابع طلال عتريسي: «لا تستطيع القول إنكَ تريد القيام بثورة في لبنان أو في الدول العربية وأنت تعيش على الثقافة الماركسية وحدها، وعلى قليل من كتب لينين وروزا لوكسمبورغ. لا يقتصر الموضوع على الاكتفاء بهذه الكتب، إنما عليكَ

الذهاب إلى مكان آخر [...] يعني أنك لا تستطيع أن تحاضر بالناس في القرية وتحكي لهم عن روزا لوكسمبورغ، مثلما كنا نفعل نحن، فيقول أهل القرية عنا إننا مجانين! كانت بداية مرحلة انتقالية، نقول خلالها إن ثقافة هذه البلاد هي الإسلام. في وسع المرء أن يكون مسلمًا، أو لا يكون، لكن عليه أن يحترم الإسلام، وأن يخاطب الناس بثقافتها، ويأخذ مقدساتها في الاعتبار. في السابق، كان الواحد منا يحارب المقدسات، ويفرّط في العائلة، وإن الدين أفيون، فيدخل إلى الناس ويصدمهم، وفي النهاية يبقى وحيدًا، والناس باقية».

ويتابع أيضًا: «إذا أنا التزمتُ بقضية الثورة الإسلامية، وهي لم تكن تتعارض مع الماوية، وكان اتجاهها أنه إذا ثقافة بلادنا هي الإسلام، فنحن علينا أن نكون ضمن هذه الثقافة. هنا بدأ الفرق بين السابق واللاحق: فإذا كنتَ مسلمًا بالولادة فقط، فليس من السهل عليك أن تصبح إسلاميًا مؤمنًا. الأمر يحتاج إلى وقت، وقد يختلف بين الواحد والآخر، تبعًا للثقافة والقراءات والتعمق والمحيط والبيئة والوجدانيات [...] كل هذا كان يؤدي دورًا [...]. الثورة بإيران عملت قفزة قوية، لذلك أيدها مسلمون ومسيحيون؛ حققت نقلة، ورسخت هذا التوجه. والذي كان مترددًا بين أن يصلي ولا يصلي، حسم أمره: رأى أمامه الإمام الخميني، الشخصية غير العادية، يقوم بثورة قلبت المعادلة والدنيا كلها، وهو إنسان بسيط يصلي ويصوم ومتواضع ويحترم عادات الناس [...]. الثورة الإسلامية بإيران كانت محطة مهمة بلورت هذا الاتجاه أكثر فأكثر، لو لم تحصل هذه الثورة لبقي الاتجاه الإسلامي المتردد ضعيفًا وفرديًا. كانت مثل الثورة الفرنسية، أو أي ثورة في العالم وتنجح وتترسخ [...]. تأثرنا كلنا بالإمام الخميني، وكنت دائمًا أقارن بينه وبين قيادات أحزاب نعرفها وعشنا معها [...] كنتُ أشعر بأنه يحاكي شيئًا عندنا نحن محبي البساطة، المستعدين للتضحية من أجل الناس [...]. نقطة أخرى قربتنا منه: أننا تربينا على العداء للأميركيين، ولم نشعر بتغيير مؤلم في الوجهة، كمن نكون مع الأميركيين ونصبح ضدهم كرمى الثورة؛ هي رفعت شعار âأميركا' هي âالشيطان الأكبر'، أنا ما زلت في âالصحن' نفسه، لم أخرج منه [...]. ميشال فوكو، الفيلسوف الفرنسي، قال عن الثورة الإسلامية إنها عظيمة، ولكنه لم يكن مضطرًا إلى أن يصلي أو يصوم أو يؤسلم [...] أما أنا فلم أكتف بهذا الكلام شعرت بأن ثمة شيئًا في حياة الإنسان مصيره مستقبله [...] أشياء جديدة صارت مطروحة عليّ؛ في المراحل الأولى من العمل السياسي لم نكن نفكر في الحياة: إلى أين هي ذاهبة، ما هو أولها وما هو آخرها. والتحول إلى الإسلامية أمر سهل لشخص مثلي خارج من بيئة مؤمنة. لم أحتج إلى جهد اجتماعي كبير. هذا التحول في سلوكي الشخصي، التديّن حسب الأصول ليس مزحة؛ ثمة حلال وحرام فعلًا، ثمة يجوز ولا يجوز، مباح وغير مباح. كما كنا نقرأ في الماركسية أنّ هناك تحليلًا منطقيًا، في الدين أيضًا منظومة كاملة. وأنا لم أكتفِ بذلك، فأنا أستاذ في الجامعة، ولست قاعدًا في دكان أو أكيّل بالميزان. وصرت أريد علمًا من وحي انتمائي الجديد يختلف عن علم الاجتماع التربوي الذي درسته في فرنسا أو في لبنان [...]، وهذا تطلب شغلًا كثيرًا، خلاصة سنوات من محاضرات وكتابات وصار التفكير عندي من أين أبدأ قراءتي؟ إذ لا أدبيات كثيرة، فلا أدبيات إيرانية [...] لم يلحقوا ترجمتها. ما زالت الثورة منشغلة بحالها، فقلت لأبدأ بالتوحيد. جلبت كتابًا لمحمد عبده وكتب محمد قطب، شقيق سيد قطب، ولكنه يختلف عنه بتوجهه الفكري الاجتماعي والتربوي، فضلًا عن كتب سنّية من مكتبة الرسالة لكبار علماء السنّة، وأنا بهذا التوجه أطرح ماهية

التربية، وأنا إذا أردت أن أراها إسلامية، فكيف أراها؟ وعلم النفس كيف أراه؟ هل بالأخذ به وبدرسه مثلما درسته؟ وما معنى علم النفس؟ هل هو وحده فاهم النفس؟ هو ذاته كما يراه الغرب؟ وهل الإسلام ينظر إليه بالفهم نفسه؟ هكذا بدأت أشتغل، وأطرح مثلًا أسئلة عن المراهقة، وهل المسلم يمر بهذه المرحلة، المراهقة، كما يحصل مع الأوروبي؟ في حين أن علم النفس الاجتماعي وحتى الأنثروبولوجي قالا إن الأمر يختلف باختلاف المجتمعات، ليس الأمر كذلك إذًا. حسنًا، وفي الإسلام كيف يكون؟ ثمة اختلاف، وأنا من واجبي أن أشتغل على هذا الموضوع، كنت أريد أن أكمل في الطريق ذاته، أن يكون لي معنى»[237].

ما يضاعف من جاذبية الثورة الإسلامية الإيرانية وسط شباب «الكتيبة الطلابية»، هو الاستقبال الفلسطيني الحافل لها. كان ياسر عرفات أول زعيم يزور الخميني بعد نجاح الثورة، ويكتب: «الخميني هو إمامنا، كبيرنا، قائد كل المجاهدين. سوف نكون شعبين في شعب واحد. ثورتنا في ثورة واحدة. وكل فدائي، كل مجاهد، كل ثوري إيراني سيكون سفيرًا لفلسطين في إيران. نحن حررنا إيران، وسوف نحرر فلسطين، وسنتابع جهودنا حتى نهزم الإمبريالية والصهيونية»[238].

منير شفيق، المفكر الفلسطيني المؤيد للثورة الإسلامية، يشرح في مقابلة مع الباحث الفرنسي نفسه ماذا يقف وراء هذه الحماسة العرفاتية. ليس عرفات وحده، إنما كل القادة الفلسطينيين ذهبوا إلى طهران، ومنهم عرفات، ليروا بأم أعينهم الخميني بعد الثورة. وعرفات لقي وقتها استقبالًا يليق بالمنتصرين، ثم يرصد منير شفيق حدثين جعلا الانقلاب الإسلامي ممكنًا. الأول هو، طبعًا، نجاح الثورة الإسلامية في شباط/فبراير 1979 بالاستيلاء على السلطة. والثاني هو الاجتياح السوفياتي لأفغانستان من بعد هذه الثورة بعشرة أشهر، في كانون الأول/ديسمبر من العام نفسه. ويشرح شفيق الحدثين: «الاجتياح السوفياتي يبيّن أن مسألة حرية الشعوب بتقرير مصيرها هي مسألة ثانوية لدى السوفيات. أما الثورة الإيرانية، فهي تدل أنه يمكن إيجاد طريق معاد للإمبريالية خارج لعبة الكتلتين، الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي. وهي طريق جديدة للمضطهدين [...]، والثورة الإيرانية جاءت لتخدم شعبنا مباشرة». يتأثر منير شفيق بظاهرة رافقت الثورة الإيرانية، وهي الحماسة البالغة التي لقيتها «وسط الجماهير العربية والفلسطينية». يقارن بينها وبين الثورة الفيتنامية، فيقول: «الثورة الفيتنامية كان لها أثر عظيم في سياستنا ورؤيتنا وأساليبنا وكوادرنا السياسية، ولكنها لم تمتد إلى الجماهير. صحيح أن هذه الجماهير كانت تدعم الثورة الفيتنامية، لكنّ شيئًا منها لم ينلها. أما الثورة الإيرانية، فلاقت أكثر من دعم. لاقت التصاقًا جماهيريًا بها [...] شيء أصاب روح وقلب الجماهير الشعبية العربية، والأكثر فقرًا من بينها. الجانب الإسلامي للثورة سمح لهذه الجماهير بالالتصاق التام بها [...]، شيء في النفس وفي القلب ليس سياسيًا فقط ولا أيديولوجيًا». ولأن مفردة الجماهير وخط الجماهير الصادقة هي مفردة مشتركة بين الإسلامية والماوية، فإن شفيق تمسك بالاثنتين: «لم أتخل أبدًا عن المفهوم الماوي، أي خط الجماهير».

بهذا المعنى، يتابع شفيق قائلًا: «أنا ماوي، ومفهوم àخط الجماهير' الماوي سمح لي بالتعرّف إلى الإسلام، والانفتاح على شيء آخر». وهو يستعين بكارل ماركس لتبيان أن قطيعة لم تحصل بين ماضيه اليساري وراهنه الإسلامي. يقول: «لا يمكن لك أن تفعل في أي مجتمع من دون أن تأخذ في الحسبان تاريخه السياسي والاجتماعي والثقافي، وكل الأمور

المتشابكة. ما أقصده: إن الطليعة المولدة للتاريخ هي هنا، في وسطنا، أي إن التاريخ أمامنا، وهذا يعني بالنسبة إلي، وبالنسبة إلى ماركس أيضًا أن شروط الثورة تأتي من داخل المجتمع، من داخله العميق». ويتابع شرحه «الاستمرارية»، بأنه «نعم حصلت قطيعة بالمعنى السياسي. نعم لم أعد ماركسيًا، إذ أصنَّف بأنني إسلامي، وأنا فضلًا عن ذلك مسلم ومؤمن، ولكن الاستمرارية عندي تلغي القطيعة، فانتقالي إلى الإسلام واعتناقي الإسلام يندرجان من ضمن تاريخي، من ضمن كوني اخترتُ الطريق المثلى نحو التحرر الوطني والاجتماعي بالنسبة إلى العالم العربي كله، وبالنسبة إلى الشعب الفلسطيني خصوصًا. إنه نوع من الانتقال، لا القطيعة»(239).

يترك وليد نويهض منظمة العمل الشيوعي، بُعيد اندلاع الثورة الإسلامية. يؤيد الثورة في بداياتها، لكنه لا يتأسلم. وهنا يروي تقلباته حيالها: «عام 1978 آنذاك كان في رأسي دائمًا أنّ هناك إسلامًا، ربما [هو] عائد إلى الطفولة. كنت أقول إن الإسلام ما زال حاضرًا في الفقه والمعاملات، وكانت تؤخذ هذه المسائل باستخفاف [...] وأكتب [...] إلى أن حصلت الثورة الإيرانية. لم تكن في البداية إسلامية، كانت مخلوطة. كان هناك مجموعات في بيروت تتصل بنا وتروّج لمشاريعها الإصلاحية، من كل الاتجاهات، وكنا معادين للشاه، من منطلقات يسارية [...] كنا جاهزين كيساريين لتأييد الثورة. وكنا نسأل إن كان يمكن لرجل دين أن يقوم بثورة في القرن العشرين. صرنا نؤيد هذه الاحتجاجات الإيرانية. يتصلون بنا، وبينهم مجموعات من أصول عربية، تتكلم العربية، عاشت في إيران. يشرحون لنا ماذا يحصل [...]. كنتُ وقتها أكتب في مجلة àالحرية' وجريدة àالسفير'. وبدأ عام 1978 وسط غيوم الانتفاضة في إيران وبدأنا نفكر في أن التحليل الطبقي لا يفيد، وأنه لا طبقات [...] الثورة الإيرانية كانت حلًّا شخصيًا بالنسبة إلي، نوعًا من الهروب، من الملاذ. كنت في أزمة مع منظمة العمل الشيوعي، وبلغ النقاش الهاوية. وكنت أتساءل أين أذهب إذا خرجت؟ من التجربة النظرية إلى الواقعية إلى الفشل اليساري وصولًا إلى عدم الانتباه إلى الإسلام في العالم العربي [...]. هنا بدأت أذهب إلى إيران، وأجري مقابلات مع المسؤولين الإيرانيين وأنشرها في àالسفير'. كانت لدي تحفظات على الثورة، أقرب إلى التأييد، إلى حسم موضوع الإسلام، لا مصالح ولا طبقات. هناك أيديولوجيا، علينا العمل عليها [...] خروجي من المنظمة كان آخر يوم من عام 1979. الظرف المباشر للخروج: توتر وامتناع الكتابة وكنت موظفًا أقبض معاشًا، ولكن لم يكن ممكنًا البقاء وبلغ النقاش عنفًا شديدًا. ومصالحات لم تُجدِ. كتبت رسالة الاستقالة من المنظمة وخرجت من àالحرية' [...]. ظللت أكتب دفاعًا عن الثورة الإسلامية حتى عام 1983»(240).

أما حازم صاغية، فيكتب ناقدًا حماسته الأولى للثورة الإيرانية: «حين صرت من المبايعين المبكرين للثورة، رحت أكتب في **السفير** مُقَيلة تلو أخرى دفاعًا عنها [...]، ورحنا نضطهد زميلنا المصري يسري [نصر الله] الذي سكنته، على ما ذهبنا، عيوب أربعة هي قبطيته وماركسيته وثقافته الغربية واهتماماته بالسينما. [كنت] متأثرًا بما وصلني من كتابات علي شريعتي، وما كنت أعرفه عن فرانز فانون، ومتلاعبًا بمعادلات شعبوية خلقها ماو تسي تونغ، بدا من السهل اجتراح àخصوصية' للحدث الذي سماه أصحابه àإسلاميًا'. ومفاد الهاجس الضمني الذي تحكم بعقول طفلة أخرى، قبلي وبعدي، كان توظيف الإسلام في خدمة الثورة، والبرهان الحيّ إيران، فحيث يفشل الوطني الطبقي، يفلح الإيماني».

ويشرح صاغية سبب هذا الانجرار ويبرره أحيانًا: «ما فعلناه كان يفعله آخرون في إيران، ليبراليون أو يساريون، أكبر منّا سنًّا وأوسع تجربة وقعوا، بدورهم، في ما وقعنا فيه». أما أسباب هذا الوقوع، فيحيلها إلى مزيج من علم النفس والسياسة: «كانوا أفرادًا مذررين يستمدون الحرارة من دفء الحشود وينبهرون، في ضعفهم وعزلتهم، بالجماهير يُصنع التاريخ». أيضًا، هناك دافع آخر بالنسبة إلى صاغية؛ أن جو الثورة الإيرانية «أعاد وصلي بأجواء حميمية كنت حسبتُني طويتها، ففي طفولتي، وفي بيت جدي، كان اللون الأسود السائد والشائع». ومع اللون الأسود جمعه بالخميني «الذوق المتقشف». سبب رابع قذف به إلى الخمينية: بعد حرب السنتين، أول دورة من الحرب الأهلية، ساد في تلك الفترة فكرة في أوساط صاغية؛ أن «الكتائبيين [اليمين] انتصروا، لتماهيهم مع المسيحيين، فما علينا إذًا، إلا التماهي مع المسلمين [...]، ولم يدر في خلدنا [...] أننا كنا نعلن حاجتنا إلى الاحتماء بالعشيرة والأهل والرجال أكثر من أي سعي àتقدمي’ مزعوم [...]، فبعد رحيل عبد الناصر صاروا يبحثون عن أب». ويتابع صاغية وصف نفسية أولئك الباحثين عن الأب: «لقد أنّثت المرارات عالمنا وقد غدا يستعجل الفحل، وإن الكل صاروا أطفالًا بلا أب ولا احتمال أب. وهطل الخميني علينا، فمن الذي يسأل، بعد ذلك، عن موقف السيد الجليل من المرأة أو الإصلاح الزراعي؟»، فالخميني هذا «كان على فائض ذكَريّ، استقبلناه بفائض أنثوي». ويتابع «كانت نسبة مرتفعة من المتحولين، أنا فيهم، مسيحية، فبلغ التأنيث والتذكير هنا أوجهما، ذاك أن المسيحي اللبناني المنحاز إلى المسلمين كانت تزدوج هزيمته في حرب لبنان، فهو ظن نفسه لاجئًا إلى الأكثرية وàالشعب’، محتميًا بهما، وسلوك كهذا، يقوي الضعيف مبدئيًا، لم يعمل إلا على تصليب ضعفنا وتأبيده»(241).

(231) صلاح خلف، أبو إياد، سياسي فلسطيني، من مؤسسي حركة فتح، ومن قادة الأجهزة الأمنية لمنظمة التحرير الفلسطينية. اغتيل في عملية خاصة بتونس، في كانون الثاني/يناير 1991.

(232) Toufic Hindi, *Une troisième guerre mondiale pas comme les autres: Stratégie pour confronter un djihadisme sans frontières* (Paris: Les éditions du Panthéon, 2018), pp. 26-28.

(233) Samir Frangié, *La révolution tranquille* (Beyrouth: L'Orient des Livres, 2017), p. 180.

(234) سعود المولى، **طريق ذات الشوكة: الشيعة اللبنانيون في تبلور وعيهم الوطني** (بيروت: دار الجديد، 2008)، ص 23، 33، 43-45.

(235) المرجع نفسه.

(236) Nicolas Dot-Pouillard, «De Pékin à Téhéran, en regardant vers Jérusalem: La singulière conversion à l'islamisme des 'Maos du Fatah',» *Cahiers de l'Institut Religioscope*, no. 2 (Décembre 2008), pp. 30-33.

(237) مقابلة مع طلال عتريسي، 8/11/2018. أصدر طلال عتريسي كتابين: الأول عنوانه: **في التربية وعلم النفس: اختلاف المفاهيم** (بيروت: مركز الدراسات الاستراتيجية للبحوث والتوثيق، 1994)، والثاني عنوانه: **البعثات اليسوعية: مهمة إعداد النخبة السياسية في لبنان** ([د. م.]: الوكالة العالمية للتوزيع، 1987). والكتابان ينطلقان من مقاربة إسلامية.

(238) Dot-Pouillard, p. 1.

(239) Ibid., pp. 24-27.

(240) مقابلة مع وليد نويهض، 5/5/2018.

(241) حازم صاغية، **هذه ليست سيرة** (بيروت: دار الساقي، 2007)، ص 79، 81، 84.

الفصل السابع: الاجتياح الإسرائيلي للبنان في حزيران/ يونيو 102 (

عشية الاجتياح الإسرائيلي للبنان، طوال عامين، كانت الاشتباكات بين الحزب الشيوعي وحركة أمل شبه يومية. زياد صعب، الذي كان وقتها مسؤولًا عسكريًا في الحزب الشيوعي، يصف تلك المرحلة: «ضمنيًا، كنا نعلم أن النظام السوري يريد بناء قوى موالية له، وأن حركة àأمل’ آتية من موقع ديني الهدف منه كسب المزيد من الجمهور. واستعجلنا بالاشتباك مع àأمل’ ونحن نتوهم أننا أقوياء، بوسعنا السيطرة على الجنوب. سيطرنا على الجنوب حتى سنتَي 1981–1982. والموقف الفلسطيني لم يكن مؤيدًا لنا في موقفنا من àأمل’. أذكر مثلًا سنة 1981، عُقد اجتماع سريع في النبطية للقيادة المشتركة للحركة الوطنية، وكنتُ مسؤول القيادة المشتركة. أرسل أبو عمار [ياسر عرفات] مندوبًا عنه ليبلغونا فيه أنه إذا لم نتوقف عن القتال ضد حركة àأمل’ فإنهم سيقفون معها. الأمر تكرر سنة 1982، قبيل الاجتياح الإسرائيلي. يتصل أبو عمار شخصيًا بمكتبنا في الضاحية مهددًا: إما نتوقف عن القتال ضد àأمل’، أو يضربنا براجمات الصواريخ. بالنسبة إلينا كأفراد لم نكن نعلم أنّ ثمة ضغطًا سوريًا على أبو عمار، معتقدين أن هذا التهديد آت منه شخصيًا». وحين سألتُه إن كانت قيادة الحزب مدركة هذا الموقف، أجاب زياد صعب: «لم نكن نسأل كثيرًا، ولا قيادة الحزب كانت تبلغنا». حسنًا، أسأله مرة أخرى، هل كان يعني ذلك أن القنوات مع القيادة السياسية للحزب كانت مقطوعة؟ فيجيب: «لا... لا... لم تكن مقطوعة، ولكن القيادة لم تكن تبلغنا بأمور من هذا القبيل، كانت تعتقد أن الأمر يخصها وحدها، فهي التي تقرر»[242].

قبيل هذه الاشتباكات المحلية وبعيدها، كانت إسرائيل قد شنت 175 هجومًا على الجنوب اللبناني في البر والبحر والجو. كانت وتيرة القصف للقرى الجنوبية متكررة، وكان النزوح الجماعي من نصيب سكانها «ولم يكن واضحًا ما الذي يحققه هؤلاء السكان، أو ما الذي تحققه منظمة التحرير من حرب الاستنزاف؛ إذ كان المدنيون يدفعون الثمن الأكبر»[243]. توسَّط هذه الهجمات اجتياح أول للجنوب في أيلول/سبتمبر 1978، كما سبق أن ذكرتُ، سماه الإسرائيليون «عملية الليطاني». وكان من أسطع ذيول هذه العملية نزوح مأساوي لأهل القرى المجتاحة إلى العاصمة، وأزمة تموينية حادة، واكتظاظ الشوارع بالتائهين الباحثين عن مأوى. وكله معطوف على حرب أهلية مستمرة الفصول والدورات.
وباتَ الفلسطينيون، مثل حركة أمل، يشتبكون مع أطراف من الحركة الوطنية، في معارك زواريب في العاصمة، كما في البلدات. قبل شهر واحد من اجتياح عام 1982، في مدينة صيدا الجنوبية، يروي المؤرخ رشيد الخالدي: «في صيدا، أصبحت الاشتباكات بين المجموعات المحلية الصغيرة التابعة لمختلف الفصائل في كل من الحركة الوطنية اللبنانية ومنظمة التحرير الفلسطينية ظاهرة متكررة في المدينة القديمة ومنطقة المرفأ، واندلعت المعركة الأشد خطورة في أواخر أيار/مايو [قبل شهر من الاجتياح] بين المجموعتين، الأولى مرتبطة بحركة àفتح’، والثانية بالحركة الوطنية اللبنانية، وألحقت أضرارًا هائلة بالأملاك في المدينة القديمة»[244].

وإذا ما أضفتَ إلى هذه المعارك الداخلية، معالم «دولة» منظمة التحرير الفلسطينية، ورئيس هذه «الدولة»، ياسر عرفات «الأكثر نفوذًا من عدد من الحكام العرب»، و«مظهر الصلابة الذي بدت عليه àدويلة’ منظمة التحرير، وما تجده من دعم مالي عربي، وتدفق للأموال، خصوصًا إلى صندوق حركة àفتح’»، ومن «تفشي الفساد وهدر الأموال»، وشيوع «مشهد المسؤولين الفلسطينيين الذين أصبحوا أثرياء، أو حصلوا على شقة فخمة وسيارة باهظة الثمن وحراس شخصيين مسلحين بسبب انتمائهم إلى منظمة التحرير الفلسطينية»، أو ما قامت به تلك المنظمات الفلسطينية من تجاوزات أمنية وعسكرية وسلوكية، وهي مسألة «لم تكن هامشية على الإطلاق»، ولكن القيادات الفلسطينية لم تولها الاهتمام الجدي، اللهم بعض الخطابات، التي تدين «العناصر غير المنضبطة»، وقد فقدت بريقها مع التكرار[245]، إذا ما نظرت إلى مجمل ذلك، أي الأعمال العسكرية من كل حدب وصوب، والفوضى والفساد والتجاوزات، يمكنكَ أن تتصور بسهولة انقلاب الرأي العام الجنوبي، المعني الأكبر بالموضوع، على هذه القوات المشتركة، الفلسطينية خصوصًا، وذلك بعدما كان أهل الجنوب يستقبلون الفلسطينيين على أنهم فدائيون، أنقياء، فقراء، لا بوصلة لهم غير مقاتلة إسرائيل. ولكن حتى لو بقي هؤلاء الفدائيون على طبائعهم الأولى، وبقيت إسرائيل من ثمّ تردّ، وتنتقم بوسائلها العسكرية المتفوقة، ما كان ممكنًا لهذا النزف أن يدوم. الجنوب الذي احتضن الفلسطينيين وحلفاءهم اللبنانيين طوال عقدين من الزمن صار الآن يضيق ذرعًا بهم.

فكان الاجتياح الإسرائيلي للبنان في عام 1982، وهو حتى الآن أطول حرب إسرائيلية – عربية؛ إذ امتدت نحو شهرين ونصف شهر، من الرابع من حزيران/يونيو حتى الثاني عشر من آب/أغسطس، وهي أيضًا، أكثرها تكلفة؛ إذ دمرت في طريقها مبانيَ وجسورًا وطرقًا وأراضيَ زراعية، وكانت أكثرها توسعًا، فقد وصلت إلى بيروت فطوّقتها وحاصرتها، وتمددت إلى شرقها، نحو بلدة بعبدا، ثم سيطرت على الجبال المطلّة عليها، بغية إحكام سيطرتها العسكرية التامة. وبعد ثلاثة أسابيع على هذا الاجتياح، انسحبت سورية من المعركة.

عشية هذا الاجتياح، كان رئيس أركان الجيش السوري، اللواء حكمت الشهابي، يطمئن أحد قادة «فتح»، أبو جهاد، بأن عملًا إسرائيليًا لن يحصل، ولكنه «وعدَ بأن تتحمل سورية مسؤولية الدفاع الجوي عن بيروت، وبأن ترسل تعزيزات لجنودها في جزين وجنوبي الشوف». هذه الوعود لم تتحقق أثناء وقوع الاجتياح: فـ «بدلًا من تعزيز الدفاعات الجوية في بيروت، عمدَ السوريون إلى سحب الأسلحة الوحيدة الفاعلة عمليًا ضد الطائرات في منطقة بيروت، والتي كانت عبارة عن مدفعيتين مضادتين للطائرات»، بل «قبل أسبوع من الحرب، نقلوا أيضًا 107 صواريخ àسام-7’ [...] بعدما كانت تحت سيطرة مجموعات تابعة لمنظمة التحرير وموالية لسورية»[246]. صعق الانسحاب السوري الفلسطينيين وحلفاءهم اللبنانيين، ولكن الفجيعة الكبرى كانت إغلاق سورية حدودها مع لبنان. يروي بسام أبو شريف أنه، قبيل الاجتياح وبعيده، طلبَ من تنظيم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في الخارج أن يبدأ «بإرسال المدرَّبين من أعضائها إلى لبنان لخوض المعركة. وبالفعل وصل المئات من الأعضاء المدرَّبين [...] لكن سورية أقفلت حدودها بعد العاشر من حزيران/يونيو، ومنعت المتطوعين ونقل السلاح والذخيرة إلى لبنان»[247].

لم يكن السوفيات بدورهم أقل خذلانًا. بعث عرفات في ذلك الوقت رسالة إليهم، يطلب فيها المساعدة، وجاء ردهم بسرعة «ليس بإمكان الاتحاد السوفياتي أن يفعل شيئًا على الإطلاق، نظرًا إلى أنه لا يستطيع التحرك إلا عن طريق سورية، وهو ما ليس ممكنًا»[248]، في حين أن السفير السوفياتي «سلّم عرفات رسالة تطلب منه الاستسلام»[249]. وكان رد عرفات هجومًا عنيفًا على العالم العربي وجبنه وتخاذله، بعد مرور أسبوعين على الاجتياح، في رسالة «موجهة إلى الجماهير العربية واللبنانية والفلسطينية [...] وإلى جميع المقاتلين في الميدان»، يعلن فيها: «نحن جاهزون لهذه المعركة، التي ستكون كربلاء هذا الزمن [...] وستالينغراد العرب»[250]. أما جورج حبش، الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، فينسب الشعار إلى نفسه: «في تلك اللحظة التاريخية عقدتُ مؤتمرًا صحافيًا وأطلقت شعار الدفاع عن بيروت وتحويلها إلى ستالينغراد، ودعوت رفاقنا اللبنانيين في الحركة الوطنية اللبنانية إلى المشاركة في هذه المواجهة»[251].

إنه مزيج من الصمود والتخاذل والانهيار والتراجع، والنفس البطولي المختلط بالنفس الانسحابي. مناخ جديد للحرب، دورة من دورته، يجمع الشهود على أمره، كلٌّ بالمكان الذي احتله يوم الاجتياح. ويصف عباس بيضون الانسحاب الفلسطيني من مدينة صور، وارتياح الأهالي له بقوله: «اجتياح 1982: غادرت قوات àفتح' المدينة [صور] قبل أن يحكموا حصارها. في الصباح كانوا صاروا في بيروت [...]. بعد رحيل الفلسطينيين امتلأت الشوارع بزمر صغيرة تتكلم، وليس بدون غمز، عن رحيل المسلحين. هم الآن يقطرون عصبية لبنانية وأنا أسأل نفسي ما جدوى دفاعنا عن السلاح الفلسطيني إذا كنا نشكر لهم أنهم يغادرون في ساعة الصفر، لا نجدهم في هذه الساعة». وينقل بيضون عن أحدهم «تركَنا الفلسطينيون بعدما ورّطونا بإسرائيل. جَلَبوا لنا الإسرائيليين وتركونا. نحن الذين أدخلنا الدب إلى كرمنا ومن الآن فصاعدًا سوف نتلقى الكثير». ويتابع: «كنتُ مرتاحًا للانسحاب الفلسطيني [...] لقد وفروا على المدينة معركة. هذه أعجز مدينة في العالم. لقد غلبها السلاح الفلسطيني، أما السلاح الإسرائيلي فسيدمرها». ومع ذلك، نرى بكاء بعد الانسحاب الفلسطيني: «تسارع انتقال البكاء فانفجر اثنان وتبعهما اثنان في المقدمة، ما لبث البكاء أن شمل البعض الذين تكسرت أصواتهم في الموكب [...]، ما لبثت النساء أن بدأن ينتحبن على الشرفات. كنا في الشارع ننتحب والناس في الشرفات ينتحبون، وصوت يعاتب الله àيا الله ليش عم يصير فينا هيك'، àيا الله لماذا يحصل لنا كل هذا؟!'»[252].

بلال خبيز الذي كان مقاتلًا في صفوف منظمة العمل الشيوعي وقت الاجتياح يروي مساهمته في المعركة: «يوم 4 حزيران [عشية الاجتياح] كنتُ في صيدا، ومن هناك بدأت حربًا [...]، لم أعرف على وجه اليقين، لكني لم أشهد خرابًا طوال أيام المعارك، إذ كنا ننسحب إلى مواقع خلفية، قبل وصول طلائع الجيش الإسرائيلي، تاركين المدن والقرى تحت قسوة النيران التي لا ترحم. لا أقول إنه لم يكن ثمة وجود لمقاتلين، قاتلوا وجهًا لوجه، وصمدوا في لحظات حالكة، فهذا ما حصل في أمكنة عدة، لكني، في ما يخصني، لم أشهد مواجهة مماثلة؛ إذ إن تحولي من ضابط مشاة إلى ضابط مدفعية ثقيلة، منع عني رؤية الآثار التي تركها الاجتياح». ويتابع على الصفحة نفسها وصفه الهزيمة واليأس: «كنت راضيًا بالهزيمة، ومستعدًا لتقبل نتائجها، لكن اجتنابي من قبل البعض جعل من استئناف عيشي في موقعي الجديد مستحيلًا. فما كان أحد يحدثني إلا ناصحًا، أو تعبيرًا عن استيائه لوجودي»[253].

زياد صعب، القائد العسكري الأعلى رتبة، والأكبر سنًّا أيضًا، يقود معركة الاجتياح بسياقات مختلفة، ولكنها ذات مآلات مشابهة؛ إذ يروي: «خلال الاجتياح حصل وقف إطلاق نار بيننا وبين àأمل’. ومررتُ على حواجز àأمل’ في حي السلم [الضاحية الجنوبية]، وأخذتُ معي خمسين شابًا، وقلت لهم اتبعوني، نحن نستطيع الدخول إلى صيدا وأن نقاتل إسرائيل. وفيما كنا نعد أنفسنا، علمنا أن هناك إنزالًا إسرائيليًا على نهر الأوَّلي [عند مصبه على مدخل صيدا الشمالي]، فقلنا نطلع عن طريق الجبل إلى صوفر وباتر وجزين، ومن هناك ننزل إلى صيدا. وصلنا إلى باتر، قبل جزين، وحصل إطلاق نار. وأخبرني الرفيق المسؤول عن المنطقة هناك أن الإسرائيليين صاروا فوق رأسنا، على التلة التي كانت مقرًا للقوات السورية في جزين. حصلت مناوشات في [قرية] عازور. ثم ماذا نفعل بعد ذلك؟ كان لدينا موقع ومدافع، فدمرنا المدافع وانسحبنا. بعد ذلك، قاتلتُ الإسرائيليين في قبرشمون وبالقرب من كيفون بسوق الغرب [منطقة الشوف]، وبقينا وجهًا لوجه حوالى سبعة أيام. كنا قوات الحزب الشيوعي وحدنا، لم يكن هناك أطراف أخرى معنا. أطلق الإسرائيليون علينا قنابل دخانية في البداية، وكان الغرض من هذه القنابل تحديد موقعنا للطيران ليقصفنا. نجونا من الصواريخ الإسرائيلية لأن معظمها كان يسقط تحت موقعنا، ولكن بعد ذلك، حصلت جولة قصف مدفعي علينا وضربونا بالقنابل العنقودية، وجرح أحد رفاقنا. في هذا الوقت بالذات، كان هناك سوريون في سوق الغرب، أبلغونا أنهم فقدوا عديدهم البشري، وأننا أول القوات المتقدمة». أسأل زياد صعب عن «التنسيق» مع تنظيمات أخرى، أو على جبهات أخرى، يردّ عليّ بما يعتبره طرفة: «عندما قررنا أن ننسحب، ونأخذ استحكامات في أمكنة أخرى، يكون لدينا حرية أكبر بالحركة، يأتي إلينا شيخ من [قرية] بيصور ويقول لنا àيا شباب! ماذا تفعلون هنا؟’، أجبناه أننا هنا لنقاتل، فقال لنا àولكن الإسرائيليين صاروا فوق منكم بتلة الرادار’. حسنًا [...] أتت وفود من الحركة الوطنية لتجتمع بالجبل لأول مرة، لتبلغنا بقرار من الحركة الوطنية ممنوع القتال في هذه المنطقة»[254].

لقمان سليم الأقرب إلى بلال خبيز سنًّا، وقد صار وقتها عضوًا في حزب العمل الاشتراكي العربي (الفرع اللبناني للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين)، لم يكن مقاتلًا محترفًا، ولكنه «ملتزم»، كما يكون المدنيون ملتزمين. هو الساكن في الضاحية الجنوبية لبيروت، وكانت الأكثر تعرضًا من بين مناطق بيروت الأخرى، سبق أن قارن هذه الحرب بيوم القيامة[255].

العكس تمامًا يحصل مع الجيل الجنوبي الأصغر. إبراهيم الأمين، كان في السابعة عشرة وقت الاجتياح، والحاجة قوية داخل الحزب الشيوعي وغيره من القوات المشتركة إلى دم جديد، إلى شباب مستعد لخوض المعركة، وكأنها الأولى، تمامًا مثلما كان زياد صعب يوم اندلعت الحرب الأهلية، قبل سبع سنوات. وهو يروي: «لما صرنا في عمر الخمسة أو الستة عشر، يعني أوائل الثمانينيات قبل الاجتياح الإسرائيلي كان الحزب الشيوعي ناشطًا بالمدارس، بالحي كما بالضيعة [القرية] [...] وفي هذه الأوساط يتعاملون معنا على أساس أننا شيوعيون. عندما انخرطتُ بالحزب، كنت تلميذًا في البروفيه [الشهادة المتوسطة]. أذكر أنه في عام 1981، خضعنا لدورات حلقات أصدقاء ودورة تنظيمية وعسكرية. ثم حصل الاجتياح الإسرائيلي عام 1982. وبين هذا التاريخ، وعام 1985، خلال هذه السنوات الثلاث، لم يكن الحزب عنوان القضية، إنما كان الالتحاق بالحزب جزءًا من قضية المقاومة». ويتابع عن لحظة الاجتياح نفسه: «نحن معظم المجموعة الذين انخرطوا في

الحزب بعد الاجتياح الإسرائيلي، طبيعة المهام العسكرية الموكلة إلينا بالحزب والصلات والتركيبة التنظيمية [...] كل هذا لم يكن يشبه ما عرفه حزبيو السبعينيات ولا الستينيات ولا الخمسينيات»[256].

أما حازم الأمين، الذي يلتحق أيضًا بالمقاومة عبر الحزب الشيوعي، بعيد الاجتياح الإسرائيلي، ويصف طبيعة النشاطات التي لحقته؛ إذ يقول: «في الاجتياح الإسرائيلي كان عمري ست عشرة سنة. منظمة الحزب في صيدا كان قد انفرط عقدها، اضطرت أن تعتمد على ناس جُدد. كان الحزب يريد أشخاصًا غير معروفين بوجههم كحزبيين [...]، وأنا لم أكن وجهًا حزبيًا معروفًا في الشارع، فنظموني بشكل رسمي، ودخلت التنظيم السري التابع للحزب [...] في تلك السنوات، حتى الانسحاب الإسرائيلي من صيدا عام 1985، صرتُ حزبيًا كاملًا. ولكن حزبيتي كانت تقتصر على العسكر. العسكر مسك الحزب صارت الميزانية الأساسية للعسكر والأولويات للعسكر وصار القرار الفعلي للعسكر [...]. عملت كل شيء، ليس أنا فقط، إنما كل أبناء جيلي [...]. كنا نتحرك للحروب فقط [...]، لم يكن هناك من همّ آخر. وكل جهد الحزب كان منصبًّا هنا. في هذه الفترة كان المثقفون موظفين عند العسكر. عملية إلغاء لكل شي باستثناء الجهاز العسكري»[257].

سوف نرى لاحقًا أن الاثنين، حازم الأمين وإبراهيم الأمين، ذوَي التجربة والنشأة المماثلة والانتساب الشيوعي الواحد، سيختاران سبلًا متناقضة حول المقاومة. ولكن في هذه الأثناء يفضي الاجتياح الإسرائيلي إلى انسحاب المنظمات الفلسطينية من لبنان، بتنظيم وإشراف من المبعوث الأميركي فيليب حبيب. وسوف تكون الخسارة مدوية: أولًا على الصعيد الفلسطيني الشعبي، حيث انكشفت المخيمات الفلسطينية، بعدما غادرت القيادة الفلسطينية وقواتها المسلحة الأراضي اللبنانية، وارتُكبت مجزرة مروعة في حق أهالي مخيمي صبرا وشاتيلا وجوارهما (أيلول/سبتمبر 1982)، نفذتها قوات اليمين المسيحي، وسمح بها الجيش الإسرائيلي، الذي كان قد احتل بيروت وضواحيها.

خسارة إنسانية إذًا، وأخرى سياسية، كان من أهم معالمها وقف العمل بصيغة الحركة الوطنية اللبنانية التي كان دعامتاها الأساسيتان الأمين العام للحزب الشيوعي جورج حاوي، والأمين العام لمنظمة العمل الشيوعي محسن إبراهيم. وهنا بعض وقائع هذه النهاية: «سبقت اجتماع كركول الدروز [حيّ بيروتي] عدة اجتماعات دارت كلها مدار ترتيبات ما بعد الغزو. انعقد اجتماع موسع بين قيادتي الحزب والمنظمة تناول الحركة الوطنية اللبنانية، اختلف خلاله الأمينان العامان حول مصيرها. اقترح الرفيق جورج [حاوي] أن يتخلّى الشيوعيون، ممثلين بشخص محسن إبراهيم، عن الأمانة العامة التنفيذية للحركة، وتشكيل أمانة عامة من ثلاث شخصيات مستقلّة. خالفه الرفيق محسن [إبراهيم]. وكانت حجة جورج أن التنازل ضروري لإنقاذ الحركة. لم يمكن إنقاذ الحركة أصلًا. حسم وليد جنبلاط الأمر، بصفته رئيس الحركة الوطنية، ربما نزولًا عند شرط عربي ودولي حاسم؛ إذ طلب وليد وقف نشاط الحركة الوطنية وحل مؤسساتها، وهذا ما حصل»[258]. فبخروج الفلسطينيين من لبنان «انقطع الدعم الرئيسي بصورة خاصة للشيوعيين، فلم تعد القيادة الفلسطينية بوارد التركيز على الساحة اللبنانية، وقد تعرضت لهزيمة أدت بها إلى الجلاء عن لبنان»[259].

هذا ما يلحّ عليه محسن إبراهيم في تلميحه إلى انهيار القيادة في المنظمة بعد الاجتياح، وإلى انفضاض الحركة الوطنية في خريف ما بعد الاجتياح الإسرائيلي، فينهمك في «مراجعة» للتجربة بعد الاجتياح الإسرائيلي بأربعة كتب يريد لها أن تكون جذرية. يحدد إبراهيم موضوعات هذه «المراجعة»، وهي تدور حول أربع مسائل: الأولى هي «تعليق العمل بالحركة الوطنية اللبنانية، ومراجعة تجربتها»، والثانية «تعيدنا مرة أخرى إلى تلمّس المعادلة التي رفضنا التنازل عن أحكامها في أشد اللحظات صعوبة وأكثرها إطباقًا، وهي معادلة العلاقة العضوية بين لبنانيتنا وعروبتنا، بين الوطنية واللاوطنية، بين الاستقلالية والانعزالية»، والثالثة هي «الفارق بين الواقعية الثورية المحسوبة وبين التجريبية المتقلبة على غير استقرار وفي معزل عن أي منطق متماسك»، أما المسألة الرابعة فهي «تنظيم الرفض الوطني المدعوم عربيًا للاتفاق الرسمي مع إسرائيل بعدما بات هذا الفرض العنوان الذي يختزل معركتنا المصيرية بكل محاورها ومستوياتها وشعاراتها»[260].

تفاجئك، أو ربما لا تفاجئك، أقوال حاسمة تعْبر هذه «المراجعة»، وتبيّن هُزالها، من نوع مدى تبيّن «صحة الأحكام الوطنية»، و«النهج العلمي الصائب» لأصحابها[261]. يرافقها كمّ هائل من اللازمات المنتمية إلى الفصيل نفسه من العبارات؛ مثل التحسر على «الحق» الذي كان «معنا»: «كم كنا على حق»، حول هذه القضية البديهية أو غير البديهية، و«كم كنا نقرأ المقاومة الوطنية قراءة علمية»؛ اعتزازه بـ «تركيزه» على «الفكرة الرئيسية التي حملناها دومًا والقائلة إن لا بديل عن كتلة وطنية عربية»[262].

في كتاب **قضايا نظرية وسياسية بعد الحرب**، يتابع محسن إبراهيم «مراجعته» هذه، بالتشديد على «الدقة المنهجية العلمية»، والتذكير بأن «الماركسية وحدها هي أداة قراءة هذه الخصائص»، فهي «وحدها صالحة، وتكمن عبقريتها بالضبط في كونها الأداة الفكرية الصالحة وحدها لقراءة كل خاص، ولأنها النظرية الوحيدة العلمية»، هذا عدا أن كل ما حدث «يثبت صحة موقفنا»، مرة أخرى؛ إذ «كان رأينا ولا يزال» كذا وكيت، فالهمّ الآن عنده هو: «إعادة إنتاج دورهم [الشيوعيين] القيادي السياسي العام بشروطه المتكاملة»، وهي مسؤولية عربية ومسؤولية الشيوعيين اللبنانيين[263]. وبناء على هذه المراجعة، وفي ضوء قيادة الشيوعيين لها، المحقة، يبقى على الشيوعيين اللبنانيين أن ينهضوا من جديد، أن يعيدوا تأسيس اليسار، أن يجددوا هذا اليسار، أن يبنوا محورًا ثوريًا عربيًا، إلى ما هنالك من مشاريع ما زالت أصداؤها مسموعة حتى الآن وسط الشيوعيين.

وحده نقد أكثر جدية، أتى في عام 2005، كان مقتضبًا وواضحًا، بمناسبة الذكرى الأربعين لاستشهاد جورج حاوي؛ إذ يعلن محسن إبراهيم عن خطأين ارتكبتهما الحركة الوطنية اللبنانية. الخطأ الأول «أننا في معرض دعم نضال الشعب الفلسطيني ذهبنا بعيدًا في تحميل لبنان من الأعباء المسلحة للقضية الفلسطينية فوق ما يحتمل، طاقة وعدالة وإنصافًا». والخطأ الثاني «أننا استسهلنا ركوب سفينة الحرب الأهلية تحت وهم اختصار الطريق إلى التغيير الديمقراطي»[264].

(242) مقابلة مع زياد صعب، 6/1/2019؛ حسين يعقوب، **يسار لبنان: تاريخ موجز وشهادات من التجربة** (برلين: مؤسسة روزا لوكسمبورغ، 2013)، ص 114-133.

(243) رشيد الخالدي، **تحت الحصار: صناعة القرار في منظمة التحرير الفلسطينية خلال حرب 1982**، ترجمة نسرين ناضر، مراجعة الترجمة جابر سليمان (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2018)، ص 62.

(244) المرجع نفسه، ص 52.

(245) المرجع نفسه، ص 65-67.

(246) المرجع نفسه، ص 124-125.

(247) بسام أبو شريف، **بيروت مدينتي** (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، 2010)، ص 23.

(248) الخالدي، ص 223.

(249) أبو شريف، ص 75.

(250) الخالدي، ص 171.

(251) جورج حبش، **صفحات من مسيرتي النضالية**، تدوين هيلدا حبش، تحرير وتقديم سيف دعنا (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2019)، ص 257.

(252) عباس بيضون، **ساعة التخلي** (بيروت: دار الساقي، 2013)، ص 32-34، 37-38.

(253) بلال خبيز، **سقطت سهواً مرتين: سيرة مقاوم يبحث عن وطن** (بيروت: هيا بنا، 2008)، ص 21.

(254) مقابلة مع زياد صعب.

(255) مقابلة مع لقمان سليم، 28/1/2019.

(256) مقابلة مع إبراهيم الأمين، 7/1/2019.

(257) مقابلة مع حازم الأمين، 23/12/2018.

(258) فواز طرابلسي، «30 على انطلاقة àجمول’: شهادة عن فترة التأسيس»، **بدايات**، العددان 3-4 (خريف 2012 - شتاء 2013)، ص 1.

(259) سليمان تقي الدين، «30 àجمول’: مقاومتان»، **بدايات**، العددان 3-4 (خريف 2012 - شتاء 2013)، ص 2.

(260) محسن إبراهيم، **آفاق العمل الوطني** (بيروت: بيروت المساء، 1984)، ص 168-169، 175.

(261) محسن إبراهيم، **الحرب الأهلية اللبنانية وأزمة الوضع العربي** (بيروت: بيروت المساء، 1985)، ص 38-68.

(262) إبراهيم، **آفاق العمل**، ص 105، 138، 156.

(263) محسن إبراهيم، **قضايا نظرية وسياسية بعد الحرب** (بيروت: بيروت المساء، 1984)، ص 22-24، 27-28، 152، 185.

(264) منظمة العمل الشيوعي في لبنان، **أوراق يسارية: نصوص حزبية لمنظمة العمل الشيوعي في لبنان** (بيروت: منشورات بيروت المساء، 2016)، ص 91.

الفصل الثامن: مقاومتان، شيوعية وإسلامية

خرج الفلسطينيون في 23 آب/أغسطس 1982 من بيروت على متن البواخر بإشراف دولي، وبقيت بيروت تحت الاحتلال الإسرائيلي. يعلن الزعيمان الشيوعيان، محسن إبراهيم وجورج حاوي، في 16 أيلول/سبتمبر، عن انطلاق جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية «جمول»، في نداء يبثّانه عبر الإذاعة. أما الطرف الثالث الأقل شهرة في هذه الجبهة، فكان «حزب العمل الاشتراكي العربي»، الفرع اللبناني للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

زياد صعب، الذي يقود العمل العسكري في الجبل، يوضع – قبل هذا الإعلان – في جو «المحادثات» بين الحزب والمنظمة لإنشاء مقاومة موحدة ضد إسرائيل: «تكلموا معي [القيادة]، أنه يجب أن [أذهب] إلى بيروت، وكان الاجتماع بمار إلياس [حيّ بيروتي] وكنا ستة رفاق. وتقرر تشكيل المقاومة وأنا واحد من هؤلاء الستة. وهذا اجتماع عُقِد قبل 16 أيلول [سبتمبر]، يوم الإعلان عن المقاومة [...]. وهذا الاجتماع كان هدفه تشكيل المقاومة العملانية. واتفقنا على توزيع المهام وتحديدها. هكذا بدأنا بتنظيم المقاومة ضد الاحتلال الإسرائيلي. هكذا بدأنا»[265].

أما جاد تابت، فيروي كيفية انسحابه من الحزب الشيوعي احتجاجًا على سياسته، وكيفية عودته إليه، بعدما أُخبر بتأسيس جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية: «كنت قد قدمتُ استقالتي من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، وبقيت بالحزب، من دون أن أحضر الاجتماعات، أو أقوم بالمهمات. تركتهم وقلت لهم إن هذا الخط [السياسي] خاطئ. هم لم يعاودوا الاتصال بي [...] إلى أن حصل الاجتياح الإسرائيلي عام 1982 [...]. مباشرة بعد الاجتياح، خرج الفلسطينيون، وأعلن الحزب الشيوعي ومنظمة العمل الشيوعي عن إطلاق حركة àجمول’. ساعتها، شعرتُ بأن ثمة شيئًا جديدًا يحصل. فعدتُ وأقمتُ علاقة مع الحزب الشيوعي. وقتها كنتُ قد صرتُ صديقًا لإلياس خوري وروجيه نبعة. ونحن الثلاثة أقمنا علاقة مع الحزب، ودخلنا هيئة تحرير مجلة àالطريق’ [التي يصدرها الحزب]، وبدأنا نعمل على تحضير المقاومة وأمور من هذا النوع. لم يدم الوضع طويلًا: من نهاية 1982 حتى 1983. وفي عام 1984، استعاد الحزب الشيوعي صلاته مع النظام السوري ليحمي نفسه، في الوقت الذي كان هذا النظام يذبحه. بعد ذلك، عادت الأمور فذابت، لأن الشيوعيين اختلفوا مع حركة àفتح’، وبعدها حصلت اشتباكات طرابلس عام 1985، فعدتُ وانسحبتُ مع إلياس خوري»[266].

بعد أقل من عام على ندائه المشترك مع جورج حاوي، وتأسيس «جمول»، يكتب محسن إبراهيم ما يؤكد دوام هذه الحركة إلى مدى غير منظور، ويتنبأ بحياة مديدة لشعار «إن جبهة المقاومة الوطنية هي الباقية أبدًا»؛ إذ يصف عمل «جمول» بأنه «في طريقه إلى التحول اليوم إنجازًا ملموسًا على أرض الجنوب، وعنصر استنهاض للعمل الوطني الشامل على مجمل الأرض اللبنانية، وهو يستدعي معالجة جادة تقع أساسًا على عاتق اليسار». وهو يعبّر في مكان آخر عن إعجابه بعمليات هذه الجبهة، فيقول: «على مستوى النضال الشعبي يبدو لنا الرصيد الذي أصبح في حوزة المقاومة الوطنية، وهي تودّع عامًا وتستقبل عامًا جديدًا، رصيدًا ضخمًا وغنيًّا، بل مفاجئًا من حيث حجمه الكبير، فالعمليات التي شنها مقاتلو àجبهة المقاومة الوطنية’ [...] فاقت أكثر التوقعات»[267].

ويصف زكي طه، من جهته، هذا النوع من التنسيق بين الحزب والمنظمة؛ إذ يقول: «نعم، هم يقومون بعمليات ونحن نقوم بعمليات، ولا مشكلة في ذلك، لأن [الأمر] بالأساس هو استمرار التنسيق. هو بالأصل تنسيق سياسي، فلا وجود لقيادة مشتركة للعمل الميداني المقاوم. لهم قيادتهم لعملياتهم ونحن لنا قياداتنا وعملياتنا. بهذا المعنى كان هناك استقلالية بالعمل المقاوم. هكذا استمررنا، نحن والحزب الشيوعي، لأنه لا هُمْ قادرون على السيطرة علينا أو يلغوننا، ولا نحن نستطيع أن نلغيهم»[268].

من جهة المنظمة، استمرت أعمال المقاومة شبه المنسّقة مدة عامين ونصف عام، وبعدها توقفت. يصف محسن إبراهيم اختلال شروط الوحدة، ولو بحدها الأدنى، بين طرفي المقاومة الوطنية، الحزب والمنظمة: «إن جدوى خيار المقاومة الوطنية لا تقاس بكمية العمليات العسكرية ضد الاحتلال الإسرائيلي فحسب، بل هي ترتهن باستقامة شروط التثمير السياسي لهذه العمليات أيضًا وأساسًا. وفي طليعة هذه الشروط [...] شرط الوحدة ضمن ظاهرة المقاومة الوطنية بروافدها المختلفة». والإخلال بهذا الشرط أفضى إلى ما يشهده إبراهيم بعد عامين على انطلاق الجبهة: «إذ بنا نشهد منذ مطلع العام 1985 سباقًا على تنسيب المقاومة فئويًا إلى هذا الطرف أو ذاك اتخذ في البداية طابع التنافس الإعلامي ليتخذ في النهاية صيغة الانشقاق السياسي [...]. المقاومة الوطنية الواحدة أصبحت âمقاومات’ عدة»[269].

وبعد عقود، يتذكر محسن إبراهيم، بشيء من المرارة، لحظة الافتراق هذه، ويعود فيشرح ظروف الانفصال عن الحزب الشيوعي: «ولم تكن مضت أشهر على اجتياح الجيش الإسرائيلي لبيروت وإعلان قيام جبهة المقاومة اللبنانية حتى كانت منظمة العمل الشيوعي تجد نفسها وحيدة في خياراتها ومجردة من أي تحالفات فعلية، بدءًا من الطرف الذي كان أقرب إليها ضمن بيئة اليسار انتهاء بآخر طرف كانت الحركة الوطنية ضمته في صفوفها إبان صعودها وصعود الدور القيادي للمنظمة في مقدم صفوفها»[270].

بل يلاحظ زكي طه على الأرض خطرًا باتَ يداهم مقاومِي «الجبهة» مصدره قوى أصبحت فاعلة على الأرض: «استمرت المقاومة الوطنية من قبلنا حتى العامين 1987–1988. عندها بات الأمر يشكل خطرًا على أي رفيق يريد أن ينفذ عملية. كان يمكن أن يُقتل وهو ذاهب أو عائد، وليس أثناء تنفيذه العملية، وذلك على يد سلطات الأمر الواقع، سواء في الجنوب تحت الهيمنة الميليشياوية [âأمل’ وâحزب الله’]، أو على يد الأجهزة السورية بالبقاع الغربي. بهذا المعنى، تعذرت إمكانية استمرار عمل المقاومة، ومغالبة الحزب الشيوعي بغية الاستمرار بها. وقد فُرض على الحزب الشيوعي وقتها أن يتحول إلى العمليات الاستشهادية ليستجيب للتحدي الذي وضعه النظام السوري؛ إذ كان هناك منافسة في هذا النوع من العمليات». ثم يشرح زكي طه خلفيات أخرى للافتراق عن الحزب الشيوعي، فيقول: «هو âجمول’ كان كيانًا واحدًا، إذا أخذت بالاعتبار البيان المشترك بين الحزب والمنظمة، الصادر عنهما في 16 أيلول/سبتمبر [المشار إليه آنفًا]. ولكن بعد أيام، أي في الثالث والعشرين من الشهر نفسه، افترقنا بدون ما نعلن أننا افترقنا. اختلفنا حول الموقف الذي أعلنه أمين الجميل [ولد عام 1942][271] رئيس الجمهورية الجديد [انتخب في 22 أيلول/سبتمبر 1982] بخطاب القسم، حيث قال إنه سيعمل على إزالة كافة âالاحتلالات’، واختلفنا حول برقية جورج حاوي بالتهنئة لأمين الجميل بأنه سيكون معه

لإزالة كافة الاحتلالات. فيردّ محسن إبراهيم على حاوي في اليوم التالي بأننا نرفض المساواة بين الوجود الفلسطيني والوجود السوري والاحتلال الإسرائيلي [...] من تلك اللحظة، بدأت مرحلة الافتراق بصمت، وشيئًا فشيئًا يتحول إلى سجال علني على صفحات الإعلام الحزبي. وكان السجال حول العلاقة مع السلطة الكتائبية والعلاقة مع النظام السوري وحول الموقف من القضية الفلسطينية وحول وظيفة المقاومة الوطنية؛ هل المقاومة الوطنية قرار الوطنيين اللبنانيين أم أن المقاومة الوطنية ورقة في يد المفاوض اللبناني؟ [...] كانت الخلافات واضحة. نقطة أخرى: كان الحزب يطمح للتحول إلى موقع القيادة السياسية الرئيسية، فعندما تشكّلت àجبهة الخلاص الوطني’ بين أركان زعماء الطوائف، كان هناك إصرار من قبل الحزب الشيوعي اللبناني على أن يكون جزءًا من هذه التركيبة، فيما كان رأينا أن هذا طموح غير مشروع، فهذه زعامات وقيادات للطوائف، ونحن، كيسار، ما دخلنا بها؟ فنحن موقعنا اليساري هو موقع اجتماعي عابر للطوائف والمناطق ومتجاوز لها ومغاير لطبيعتها. بهذا المعنى كان الافتراق يتسع شيئًا فشيئًا»[272].

أما التنافس على العمليات العسكرية ضد الاحتلال الإسرائيلي، فما عاد يقتصر على المنظمة والحزب. محسن إبراهيم يشير إلى التحول: «غلبة المسار الطوائفي على المسار الديمقراطي ضمن مدار ردود الفعل الوطنية ليست بنت اللحظة، ولا هي وليدة ما جرى بعد 6 شباط [فبراير] في بيروت»، وهذا التاريخ يسجل سيطرة حركة أمل الشيعية على جزء من الجيش وعلى العاصمة والجنوب، والتي يجد لها إبراهيم تفسيرًا هو «انفلات مشروع الهيمنة الكتائبية من عقاله» بعد الاجتياح الإسرائيلي، ولكنه ينتبه إلى الوجهة الدينية التي ترتديها هذه المقاومة: إذ تتخذ «صيغة اختزال إرادي للمقاومة الوطنية بتيار أيديولوجي وحيد هو التيار الديني. لا يمكن أبدًا اختزال المقاومة الوطنية بتيار أيديولوجي وحيد هو التيار الديني، وإذا كنا نشدد على هذه الحقيقة، فإننا لا نسمح لأنفسنا أو لأحد بالرد على هذا الاختزال غير المنصف إطلاقًا في صيغة اختزال معاكس ينسب المقاومة كلها إلى تيار آخر وحيد أيضًا هو تيار àاليسار’ أو àالحركة الوطنية’، فنحن نقرأ المقاومة الوطنية قراءة علمية ترى فيها نتاج مشاركة àمتوازنة’ من جانب كل التيارات الأيديولوجية». لذا يجد محسن إبراهيم في سيطرة الطائفي – الديني على المقاومة خسارة: «إن ما يطمح إليه الذين يدركون معنى وفداحة ما يفرضه المسار الطوائفي من تفكك وتفتت ومعنى فداحة أن لا تطغى الأولوية المطلقة للمقاومة من أجل التحرير»، ويتساءل مستنكرًا: «أين هو تيار الحركة الوطنية الأصلي والأصيل؟ وهي نقطة مشروعة، وهي الخانة الشاغرة في كل ما يدور اليوم»[273].

هكذا تنكفئ المنظمة على نفسها، وتنسحب من المشهد السياسي، مؤثرة المراجعات والمؤتمرات الداخلية، فتعقد مؤتمرين بعد الاجتياح الإسرائيلي، يمكن اعتبارهما المؤتمرين الثاني والثالث للمنظمة على امتداد وجودها. للتذكير، عُقد المؤتمر الأول في أيار/مايو 1971، حينما اندمجت منظمة الاشتراكيين اللبنانيين في لبنان الاشتراكي. ثم بعد مرور ثلاثة عقود على هذا المؤتمر، وتسع عشرة سنة على الاجتياح الإسرائيلي، أي ربيع عام 2001، عقدت منظمة العمل الشيوعي المؤتمر العام الثاني على مرحلتين. انتهت المرحلة الأولى في العام نفسه، وبعده بثماني سنوات، أي عام 2009، انتهت المرحلة الثانية منه. وبحسب محسن إبراهيم، «انطلقت عملية التحضير لانعقاده [هذا المؤتمر] بعد العام 1982، وظلت فصولها النهائية المنتجة تتوالى بين ربيع العام 2001 [تاريخ اختتام المرحلة الأولى من أعماله] وصيف العام 2009 [تاريخ انتهاء المرحلة

الثانية]». المؤتمر العام الثالث عُقد بعد ثلاثة أعوام (عام 2012) تحت عنوان «تزخيم المسار الحزبي للمنظمة». والمقصود بـ «التزخيم» هو «تأهيل المنظمة لمراجعة فكرية – سياسية – تنظيمية تعيد جلاء موقعها الأصلي» من ناحية، و«ترسم مسار التجديد في حاضرها وفي اتجاه مستقبلها» من ناحية أخرى.

ويضيف إبراهيم أن منظمة العمل الشيوعي شهدت، في إطار مؤتمرها العام الثاني، وبعد نقاشات طويلة، «إنجازات» حزبية وعقائدية، أهّلت المنظمة لأنْ يكون لها «مشروع حزبي جديد»[274]. وقد بُني هذا المؤتمر، بحسب إبراهيم، على خطوتين: الأولى «اتخذت صيغة تنظيم دورة مطولة للكادر الحزبي تحت عنوان àتاريخ التطور التنظيمي للمنظمة منذ تأسيسها’»، في حين اتخذت الخطوة الثانية «صيغة àمراجعة شاملة للموضوعات البرنامجية المعتمدة في المنظمة بين عام 1969 وعام 1989’».

لكن للحزب الشيوعي رأيًا آخر في المقاومة الوطنية وفي «جمول». لا يرى جورج حاوي أن المقاومة الوطنية ولدت مع ندائه المشترك هو ومحسن إبراهيم في أيلول/سبتمبر من عام الاجتياح: «لنكن صريحين. الحزب الشيوعي هو مؤسس جبهة المقاومة الوطنية. وتأسيسها لم يكن في 16 أيلول [سبتمبر] 1982 هذه قصة بدأت مع المؤتمر الثاني للحزب عام 1968 ومع تصحيح موقفه من القضية القومية، بما في ذلك إعادة الاعتبار لفكرة القتال ضد العدو إذا احتل أرضك [...] اتخذ الحزب قرار تشكيل لجنة عسكرية كانت تتألف آنذاك منّي ومن الرفيقين نديم عبد الصمد وأحمد المير الأيوبي. وبدأنا الإعداد تدريبًا وتسليحًا للحزب لمواجهة الاحتلال الإسرائيلي [...] وساهم في ذلك ضباط ورتباء سابقون في الجيش اللبناني أبطال مثل إسبر البيطار وميشال عوض و àأبو العباس’ وغيرهم [...]. هذا حصل في بداية السبعينيات، قبل نشوء àأمل’ وàحزب الله’ وقبل أن يفكر أي حزب آخر في لبنان بهذا الأمر»[275].

أما زميله نديم عبد الصمد، عضو المكتب السياسي في الحزب، فهو يرى أن من مسلّمات حزبه أنه هو الذي أطلق شرارة جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية ضد الاحتلال الإسرائيلي: «نحن أصحاب المبادرة في تأسيس المقاومة المسلحة ضد الاحتلال في 16 أيلول [سبتمبر] 1982 يوم دخول الإسرائيليين بيروت، في بيان كتبه جورج حاوي ووقع عليه عضو المكتب السياسي في الحزب الشيوعي حسين حمدان والأمين العام لمنظمة العمل الشيوعي محسن إبراهيم، ونشرته صحيفة الحزب àالنداء’ في اليوم التالي». ويتابع عبد الصمد سردًا لعملية مشتركة بين حزبه والحزب السوري القومي الاجتماعي، الذي لم يذكر اسمه رسميًا في التعاون المشترك بين الأحزاب الوطنية، فيروي: «أما عملية àالويمبي’ الشهيرة فقد نفذت بتعاون شخصي بين ثلاثة أشخاص: خالد علوان من الحزب السوري القومي الاجتماعي وشربل عبود من الحزب الشيوعي اللبناني، برفقة شخص آخر من الحزب القومي لقبه àكيسنجر’. كان يجمع بين هؤلاء الثلاثة خيط من الصداقة والتجاور في أحد أحياء رأس بيروت وخيط من àأمن’ حركة àفتح’ عبر شخص يدعى هواري [عبد الله قاسم]. ما إن احتل الإسرائيليون بيروت الغربية، حتى كانت خمس مجموعات قتالية تتجول في الأحياء رصدًا للجنود. وحين شاهد علوان وعبود وàكيسنجر’ جنديين إسرائيليين في مقهى àالويمبي’ قرروا تنفيذ عمليتهم، فأحضر شربل عبود مسدسًا من طراز àهريستال’ عيار تسعة مليمترات، وسلمه إلى علوان الذي كان مصرًّا على تنفيذ العملية بيده. فوقف عبود عند الزاوية

القريبة للمقهى و«كيسنجر» عند الزاوية البعيدة، ثم اقترب علوان من الجنديين الجالسين في الزاوية الخارجية المقابلة لمقهى «الويمبي»، وأردى الجنديين قبل أن يرمي المسدس على الزاوية الأخرى قرب متاجر «دومتكس»، حيث التقط المسدس شرطي سير كان هناك. وبعد أقل من ساعتين اغتال مقاتلون رجلَي استخبارات إسرائيليين قرب «صيدلية سبيرس»، حيث حصلت عملية أخرى أيضًا حتى صار الإسرائيليون يذيعون عبر مكبرات الصوت: «يا أهالي بيروت، لا تطلقوا النار علينا، إننا منسحبون»»[276].

ولكن المناخ لم يعد كما كان في مطلع السبعينيات. قبل الضربة الإسرائيلية التي أخرجت الفلسطينيين، دعامة اليسار اللبناني، مموِّلتها، وقاعدة قوتها، وسنَدها في طموحاتها التغييرية، كانت سلسلة مؤشرات تُقرأ بوصفها بداية للنهاية. كانت الضربة السورية الأولى عام 1976، التي أوقفت تقدم القوات المشتركة، الفلسطينية اليسارية، في جبال لبنان. وتلاها اغتيال قائد الحركة الوطنية اللبنانية كمال جنبلاط من بعدها بسنة (1977)، وزيارة [الرئيس المصري] محمد أنور السادات للقدس في العام نفسه (1977)، وتوقيع اتفاقية كامب ديفيد (1978) من بعده بعام أيضًا، وكل ما تطويه هذه الاتفاقية من صلات بين التحالف الفلسطيني – اللبناني والحكومة المصرية، ثم اندلاع الثورة الإسلامية في إيران (1979) التي سحبت الشباب الشيعة، وهم الثقل الأعظم لليسار، إلى أحضان الصدر وحركة أمل، ومن بعدهما حزب الله.

قبل هذه الثورة، كان الفشل التام للثورة الثقافية الصينية، التي ألهمت الطوباويين من أنحاء يسارية مختلفة، ووفاة الزعيم الصيني صاحب **الكتاب الأحمر: مقتطفات من أقوال الرئيس ماو تسي تونغ**، معبود الملايين، ماو تسي تونغ (1976) بعد أشهر من اجتياح الجيش السوري لبنان، في أيلول/سبتمبر 1976. وفي الوقت الذي كانت تنطلق فيه الثورة الإسلامية في إيران، كانت الحرب الصينية – الفيتنامية (شباط/فبراير– آذار/مارس 1979)، التي أنزلت إلى أدنى الحضيض فكرة حرب التحرير الفيتنامية بدعم من المعسكر الاشتراكي، والضربة القاضية على الفكرة ذاتها كانت اجتياح الاتحاد السوفياتي أفغانستان، في نهاية عام الثورة الإيرانية، كانون الأول/ديسمبر 1979.

هكذا بدأت تنغلق الدائرة اليسارية في لبنان، ويتحقق ما كان عليه أن يكون قبل عقد ونصف عقد، بعد هزيمة حزيران/يونيو 1967، أي أنْ تنزل هذه الدائرة عن عرشها النضالي، ضد إسرائيل، لتحتل مكانها التيارات الإسلامية. اليسار اللبناني، بالتحالف مع القيادات الحزبية الفلسطينية، استطاع أن يؤخر هذا الاحتلال، كل هذه المدة، ولكن الضربات كانت أقوى من صموده، أو ربما لم يعُد التاريخ يتحمل أي تكرار. كان منطقيًا أن يتغير المشهد ويصعد الإسلاميون إلى صدارة الخشبة.

ففي الوقت الذي تستعد فيه منظمة العمل الشيوعي لمراجعاتها، بواسطة نصوص محسن إبراهيم، وفي الوقت الذي يضيق فيه مجال التعاون بين التنظيمين الشيوعيين، وتطلع الخيبة من جوانب السؤال، تكون أول وأكبر عملية عسكرية تنفذها «منظمة الجهاد الإسلامي» ضد مقر القوات الغربية المشتركة التي جاءت لتحرس لبنان بعد الاجتياح الإسرائيلي. الانفجاران، اللذان أوديا بحياة المئات من الجنود الأميركيين والفرنسيين (23 تشرين الأول/أكتوبر 1983)، سُمعا ضمن قُطر قياسي، لم تعرفه

أشد أصوات الحرب الأهلية صخبًا. وقبلها عملية «أبسط»، التي لا تقل مشهدية، تستهدف السفارة الأميركية في بيروت، بعملية تفجير انتحارية (18 نيسان/أبريل 1983)، أودت بالعشرات من موظَّفي السفارة وبالمبنى نفسه.

المد الإسلامي الجديد؟ عباس بيضون يرصده في مدينته صور، ويعيده إلى عامين سبقا الاجتياح الإسرائيلي عام 1982، فيجده في تنظيم اسمه «اليقظة»، هذا تنظيم تأسس منذ سنتين، ذو صبغة إسلامية، يجمع في صفوفه فلسطينيين ولبنانيين. يروي عباس بيضون: «بعدما انسحبت المنظمات [من صور] لم ينسحب [تنظيمàاليقظة’] معهم. قال كوادره إنه لا يجوز أن ينسحبوا. لازم يبقوا ويواجهوا. وعمل مؤتمرًا بالمخيم، إذا رحت للمخيم بتلاقي السلاح عم يلعب لعب [...]. المساء وزع منشور بخط اليد تم سحبه على الستانسل: àبسم الله الرحمن الرحيم يا جماهير شعبنا البطل، الإسرائيليون يحاصرون المدينة، والمنظمات التي استقبلتموها بالفرح والورود جَبَنت، وتركت الساحة، وتركتكم تحت رحمة الإسرائيليين، لكن المخلصين من شعبنا تمسكوا بقضيتهم وأرضهم، ورفضوا أن يتخلوا عنهما، وأن يتركوا المدينة غنيمة سهلة للإسرائيليين. هيا إلى الجهاد ضد العدو، عدو البلاد وعدو الدين. لا تثقوا بالمتخاذلين. ثقوا بشعبكم وبدينكم وإن ينصركم الله فلا غالب لكم’» (نهاية منشور «اليقظة»). يلاحظ بيضون أن الذين وزعوا المنشور كانوا ملثمين. ويطرح التساؤل: «ألا يستحقون تقديرنا لأنهم بدون حساب للقوى، قرروا أن يقوموا بواجبهم الطبيعي، ألا يستحقون تقديرنا لأنهم مستعدون لهذه التضحية. ألن نعتبرهم شهداءنا ونطلق أسماءهم على شوارعنا؟ àاليقظة’ شبان متحمسون، حماستهم هي تقريبًا كل قوتهم، ألسنا جميعًا متحمسين. ما يدعوني، إذًا، إلى البقاء في الحزب إن لم تكن الحماسة. نحن بحاجة إلى هذه التضحية. تاريخنا بحاجة إليها، بحاجة إلى أن نرى أنفسنا فيها. سيكونون رمزنا [...]. àاليقظة’ فلسطينيون ولبنانيون فلماذا اتهام الفلسطينيين وحدهم؟»[277].

حزب الله أيضًا، ينشط قبل الإعلان رسميًا عنه. في السبعينيات، الوجود السري لسلفه، حزب «الدعوة»، ثم بروزه إثر انتصار الثورة الإسلامية في نهاية هذه السبعينيات. وفي عام الاجتياح الإسرائيلي (1982)، كان «الحرس الثوري» يشرف على تأهيل حزب الله في مدينة بعلبك، في منطقة البقاع، ويقدم له المساعدات المادية والتدريبية والتسليحية[278].

والمجال «الفكري» ليس سائبًا أيضًا. وليد نويهض يتحدث عن لقاءات تجمعه بالسفير الإيراني: «عام 1982 انكسرت الحركة الوطنية، وصرنا في باخرة واحدة. في تلك الأجواء، للمرة الأولى ثمة وجود إيراني مباشر، أما رئيس الجمهورية إلياس سركيس [1924–1985][279] فكان يدعو العالم إلى مساعدة لبنان. نوع من الكلام اللفظي لمواجهة الغزو الإسرائيلي. التقيتُ بأناس من الحرس الثوري سألتهم: ماذا تفعلون هنا؟ جوابهم كان: جئنا بناء على دعوة إلياس سركيس. سألتهم: هل أخذتم إذنًا بالدخول؟ فأجابوا: نحن نلبي الدعوة فقط. نحن لمواجهة العدو الغاشم [...]. كان شهر رمضان وقت حصار بيروت، فدعاني السفير الإيراني إلى الفطور. في المتحف، في منزل ثبتت خلفه منصة لإطلاق قذائف الهاون. أنا عربي بالنسبة إليهم، أي مسلم. لم ينتبهوا إلى أن هناك جورج ونايف [...]. سألتُ السفير الإيراني: ماذا يفعل الهاون هنا؟ أجاب: من أجل المواجهة. وهل تعتقدون أننا مثلكم نهرب من المواجهة؟»[280].

(265) مقابلة مع زياد صعب، 6/1/2019.

(266) مقابلة مع جاد تابت، 19/2/2019.

(267) محسن إبراهيم، **قضايا نظرية وسياسية بعد الحرب** (بيروت: بيروت المساء، 1984)، ص 223، 228.

(268) مقابلة مع زكي طه، 22/1/2019.

(269) محسن إبراهيم، **الحرب الأهلية اللبنانية وأزمة الوضع العربي** (بيروت: بيروت المساء، 1985)، ص 99-100.

(270) منظمة العمل الشيوعي في لبنان، **أوراق يسارية: نصوص حزبية لمنظمة العمل الشيوعي في لبنان** (بيروت: منشورات بيروت المساء، 2016)، ص 3-5.

(271) رئيس جمهورية لبنان (1982-1988).

(272) مقابلة مع زكي طه.

(273) محسن إبراهيم، **آفاق العمل الوطني** (بيروت: بيروت المساء، 1984)، ص 48، 81، 105.

(274) منظمة العمل الشيوعي في لبنان، ص 11-13، 15-17.

(275) علي بردى، «الحزب الشيوعي بعد ثمانين عامًا: منعطفات المآثر والمآسي»، **النهار**، 25-27/3/2004، ورد في: **الشاهد**، 22/5/2011، شوهد في 4/2/2021، في: https://bit.ly/3cGE0XN

(276) المرجع نفسه.

(277) عباس بيضون، **ساعة التخلي** (بيروت: دار الساقي، 2013)، ص 59-60، 62، 70، 77، 84.

(278) سليمان تقي الدين، «30 àجمول': مقاومتان»، **بدايات**، العددان 3-4 (خريف 2012 - شتاء 2013)، ص 3.

(279) رئيس جمهورية لبنان (1976-1982).

(280) مقابلة مع وليد نويهض، 5/5/2018.

الفصل التاسع: حرب المخيمات، اغتيالات بكواتم الصوت، انهيار الاتحاد السوفياتي

أولًا: حرب المخيمات (أيار/مايو 1985 – تموز/يوليو 1988)

رحل الفلسطينيون إذًا، فُجّر مقرّا القوات الأميركية والفرنسية، صعدت حركة أمل بما سمّته «انتفاضة 6 شباط» (6 شباط/فبراير 1984)، فسيطرت على العاصمة، وخرجت القوات المتعددة الجنسيات أخيرًا من لبنان، عام 1985. وفي السنة ذاتها، حصلت اشتباكات في طرابلس بين القوات العاملة بإمرة سورية وتلك الموالية لمنظمة التحرير الفلسطينية، فبين حافظ الأسد وياسر عرفات خلاف يتنامى عنوانه «القرار الفلسطيني المستقل»، ومضمونه الاتفاق الذي وقعه عرفات مع العاهل الأردني الملك حسين في شباط/فبراير 1985: هذا الاتفاق يمهد الطريق لقيام دولة فلسطينية في الأراضي المحتلة ترتبط كونفدراليًا بالمملكة الأردنية، وهذا ما يرفضه حافظ الأسد، ولا سيما أن المجلس الوطني الفلسطيني كان قد مال إلى القبول بمقررات القمة العربية في فاس، التي عُقدت نهاية عام الاجتياح الإسرائيلي للبنان، وخرجت بقرارات مشجعة، أهم بنودها: قيام الدولة الفلسطينية وعاصمتها القدس، وحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره وممارسة حقوقه الوطنية الثابتة، بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية، ممثله الشرعي والوحيد.

أشهرٌ قليلة تفصل بين تبلور هذا الخلاف واندلاع حرب المخيمات، التي انفجرت في أيار/مايو من عام 1985. حركة أمل الموالية للنظام السوري هي المبادرة إلى الحرب، وهنا روايتها المعتَمدة:

«في يوم 19 أيار/مايو 1985، كانت دورية مسلحة تابعة لأمل تجوب مخيم صبرا، وتوقفت الدورية قرب فتى يحمل مسدسًا حربيًا – وهي ظاهرة مألوفة في لبنان – فحاولت اعتقاله بحجة أنه حاول تهديدهم، لكنهم فشلوا، وأفلت الفتى من أيديهم، وكانت هذه الحادثة بداية حرب دامية، دامت سنتين ونصف»، «أذاقت خلالها حركة àأمل’ المخيمات الفلسطينية ويلات حرب ضروس عُرفت إعلاميًا بـ àحرب المخيمات’». وكانت الليلة الثانية، حينما «اقتحمت ميليشيات àأمل’ مخيمي صبرا وشاتيلا، وقامت باعتقال جميع العاملين في مشفى غزة، وساقوهم مرفوعي الأيدي إلى مكتب àأمل’ في أرض جلول، وقد منعت قوات الحركة سيارات الهلال الأحمر الفلسطيني والصليب الأحمر اللبناني وسيارات الأجهزة الطبية من دخول المخيمات، وقطعت إمدادات المياه والكهرباء عن المشافي الفلسطينية. وفي فجر اليوم التالي، بدأ مخيم صبرا يتعرض للقصف المركّز بمدافع الهاون والأسلحة المباشرة، من عيار 106 ملم، كما تعرض مخيم برج البراجنة لقصف عنيف بقذائف الهاون، وانطلقت حرب àأمل’ المسعورة تحصد الرجال والنساء والأطفال، وأصدر قائد الحركة نبيه بري أوامره لقادة اللواء السادس في الجيش اللبناني بخوض المعركة، وقد شارك فعلًا بكامل طاقاته، وقام بقصف مخيم برج البراجنة من عدة جهات، وقد بادرت قيادة الجيش اللبناني ممثلة بالعماد ميشال عون إلى إمداد اللواء السادس بالأسلحة والذخائر».

و«تم حصار المخيم ثلاثين يومًا، ودُمر حوالى 90% منه تدميرًا كاملًا، وسقط ما يقرب من 85 شهيدًا وشهيدة. وفي أواخر 1986 تجددت المعارك، وامتدت إلى ستة أشهر أخرى، تعرّض المخيم خلالها لمجاعة حقيقية، ونقص حاد في المواد المعيشية والطبية، فأكل الناس لحم القطط والكلاب، والبرغل مسلوقًا بالماء والملح. وكان كل اثني عشر مقاتلًا يأكلون علبة حلوى واحدة فقط، وكان المقاتل يقتات على نصف رغيف خبز في اليوم في آخر شهرين من الحصار»[281].

هذا جزء من وصف، تؤكده أربعة مراجع، لبداية حرب المخيمات ولمجرياتها التي دامت عامين ونصف عام، حدث في وسطها ما يكلّل الخروج الفلسطيني من لبنان، فبعد اندلاعها بعامين، في حزيران/يونيو 1987، يُصدر أمين الجميل، رئيس الجمهورية وقتذاك، قرارًا يقضي بإلغاء اتفاق القاهرة، يوافق عليه مجلس النواب ورئيس الوزراء، فبدا كأن الإلغاء هو استجابة للشعار الذي رفعته حركة أمل في حرب المخيمات، بأن: «لا عودة إلى ما قبل 1982». وهو شعار رُبِطَ بإحكام مع إلغاء الاتفاقية، ومع تعزيز «سياسة الدولة ومصالحها الأمنية»، فكانت «براءته» المفترضة أمام «رأي عام» مقبل على أي وعد بالاستقرار.

وإذا قارنتَ «حرب المخيمات» بمذبحة صبرا وشاتيلا التي سبقت هذه الحرب بثلاث سنوات فقط، بإشراف الجيش الإسرائيلي وتنفيذ القوات اليمينية المسيحية، يمكنك قياس شراستها، ولو المختلفة. صحيح أن عدد الضحايا في المذبحة الأولى تجاوز الألف وخمسمئة قتيل، ولكنها امتدت ثلاث ليال فقط، كانت خاطفة، محاطة بسرية تامة، لم يُعرف بها إلا بعد وقوعها. أما حرب المخيمات، التي نالت من المخيم ذاته، وأضافت إليه مخيم برج البراجنة، فكانت رهيبة. عدد قتلاها لم يتجاوز ستمئة قتيل، ولكنها امتدت على سنتين ونصف سنة، عرف خلالها أهالي المخيمات أصناف موت أخرى، من مطاردة وحصار وجوع، تحت أعين ونظر الإعلام والمواطنين. المناخ مؤات لها، ثم الموت على «أيدي القريب» لا يبعث إدانة واحتجاجًا. هو غير الموت على أيدي العدو، مع أن عذاب أهالي هذه المخيمات بلغ حدًّا دفع المرجع الشيعي محمد حسين فضل الله (1935–2010)[282] إلى إصدار فتوى تجيز لسكان المخيمات المحاصَرة «أكل لحوم الحيوانات النافقة».

منظمة العمل الشيوعي المنسحبة وقتها من المشهد السياسي والعملاني، لم توجَّه إليها الدعوة للمشاركة في هذه الحرب، لكن محسن إبراهيم كان له رأي فيها: «ما نحتاجه في اللحظة السياسية الراهنة هو تحالف المقاومتين اللبنانية والفلسطينية لاستكمال إنجاز تحرير الجنوب من دون شرط إسرائيلي، وإن جردة حساب الحقوق والواجبات بين هاتين المقاومتين ليست عملية داهمة لا تقبل التأجيل أو الاستئخار. وإلى ذلك نضيف أنه حين يكون علينا أن نتوقف في المستقبل، أي بعد النجاح في إنجاز هدف التحرير الكامل لأرضنا، أمام مسألة العلاقات اللبنانية – الفلسطينية، فإن الوقفة لا بد أن تكون أعمق بكثير من مجرد البحث في ترتيب الشأن الأمني الداخلي للمخيمات، فقضايا الوجود الفلسطيني في لبنان لا يمكن اختزالها على هذا النحو، لأن هذا الوجود هو في النهاية وجود عربي، شعبي – سياسي – نضالي، لا بديل من إضافته إلى لبنان العربي المواجه لإسرائيل، فضلًا عن كونه وجودًا سيظل متصلًا بالقضية المركزية للصراع العربي – الصهيوني، مما يجعلنا نكرر القول إن مصير الفلسطينيين في لبنان يعني اللبنانيين»[283].

دعيت أحزاب أخرى إلى مقاتلة أهل المخيمات، من بينها الحزب التقدمي الاشتراكي، وزعيمه الآن وليد جنبلاط، ومجموعتان ناصريتان، البيروتية «المرابطون»، والصيداوية «التنظيم الشعبي الناصري»، فضلًا عن الحزب الشيوعي اللبناني. وكل هذه الأحزاب لم توافق على الدعوة، وامتنعت عن القتال.

يقول محمد علي مقلد عن هذه الدعوة: «جورج حاوي كانت علاقاته بحلفاء ذلك الوقت وطيدة جدًّا. وكان محترمًا جدًّا من السوريين وàحزب الله’ وàأمل’ وكانت علاقته ودودة بكل القادة، ولكن ماذا كان يحصل في الخفاء؟ يُتهم الحزب الشيوعي بأنه يرفض الاستجابة لطلب سورية الخوض في حرب المخيمات. ويقول الحزب إن سورية جعلته يدفع الأثمان من موقفه هذا [...] خلال السنتين 1985–1986 في حرب المخيمات. طلبت سورية منا كما طلبت من حركة àأمل’ والحزب الاشتراكي أن تخوض معركة ضد المخيمات وأبو عمار. ونحن رفضنا رفضًا قاطعًا»[284].

ثانيًا: الاغتيالات بكواتم الصوت

قبل امتناع الحزب الشيوعي عن الخوض في حرب المخيمات إلى جانب حركة أمل، كان لهذا الحزب مواقف مختلفة؛ ففي عام 1983، خيضت حربان، على جبهات متباعدة، كان للحزب حصة فيها، عبر إشراك مقاتليه فيها: الأولى سميت «حرب الجبل» التي اندلعت فور انسحاب الجيش الإسرائيلي من قرية بحمدون الجبلية. الذين قرروا هذه الحرب هم وليد جنبلاط والنظام السوري والاتحاد السوفياتي. عدوهم كان إسرائيل والولايات المتحدة الأميركية وحزب الكتائب اليميني. وكان قد وصل إلى الحزب التقدمي الاشتراكي الذي يرأسه وليد جنبلاط «مساعدات عسكرية ضخمة تقدر بعشرات الملايين من الدولارات»، إضافة إلى «تدريبه المئات من شباب الحزب من ضباط وقادة وكتائب». الأطراف المحلية التي شاركت جنبلاط في حربه هذه كانت: الحزب الشيوعي اللبناني والتنظيم الفلسطيني «الجبهة الشعبية – القيادة العامة» بزعامة أحمد جبريل، الموالي للنظام السوري، وقوات تابعة لـ «فتح الانتفاضة» بقيادة أبو صالح وأبو موسى، وهي حركة انشقت عن «فتح» عام 1983، رعتها دمشق، وتعدّ نفسها خصمًا لياسر عرفات[285].

ويعلق محسن إبراهيم، المنسحب من ساحة القتال، على هذا الانشقاق الأخير بالقول: «فما هو هذا الانشقاق الذي بدأ احتجاجًا على قرار àالخروج الفلسطيني’ من بيروت ودعوة مبطّنة حينًا وصريحة في معظم الأحيان إلى àالعودة إلى بيروت’، ينتهي رافعًا شعار àالخروج الفلسطيني من طرابلس’، وضاغطًا من أجل تنفيذه على عجل وموجهًا الإنذارات، محسوبة بالأيام إن لم نقل الساعات، إلى رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ومقاتليها لتنفيذ الخروج من طرابلس». وفي مكان آخر، يقول محسن إبراهيم عن هذا الانشقاق إنه بمنزلة «الحرب الأهلية الأولى بل الوحيدة من نوعها في تاريخ الشعب الفلسطيني»[286].

بعد الجبل، كانت الحرب الثانية في الشمال اللبناني، في مدينة طرابلس، صاحبة الصلة بهذا الانشقاق الفلسطيني؛ إذ قرر ياسر عرفات من تونس، في ذاك الشهر من العام نفسه، أن يواجه هذا الانشقاق بالعودة سرًّا إلى طرابلس، وحشد عناصر لمقاتلة ما اعتبره محاولة من دمشق لضرب مساعيه السياسية. وتضم هذه الجبهة الموالية لدمشق، قوات للتنظيمين المواليين لدمشق، الجبهة الشعبية – القيادة العامة و«فتح الانتفاضة»، وإلى جانبهما الحزب الشيوعي اللبناني، والثلاثة ضد

«الظلاميين» من «حركة التوحيد الإسلامي» الداعمين لعرفات، فكان الخروج الثاني لعرفات من لبنان (1985)، مع ما اعتبره مكسبًا سياسيًا هائلًا، لكونه ردع المنشقين والموالين لدمشق عن تمثيل الفلسطينيين.

كان حازم الأمين وزياد صعب وقتها مقاتلين في الحزب الشيوعي اللبناني، وشاركا في القتالين، الجبل وطرابلس. يروي حازم الأمين: «عملت كل شيء [...] ليس أنا وحدي بل كل أبناء جيلي، كانت أنواع من الـ 'Setting'. كنا نتحرك فيها للحروب فقط: حرب شرق صيدا، حرب طرابلس، حرب مع حركة àأمل' هنا، وأخرى في الجنوب معها ومع أنطوان لحد. ليس هناك من همّ آخر [...]. في تلك الفترة، كانت عملية إلغاء لكل شيء باستثناء الجهاز العسكري [...]. أصلًا الحزب وقتها كان محاصرًا، لم يكن ممكنًا أن يكون غير ما أصبح عليه. لأن حركة àأمل' تقتله في الجنوب وحركة àالتوحيد الإسلامي' تقتله في طرابلس واغتيالات بيروت. وفي الوقت نفسه، كبر الأمر في رأس جورج حاوي، وصار يريد أن يحارب في كل المحلات: عنده من 500 إلى 600 شخص من المدربين تدريبًا جيدًا. ساعة يرميهم في شرق صيدا لأن مصطفى سعد [1951–2002][287] غير قادر على أن يقوم بشيء، ساعة أخرى يرسلهم مع السوريين إلى طرابلس [...] حيث تدور حرب، يريد جورج حاوي أن يضع إصبعه فيها»[288].

أما زياد صعب، فيختصر مشاركته هو ورفاقه إلى جانب محور دمشق – السوفيات، فيروي: «لا، لم تنته الحرب مع الاجتياح الإسرائيلي عام 1982، فبعدها استمررنا في القتال، ولكن بوتيرة مختلفة. في صيف 1983، حصلت الاشتباكات بالجبل [الشوف] وطُلب مني أن أصعد وأستلم القيادة العسكرية للجبل [...] وبعد ذلك أمر بانتقالي إلى الشمال للمشاركة في معارك ضد àحركة التوحيد الإسلامي'»[289].

بالروحية نفسها، كانت تطلَق البيانات المعلنة عن عمليات للحزب الشيوعي ضد إسرائيل، ففي عام 1985، في الشهر الثاني بعد اندلاع حرب المخيمات، كانت عملية حملت اسم بطلها، جمال ساطي، استهدفت مقر الحاكم العسكري في حاصبيا، فبيان من الحزب يعاهد «جبهة الاتحاد الوطني وجبهة الإنقاذ وسورية المناضلة بقيادة رئيسها المناضل حافظ الأسد» على الاستمرار في القتال[290].

ومع ذلك، كان الحزب الشيوعي يبتعد عن المحور الدمشقي، وكانت الاشتباكات المتقطعة مع حركة أمل، ومضايقات في القرى في حق الشيوعيين، وصعود للتنظيم الشيعي، أفضت، كما أسلفت، إلى سيطرة الأخير على العاصمة وضواحيها الجنوبية في شباط/فبراير 1984. وبعد ذلك بعام واحد، بدأت موجة اغتيالات شخصية، بكواتم الصوت غالبًا، في حق كوادر في الحزب الشيوعي؛ موجة خجولة في بدايتها، لم تُثِر انتباهًا، ثم كثيفة بعد ذلك بعام واحد، لتبلغ ذروتها في العام الذي تلاه. أول المستهدَفين كان ميشال واكد، الذي خُطف عام 1985، ووُجدت جثته مرمية على الطريق. في عام 1986 خُطف سهيل طويلة، ووجد مقتولًا بعد يومين. وفي العام نفسه قُتل خليل نعوس وحسن الصباح. وفي عام 1987، قُتل لبيب عبد الصمد، ونور طوقان (وهو مصاب بمرض الشلل)، وخضر الجوني، وديب الجسيم، وأديب وهبة، وهاني زين الدين، وأنيس مصطفى، وأحمد علي صالح، وعدنان قانصو، وسهيل مجدلاني، وعباس سويدان[291]. والغالبية

العظمى من هؤلاء كانت من الشيوعيين، من الجنوب اللبناني، يتوزعون بين التدريس والطب والصحافة، وهم لم يلفتوا أنظارًا كثيرة، ربما لقلة وجاهتهم، أو لأنهم في الرتبة الدنيا أو المتوسطة من الهرمية الحزبية.

لكن الأمر يختلف مع اثنين احتلا، وما زالا، رأس قائمة ضحايا تلك الموجة؛ أحدهما حسين مروة، القيادي الشيوعي، المثقف، ومؤلف كتاب **النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية**. كان تجاوز السبعين من العمر، عندما قُتل بكاتم الصوت وهو في سريره. كان هذا في شباط/فبراير 1987. أما الاسم البارز الثاني على اللائحة، فهو مهدي عامل (حسن حمدان)، الذي كان قد علق على اغتيال الأول، حسين مروة: «قتلوه لأنه شيعي شيوعي»، ومع أن مهدي عامل أيضًا «شيعي وشيوعي»، فإنه كان على ثقة تامة بأنه لن يكون هدفًا مقبلًا.

وكانت ثقة مهدي عامل المفرطة بالقدر من وحي سياسة الحزب الصميمية في تجهيل القتلة، فكان اغتياله بعد حسين مروة بثلاثة أشهر، في وسط الطريق، وهو متجه صوب الجامعة التي يدرّس فيها. وكانت اللازمة التي لا يتوقف الشيوعيون عن تردادها، كلما أتينا إلى سيرة موجة الكواتم هذه، وقوامها تلك الجملة التي أطلقها جورج حاوي فور سماعه بنبأ اغتيال مهدي عامل: «أصبح المشهد مملًا، أليس كذلك يا رفاق؟». اللازمة الثانية التي تقرأها أينما وليت بحثًا في الجريمة، ودائمًا من دون توقيع لاسم ناقلها، أنّ غازي كنعان (1942–2005)، رئيس فرع المخابرات السورية في لبنان، في الفترة 1982–2001، أو ما عُرف رسميًا بـ «جهاز الأمن والاستطلاع»، المعني بأمر الأمن اللبناني، بل أمن الدولة اللبنانية كلها، حضر إلى مركز الحزب الشيوعي، في حيّ وطى المصيطبة، ليقدم التعازي، وخاطب قيادة الحزب التي كانت تتقبل التعازي بمهدي عامل قائلًا: «هل كان ضروريًا أن تدفعوا هذا الثمن؟».

الحزب كان قد أصدر بيانًا يدين فيه «يد العمالة والخيانة» باغتيال مهدي عامل، لكن رفض المراجع الشيعية إقامة الصلاة والتشييع على الراحل بحجة «أنه شيوعي»، والاضطرار إلى الصلاة عليه في أحد مساجد بيروت السنّية، دفعَا «القوى الظلامية»، أيضًا، إلى لائحة الاتهام، وهي تهمة وجهت أيضًا إلى قتلة حسين مروة «الشيخ العلماني الذي هدم على رأسهم الهيكل العفن وأسقط من يدهم الدين كوسيلة»[292].

لكن المواقف الأكثر وضوحًا جاءت على لسانين، الأول لماري الدبس، بصفتها نائبة الأمين العام للحزب الشيوعي اللبناني، وقتها، في نهاية عام 2006، أي بعد مرور أشهر على حرب تموز/يوليو مع إسرائيل؛ إذ قالت إن العلاقات بحزب الله شهدت تحولات كبيرة: «قبل عشرين عامًا، شن àحزب الله’ حربًا بلا هوادة ضد الشيوعيين. أعتقد أن الاتجاه السلفي الإسلامي الممثل بوجه خاص بحزب الدعوة، وهو حزب سلفي له قواعد في العراق وإيران ليست شيعية فحسب، بل ذات أغلبية شيعية أيضًا، كان يرى في الحزب الشيوعي نقيضه في كل شيء، كان يسعى لإلغاء كل فكرة عن العلمانية والانفتاح وفلسفة مغايرة ...إلخ. بدأت العلاقات متوترة جدًّا، ووصل àحزب الله’ إلى حد اغتيال العديد من رفاقنا، وكانوا بوجه خاص مثقفين وأطرًا جامعية. قتلوا على سبيل المثال مهدي عامل الذي كان اشتغل بمسائل الاستعمار والدين، وهو مثقف بارز وفيلسوف مرموق [...]، واغتالوا أيضًا حسين مروة، الفيلسوف الكبير، الذي [...] كان قد بدأ شيخًا، وذهب إلى الدراسة في النجف بالعراق، وهناك اكتشف أن الأمر لا يرضيه وأصبح شيوعيًا. نشبت معارك صغيرة سواء في

بيروت أو في البقاع الغربي، في مناطق عديدة، حيث كان ميزان قوى يتيح قضاء طرف على آخر [...]. ساعد ذلك أيضًا ميل سورية إلى استئصال شيوعيي المقاومة الوطنية. كان ثمة تفاهم ما بين القوى السورية وàحزب الله’ وقوى أخرى أيضًا. كنا ملاحَقين، وكان ثمة رفاق ذهبوا للقيام بعمليات مقاومة واغتيلوا وأُطلقت عليهم النار من الخلف». وتتابع قائلة: «تطورت العلاقات إيجابيًا مع àحزب الله’. كان في السجون والمعتقلات الإسرائيلية شيوعيون وأعضاء في àحزب الله’ جنبًا إلى جنب. كانوا أغلبية شيوعية وأعضاء أقل في àحزب الله’. هناك تعارفوا، وخلق ذلك علاقات بين أطر المنظمتَين. وبعد الإفراج عنهم، تطورت العلاقات إلى هذا الحد أو ذاك»[293].

ويختلف معها قيادي آخر في الحزب، جورج البطل، كما يختلف مع مهدي عامل في تفسيره اغتيال حسين مروة؛ فعن اغتيال سهيل طويلة، المسيحي، يرى البطل أنه حصل «على أخبار أكيدة حول صدور تكليف شرعي بقتله لأنه شيوعي ومسيحي». ويتابع: «دفعنا الثمن [ثمن عدم المشاركة في حرب المخيمات] عشرين عامًا من الاغتيالات، وليس لدينا أوهام حول طالبي تلك الاغتيالات. من جهة أرادت معاقبتنا وهدفت لإحداث مزيد من الشرخ بيننا وبين المقاتلين. ليس àحزب الله’ الذي قتلنا فلا ثأر بيننا، وهو لم يشارك في حرب المخيمات، إنهم المخابرات السورية من خلال أطراف حركة àأمل’ أو غيرها. في هذه الاغتيالات لا تهم الأدوات [...]، المهم هو من قرر القيام بهذه الاغتيالات المتسلسلة»؛ إذ يصف العلاقة بين الحزب الشيوعي والقيادة السورية بأنها «ملتبسة جدًّا، وعلى الرغم من معرفتنا بأنهم يقفون خلف الاغتيالات استمرت العلاقة معهم»[294].

ماري الدبس وجورج البطل قياديان شيوعيان بأمزجة مختلفة. والثالث، محمد علي مقلد، يرى هذه الدورة من الحرب من زاوية خاصة أيضًا؛ فهو يقول عنها: «لا أعرف لماذا كان جورج حاوي يلقي كل هذه الخطابات. في العامين 1986–1987، كانت علاقتنا بالحلفاء وطيدة جدًّا. وكان جورج حاوي محترمًا جدًّا من السوريين وàحزب الله’ وحركة àأمل’، وله علاقات ودودة بكل القادة، ولكن ماذا كان يحصل في الخفاء [...] ويُتهم الحزب يومها برفض الاستجابة لطلب سورية المشاركة في حرب المخيمات [...] ويقول الحزب إن تلك هي أثمان التحالف مع سورية؟». ثم يتناول مقلد اغتيال مهدي عامل من زاوية مسؤولية الحزب: «طرحتُ على نفسي السؤال: ما مسؤوليتنا نحن ومهدي عامل في مقتل مهدي عامل؟ عبرت عن تلك الفكرة في كلمتي الرثائية، وقلتُ لا تزعل يا مهدي لأنك مت. فلو عدتَ سترى الورثة كيف يشتغلون، كلٌّ يغني على ليلاه [...]، واعتبرت في هذا الرثاء أن مهدي عامل، وهو رفيقي وأستاذي وصديقي [...] شخص بهذه الطيبة، كيف يموت؟ [...] واعتبرتُ أن جورج حاوي ممكن أن يموت، هذا طبيعي، ولكن أن يموت مهدي عامل وحسين مروة [...] لماذا يموتون؟ هناك من هو مسؤول عن موتهم. طرحت نقدًا ذاتيًا في هذا الرثاء، وتساءلت عن مسؤوليتنا، نحن الشيوعيين، بموتهم. وخلصتُ إلى أننا، نحن الشيوعيين، نشبه الذين قتلوهم. القتلة هم أناس بيشبهونا، لديهم حتميات وقناعات لا تقبل الحلول الوسط: إما أنا أو أنت! إما قاتلًا أو مقتولًا! حتميات مهدي عامل ساهمت في قتله وحتمياته هي حتمياتي وهي حتميات اليسار اللبناني وكل اليسار [...]. حزب الله يفكر مثلنا والبعث يفكر مثلنا. في عام 1987، صرت أرى أن المعضلة في بلادنا هي الاستبداد، وليس الرأسمالية ولا التوحش الرأسمالي»[295].

ثالثًا: انهيار الاتحاد السوفياتي

في نهاية آب/أغسطس 1991، يقف السكرتير العام للحزب الشيوعي السوفياتي، صاحب البيريسترويكا، ميخائيل غورباتشوف (ولد عام 1931)[296]، على منصة مجلس السوفيات الأعلى التابع لروسيا؛ يريد أن يشكر بوريس يلتسين (1931-2007)[297]، وكل النواب الروس على تصدّيهم لمحاولة الانقلاب العسكري المناهضة له، والداعية للعودة إلى أيام السوفيات، لكن نواب روسيا لا يسايرون رئيس حزبهم. هل كان ثمة اتفاق ضمني على الخطوة التالية؟ التاريخ ربما يكشف. ولكن الآن، يفاجئ بوريس يلتسين الجميع بالإعلان أن مكاتب اللجنة المركزية التابعة للحزب قد أُغلقت ووُضعت على أبوابها الأختام، فيعلو التصفيق مثل الهدير بقوته. يحاول غورباتشوف، وهو ما زال على المنصة، أن يحتج، يطلب من الحضور «أرجوكم، لنبقِ على برودة عقولنا»، ولكن يلتسين يرد، من دون أن ينظر إليه: «من أجل التخفيف من الاحتقان، أُعلم الحضور بأنني وقعت لتوي مرسومًا تجمَّد بموجبه كل أنشطة الحزب الشيوعي في روسيا».

قبل هذا الإعلان التاريخي، كانت دول تابعة للفلك السوفياتي تغير جلدها وتنتفض. أولها هنغاريا، التي شهدت تظاهرات حاشدة خلال عامي 1987 و1988. وفي السنة الثالثة ألغي الدستور الستاليني، وتبنت هنغاريا التعددية السياسية، فحطّمت الستار الحديدي الذي قام بينها وبين النمسا، وسمحت بذلك لطلائع الهاربين من ألمانيا الشرقية ببلوغ الشق الغربي من القارة الأوروبية، في حين أن بولندا كانت تشهد في عام 1988 إضرابًا عامًّا تقوده حركة «التضامن»، ورجلها الأبرز ليش فاليسا، فتحصل الحركة على الشرعية المطلوبة من الحزب الشيوعي الحاكم. ومن بعدها بعام واحد، وفي إثر انتخابات يتحالف فيها فاليسا مع حزبين صغيرين، واحد فلاحي والثاني ديمقراطي، يصعد في نهايتها إلى رئاسة الجمهورية. وتشهد ألمانيا الشرقية بدورها حركة احتجاج واسعة بقيادة الكنيسة البروتستانتية، يطالب خلالها المتظاهرون بـ «مجتمع ذي وجه إنساني». صلوات أسبوعية، «صلوات يوم الإثنين»، تجمع المحتجين على النظام البوليسي، يطالبون بالديمقراطية، بل يريدون الذهاب أبعد؛ إذ يرفعون مطلب المشاركة مع ألمانيا الغربية، الرأسمالية، في ازدهارها الاقتصادي. وبعد صولات وجولات ومواجهات بين المسؤولين الشيوعيين والحشود المتظاهرة، يخرج قرار رسمي بالسماح بالسفر إلى الخارج. وبين ليلة وضحاها يتدفق آلاف الألمان الشرقيين إلى الجدار الفاصل بينهم وبين ألمانيا الغربية، ويشرعون في تدميره بأيديهم، مشتركين في واقعة تاريخية، عنوانها «انهيار جدار برلين» (تشرين الثاني/نوفمبر 1991). قبل هذا الانهيار، كان يقف على جوانب هذا الجدار حراس يطلقون النار على كل من ساورته نفسه فكرة الهروب من الجحيم الشيوعي. وتتالت بعد ذلك تطورات مماثلة في تشيكوسلوفاكيا، وبلغاريا، ويوغسلافيا.

يقول المؤرخون إن على الرغم مما سبق من تبدلات تشمل الجيوستراتيجية السوفياتية نفسها، لم يكن متوقعًا قط أن يليها الاتحاد السوفياتي، وبهذه الطريقة السريعة والناعمة. ساعدت على ذلك سلميةُ غورباتشوف نفسه، المنسجم مع نفسه، ومع رؤيته التغييرية، الداعية إلى التعدد السياسي والحرية، ولكن الأهم أن الاتحاد السوفياتي لم يكن، يوم أطلق غورباتشوف حركته، في أسوأ أحواله الاقتصادية: لا من حيث الموارد ولا الناتج المحلي ولا الميزانية أو الأجور التي بدأت ترتفع في عام إطلاق البيريسترويكا، عام 1985، وطوال خمس سنوات بمعدل يفوق سبعة في المئة. حتى التدخل السوفياتي في أفغانستان

لم يكن ليؤثر في جيش مكون من خمسة ملايين رجل، وتقتصر خسائره على الثانويات، لكن في المقابل كان للتغير صدى شعبي هائل. في نهاية 1989، جرى أول إحصاء للرأي، وكانت غالبيته الساحقة مؤيدة لانتخابات حرة ولتشريع أحزاب أخرى غير الحزب الشيوعي السوفياتي[298].

الثقافة نفسها، وهي شأن شعبي روسي؛ إذ يقرأ الروس أكثر من غيرهم من الشعوب، أن الثقافة هذه انقلبت على نفسها. تروي سفتلانا ألكسيفيتش في كتابها **نهاية الرجل الأحمر** (2013) كيف كان الروس شغوفين بالأدبيات السوفياتية المكرسة خلال هذه السنوات السابقة على انهيار الاتحاد السوفياتي، فتقارن بهذا الانهيار، وتنقل عن الذين قابلتهم نفورَهم الآن من هذه الكتب، وحبهم الجديد لأدبيات أخرى؛ إذ يقول لها أحد الذين تكلمت معهم: «أتذكر ذاك البريق في عيون الناس في بداية البيريسترويكا [...]. كان الناس متأهبين لضرب الشيوعيين حتى الموت، ولإرسالهم إلى المعسكرات. أما كتب ماياكوفسكي وماكسيم غوركي، فكانت تتراكم في النفايات. وكتب لينين كنا نرميها في جرن الهاون»[299].

يقابل هذا التخلي انكباب على قراءات أخرى؛ أكثرها شعبية وحيوية تلك المجلات والدوريات الليبرالية الجديدة، المنسجمة مع طروحات الشفافية والتعددية التي عملت البيريسترويكا على إحيائها، والطوابير الطويلة أمام الأكشاك التي تنتظر الحصول على تلك الصحيفة أو المجلة، ثم أسماء جديدة من المفكرين والأدباء والفلاسفة اللامعين، لم يألفها الشيوعيون ولا الشعوب التي يحكمونها: إيغور كليامكين، ألكسندر تسيبكو، وحوالى عشرين مثلهما، سطع نجمهم عشية الانهيار السوفياتي، وكانوا الغذاء الروحي البديل من الأسماء السوفياتية التاريخية.

منظمة العمل الشيوعي ليست معنية مباشرة بهذا الانهيار. صحيح أن لها مواقف «نقدية» من السوفيات، ولكنها في العمق كانت مثلها مثل أحزاب شيوعية «غير مسفْيتة»، تحتمي بالمظلة السوفياتية، وتحسبها جيوستراتيجيًا أكثر ما تقدرها تنظيميًا أو لوجستيًا. يربط أحمد الديراني بين سياقه الحزبي، بوصفه قياديًا في منظمة العمل، وبين انهيار الاتحاد السوفياتي: «بدأ الكلام عام 1984، ثم بعد ذلك صدرت بيانات مواقف، وصار انسحاب كلي من الحرب الأهلية، وأُعلن عن تعليق الحركة الوطنية [...]. وقتها، ساد الكلام عن أنه علينا إعادة بناء الحركة الشعبية، والعودة باليسار إلى مسقط رأسه، أي الحركة الشعبية [...]. في تلك الفترة بدأ انهيار الاتحاد السوفياتي [...]. هنا صار الكلام والتفكير يسرح أكثر [...]، وقال محسن إبراهيم إن الذي يجري في الاتحاد السوفياتي ليس مؤامرة، وليس يلتسين هو الخطأ [...]. خرج الكثير من الكلام المتهافت، من نوع الماركسية نظرية صحيحة، ولكن التطبيق غلط، لم يعرفوا كيف يطبقونها [...]. نحن لم ندخل في مثل هذا النوع من النقاش. كان نقاشنا أنّ ثمة أعطابًا في جوهر الماركسية، ثمة أخطاء في الماركسية، وأنه ماذا تعني دكتاتورية البروليتاريا؟ وأنه علينا أن نراجع هذا الكلام الاقتصادوي [...]. هذا هو النقاش الذي كان يدور في المنظمة، وليس رأيي الشخصي. واليوم أعتبر أن هذا النقاش كان متأخرًا. سبقنا إليه الشيوعيون الأوروبيون في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي [...]. لماذا تأخرنا؟ لأننا توقفنا عن القراءة. في الأعوام 1970-1975، كنا نقرأ كثيرًا في المنظمة. كل أسبوع في الحلقات والخلايا كان هناك ثمة كتاب نقرؤه ونناقشه. مع الحرب غرقنا وصرنا سياسيين جدًّا. حتى السوفيات ونقدنا لهم نسيناه، في حين كان يفترض أننا ضد التحريفية. نحن ضد التحريفية السوفياتية، ومع ذلك تفاهمنا مع الحزب الشيوعي

ونسينا ما كنا عليه [...]. àتلخبطت' الأشياء من دون أن ننتبه، وصار النقاش منصبًّا على متطلبات الحرب الأهلية ومصالحها والانخراط فيها والمقاومة الفلسطينية، وكلها لا تساوي شيئًا من دون الأنظمة التقدمية والسوفيات. وفي هذه الحالة، تضاءل جدًّا المناخ الفكري النظري في أوساط المنظمة، لذلك عندما انهار الاتحاد السوفياتي لم يكن لدينا ردة فعل àأصولية' على طريقة الحزب الشيوعي اللبناني الذي قال إنهم [السوفيات] أخطؤوا بالتطبيق ولتحيا النظرية. نحنا قلنا àأبو النظرية' على àأبو التطبيق'، فهذه مرحلة تُقرأ تاريخيًا، ما جعلنا نفكر قليلًا، فصرتُ أقرأ وأكتشف أن الذي نقوله الآن قاله غيرنا قبل ذلك في السبعينيات والثمانينيات [من القرن العشرين]، مثل الشيوعية الأوروبية التي وقفنا وقتها ضدها، في حين أننا نتكلم الآن بأفكارها، مثلها، فهي أول من وقف ضد دكتاتورية البروليتاريا»[300].

ولكن الوضع مختلف تمامًا مع الحزب الشيوعي: في مذكرات الشيوعيين القياديين الكثير من الإشارات إلى تلك العلاقة مع السوفيات: رحلات حزبية، عسكرية، مهرجانية، صحية، تكريمية ...إلخ. غير أن العلاقة لا تقتصر على هذا المستوى العالي من القيادات الحزبية؛ فعبر المنح الدراسية كان 80 في المئة من الخريجين اللبنانيين من الاتحاد السوفياتي منتسبين إلى الحزب الشيوعي.

درست جمال القرى الطب في موسكو وعاشت حياة الطلبة هناك بصفتها شيوعية، وشاركت خلالها في نشاطات غير مسموحة في الاتحاد السوفياتي. تقول في المقابلة: «كانت [الجامعة] مركز انصهار أمميًا من كل دول العالم. كنا عايشين أكل وشرب وخروجات ورقص. كنا عايشين حياة بالفعل أممية رائعة، ولكن كان هناك أشخاص من مخابرات للحزب، يخبرونهم بكل ما يحصل وما يقال، وهؤلاء كانوا يُرفعون إلى مراتب عليا. كان هناك، أيضًا، المسؤولون عن المنظمات الحزبية والروابط الطلابية [كانوا] ملزمين بتقديم تقارير حول كل الأمور. الجميع كان يعلم أن مسؤول منظمة الحزب له علاقة بالمخابرات. كان ذلك في صيف 1976، عندما دخل الجيش السوري في معركة ضد القوات المشتركة [الفلسطينية – اليسارية]، قررنا أن نقوم بتظاهرة احتجاجية ضد السوريين. وكل واحد له علاقة بالمخابرات استثنيناه. في الساعة الواحدة ليلًا اتفقنا وكتبنا الشعارات، وذهبنا إلى البحث في مشاركة الجبهة الشعبية والجبهة الديمقراطية وجبهة التحرير الوطني البحرينية [...] واستثنينا من الشيوعيين السوريين جماعة خالد بكداش، لكن كانت معنا جماعة بدر الطويل السورية، هم كانوا ضد جماعة خالد بكداش [...]. وفي الصباح، عندما فتحت الطريق بالمترو، ذهبنا مجموعات صغيرة، ليس أكثر من ثلاثة أشخاص، حتى لا نلفت النظر. وفي الساعة السابعة كنا واقفين أمام السفارة السورية، حاملين بطاطا وبيضًا نطرقها بهما، ولمدة ساعة كاملة. وصل الخبر إلى الإذاعة البريطانية الـàبي بي سي'، التي أخذت حديثًا من دكتور بالزراعة اسمه سمير كبريت، رحمه الله، وفيه يشرح لهم لماذا نحن كشيوعيين لبنانيين ضد الدخول السوري العسكري إلى لبنان. بعد ساعة جاء الأمن السوفياتي وفرّق التظاهرة. ثم أخذوا عشرات من الشباب، وباشروا معاملات ترحيلهم إلى بلدهم. وقتها حضر جورج حاوي وتوسط من أجل هؤلاء الشباب، ومشي الحال، وتراجعوا عن طردهم».

وتتابع القرى رواية حوادث ملاحقة الشيوعيين العراقيين التي تبيّن «كم كانت علاقة السوفيات بصدام حسين جيدة جدًّا. تعرفين كم كان صدام حسين ينكّل بأعضاء الحزب الشيوعي العراقي. بعض الطلاب العراقيين كان ممنوعًا عمليًا من

السفر إلى العراق ليلتقي بأهله؛ إذ كانت المخابرات في انتظاره في المطار. وكان أمن السفارة يلاحق الشيوعيين في قلب بيوت الطلبة بموسكو يأخذونهم إلى السفارة، يشبعونهم ضربًا ويعيدونهم تحت عيون الأمن السوفياتي، وما كان هؤلاء ينطقون بكلمة واحدة [...]. ومن الحوادث المشهورة تعرُّض شيوعي عراقي للضرب بالحجر على رأسه حتى الموت. القاتل سلّم نفسه للبوليس، وبعد ذلك أخلي سبيله، لأنه موظف في السفارة العراقية [...]. بالنسبة إلى السوفيات أنه إذا كانت علاقتنا جيدة بالدولة، فما حاجتنا إلى الشيوعيين؟».

وهذه حادثة ثالثة، نقلًا عن القرى أيضًا: «في إثيوبيا بتلك الأيام، مانغستو هيلا مريام (ولد عام 1937)[301] كان بدوره ينكّل كثيرًا بالشيوعيين، وكان في الجامعة أيضًا الكثير من الطلبة الشيوعيين الإثيوبيين، وكانوا أصحابنا. وفي أحد الأيام، جاء مانغستو هيلا مريام إلى موسكو في زيارة رسمية، فقرر طلاب منظمة الحزب الشيوعي الإثيوبي أن يتظاهروا ويقطعوا الطريق ويرفعوا الأعلام واليافطات ضده. علم السوفيات بالقرار، فلمّوا الطلاب الإثيوبيين وحبسوهم ثم وضعوهم في الإقامة الجبرية حتى انتهاء الزيارة. وبعد ذلك، فلّتوهم. تلك هي عيّنات عن علاقة السوفيات بالدول».

في هذا الخضم، تصف القرى مناخ البيريسترويكا وقد عايشتها عام 1988 فتقول: «في المرحلة الذهبية في السبعينيات عندما كان ليونيد بريجينيف [1906–1982][302] هو الحاكم، حصل وعي كبير بالعلم والثقافة. فالشعب الروسي يقرأ كثيرًا، هو أكثر شعب مثقف بالعالم. يطبعون الكتاب عشرات الطبعات، وفي بيوتهم كل حيطان البيت مكتبة. وصلت الاشتراكية إلى حائط مسدود بعد بريجينيف. حاول يوري أندروبوف [1914–1984][303] الذي حكم سنتين [1982–1984]، أن يمسك بالأمن ويعمل رقابة على كل واحد، متى يذهب إلى شغله ومتى يرجع. لم تستطع الناس أن تتحمل، ولم تعد التأمينات والتقديمات تسكتهم [...]، هم يريدون أن يعيشوا مثل غيرهم. وصل الاتحاد السوفياتي إلى مرحلة لم يعد قادرًا على تلبية كل هذه التطلعات. كان يجب أن ينهار. البعض يقول لو عملنا إصلاحًا، لنجونا. أنا أقول إن الإصلاح لا ينفع لأن الماركسية التي قام عليها الاتحاد السوفياتي هي ماركسية مجتزأة. يعني أخذوا جزءًا من الماركسية، وليس كلها. أخذوا الجزء الذي يساعدهم على بناء نظام سياسي يمكنهم السيطرة عليه [...]. في ظل غورباتشوف، كان التململ، تشعرين به في الوجوه في الشارع. ثم بدأت عمليات طعن بالطريق وعمليات السرقة الكبيرة، السوق السوداء، وتغيرت علاقة الناس ببعضها وصعد الشعور القومي، وصاروا لا ينظرون إلى الأجنبي النظرة الأممية، وكلنا أخوة ...إلخ، وطلعت عندهم الروح القومية»[304].

كان يوسف مرتضى، رفيق جمال القرى، مراسلًا لصحيفة **النداء** الشيوعية اللبنانية، في موسكو، في زمن الخمس سنوات تلك التي سبقت الانهيار، فيروي: «عشتُ في موسكو بين العامين 1983 و1988، وحضرت شيئًا كثيرًا من البيريسترويكا. وكان عملي في صحيفة âالنداء’ يخولني عقد لقاءات مع أي كان، فدخلتُ في نسيج البلد من فوق ومن تحت، من القيادة واللجنة المركزية، والتقيت بوفود. وكان يوري أندروبوف في المستشفى. مات فانتخبوا مكانه قسطنطين تشيرنينكو[305]. بعد ذلك انتخبوا ميخائيل غورباتشوف [1988–1991]. حضر جورج حاوي إلى موسكو، والتقينا به وبعد ذلك التقينا بغورباتشوف نفسه، وحضرنا المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعي السوفياتي الذي أشرف عليه

غورباتشوف، وانتخبوا فيه يلتسين عضو مكتب سياسي». يتابع مرتضى: «دخلتُ المستشفيات ومعامل النسيج والصلب ومعامل السيارات، وتحدثتُ إلى القيادات ورحتُ إلى البيئات الفقيرة، عشتُ في السوق ورأيتُ كيف يتعاملون هناك [...] رأيتُ الطبقية: الحزب طبقة والناس طبقة. سنة 1985 كتبت تقريرًا للمكتب السياسي مؤلفًا من تسع وتسعين صفحة، خلاصته أن الاتحاد السوفياتي ذاهب نحو الانهيار. وكان غورباتشوف بدأ حركته. لأنه من المستحيل أن دولة فيها كل هذه الفروق الطبقية أن تجد لنفسها لُحمة»[306].

وهذا رفيق آخر، رضا إسماعيل، يُرسَل إلى موسكو للعلاج من مرض غامض لم ينجح الأطباء اللبنانيون في التوصل إلى علاج شاف له. يصف رضا إسماعيل هذه الرحلة: «عندما مرضتُ، رحت إلى موسكو لكي أعالَج في مستشفى أعضاء اللجنة المركزية في الحزب الشيوعي السوفياتي. مكثتُ هناك سنة وشهرين. في هذا المستشفى، ثمة امتيازات خاصة، من نوع تلك التي تجدينها في الغرب. قبل ذلك، كنتُ قد زرت موسكو عدة مرات في إطار المنظمات الشيوعية للشباب، وانتبهتُ وقتها إلى أن هناك تمييزًا طبقيًا. أذكر أنه كان هناك محل في موسكو كبير جدًّا، وكان فيه فرع خاص للرفاق الآتين من الخارج، من كل البلدان، يشترون بالروبل أحسن بضاعة. جماعة الحزب الشيوعي وقياداتهم كان لهم الحق في الشراء منها، ونحن أيضًا كضيوف [...] شيء لا يصدق. واضح أنه كان مجتمعًا فيه الكثير من الامتيازات، مثل الحزب الشيوعي اللبناني الذي كان فيه امتيازات»[307].

كان الاتحاد السوفياتي قبل انهياره مصدر المناعة الشيوعية، ويصف عباس بيضون علاقة الشيوعيين به على هذا النحو: «كانوا يعرفون فقط أن الحزب يعمل لصالح الفقراء، الحزب نفسه حاكم في أقوى دولة في العالم. هذه الدولة هي تقريبًا بيتهم وعائلتهم. كانوا يدافعون عن الاتحاد السوفياتي، وهذه تقريبًا قضيتهم. كان الحزب عائلتهم، لكن الاتحاد السوفياتي دولتهم. من يملك بلدًا كالاتحاد السوفياتي، لماذا لا يكون عميلًا له؟ أي فخر أكثر من هذا الفخر؟ [...] لم يكن الحزب محبوبًا لكنه كان محترمًا. خصومه يتهمونه بالعمالة. المهم أن يكون لك ظهر قوي. قوة عظيمة تقف معنا وتشكل سندنا. الأمر لا يخرج من عبادة القوة. إذا كنت قويًّا لن يسألك أحد من أنتَ»[308].

انهيار الاتحاد السوفياتي له وقْع غير مرئي، وإن قلّ الكلام عنه. هو وقْع التوقف عن تقديم المنح الدراسية التي كان السوفيات يقدمونها لأبناء دول العالم الثالث. بين عامَي 1959 و1992 خرَّج الاتحاد السوفياتي خمسين ألف طالب عربي. وكان الهدف من هذه المنح الدراسية تعزيز الصلات بين السوفيات و«نخب العالم الثالث»، ولكن أيضًا «تصعيد نخب جديدة قادمة من بيئات فقيرة، وبيئات شيوعية أو صديقة للشيوعيين»[309]، لذلك فإن المنح موزعة بين «منح رسمية»، أي تكون واسطتها الدولة، الصديقة، غالبًا، مثل مصر وسورية والعراق، في أوقات التقارب، ومنح «غير رسمية» تمر عبر الأحزاب والجمعيات والمنظمات والشخصيات الصديقة، الشيوعية التقدمية. المصريون جميعهم ذهبوا إلى الجامعات السوفياتية في زمن عبد الناصر، عن طريق الدولة. أما السوريون فقد توزعوا بين منح رسمية وأخرى حزبية، موالية للسوفيات، والفلسطينيون عبر منظماتهم، من «فتح» إلى «الجبهة الشعبية». في حين كان اللبنانيون المستفيدون من هذه المنح يمرون عبر قنوات غالبيتها العظمى حزبية يسارية، وأقليتها رسمية. مثلهم مثل زملائهم من العرب، تخصصت غالبيتهم العظمى في

الجامعات العلمية، من طب وهندسة، وخضعوا، بموازاة العلوم الصرفة، لبرنامج أيديولوجي، يتألف من «تاريخ الاتحاد السوفياتي والفلسفة والاقتصاد السياسي ومبادئ الشيوعية العلمية والإلحاد العلمي»، وهو برنامج سوف يستمر حتى عام 1989؛ هو تاريخ «الإصلاح» في التعليم العالي الذي بادر إلى تطبيقه غورباتشوف.

ويبين الجدول (9–1)، توزع الطلاب العرب، بحسب الجنسية والتاريخ سنة 1959–1960 وسنة 1990–1991 في نهاية هذه الهبات العلمية، وهي توضح أن الطلاب السوريين هم الأكثر استفادة من هذا البرنامج؛ إذ يبلغ عددهم ذروته في عام 1988–1989 إلى ما يزيد على الخمسة آلاف طالب، ليستقر على ما يقترب من الخمسة آلاف في نهايته. ويأتي بعدهم الطلاب اللبنانيون الذين ارتفعت أعدادهم بعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام 1982، بما يفوق ألفَي طالب، ليستقر في نهاية البرنامج عند ما يزيد على ثلاثة آلاف طالب. وهذه أرقام ضخمة بالنسبة إلى شعب لا يزيد عدد سكانه على أربعة ملايين[310].

كان توقُّف المنح خسارة كبيرة للحزب الشيوعي، حتى على الصعيد المادي الصرف. يصف كمال حمدان حالة الإفلاس المادي بعد انهيار الاتحاد السوفياتي: «نحن حزب يدفع ثلاثمئة ألف دولار لتغطية العجز في إذاعة àصوت الشعب’. لم يعد معنا المال؛ إذ لم يعد هناك من اتحاد سوفياتي الذي كان يرسل 200 منحة بالسنة، نبيع نصفها بمليوني دولار أو ثلاثة ملايين دولار ويمشي الحال»[311].

الجدول (9–1): توزع الطلاب العرب في الاتحاد السوفياتي بحسب الجنسية والتاريخ خلال الفترة 1959–1991

Pays / Année académique	Algérie	Maroc	Tunisie	Soudan	Égypte	Syrie	Liban	Irak	Palestine	Jordanie	Yémen Nord et Sud	Autres	Total
1959-1960	22	18	2	73	342**		31	784	-	22	37	-	**1 331**
1960-1961	34	33	10	83	354**		52	604*	-	33	66	3	**1 272***
1961-1962	53	71	18	124	400	54	95	1 306	-	38	109	5	**2 273**
1962-1963	38	67	11	110	238	89	90	1 266	-	35	102	5	**2 051**
1963-1964	73	95	22	187	233	207	98	1 260	-	39	113	14	**2 244**
1964-1965	101	81	32	231	259	296	135	1 249	-	46	179	14	**2 623**
1965-1966	85	94	29	236	249	393	181	1 119	-	79	232	26	**2 725**
1966-1967	73	107	49	330	409	473	214	910	2	98	284	49	**2 998**
1967-1968	161	107	61	364	433	723	269	611	6	149	324	65	**3 273**
1968-1969	220	91	63	404	450	823	322	823	26	219	357	86	**3 884**
1969-1970	348	110	81	456	544	898	374	289	36	323	442	93	**3 994**
1970-1971	482	120	73	511	417	871	394	245	39	334	459	99	**4 044**
1971-1972	628	124	67	446	447	860	401	262	51	398	481	128	**4 293**
1972-1973	708	115	49	463	516	1 065	498	372	78	513	593	158	**5 128**
1973-1974	739	134	69	483	618	1 222	560	432	155	627	679	163	**5 881**
1974-1975	712	149	83	391	505	1 211	584	496	23	684	825	181	**5 844**
1975-1976	908	186	120	429	469	1 442	709	585	46	918	1 084	203	**7 099**
1976-1977	820	205	225	466	499	1 376	798	616	44	1 121	1 303	244	**7 717**
1977-1978	797	262	303	468	460	1 585	1 005	704	73	1 295	1 530	236	**8 718**
1978-1979	851	333	429	458	456	1 685	1 233	761	215	1 562	1 710	219	**9 912**
1979-1980	1 005	409	571	558	377	1 926	1 585	892	892	1 916	1 832	228	**12 191**
1980-1981	1 097	517	667	623	370	2 213	1 836	963	874	2 096	2 053	227	**13 536**
1981-1982	1 140	598	723	667	367	2 429	2 065	1 001	892	2 239	2 272	191	**14 584**
1982-1983	1 121	703	748	652	371	2 725	2 184	926	1 255	2 245	2 496	217	**15 643**
1983-1984	1 267	812	736	688	349	3 128	2 545	917	1 515	2 177	2 691	330	**17 155**
1984-1985	1 589	880	701	714	371	3 646	2 728	951	1 542	2 254	2 878	304	**18 558**
1985-1986	1 855	956	678	740	406	4 030	2 892	968	1 573	2 389	3 043	280	**19 810**
1986-1987	1 572	1 035	559	902	451	4 663	2 982	900	1 536	2 199	3 389	223	**20 411**
1987-1988	1 400	1 075	641	977	463	4 870	3 004	785	1 697	2 231	3 327	242	**20 712**
1988-1989	1 233	1 201	596	1 096	517	5 093	3 499	901	1 511	2 312	3 569	284	**21 812**
1989-1990	1 284	1 297	594	1 231	564	5 281	3 572	877	1 323	2 245	3 709	295	**22 272**
1990-1991	882	1 059	444	1 062	377	4 936	3 289	478	378	1 997	2 626	206	**17 734**

المصدر:

Constantin Katsakioris, «Les étudiants de pays arabes formés en Union Soviétique pendant la Guerre froide (1956-1991),» *La Revue Européenne des Migrations Internationales*, vol. 32, no. 2 (Septembre 2016), pp. 13-38, accessed on 20/3/2021, at: https://bit.ly/317ad3T

(281) منى عوض، «صبرا وشاتيلا: كيف بدأت حركة أمل حربها على المخيمات الفلسطينية»، **إضاءات**، 18/9/2016، شوهد في 5/2/2021، في: https://bit.ly/3pSWl7N؛ أحمد محرم، «حرب المخيمات: الفصل المنسي في الكفاح الفلسطيني»، **إضاءات**، 4/4/2017، شوهد في 5/2/2021، في: https://bit.ly/3cHZCDj؛ محمود كلّم، «حرب المخيمات! الأسباب والنتائج!»، **الحوار المتمدن**، 1/5/2012، شوهد في 5/2/2021، في: https://bit.ly/2YK42Bx

(282) لبناني، رجل دين شيعي معروف باجتهاداته الفقهية.

(283) محسن إبراهيم، **الحرب الأهلية اللبنانية وأزمة الوضع العربي** (بيروت: بيروت المساء، 1985)، ص 101.

(284) مقابلة مع محمد علي مقلد، 12/11/2018.

(285) «وليد جنبلاط يتذكر قرار àحرب الجبل' اتخذته دمشق وموسكو»، صحيفة **الحياة**، في: https://bit.ly/3oQQgYm

(286) محسن إبراهيم، **قضايا نظرية وسياسية بعد الحرب** (بيروت: بيروت المساء، 1984)، ص 263.

(287) لبناني، نائب وزعيم صيداوي ناصري.

(288) مقابلة مع حازم الأمين، 23/12/2018.

(289) مقابلة مع زياد صعب، 6/1/2019.

(290) «عملية الشهيد جمال ساطي على موقع الحاكم العسكري الإسرائيلي في حاصبيا»، قطاع الشباب والطلاب في الحزب الشيوعي اللبناني – الصفحة الرسمية (صفحة فيسبوك)، 15/9/2014، شوهد في 5/2/2021، في: Yeead2'SZe&y'2B1BI CK

(291) للاطلاع على لائحة توثّق أسماء أعضاء الحزب الشيوعي اللبناني الذين اغتيلوا، وما يخصهم من وثائق، وأخبار، وتواريخ، يُنظر الموقع الإلكتروني الذي أنشئ تحت عنوان «شهداء الحزب الشيوعي اللبناني»، على الرابط: /https://mlcplb.com

(292) مسعود محمد، «لا مذهب للظلامية ... قتل المفكر حسين مروة نموذجًا»، **الحوار المتمدن**، 23/2/2016، شوهد في 5/2/2021، في: Yeead2'SZe&y'3aG JKd

(293) مقابلة ماري الدبس مع جريدة **المناضلة المغربية**، 22/11/2006، منقولة من: «الشيوعي اللبناني يعفو عن قتلة مهدي عامل وحسين مروه وجورج حاوي»، 28/5/2013، *Beirut Observer*، شوهد في 5/2/2021، في: Yeead2'SZe&y'3. Mh / MM

(294) جورج البطل، **أنا الشيوعي الوحيد**، حاوره فواز طرابلسي (بغداد: دار المدى، 2019)، ص 282، 285-286.

(295) مقابلة مع محمد علي مقلد.

(296) رئيس الدولة في الاتحاد السوفياتي (1988-1991).

(297) أول رئيس لروسيا بعد انهيار الاتحاد السوفياتي (1991-1999).

(298) هذه معلومات من مصادر متنوعة، وعلى رأسها:

Eugène Zaleski, «La crise du pouvoir en U.R.S.S. (1988-Juillet 1991),» *Revue d'études comparatives Est-Ouest*, vol. 22, no. 2 (1991).

(299) Svetlana Alexievitch, *La fin de l'homme rouge: Ou le temps du désenchantement*, Sophie Benech (trad.), Michel Parfenov (dir.) (Paris: Babel, 2013), p. 67.

(300) مقابلة مع أحمد الديراني، 7/1/2019.

(301) رئيس إثيوبيا (1974-1987).

(302) رئيس الاتحاد السوفياتي (1964-1982).

(303) رئيس الاتحاد السوفياتي (1982-1984).

(304) مقابلة مع جمال القرى، 21/12/2018.

(305) رئيس الاتحاد السوفياتي (1984-1985).

(306) مقابلة مع يوسف مرتضى، 19/12/2018.

(307) مقابلة مع رضا إسماعيل، 27/1/2019.

(308) عباس بيضون، **الشافيات** (بيروت: دار الساقي، 2014)، ص 179، 193.

(309) Constantin Katsakioris, «Les étudiants de pays arabes formés en Union Soviétique pendant la Guerre froide (1956-1991),» *Revue Européenne des Migrations Internationales*, vol. 32, no. 2 (Septembre 2016), pp. 7, 9, accessed on 20/3/2021, at: https://bit.ly/317ad3T

(310) Ibid., p. 8.

(311) مقابلة مع كمال حمدان، 21/11/2018.

الفصل العاشر: المؤتمر السادس للحزب الشيوعي

) 112 (

مثل كل القياديين الشيوعيين الذين لا تفوتهم الأسرار المحجوبة عن العامة، يعلن جورج البطل أن انهيار الاتحاد السوفياتي كان متوقعًا من جانبه؛ فبصفته من الأشخاص «الذين يعرفون جيدًا الدول الاشتراكية»، كان له إدراك آخر للأزمة. هو الذي أقام في كنف السوفيات، كان يعلم كل شيء، من بريجينيف إلى غورباتشوف: «أولاد [بريجينيف] اشتهروا لأنهم كانوا مافياويين ويهربون العملة [...]. ستالين اضطهد أولاده». أما غورباتشوف فـ «سلوكه أراح الناس لأن دينها طالع من هذا التقشف الرهباني»، بل هو يلاحظ نقطة ضعف في هذا الرئيس الأخير للسوفيات، فينتقده: «أتصور أن ما قام به كان متأخرًا جدًّا، لذلك لم أفاجأ بالانهيار. كنت أتوقع أنه لا بد من حدوث أمر ما بالنسبة للبلدان الاشتراكية»[312].

قارِن بين هذه «الرؤيوية» وما يقوله شيوعي آخر عن هذا الانهيار. أسأل حسام عيتاني إن كان الحزب الشيوعي اللبناني ما زال تابعًا للاتحاد السوفياتي في مرحلة البيريسترويكا، فيجيب: «نعم كان هناك تبعية للسياسة السوفياتية. حينما سحب السوفيات أيديهم في أواسط الثمانينيات، كانت العلاقة السوفياتية مع الشيوعيين اللبنانيين صارت على الآخر. سحبوا أيديهم وقت البيريسترويكا من كل شيء. وحتى قبل البيريسترويكا، كان السوفيات قد اختاروا حلفاءهم في المنطقة، وليس الحزب الشيوعي من بينهم. وهؤلاء الحلفاء هم àالحزب التقدمي الاشتراكي' [وليد جنبلاط] والنظام السوري، وسبب عدم اختيار الحزب الشيوعي هو ضعفه وصغر حجمه وقلة تأثيره [...]. خسر الحزب الشيوعي على المستوى المادي الملموس. وخسر بالتوجيه أيضًا، فعندما يريد السوفيات أن يتصرف كل واحد على مسؤوليته، تكون قصة التوجيهات قد انتهت. وهذه سياسة اعتمدوها مع فيديل كاسترو [1959–2008] ومع رئيس ألمانيا الشرقية إريش هونيكر [1971–1989]. قالوا للعالم اذهبوا ودبّروا أنفسكم. هكذا غابت المظلات، حتى المظلة الأيديولوجية، حتى المظلة الفكرية»[313].

هذه التحولات في الحزب القائد للحزب الشيوعي اللبناني ترافقت مع نهاية الحرب الأهلية، وصدور اتفاق الطائف (1989)، المنهي لهذه الحرب، ثم تطبيقه، على يد القوات السورية التي سيطرت على لبنان خلال سنوات الحرب. مثله مثل الأحزاب الأخرى المشتركة في القتال، سلّم الحزب الشيوعي أسلحته، على مضض، بينما أُبقي على سلاح حزب الله. يروي زياد صعب: «بعد اتفاق الطائف، صدر قرار تسليم الميليشيات كلها أسلحتها. ونحن الشيوعيين كنا من بين الأحزاب التي نفذت هذا القرار». ولم يقتصر الأمر على السلاح وحده، بل كان هناك نقاش داخلي في الحزب «حول ما إذا كنا سنسلم أسماء من تلقوا دورات تدريبية في الخارج أم لا، لكي يكون هؤلاء جزءًا من الذين سينضمون إلى الجيش اللبناني وقوى الأمن الداخلي، انسجامًا مع الخطة التي عُرفت بعملية استيعاب الميليشيات»[314].

وكان الحزب بهذا التسليم يؤدي دور التلميذ المطيع لسلطة الأمر الواقع المنبثقة من اتفاق الطائف، أي النظام السوري. وكانت مشاركته إلى جانب هذا النظام في طرابلس خصوصًا، ومعرفته بأصحاب القرار بالاغتيالات التي نالت من وجوه بارزة عنده، موضوعًا لصراع داخلي: بين من يطالب بالانسحاب من كل السياسة والتكريس من أجل مقاومة الاحتلال الإسرائيلي، ومن يرغب في المشاركة في «السلطة المقبلة»، أي السلطة المنبثقة من اتفاق الطائف، لكن البرلمان الجديد الذي

تألف من نواب معيَّنين من النظام السوري لم يلحظ ولا مقعدًا واحدًا للحزب الشيوعي. جورج حاوي الذي كان يعدّ نفسه بأن يعيَّن عن بلدته بتغرين (جبل لبنان)، والذي نشط على خط بيروت – دمشق لإقناع القيادة السورية بهذا التعيين، لم يفلح، بل غُيب لصالح رجل الأعمال المقرب من سورية ميشال المر.

هزيمتان إذًا: واحدة خارجية، بانهيار المرجع، المموّل، الموجه، الداعم؛ وأخرى داخلية، بفشل الرهان على بعض التنازلات تجاه النظام السوري، واستنادًا إلى بعض المشاركات في معاركه العسكرية بغية احتلال موقع رسمي في النظام السياسي اللبناني الخارج لتوّه من الحرب. والمشترك بين الهزيمتين أنهما تزيحان النقاب عن مصدر أساسي لقمع أي توجه ديمقراطي داخل الحزب؛ فالمرحلة السابقة، قبل الانهيار، كان الحزب فيها محكومًا بالتبعية التامة للمركز: بساطة وانعدام الدقة في تحديد الأفكار، وغلبة الطابع الرومنطيقي الطوباوي على مفاهيمه الماركسية، وتبني التفسير «الرسمي» السوفياتي، والكتب الماركسية المترجمة على يد السوفيات، فضلًا عن تنفيذه قرارات الكومنترن، على الرغم من تمرده في المؤتمر الثاني، عبر تلبيته القاعدة الشعبية المطالبة باعتماد الكفاح المسلح لتحرير فلسطين[315]. وهذه سمات للحزب، أي التبعية للمركز السوفياتي، كانت «أهم العوائق أمام تطوره وتجديده». في ظل السوفيات، سلم الحزب بمنطلقاته النظرية «تسليم المؤمن بمعتقداته الإيمانية دون نقاش أو نقد أو مساءلة». وهو أمعنَ بهذا السلوك «فتحولت النظرية إلى ما يشبه المذهب الديني، وتحولت الحياة الحزبية إلى معبد [يمارس] فيه المحازب طقوسه الإيمانية بشكل آلي»[316].

حولت العصبية للحزب، التي تشهد عليها وقائع الرفاق، الحزب إلى عالم قائم بذاته، خارجه جهنّم وضياع كما يقول حسن داوود: «أيام السوفيات كان الحزب يقول ما تقوله كل الأحزاب لرعاياها أو لمنتسبيها، خصوصًا الأحزاب المادية التاريخية [...]، والمادية التاريخية تقول للواحد إذا تركتَ الحزب فسوف تقع في العدم. طالما أنت موجود بقلب التاريخ فلا تتركه وتجلس في الزاوية مستوحدًا منعزلًا»[317]. وفي هذا السياق، يصف الباحث فارس اشتَي هذه العصبية بقوله إنها شاملة، وجودية، حياتية، بعد الفكرية والتنظيمية، كان لها «كهنة مطيعون تمثلهم قيادة معصومة تقلدها مجموعة من المحازبين المريدين [...] في إطار تنظيمي محكم البناء شديد الضبط»[318]، فكان المؤتمر السادس للحزب (1992)، الذي رُفع عنه غطاءَا الاتحاد السوفياتي وضرورة مسايرة النظام السوري، ومؤتمرَ انفجار المطلب الديمقراطي في العلاقات التنظيمية بين أفراد الحزب؛ ما أضعفه وقلّل من تماسكه الداخلي السابق، وأشاع أجواء من الفوضى بداخله، فكانت «ظاهرة الرفاق التسعة الذين وزعوا مذكرة داخل الحزب وخارجه، وحاولوا طرح إطار سياسي لتوجهاتهم». وكان رد القيادة بأن حاولت إيجاد توازن «بين ما يمكن تسميته àالمركزية'، من جهة، وàاللامركزية الفوضوية'، من جهة أخرى، بدلًا من فكرة التوازن السابقة بين àالمركزية' وàالديمقراطية'، وهذه محاولة تبين»، بحسب فارس اشتَي، «مدى àالاستعصاءات أمام دمقْرطة الحزب'»[319].

من هم هؤلاء الرفاق «التسعة»؟ يروي زياد صعب: «خلال المؤتمر السادس للحزب، وهو الأول بعد انتهاء الحرب، تجرأت مجموعة من تسعة أشخاص [من بينهم زياد صعب وإلياس عطا الله] على كتابة وثيقة بعنوان àاليسار الديمقراطي' وعلى تقديمها إلى المؤتمرين. لمجرد تجرُّئنا على هكذا نوع من الوثائق، وقعت الكارثة بنظر القيادات العليا. بدأت أجنحة ومجموعات متفرقة تظهر أكثر فأكثر، وبدأ صراع لم يكن معلنًا بين تيار محافظ وآخر ديمقراطي وثالث وسطي». وفي حين عاند التيار

المحافظ وبقي يناقش مشكلة «المركزية الديمقراطية» بأنها تكمن «في تطبيقها» فحسب، أخذ التيار الديمقراطي يطالب بالإقرار بوجود تيارات داخل الحزب، ويطالب أيضًا بضرورة تطبيق قانون «النسبية» في الانتخابات الداخلية، لأجل إفساح المجال لهذه التيارات كي تعبّر عن نفسها، لكن الوجهة التي اعتمدها «المحافظون» و«الوسطيون» كانت عكسية؛ إذ عقد المؤتمر «بقواعد أكثر تشددًا من قبل». وفي حين أقرّ المؤتمر بوجود تيارات داخل الحزب، لم يطبقه لما حان موعد التطبيق، فنشأت حملة ضد «الرفاق التسعة»، وشائعات داخلية بأنهم «يؤسسون لانشقاق داخل الحزب»، وأنهم «مخربون مأجورون لصالح جهات خارجية»، وحتى اتُّهم بعضهم بالعمل لصالح حزب الكتائب اليميني[320].

ثلاثة رفاق حضروا هذا المؤتمر، وهذه شهاداتهم. الأول كريم مروة: «وصلنا عام 1992 إلى المؤتمر السادس للحزب. كانت الحرب الأهلية انتهت وانهار الاتحاد السوفياتي. أهمية المؤتمر أنه يأتي في مرحلة جديدة محليًا وعالميًا. لبنانيًا خرجنا مهزومين من الحرب الأهلية، والسوريون سيطروا على البلد، فأخذنا قرارًا بمناقشة مرحلة ما بعد الانهيار. بداية التحضير للمؤتمر كانت أواخر سنة 1990، وانتُخبتُ للمرة الثانية نائبًا للأمين العام للحزب وكان معي نديم عبد الصمد. نديم كُلف بمهمات خارجية وأنا أعطوني [...] مهمات: مسؤول عن الإعلام ووسائل الإعلام، مسؤول عن العمل الفكري، مسؤول عن تاريخ الحزب، فألّفتُ لكل موضوع لجنة من أعضاء المكتب السياسي واللجنة المركزية، وكتبتُ أوراقًا أولية، وكان عندي آراء ومناقشات، منها أننا نعيش الآن زمنًا آخر، ولديّ فكرة متقدمة حول كل موضوع من المواضيع، أذهب فيها في اتجاه آخر. هكذا تكوّن ضدي تيار من قيادة الحزب، نصفه من المكتب السياسي»[321].

الرفيق الثاني هو يوسف مرتضى: «في المؤتمر السادس، رفضتُ الترشح للقيادة، لأننا [المجموعة المعارِضة] كتبنا تقريرًا إلى اللجنة المركزية، وطرحنا تغيير اسم الحزب، أن يكون àحزب الشعب' أو àالحزب الوطني الديمقراطي'. في هذا التقرير، أعدنا النظر في كل موضوعات الحزب، منها أننا حزب وطني ديمقراطي، ولسنا حزبًا شيوعيًا، الشيوعية انتهت خلاص [...] بعد ذلك، حصل في الحزب انقلاب على هذه الفكرة، وأنا من الذين اشترطوا تغيير اسم الحزب وتبنّي موضوعاتنا، لكي أترشح إلى القيادة. لم يصوت المؤتمر على ذلك، فصرتُ للأسف خارج القيادة بدءًا من عام 1992. ولكنني، على غرار جورج حاوي، لم أخرج من الحزب، لم أقدم استقالتي. بقيت فيه، ولكن من دون علاقات تنظيمية [...]. في تلك المرحلة، لم أقعد، عملت مع جورج حاوي وجورج البطل وحتى كريم مروة، الذي تقلب قليلًا حول هذا الموضوع. وبصراحة فشلنا أمام الغوغائية التي ما زالت حتى الآن سارية. ولكنني، كما قلت، عام 1992 بقيت على تواصل مع الحزب، كوني أسافر كثيرًا إلى الخارج، ثم جاء جورج البطل وعاد يتابع العلاقات الدولية مكاني [...]. عدتُ تنظيميًا إلى الحزب، بمعنى آخر عدتُ فعليًّا، وذلك عبر عملي في إذاعة àصوت الشعب'، واشتغلت فيها، وكنت على علاقة مباشرة مع الحزب. عام 1999، استلمت الأخبار في الإذاعة، وبقيت فيها حتى عام 2004»[322].

أما الرفيق الثالث غسان الرفاعي، فهو يرى المؤتمر السادس من زاوية أعم: «أولًا أن أزمة اليسار أزمة مركّبة ليست أزمة بسيطة. ليست خلافات بين أشخاص موجودين في إطار اليسار سواء حزب أو جمعيات. ولا هي قضية مثقفين مختلفين بين بعضهم. الأزمة أعمق وأبعد من ذلك [...]. كان ثمة توازن معيّن في العالم، سياسي وعسكري. هذا التوازن، واقعيًّا،

كان يتحكم في التطور العام لشعوب العالم كلها، لكنه انهار بسقوط السوفيات كدولة، ولهذا تغيرت المعايير كلها. وأتصور أن اليسار، كأفراد في كل العالم، صارت لديهم تفسيرات خاصة، بل في وسعي القول إنه صار لكل شخص منهم تفسيره لما جرى [...] نتيجة التضعضع السوفياتي وانعكاساته على المناطق، والشعور بالهزيمة، كانت النتيجة تعدد الآراء في الحزب. حسنًا، عند الهزيمة، لماذا يختلفون ولا يتفقون على التفسير؟ الجواب أنه في ظل هذه الأزمة، يصعب عليهم إيجاد الأداة الفكرية السليمة. بالعكس صار البحث موضوع اتهام. أنا مثلًا، رأيي أن الماركسية ما زالت السلاح الصحيح، باعتبارها منهجية فكرية فلسفية صالحة لفهم العالم مهما كانت تغيراته والظواهر الموجودة في العالم [...]، في حين أن الكثير من الشيوعيين واليساريين ضُربت هذه القناعة لديهم. لماذا ضُربت؟ لأن فهمهم للماركسية بالأساس قبل الانهيار [السوفياتي] لم يكن فهمًا صحيحًا. الماركسية لم نفهمها من ماركس. كلنا، وأنا من ضمنهم، فهمنا الماركسية من السوفيات ولهذا سميتها النظرية âالسوفياتية'، لا النظرية الماركسية. أولًا السوفيات قوْلَبوا الأحزاب الشيوعية كلها بفهم معيّن للماركسية، ولكن هذه الماركسية ليست مثل ماركسية ماركس. ماركس صارم جدًّا تجاه نفسه، باستنتاجات تكون علمية، لا تكون ذاتية، لا تكون مسخَّرة وموظَّفة مسبقًا لخدمة هدف ذاتي هو يقرره. السوفيات حوّلوا الماركسية إلى أداة للدولة الكبرى. حسنًا الآن، لماذا أركّز على ماركس وليس على لينين؟ لأن لينين هو الذي وضع الأسس السوفياتية. أعترفُ بلينين على أنه مفكر ثوري كبير، مفكر بالمعنى الماركسي، مفكر فلسفي فيلسوف كبير، ولكن في الوقت نفسه هو سياسي عملي. وبهذا التوازن بين الفكر والممارسة العملية، حصل تفاوت لصالح الممارسة والمصلحة المباشرة في حين أنّ العلم مصلحته ورؤيته بعيدتَا المدى»[323].

غير أن ثمة وجهًا آخر للصراع الداخلي في الحزب الشيوعي، لم يخرج كثيرًا إلى التداول العلني، ولا ثُبِّت بالوثائق، اللهم إلّا، أو ربما، الداخلية منها. يروي حسام عيتاني جانبًا منها، قبيل هذا المؤتمر وأثناءه، عن صراع أشبه بذاك الذي ينفجر بين الورَثة عقب وفاة المورِّث، وهي صراعات خيَّبت أمله بأن يجد الحزب إجابات حولها، فكانت وراء استقالته منه: «في تقديري إنها صراعات شخصية على أشياء ترتدي شكل الصراع الأيديولوجي والسياسي. والحقيقة هي صراعات شخصية على إرث الحزب. في تلك الفترة، كنتُ بدأتُ أفكر بطريق مستقلة ونقدية خارج الدوغما âالدينية'. ولم أكن أجد للأسئلة النقدية وللأفكار التي كانت تشغل بالي إجابات، فصار تباعد بيني وبين الحزب، وشيئًا فشيئًا انطفأت العلاقة وانتهت في أواسط التسعينيات بعد انتهاء الحرب»[324].

يحلو للباحث فارس اشتيّ عقد مقارنة بين مؤتمرين مصيريَّين للحزب الشيوعي: الثاني والسادس. ويخلص إلى أنه في المؤتمر الثاني، كان المطلوب من الحزب اعتماد الكفاح المسلح. أما في الثاني، فقد علَتِ الأصوات المطالبة بالديمقراطية. ويتابع أنه في المؤتمر الثاني «عادت الحياة إلى الموات الحزبي الذي ضرب منطلقات الحزب النظرية المتكلس»، الأمر الذي جعله يعود فينطلق، مع «إعادة تأسيس جديدة للحزب». أما المؤتمر السادس فـ «لم تُحسم نتائجه حتى الآن [2010]، رغم مرور عقدين على انعقاده»، بل إن هذا المؤتمر أحدث «ارتباكًا غير مسبوق في الحزب [...]، الأمر الذي جعل ارتدادات المؤتمر السادس والأجواء التي رافقته تنعكس سلبيًا عليه». أيضًا، في الموازين: المؤتمر الثاني جاء تحت سيطرة الاتحاد السوفياتي،

والسادس في لحظة انهياره، لكن نقاط الاختلاف أيضًا تفصح عن أمر إضافي: فالمؤتمران شهدا صراعًا داخليًا، ولكن، بعد المؤتمر الثاني خرج نخلة مطران [اتحاد الشيوعيين] في انشقاق لم يهزّ الحزب، ولا نال من عديده؛ إذ كانت نتائجه قد حُسمت لصالح قيادة الحزب، بينما المؤتمر السادس جاء «في لحظة موات الأب الرمزي؛ ما أفلت النقاش الداخلي من عقاله. رافق هذه الفوضى تراشق للاتهامات، تغير المتهمون فيها بين [المؤتمرين] الثاني والسادس»[(325)].

(312) جورج البطل، **أنا الشيوعي الوحيد**، حاوره فواز طرابلسي (بغداد: دار المدى، 2019)، ص 197، 303.

(313) مقابلة مع حسام عيتاني، 6/11/2018.

(314) شهادة زياد صعب في: حسين يعقوب، **يسار لبنان: تاريخ موجز وشهادات من التجربة** (برلين: مؤسسة روزا لوكسمبورغ، 2013)، ص 123.

(315) فارس اشتي وأحمد جابر وشوكت اشتي، **الاحتباس الديمقراطي في الأحزاب اللبنانية: نماذج: الحزب الشيوعي اللبناني – حزب الله – التيار الوطني الحر** (بيروت: الفرات للنشر والتوزيع، 2010)، ص 47.

(316) المرجع نفسه.

(317) مقابلة مع حسن داوود، 15/12/2018.

(318) اشتي وجابر واشتي، ص 50.

(319) المرجع نفسه، ص 71.

(320) شهادة زياد صعب في: يعقوب، ص 124-125.

(321) مقابلة مع كريم مروة، 4/11/2018.

(322) مقابلة مع يوسف مرتضى، 19/12/2018.

(323) مقابلة مع غسان الرفاعي، 3/1/2019.

(324) مقابلة مع حسام عيتاني.

(325) اشتي وجابر واشتي، ص 70.

الفصل الحادي عشر: الحرب والسلام والأصولية

عشية انعقاد المؤتمر السادس للحزب الشيوعي، توقفت رسميًا الحرب الأهلية باتفاق أُنجز في نهاية عام 1989، وبوشر تطبيقه في العام التالي؛ إنه اتفاق الطائف، واسمه يعود إلى المدينة السعودية التي استضافت الفرقاء المتخاصمين، برعاية عربية ودولية ناجزة. هذا الاتفاق لم يكن «محطة» إجماع لمثقفينا اليساريين، إذ راوحت مواقفهم بين المشاركة في صياغة الاتفاق، ومعارضته، واللامبالاة تجاهه، واستيعابه على نحو غير سياسي بالضرورة.

الراحل سمير فرنجية، وكان من قدماء يساريّي منظمة العمل الشيوعي، اشترك بنفسه في صياغة الاتفاق: «منذ عام 1987، أنخرط في عملية تبادل الأفكار مع رفيق الحريري، ما سيؤدي عام 1989 إلى اتفاق الطائف، ومعه هاجس واحد: بناء لبنان السلام». والنقاط التي يعتبرها فرنجية إنجازًا في هذا الاتفاق هي: «الاعتراف علنًا بالطابع النهائي للبنان، وخروج الجيوش الأجنبية كافة عن أرضه، وهما مطلبان مسيحيان قديمان. ويعطي [الاتفاقُ] إعادة التوازن للسلطات بين الطوائف، ويكرس الانتماء العربي للبنان». والاتفاق عند فرنجية أسَّسَ «لصيغة استثنائية للعيش المشترك، تسمح للبنان بأن ينفرد بأسلوبه الحضاري، الذي لا نجد له نظيرًا في مكان آخر»[326].

أما «الرفاق» الآخرون، فما كانوا على الموجة نفسها؛ فحازم الأمين وجهاد الزين وزياد ماجد يمرون عليها بسرعة وبما يشبه اللامبالاة. يروي حازم الأمين أنه بقي في العمل العسكري حتى نهاية الحرب «بأربعة أو خمسة أشهر»[327]، أي إن منعطف حياته السياسية، المؤدي إلى ترك الحزب الشيوعي، كان أهم من نهاية الحرب والاتفاق المكلِّل له. مثله زياد ماجد الذي يتكلم أيضًا عن تطور علاقته بالسياسة، فيضعها بين الحرب ونهايتها: «آخر سنوات الحرب وسنوات ما بعد الحرب، كنت أحاول أن أكون على علاقة أقوى بالسياسة لأنها شأن عام، من دون أن أكون بالضرورة ضمن آليّة حزبية أو ضمن إطار»[328]، بينما جهاد الزين يضع تأييده لإعلان المبادىء الفلسطيني – الإسرائيلي بشأن ترتيبات الحكومة الذاتية المعروف باتفاق أوسلو للسلام في سياق معارضته النظام السوري واتفاق الطائف: «أنا مؤيد لاتفاق أوسلو معارض للوجود السوري أو لاتفاق الطائف أو للوصاية السورية»[329].

نهاية الحرب عند وسام سعادة هي فرصة أبوَيه للتفكير في الانتقال من بيروت الغربية ذات الغالبية المسلمة إلى بيروت الشرقية المسيحية، والتعاطف مع أهلها الذين خسروا الحرب: «عندما انتهت الحرب، كنتُ مع فكرة الانتقال من بيتنا والعودة إلى بيروت الشرقية [ذات الغالبية المسيحية]، وكان عمري ثلاث عشرة سنة، ولم أكن قد زرتُ بيروت الشرقية يومًا [...]. كان الأمر غريبًا، وكان تقسيمي للعالم غريبًا، وأنا في هذا العمر. لم يكن تقسيمًا حزبيًا صرفًا، إنما حزبي مربوط بالطائفي، أي إن الأقرب إليّ كانوا الشيوعيين المسيحيين الذين ألعب معهم، ولي أصحاب من بينهم؛ كنت أراهم الصفوة [...]، هم أصحابي في المدرسة، راهبات الكرمل. وقد كنّا، المسيحيين، من عوائل شيوعية في معظمنا [...]. وبعد الثمانينيات، بدأ المسيحيون يختفون، ويرحلون إلى [بيروت] الشرقية أو إلى كندا [...]. وبعد نهاية الحرب، بدأت أشعر

بالتعاطف مع المسيحيين، خصوصًا أنهم كانوا من الخاسرين فيها، وكنتُ في هذا العمر غير مقتنع بأن البلاد يمكن أن ترسو على واحد رابح وواحد خاسر، بهذه الطريقة، وخصوصًا إذا كان السوريون يحكمون كل شيء»[330].

ولا يختلف حسام عيتاني عن هذا الأمر كثيرًا: «حتى على المستوى الأيديولوجي والسياسي كان لبنان في سبيله إلى الخلاص من الحرب ودخل في اتفاق الطائف، وصار للوجود السوري دور جديد، أقوى وعلني وأكثر صراحة. وإذا أردتِ أن تجدي لنفسك مكانًا، باتَ عليكِ أن تبدئي بتغيير سياستك، وتغيير طريقة تفكيركِ ونظرك إلى الأمور. في ذاك الوقت، لم نكن قادرين على الخروج من سطوة ما، ربما سببها الحرب نفسها، وربما الفردية بالقيادة [في الحزب الشيوعي]، وربما الاثنان معًا [...]، فصرنا في الخارج»[331].

أما الحزبيان الباقيان، يوسف مرتضى وزكي طه، فلهما رأي مفصّل حول اتفاق الطائف؛ ربما لأنهما لم «يخرجا»، مثل حسام عيتاني، وما زال لديهما «مشروع»، حتى لو كان منكفئًا. الأول، يوسف مرتضى: «ليكون لديك مشروع دولة عليك أن تطبقي دستور الطائف، وتشكيل هيئة وطنية لإلغاء الطائفية ومجلس نيابي خارج القيد الطائفي [...]، وبرنامج الحزب الشيوعي المرحلي لا يجب أن يتجاوز سقف تطبيق دستور الطائف. أي تجاوز لدستور الطائف، وإعادة النظر فيه، يمكن أن يقودَا البلاد إلى حرب أهلية جديدة. وهذه معادلة لا يوجد إمكانية لتغييرها. لذلك، على الحزب [الشيوعي] أن يستظل بهذا الأمر ويعبئ حركة شعبية لها مصلحة في بناء الدولة، دولة القانون ببرنامج مرحلي سقفه الطائف [...]. الذي صاغ اتفاق الطائف عقل عبقري. فهو راعى مكونات البلاد الطائفية، وتقدم بخطوة في اتجاه بناء الدولة المدنية، التي يمكن أن تتطور. عندما يؤسَّس مجلس شيوخ فيه توازن طائفي، يراعي كل هذه المكونات، وله دور في قرارات أساسية لإدارة البلد، ومعه مجلس نواب خارج القيد الطائفي يتابع قضايا البلاد كلها، ثم يتعاون المجلسان، النواب والشيوخ...! هي نظرة عبقرية لطبيعتنا. عودي الآن إلى مهدي عامل وكلامه عن الدولة [...] كله كلام تنظير ليس له مكان هنا»[332].

أما زميله في منظمة العمل الشيوعي، زكي طه، فهو لا يرى الاتفاق بالعين نفسها؛ ربما لأن المنظمة غير ملزمة بمواقف «عملية»، نظرًا إلى انسحابها من المشهد بعد الاجتياح الإسرائيلي عام 1982. وهو يصف اتفاق الطائف بالطائفي قائلًا: «لم تتوقف الحرب إلا في نهاية عام 1989 مع اتفاق الطائف. هنا تصحّ قراءة اتفاق الطائف بصفته تسوية طائفية، وبصفته إصلاحًا طائفيًا للنظام الطائفي. ومن جهة ثانية، إن الذي كُلف بهذا الاتفاق ووضعه موضع التنفيذ هو الوصي السوري، أيضًا وفق حسابات إقليمية، مثل غزو العراق للكويت وتشكّل التحالف الدولي لتحرير الكويت [...] فكُلف النظام السوري بتنفيذ اتفاق الطائف وفق مصالحه ورغباته وأهوائه، بصيغة تضمن إعادة إنتاج الوصاية والسيطرة على البلد وتقديمها على أنها حاجة لبنانية، أي إن اللبنانيين قاصرون لا يستطيعون الاستغناء عنهم [أي عن السوريين]. ومن ثمّ تحولت كل مشاريع الإعمار والإنقاذ التي جرى استحضارها إلى البلاد، إلى مشاريع طائفية». وينتقد زكي طه موقف الحزب الشيوعي من الاتفاق: «الحزب الشيوعي مع اتفاق الطائف، لأنه ساد عنده وهْم، أنه في استطاعته أن يأخذ حصة، وأن هذا الحق مكتسَب. لذلك، منذ اللحظة الأولى لتسليم سلاح الميليشيات [بناء على أحد بنود الاتفاق] أصرّ الحزب الشيوعي في حينه على أن يصنَّف àميليشيا’. فكان السجال معه حول الدافع لهذا التصنيف: نحن جميعًا، المنظمة والحزب،

لماذا نقبل أن نصنَّف àميليشيا’ في حين أننا مقاومة؟ [...]. نخسر امتياز أننا مقاومة ونعلن أنفسنا àميليشيا’؛ فقط من أجل إدخال بضع عشرات من الشباب إلى أجهزة الدولة [...]. هذه مأساة. بهذا المعنى كنا مختلفين: كنا نرى أن موقعنا ما زال موقعًا اجتماعيًا شعبيًا، بينما الحزب [الشيوعي] كان يرى أنه يجب أن يُعطى موقعًا في النظام السياسي»[333].
الطائف لم يمر من هنا، أو أنه مرّ على مضَض.

ماذا في اتفاق الطائف نفسه؟ ينص هذا الاتفاق على رزمة «إصلاحات سياسية» تعيد توزيع السلطة على ممثلي الطوائف، لحساب المسلمين وعلى حساب المسيحيين. ويربط الاتفاق بين هذه «الإصلاحات» وانسحاب كل الجيوش المحتلة للبنان، أولهم الجيش الإسرائيلي: «اتخاذ كافة الإجراءات اللازمة لتحرير جميع الأراضي اللبنانية من الاحتلال الإسرائيلي، وبسط سيادة الدولة على جميع أراضيها، ونشر الجيش اللبناني في منطقة الحدود اللبنانية المعترف بها دوليًا»[334].

ولكن، على الأرض، وبعد الجيوش المحتلة، ما الميليشيات الواجب نزع سلاحها؟ إنها تتوزع كالتالي: «àأمل’ في الجنوب تتقاسمه على أرجحية لها مع بعض المنظمات الفلسطينية في حدود ضيقة ومع àحزب الله’؛ في صيدا تنظيمات ناصرية وإسلامية؛ في الشوف وعاليه سيطرة الحزب التقدمي الاشتراكي؛ في البقاع سيطرة لـàحزب الله’؛ في المتن الأعلى سيطرة للحزب السوري القومي الاجتماعي؛ في الضاحية سيطرة لـàحزب الله’ وàأمل’ مع تفوق الأول على الثانية؛ في بيروت الغربية سيطرة لـàأمل’ وàحزب الله’ والحزب التقدمي الاشتراكي؛ في وسط ساحل المتنين وبيروت الشرقية وكسروان وجبيل سيطرة للجيش اللبناني وàالقوات اللبنانية’ [يمين مسيحي] على أرجحية الجيش في منطقة المتنَين وأرجحية لـàالقوات اللبنانية’ في بيروت الشرقية وكسروان وجبيل»[335].

لا وجود، حتى لو كان ميليشياويًّا، لليساريين اللبنانيين، خصوصًا الشيوعيين الذين بقوا حتى اللحظة الأخيرة يقاتلون بالسلاح على الجبهات المختلفة. لقد سمح الطائف للجيش السوري بالبقاء مدة عامين فقط، ومن بعد ذلك إعادة انتشار ثم انسحاب. ونزع الأسلحة الميليشياوية كافة، باستثناء سلاح حزب الله. وكانت سورية «مرتاحة إقليميًا»، كما ذكرتُ، بعيد حرب الخليج الثانية التي أضعفت منافسها البعثي صدام حسين، وباتت تحت عين الرضا الأميركي؛ ما سهل عليها مهمة تنفيذ اتفاق الطائف، بما يلائم مصالح نظامها.

ففي الخامس من تشرين الثاني/نوفمبر من عام الاتفاق و«السلام»، يُنتخب رينيه معوض (1925–1989)[336] رئيسًا للجمهورية اللبنانية، ولكنه لا يلبث أن يُغتال بعد هذا الانتخاب بسبعة عشر يومًا. فيصعد إلى الرئاسة إلياس الهراوي (1926–2006)[337]. يقارن النائب السابق ألبير منصور بين الموازين التي أتت بالرؤساء اللبنانيين منذ خمسينيات القرن الماضي، وصولًا إلى الهراوي؛ إذ يكتب: «الرئيس [فؤاد] شهاب ساهم في مجيئه اتفاق الولايات المتحدة الأميركية وعبد الناصر، شارل حلو تكملة لعهد فؤاد شهاب. سليمان فرنجية جاء به توازن الصراعات الداخلية، إلياس سركيس جاء به تفاهم أميركي سوري، بشير وأمين الجميل جاء بهما تفاهم أميركي إسرائيلي، رينيه معوض جاء به تفاهم أميركي سعودي سوري، إلياس الهراوي جاء به السوريون منفردين مع عدم معارضة أميركية»[338].

هكذا يفتتح فصل السلام اللبناني الأول بإبعاد المعارضين للوجود السوري من الأساس، وجلّهم مسيحيون: فالمسيحيون والمعارضون، كانوا قد نفروا من «حكم الميليشيات» الحاملين معهم «الهيمنة والاستعلاء والطاووسية والإباحية في التعامل والتسلط وفرض المواقف والآراء»؛ ذلك أن «تركيبة الحكومة شارك فيها أرباب الميليشيات على غير إعداد لممارسة الحكم بشكل جدي ورصين. دخلوا حاملين معهم تقاليد وممارسات المقاطعة والهيمنة والتفرد والتشبيح»[339].

ولكن أيضًا، قبل الطائف وتوقف الحرب بعامين، كانت تجري غير بعيد الانتفاضة الفلسطينية، الأولى، السلمية، تترك علاماتها على المنطقة، وتهيئ لمناخ السلام والمفاوضات من أجله. اندلعت الانتفاضة الفلسطينية في 11 كانون الأول/ ديسمبر 1987، ستهدأ عام 1991، تاريخ بدء هذه المفاوضات، وتتوقف نهائيًا مع توقيع اتفاق أوسلو للسلام عام 1993.

هذه الانتفاضة، هي أول مرة في تاريخ المواجهات الفلسطينية – الإسرائيلية يكون السلاح فيها حجارة يرميها بكثافة شباب ومراهقون وأطفال ضد العساكر الإسرائيليين. يتطور هذا الأسلوب شيئًا فشيئًا نحو المناشير ومكبِّرات الصوت ورسوم الحيطان. مطالب هذه الانتفاضة واضحة: إقامة دولة فلسطينية مستقلة عاصمتها القدس، وتمكين الفلسطينيين من تقرير مصيرهم، وتفكيك المستوطنات، وعودة اللاجئين بلا قيد أو شرط، وتقوية الاقتصاد الفلسطيني، وإخلاء سبيل الأسرى الفلسطينيين والعرب من السجون الإسرائيلية، ووقف المحاكمات العسكرية الصورية والاعتقالات الإدارية السياسية والإبعاد والترحيل الفردي والجماعي للمواطنين والناشطين الفلسطينيين، ولمّ شمل العائلات الفلسطينية من الداخل والخارج، ووقف فرض الضرائب الباهظة على المواطنين والتجار الفلسطينيين، ووقف حل هيئات الحكم المحلي المنتخبة من مجالس بلدية وقروية ولجان مخيمات، وإتاحة المجال أمام تنظيم انتخابات محلية ديمقراطية للمؤسسات في البلاد[340].

كل هذا يربك القيادة الإسرائيلية التي يختلف أقطابها حول «المسؤولية الإقليمية» لهذه الانتفاضة، بين رئيس الوزراء وقتها يتسحاق رابين (1922–1995)[341] الذي يرى أيدي إيران وسورية فيها، ومنافسه يتسحاق شامير (1915–2012)[342] الذي يؤكد أنها من صنع منظمة التحرير الفلسطينية. ثم يتسحاق رابين نفسه، الذي سيُغتال في عام 1995 بعدما وقع مع عرفات اتفاقية سلام، يهدد الفلسطينيين السلميين المشاركين في الانتفاضة بتكسير «أيديهم وأرجلهم لو وجب ذلك». تصاعد العنف الإسرائيلي أمام إصرار الانتفاضة على أن تمضي قدمًا بسلميتها النسبية؛ إذ تقتصر أعمالها العسكرية على 15 في المئة من نشاطاتها. هذا العنف يقلب الرأي العام الإسرائيلي والعالمي ضد الحكومة الإسرائيلية. تقوى الانتفاضة بفلسطينيي الداخل، أو عرب 1948 كما يسمّون، فيتضامنون معها بالأشكال كافة، وينخرطون بكثافة في الاقتراع.

والأهم من كل ذلك أن حركة المقاومة الإسلامية «حماس» ولدت في قطاع غزة بعد أيام من اندلا ع هذه الانتفاضة، وكان مؤسسها الشيخ أحمد ياسين (1936–2004)[343]، أحد أبرز رموزها الدينيين، وباتت هي صاحبة المبادرة الأولى.

ويمكن تلخيص الانتفاضة في أن الإسرائيليين، في نتيجتها، اعترفوا بالشعب الفلسطيني، وبعدم وجود حلّ عسكري للصراع معه، وأدركوا التأثير السلبي لاحتلالهم الضفة الغربية وقطاع غزة.

هكذا تنعقد آمال السلام، ويحلّ مناخها، سلبيًا وإيجابيًا إزاء احتمالاته، وطرائق التعامل معه. اتفاق أوسلو (أيلول/سبتمبر 1993) هو صيغته النهائية، وهو ينص على وضع حد للمواجهات، والتعايش السلمي، و«تسوية شاملة وسلمية وعادلة ودائمة». ومضمون هذه التسوية تشكيل سلطة فلسطينية انتقالية ذاتية والانسحاب الإسرائيلي من قطاع غزة والضفة الغربية لتبدأ السنوات الخمس الانتقالية، وإقامة سلطة فلسطينية عليهما، وتنظم الكهرباء والميناء والتنمية والصادرات والبيئة والمياه ...إلخ، بما فيها الشرطة، «بينما تواصل إسرائيل تحمّل مسؤولية الدفاع ضد المخاطر الخارجية وكذلك مسؤولية أمن إسرائيل»[344].

في هذه الأثناء، المناخ الآخر، الرافض للاتفاق، يبعث الحياة لعمليات عسكرية متصاعدة في جنوب لبنان، بدءًا من عام 1992، والجنوب لم يخلُ منها يومًا. أولى العمليات كانت عملية اغتيال الأمين العام لحزب الله عباس الموسوي (1952–1992) في عام 1992، تلتها عملية «تصفية الحساب» الإسرائيلية القليلة الشهرة، وهي الأعنف مما سبقها؛ تستمر أسبوعًا كاملًا تخلف وراءها تدميرًا واسعًا في أكثر من سبعين قرية وتهجيرًا لحوالى ثلاثمئة ألف مواطن وسقوط أكثر من 115 شهيدًا، فتنهال على إسرائيل صواريخ الكاتيوشا من جنوب لبنان، وتكون النتيجة فرض تفاهم شفوي، «تفاهم الكاتيوشا» الذي ينص على حق المقاومة في القيام بعمليات ضد مواقع الجيش الإسرائيلي، مع التقيد من جانبها، ومن جانب إسرائيل، بعدم استهداف المواقع المدنية في العمليات العسكرية[345].

وتستمر العمليات العسكرية ضد إسرائيل في الأعوام اللاحقة: 513 عملية عام 1994، و876 عملية في العام التالي، حتى عملية «عناقيد الغضب» الإسرائيلية في نيسان/أبريل 1996، التي تنتهي باتفاقية أخرى، في العام نفسه، مكتوبة هذه المرة: إنها «اتفاقية نيسان» التي تمنح المقاومة المزيد من الشرعية، بأن تلتزم بالحدود الدولية، إذا طُلب منها، وبمراقبة دولية، وبأن «المجموعات المسلحة في لبنان»، حزب الله حصرًا، «لن تقوم بهجمات بصواريخ الكاتيوشا أو أي نوع آخر من السلاح إلى داخل إسرائيل»، وذلك مقابل أن «إسرائيل والمتعاونين معها لن يطلقوا أي نوع من السلاح على المدنيين، أو الأهداف المدنية في لبنان»[346]، فتنطلق المقاومة، هكذا بوتيرتها العالية، أكثر ثقة بنفسها، لنصل إلى عام 1999، عشية الانسحاب الإسرائيلي من جنوب لبنان. وهذا عام يبدأ بمقتل قائد قوات الاحتلال في لبنان إيرز غيرشتاين، وينتهي بعملية انتحارية في عمق المنطقة اللبنانية المحتلة[347].

في هذه الأثناء، ماذا يقول الرفاق اليساريون؟

يطل الراحل جوزيف سماحة، العضو القيادي السابق في منظمة العمل الشيوعي، في عام توقيع اتفاق أوسلو، بكتاب يناهض السلام، من منطلق «ممانع»؛ وهي عبارة يرددها طوال الكتاب، ويساهم ربما في ذيوعها. يقول سماحة إن هدفه من هذا الكتاب «استباق الارتداد» متسلحًا بمرجعية ياسين الحافظ وإلياس مرقص (1927–1991)[348]، ويتابع أن «التسوية نجحت في إغلاق فصل الممانعة العربية، وهي تريد أن تبني فوق ذلك من أجل إحكام القبضة على الأمة».

وتجربته الرائدة في مبتغاه هذا هي التجربة الناصرية؛ إذ «تميزت الناصرية [...] بأنها كانت القوة الوحيدة أو التجربة الوحيدة التي طرحت على الأمة العربية الأسئلة الفعلية المطروحة عليها»، فهو لا يحلل من لبنان، إنما من العالم العربي بأسره. عن

الوعي المرافق لهذه التسوية، يقول: «إنه وعي استفزازي ورقيع ومحمول على موجة عاتية، غير أنه، أيضًا، متردد وديماغوجي وقائم على خواء. إنه في العمق، عابر»، من هنا عنوان كتابه الملخص لوجهته هذه: **سلام عابر**[349]. وفيه نقد إضافي للطريقة التي دخلنا بها في المفاوضات، وللقبول بعدم العداوة مع إسرائيل، وعدم اعتبار الصراع معها وجوديًا، بإغفال دور الكيان الإسرائيلي، بالفصل الذي يقيمه «السلميون» بين اليمين واليسار الإسرائيلي، مراهنين عبثًا على الثاني، بإغفال العرب البُعد النووي لإسرائيل؛ إذ «لديهم قناعة ضمنية بأنها [القنبلة النووية] مجرّد خردة غير قابلة للاستخدام»؛ بتصوير الاتفاقات على أنها انتصارات، وبغياب الأولوية عند العرب، وقوامها «نهضتهم بوجه العدوين الأميركي والإسرائيلي»، وقد اهتزّت هذه النهضة مع انهيار الاتحاد السوفياتي، وبتجاهلهم الدائم للهوة الدائمة، القائمة بين حقهم وعدم استعدادهم للدفاع عنه، وبغياب وعيهم بانهزاميتهم التي أفضت إليها تلك الهوة.

ومن بين القوى التي تستطيع التعبئة في معركة دفاعية، يرى جوزيف سماحة أحزابًا إسلامية، على رأسها حركة حماس وحزب الله. ومع أنه يعترف بأن الإسلام الأصولي الحزبي «يوصل المقاومة إلى الاصطدام بالحائط»، فإنه يرى، أيضًا، في الإسلام الأصولي «قوة الاعتراض الجدية الوحيدة في غير بلد عربي»، فالديمقراطية عنده ليست من الأولويات؛ إذ يضعها في المكانة ذاتها التي يحتلها القمع، في ظل التراجع والهوان، «حيث àالديمقراطية' مفيدة لحماية مفاعيل الانسحاق ستنتعش الديمقراطية، وحيث القمع أفضل سيكون القمع هو الخيار». ولكنه في صفحات تالية، وفي معرض تبخيسه السلام، يعلن أنه، أي السلام، لن يأتي بالديمقراطية الموعودة. ويتساءل، مشككًا في نتائجه «الكاذبة»، إن كان هذا السلام «يصاحبه تطور نحو الانفتاح السياسي وتخفيف وطأة القمع، وعودة المجتمع إلى اكتساب حيز من الاستقلال عن الدولة؟»[350].

اغتيال يتسحاق رابين بعد عام على توقيع اتفاق أوسلو، في حفل من أجل السلام في تل أبيب، يقلب وجهة الرياح. قَتَله شاب من اليمين المتطرف كان تحت تأثير «مجلس ييشا»، وهو منظمة تمثل المستوطنين اليهود في الضفة والقطاع. تأسست في السبعينيات، وخاضت معركة تحريض قاسية ضد يتسحاق رابين، بصفته أضاع الأرض التي استوطن فيها اليهود. ما كان ممكنًا قبل الاغتيال باتَ الآن مستحيلًا. كان يمكن أن توقف إسرائيل الاستثمار في المستوطنات، كان يمكن أن تنجح، مثل عرفات، في لجم التيارات الرافضة للاتفاق. ولكن بعد اغتيال يتسحاق رابين تخلت إسرائيل عن السلام، وهو في كل الأحوال كان سلامًا أعرج.

في هذا المناخ الساخن/البارد، وعشية الاعتداء الإسرائيلي على لبنان، المسمى «عناقيد الغضب» (1996)، الذي أدّى فيه حزب الله دورًا عسكريًا بالتصدي له، يُصدر رفيق آخر، هو وضاح شرارة، كتابًا أكاديميًا عنوانه **دولة حزب الله: لبنان مجتمعًا إسلاميًا**[351]. خيط واحد يوحّد الكتاب متسلحًا بأبحاث ميدانية دقيقة، ومعلومات حول التوزع الجغرافي لبعض الحوزات والمصليات والمساجد والحسينيات، وآيته فكرة استفادة حزب الله من ضعف الجهاز الديني التقليدي القديم، وتجنيده الفقهي الديني مجموعة من الشبان المنتمين إلى فئات رثة من المجتمع في شبكة حزبية اجتماعية جديدة، تكمن كل «مؤهلاتهم» في ولائهم التام للحزب. وتكرار لازمة الحراك الاجتماعي هذه، رئيسة؛ ترافقها أو تتداخل معها، بل أحيانًا تدعمها مجموعة من اللازمات الثانوية الأخرى: أهمها السمة الخارجية، الإيرانية تحديدًا، لحزب الله (من حيث النشأة

والتوجيه والهيكلية ...إلخ)، ثم التشابه البنيوي وغير البنيوي القائم بين هذا الحزب من جهة وكل الأحزاب ذات المنْبت الماركسي أو اللينيني أو الماوي أو الستاليني من جهة أخرى. سمة أخرى لوصف حزب الله أنه ثابت على هدفه منذ عام 1982 إلى الآن، لم يضف إلى إيرانيته إلا سورية مأخوذة بالحسبان، فالعدو العام للحزب، من «القوات الإسرائيلية إلى الوحدات الأميركية والفرنسية، والقوات اللبنانية والجيش اللبناني والمواطنين المسيحيين والمواطنين الأجانب، وجيش لبنان الجنوبي والسفارات الأجنبية وبعض المواطنين المسلمين» الذين يخالفون الإسلاميين في الهوى والمشارب، فضلًا عن حركة أمل و«المسلحين الفلسطينيين»؛ هؤلاء كلهم الذين كانوا وما زالوا هدفًا لأعمال الإسلاميين (يقصد الحزب) الحربية، تسهم حربهم في إنشاء «الجيب الإيراني». ومرجعية الحزب، الإيرانية، الآتية، ليس من الثورية، إنما من الرثاثة، فيقارن بين الإسلامية والشيوعية، ويقول: «كان سبيل ‘لجان الإمام’ في الانتفاضة الإيرانية هو عينه سبيل ‘الدولة النقيض’ التي عرّف بها لينين الحزب الشيوعي في الدولة والثورة». والمقارنة لا تتوقف هنا؛ إذ يرصد شرارة أوجه الشبه بين حزب الله والحركة الشيوعية، ومنها رغبته في بسط السطوة على المجتمع والدولة والتخطيط لها، إلى التنظيم الحزبي الدقيق، إلى تبنّيه أنواعًا شتى من الإرهاب، إلى ارتكازه على الحراك الاجتماعي تعزيزًا لموالاة رجالاته له، إلى تبنّيه الحرب الشاملة على كل شيء والجميع، إلى انقسام العالم عنده وفق ثنائية الخير والشر ...إلخ. المقارنة المنتظمة بين الإسلامية والشيوعية عبرت طول الكتاب وعرضه، ولكنها انتهت إلى أن الخلاص من الإسلامية مشروط بالدخول إلى الحداثة[352].

بعد مرور سنة على كتاب وضاح شرارة، يعود رفيقان آخران إلى مسألة السلام مع إسرائيل فيتساجلان عبر الصحافة، **الحياة** و**النهار**، سجالًا مباشرًا ونادرًا، حول عملية السلام أيضًا، وبوجهتين متناقضتين، والاثنان ضمّا هذه المقالات في كتاب منفصل لحازم صاغية هو: **دفاعًا عن السلام**[353]. يفتتح كتابه بأن وصول المتطرف بنيامين نتنياهو إلى السلطة في إسرائيل مسؤول بالطبع عن تدهور عملية السلام، ولكنه يرى أيضًا أننا «مسؤولون أيضًا»، وأن «إجماعنا على محاربة إسرائيل لفظي» فحسب. ثم يأخذ مثل أحمد الدقامسة عبرةً؛ وأحمد الدقامسة هذا هو جندي أردني سابق خدم في حراسة الحدود الأردنية. كان قد أطلق النار على مجموعة من الفتيات الإسرائيليات بسبب استهزائهن به أثناء صلاته قرب الباقورة في آذار/مارس 1997.

فصاغية ينطلق ناقدًا أوجه انعدام جاذبيتنا بوصفنا عربًا، إلى لاساميتنا، إلى عشرات السنوات التي نكتب أثناءها عن حقنا المطلق، وعن تآمر العالم علينا؛ ما أوقعنا في سجن، طاقته الوحيدة «الغضب السوداوي» المؤدّي إلى التدمير الذاتي، معترفًا بأن الفلسطينية مشكلة حق، وكذلك الإسرائيلية، مستشهدًا بالكاتب الماركسي إسحاق دويتشر (1907-1967)[354] «الذي وصف اللقاء الدرامي بين الحقَّين في صورة بديعة: رجل احترق في البيت [اليهود في أوروبا]، فرمى نفسه من النافذة ليقع على رجل مسكين يسير على الرصيف [الفلسطيني]». أو الصورة الأخرى للسياسي والكاتب الإسرائيلي يوري أفنيري (1923-2018)[355]: «هارب من وحش في الفلاة، لم يجد أمامه غير كوخ يدخله. كان طبيعيًّا أن يحاول الدخول، وكان طبيعيًّا أن يقاومه صاحب الكوخ. الهارب: اليهود. الوحش: هتلر. الكوخ: فلسطين». ومن الحقَّين ينطلق صاغية نحو المزيد. نسبية هذا الحق هي خلاصه، إذ لا حق مطلقًا في دنيا هذه السياسة يفتح نافذة فهم على اليسار الإسرائيلي

المناهض لنتنياهو، مخرّب عملية السلام، فيما العمليات الانتحارية هي «تصويت لنتنياهو»؛ إذ لا فرق بين الوحش الأصولي اليهودي والوحش الأصولي الإسلامي. لا، بل مع الفرق عند اليهودي الذي يقلّ خطره، نظرًا إلى أن اليهودية ليست ديانة تبشيرية، ولا امتدادَ أوروبيًا غربيًا لها. ومن هذه المنطلقات، يدعو صاغية إلى تفهم مأساة الآخر، والتخلص من عقلية الضحية بالتخلص من لاساميتنا، وهذه اللاسامية آخذة في الصعود مع صعود الأصولية الإسلامية؛ فبالاهتمام بالمحرقة نكون أكثر اقترابًا من السلام الموعود[356].

يردّ فيصل جلول على حازم صاغية، في كتاب عنوانه **دفاعًا عن السلام العربي**[357]، بتفسير لظاهرة أحمد الدقامسة، وأشباهه من أصحاب العمليات الانتحارية؛ إذ يقول: «ينتحر الفلسطيني في سوق إسرائيلي ليس بصفته وحشًا، بل لأنه دُفع إلى الانتحار [...]، فلماذا يريدنا صاغية أن نعتبره وحشًا كاسرًا. أليست الدولة الإسرائيلية هي الوحش الحقيقي؟». ويركز على المفاعيل السلبية لعملية السلام بأنها ترجمة لرغبة «واشنطن وإسرائيل في تطبيع ثقافي عربي – إسرائيلي»، وهي عملية تود «تحضير الرأي العام العربي لدمج إسرائيل ثقافيًا في الحياة الداخلية العربية [...] وإحداث تغيرات جذرية في بديهيات وتاريخ نشوء إسرائيل [...] بما يتفق مع التصورات العبرية». ويصف باستنكار ثمرة الجهود التي بذلها الإسرائيليون والأميركيون، بشأن تهيئة مناخات تطبيعية، مثل تكوين «جماعة كوبنهاغن»، وزيارات مثقفين عرب لإسرائيل، وانتشار واسع لدعوات التطبيع الشامل معها، فضلًا عن مثقفين أفراد، مثل حازم صاغية (وهو يكرر مشاعر الود والاحترام، بل مشاعر الإعجاب التي يكنّها لصاغية).

ثم يتابع وصف هزال عملية السلام: فبعودة عرفات إلى الضفة الغربية تنفيذًا لاتفاق أوسلو، تسلم «مسؤوليات السكان دون الأرض»، وخاض «سياسة قمعية ضابطة للانتفاضة والأصوليين الإسلاميين». ثم يخلص إلى أننا «لسنا مهزومين إلى هذه الدرجة»، وأن «حقنا مسألة مبدئية مطلقة غير نسبية»، فيصوب العقل، قائلًا: «إذا كان صحيحًا أن الحق المبدئي لا يمكن أن يكون نسبيًا، فإن حق اللجوء اليهودي في فلسطين وحق الاستقرار فيها بالقوة وحماية هذا الحق وتثبيته، واعتراف عرفات به وموافقة العرب عليه يسمح باعتباره نسبيًا وواقعيًا، وغير قابل للتعديل بالقوة، وغير قابل لإعادة النظر بفعل موازين القوى وإرادة العالم».

وفي ما يتعلق بالمحرقة يردّ جلول على صاغية: «كان يجدر بنا القول إن النازية ألحقت الأذى بنا عندما ارتكبت المحرقة، وإن العنصرية الفرنسية تسبّبت بأذى لنا أيضًا عندما جعلت àدريفوس' الضابط الفرنسي يهودي الأصل، àكبش محرقة'». أضرت بنا المحرقة، وميل المتعصبين اليهود إلى القول إنها «الجريمة الوحيدة في التاريخ» حوّلها إلى أداة توسع وتوحش. وهو، من ناحية مقابلة، يخطّئ صاغية لقوله إن الأصولية غير مؤهلة لاعتماد الخيارات السياسية البراغماتية المرنة، إذ يكتب: «حزب الله في لبنان يجيد العمل السياسي البرلماني ويندمج في الحياة السياسية، بقدر إجادته فتح نوافذ في المقاومة لتيارات حداثية، ولغير الشيعة من الطوائف اللبنانية»[358]، وكأنه بذلك يردّ أيضًا على وضاح شرارة، ربما عن قصد، وربما عن غيره، إنما لأنّ «الاتجاهين» فقط بدآ بالتبلور، في صفوف اليساريين، التاركين منهم والباقين.

(326) Samir Frangié, *La révolution tranquille* (Beyrouth: L’Orient des Livres, 2017), pp. 13-14.

(327) مقابلة مع حازم الأمين، 7/1/2019.

(328) مقابلة مع زياد ماجد، 11/9/2018.

(329) مقابلة مع جهاد الزين، 11/9/2018.

(330) مقابلة مع وسام سعادة، 20/1/2019.

(331) مقابلة مع حسام عيتاني، 6/11/2018.

(332) مقابلة مع يوسف مرتضى، 19/12/2018.

(333) مقابلة مع زكي طه، 22/1/2019.

(334) «وثيقة الوفاق الوطني - اتفاق الطائف»، ص 9، شوهد في 5/2/2021، في:
https://bit.ly/3aBMc9k

(335) ألبير منصور، **الانقلاب على الطائف** (بيروت: دار الجديد، 1993)، ص 59-60.

(336) رئيس الجمهورية اللبنانية (5 تشرين الثاني/نوفمبر 1989 - 22 تشرين الثاني/نوفمبر 1989).

(337) رئيس جمهورية لبنان (1989-1998).

(338) منصور، ص 127.

(339) المرجع نفسه، ص 116.

(340) «الانتفاضة 1987»، **الموسوعة الفلسطينية**، 16/9/2013، شوهد في 5/2/2021، في:
https://bit.ly/3q5r6GE

(341) رئيس وزراء إسرائيلي (1974-1977)، ثم (1992-1995).

(342) رئيس وزراء إسرائيلي (1983-1984)، ثم (1986-1992).

(343) مؤسس حركة «حماس» وزعيمها حتى وفاته.

(344) ينظر: «نص اتفاق إعلان المبادئ بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل الذي عرف باتفاقàأوسلو' أو اتفاق àغزة - أريحا للحكم الذاتي الفلسطيني'»، موقع التنظيم الآرامي الديمقراطي، شوهد في 5/2/2021، في:
https://bit.ly/2YNLP5V

(345) حسن السبع، «1982-2001: قراءة في أبرز محطات المقاومة: من الرصاصة الأولى.. إلى مزارع شبعا»، **السفير**، 24/2/2001.

(346) «النص الرسمي لتفاهم نيسان 1996»، موقع الاتحاد اللبناني الكندي لحقوق الإنسان، شوهد في 5/2/2021، في: https://bit.ly/39QotCV

(347) السبع.

(348) سوري، مفكر ومنظر ماركسي.

(349) جوزيف سماحة، **سلام عابر: نحو حل عربي لـ «المسألة اليهودية»** (بيروت: دار النهار، 1993)، ص 140.

(350) المرجع نفسه، ص 11، 22، 35، 101، 115، 140، 144.

(351) وضاح شرارة، **دولة حزب الله: لبنان مجتمعاً إسلامياً** (بيروت: دار النهار، 1996).

(352) المرجع نفسه، ص 178.

(353) حازم صاغية، **دفاعاً عن السلام** (بيروت: دار النهار، 1997).

(354) بريطاني من أصل بولندي، مفكر ماركسي عُرف بنقده الستالينية.

(355) صحافي يساري.

(356) صاغية، ص 20، 62، 64.

(357) فيصل جلول، **دفاعاً عن السلام العربي** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1999)، ص 31.

(358) المرجع نفسه، ص 7، 26، 29، 31.

الفصل الثاني عشر: التحرير والرحيل وما بعدهما

تتصاعد العمليات العسكرية ضد القوات الإسرائيلية وأعوانها من اللبنانيين، وتسقط مروحية إسرائيلية بنيران المقاومة في جنوب لبنان. أربع أمهات لأربعة جنود قضوا في هذه المروحية يقمن بتظاهرة صغيرة على مفرق إحدى البلدات شمال إسرائيل، مطلبهن واضح: أنْ تنفذ الحكومة الإسرائيلية وعدًا أطلقته منذ اثنتي عشرة سنة بالانسحاب من جنوب لبنان. محاضرات، ندوات، اعتصامات، تظاهرات، لافتات في الشوارع، وسائل إعلام مختلفة، فتأييد عارم من الرأي العام، بل من أمهات فلسطينيات فقدن أولادهن في مواجهات مع الإسرائيليين، ثم آراء للصحافة والمؤرخين، منها للإسرائيلي إيال آرلينخ الذي يكتب: «موقف جريء للعديد من أمهات الجنود الذين يخدمون في الجنوب اللبناني، حيث وضعت هذه الحركة نصب عينيها ضرورة إخراج الجنود الإسرائيليين من هذه المعركة التي لا هدف لها، والتي لا تخدم إسرائيل، لقد تمكنت حركة الأمهات الأربع من القيام بتظاهرات واعتصامات واحتجاجات متعددة أثرت في واقع المجتمع الإسرائيلي، بل أصبحت قوة ضاغطة على السياسيين، إضافة إلى نجاحها في أداء دور سياسي ومؤثر في المرشحين السياسيين في إسرائيل». المرشح لرئاسة الحكومة وقتها، إيهود باراك، يقود حملته الانتخابية بوعد بالانسحاب من جنوب لبنان في حال فوزه، يعترف بقوة الضغط الشعبي وعلى رأسها حركة «الأمهات الأربع»؛ إذ «كانت وراء [...] تغيير سياسة الحكومة الإسرائيلية، وتقبلها قرار الأمم المتحدة رقم 425 الذي يقضي بضرورة الانسحاب من الجنوب اللبناني»[359]. ولا يقول إيهود باراك إن «الضغط الشعبي» كان وراءه ضغط العمليات العسكرية ضد الإسرائيليين وعملائهم في جنوب لبنان. المهم، فور نجاحه في هذه الانتخابات، أنْ تنسحب قوات الاحتلال من جنوب لبنان، من دون اتفاق ولا ترتيبات ولا معاهدات، وذلك بتاريخ 19 أيار/مايو 2000.

ويحلّل سمير قصير، العضو السابق في الحزب الشيوعي اللبناني، فرع الخارج، هذا الانسحاب، فيتساءل عن معنى «تحرير جنوب لبنان؟»، عن وقعه على حافظ الأسد؛ إذ يصفه بـ «المرتاب»: «ما كان أحد ليجادل حافظ الأسد في رصيده الكبير من الإنجاز لولا تلك الريبة المريبة الغريبة التي عطبت عندما بدا أن إسرائيل جادة في نيتها الانسحاب من الجنوب المحتل، فحتى احتكار السلاح المقاوم الممنوح من سوريا إلى تنظيم واحد دون سواه كان ليقلل من الإنجاز، لو لم يبد من تلك الريبة أن ذاك السلاح ليس إلا واحدة من الأوراق المفروشة أو المستورة في لعبة الصراع الذي لا يمكن أن ينتهي، بل يجب أن لا ينتهي»[360].

ويتابع واصفًا المفارقة التي وقع فيها الحكم في سورية: «تلك هي مفارقة سوريا، راعية المقاومة في جنوب لبنان، ورأسها السياسي منذ بداية التسعينات، فهي كانت قد نجحت، من خلال الغطاء السياسي والدعم المادي المؤمّن للمقاومة من جهة، والتحكم في المسار اللبناني تحت شعار âتلازم المسارين’ من جهة أخرى، في الإمساك بمنطقي âالثورة’ وâالدولة’ معًا، وبورقتي الكفاح المسلح والحوار السلمي تستخدمهما بالتداول [...]. هذه الهندسة الدقيقة للغاية كانت تفيد في تعويض سوريا عن الخلل في ميزان القوى الاستراتيجي الذي تريد أن تعطيه لعملية التسوية الإقليمية». ويتابع أن هذه

المفارقة أحدثت انقلابًا في نظر الحكم السوري: «هكذا وجدت سوريا نفسها أمام انقلاب مريع: ما كان يمكن أن يؤدي إلى نزع جنوب لبنان والجولان معًا من الاحتلال الإسرائيلي مع توكيد موقع القوة السوري في لبنان، وعبره في الشرق الأوسط، يفضي إلى تحرير الجنوب دون الجولان، ويطرح مسألة الأرجحية السورية في لبنان»[361]. وهو إذ يمتدح حزب الله بنجاحه الباهر: «التحرير أيًّا كان سبيله، خيرٌ مطلق، به ربح àحزب الله'»، ولكنه يرى أن الجنوب وتحريره لا يختزلان المسألة اللبنانية بعد الحرب، فضلًا عن أن حزب الله مقيّد، «وما يقيده هو تنوع المجتمع اللبناني طائفيًا»، لذلك يقف الحزب الآن أمام «مفترق طرق»: ف «إما أن يختار تحويل عصبيته الجهادية، المستندة إلى شبكة خدماتية لا يُستهان بها، قاعدة لممارسة زبائنية تغذي نفسها بنفسها على غرار ما فعلته قبله حركة àأمل'، وإما أن يتجه إلى تشكيل قوة تغيير في المجتمع اللبناني»[362].

تحرير جنوب لبنان حصل في 19 أيار/مايو 2000. بعد أقل من شهر تقريبًا، في 10 حزيران/يونيو، يتوفى حافظ الأسد، ويصعد ابنه بشار. عنصران نفخا الروح في السوريين: الوفاة نفسها، التي أرخت القبضة، ولو المعنوية، للرجل الذي كان ممسكًا بسورية. يقول أحد قادة المعارضة، وقتها: «رحيله شجَّعنا»، ويروي: «لقد سمعتُ رجلًا يتجرأ على المطالبة بتغيير الدستور لأنه مبني على شخص واحد، أي حافظ الأسد، ولأن الأخير لم يعد موجودًا. في السابق، كنا مجتمعًا أخرس، مقطوعًا كليًّا عن العالم. الآن علينا أن نتعلم التكلم»[363].

ثم جاءت التصريحات والخطابات الكثيرة التي لم يوفر فيها الوريث بشار الأسد عبارات الإصلاح ومحاربة الفساد والحرس القديم، وأيضًا المجتمع المدني السوري الذي كان قد تنفس قليلًا، إثر مرض حافظ الأسد، عشية وفاته، وتحرّك بما يشبه الجنين في بطن يحبل بالاحتمالات، فكان ربيع دمشق القصير، الذي امتد من تموز/يوليو 2000 حتى شباط/فبراير 2001. وقد أعلن عن نهايته بشار الأسد نفسه، في تصريح لصحيفة **الشرق الأوسط**، قال فيه إن الحريات التي أعطيت يجب أن تعود إليه، لَحِقَه تصريح لا يقلّ قساوة لنائبه عبد الحليم خدام، رافقته تهديدات للمشتركين في هذا الربيع. ما الذي جرى في تلك الأشهر الثمانية؟ نبتت المنتديات كالفطر في العاصمة، كما في صغرى البلدات. بلغ عدد هذه المنتديات سبعين منتدى، وكانت تُدار في المنازل؛ يزيد المشتركون والمستمعون عما يسعهم من تلك المنازل، يحتشدون على عتباتها، ويتناولون الموضوعات المحظورة، ويرفعون المطالب الخطِرة، يحددونها.

نصّان يصدران في تلك الأشهر الواعدة. الأول بيان الـ 99 مثقفًا، يخرج في أيلول/سبتمبر 2000، يوقعه عدد من المثقفين والفنانين السوريين، يرفع ثلاثة مطالب كلها تدور في فلك الحريات: إلغاء حالة الطوارئ، وعفو عام عن السجناء السياسيين، وإرساء دولة القانون والحريات والتعددية السياسية[364]. وعشية إحلال الستارة على هذا الربيع، يطلع بيان تحليلي بعنوان «الوثيقة السياسية للجان إحياء المجتمع المدني»، عُرف أيضًا بـ «بيان الألف»، وهو ينطوي على وصفٍ لكيفية تغييب المجتمع المدني السوري على يد النظام، وعلى تغييب الدولة معها، ويمرّ على انهيار الاتحاد السوفياتي، للتكلم على الاشتراكية التي بنى البعث عليها واحدة من شرعياته، ولوضع المطلب الديمقراطي في سياقه السياسي؛ يقول إن ثمة

«استحالة لبناء الاشتراكية أو بناء ديمقراطية اجتماعية بلا ديمقراطية سياسية»، منتهيًا بمطالب للحريات، لا تختلف عن مطالب بيان الـ 99 الإضافية بالتفاصيل[365].

لم تتغير سورية، وتغيرت. تلك هي الحصيلة التي ينظر إليها سمير قصير، بعين ناقدة لكلمة «ربيع دمشق» نفسها؛ إذ يقول: «إقرار الرئيس السوري الجديد بشار الأسد، في خطاب تنصيبه، بوجود àالرأي الآخر’ لم تستتبعه أي ترجمة سياسية. على العكس، فإن آلية التوريث كان من شأنها ضبط التغيير المرتجى، من تعديل الدستور على مقاس عمر الوارث، إلى ترقيته العسكرية، إلى فرضه مرشحًا وحيدًا وصولًا إلى المصادقة على ترشيحه باستفتاء يفتقر إلى أي صدقية»، ولكن قصير، في المقابل، يلاحظ أن الذي تغير هو «المناخ العام»، بفضل تراخي قبضة الأجهزة، «وإن جزءًا من هذا التراخي يعود إلى رهان تغييري عند بعض قادة هذه الأجهزة، لكنه رهان لم يدم، وإنّ حامليه لم ينجحوا في الدفاع عنه وعن أترابهم»[366]. وهذا المناخ الذي لم يدم أكثر من بضعة أشهر انتهى باعتقالات ومحاكمات لأبرز الذين أحيوه.

ولكن، ما الذي أعاد الأسد إلى عرين أبيه، واختصار الربيع الدمشقي بهذه السرعة؟ حدثان على حدوده الغربية والجنوبية. في إسرائيل أولًا، فاز أريئيل شارون (1928-2014)[367] في الانتخابات التشريعية، فأصبح رئيسًا للوزراء. هو المعروف بتشدّده، وخوضه الحروب، حمل خطابه الانتخابي نفَسًا «معتدلًا» إلا أن بشار الأسد أهمل اعتداله المستجد هذا، واعتمد على وصمة التطرف القديمة التي رافقته، ليحيك بها سترة النجاة من المغامرة «الإصلاحية». فكانت «يمينية» شارون خير سبيل للتشدّد «القومي»، المفضي أوتوماتيكيًا إلى تشدّد قمعي، ومن ثمّ وقف مسلسل الربيع.

من لبنان ثانيًا، بدأت تطلع أصوات مطالِبة بانسحاب الجيش السوري منه، بعد انسحاب الجيش الإسرائيلي من جنوبه. كانت أولى الطلقات في 20 أيلول/سبتمبر من العام نفسه؛ في بيان للمطارنة الموارنة، وبمبادرة من قائدهم الكاردينال نصر الله بطرس صفير (1920-2019)[368]. عنوان البيان: «نداء المطارنة الموارنة في العام 2000»، وهو يتضمن موقفين محوريين. الأول حول ممارسات أجهزة المخابرات السورية هيمنتها على السياسة، مثل إجبار الناخبين على التصويت لرجالاتها. ويضيف إليه الأمور التي «أصبحت لا تُطاق»، مثل «فقدان لبنان سيادته على أرضه»، و«عيون الاستخبارات بالمرصاد»، فيرى أنه حان وقت انسحاب الجيش السوري من لبنان تنفيذًا لاتفاق الطائف. العنوان الثاني في البيان يقول بعودة الجيش إلى الجنوب، ليأخذ مكان حزب الله بعد الانسحاب الإسرائيلي منه، وإنه حان وقت الدولة والجيش، ويطرح السؤال: «أما حان الوقت لتبسط هذه الدولة سلطتها فعليًا ليشعر الناس بأنهم أصبحوا في حمايتها وليتشجّعوا ويعودوا إلى بيوتهم وعيالهم وأرزاقهم؟». إذًا، نقطتان سوف يكتب لهما دوام الطرح، والاثنتان مربوطتان باتفاق الطائف: انسحاب القوات السورية من لبنان، وانسحاب ميليشيات حزب الله من جنوبه[369]. ولعل أبرز المواقف التي اتخذها مار نصر الله بطرس صفير وقتها، كان امتناعه عن زيارة سورية أثناء زيارة الحبر الأعظم لها، وهذا موقف جَلَل لحامل لقب «بطريرك أنطاكيا وسائر المشرق للموارنة».

بعد أشهر من صدور هذا النداء، تجتمع في بلدة قرنة شهوان الجبلية شخصيات من اليمين المسيحي الحزبي، مثل أمين الجميل وابنه بيار، ودوري شمعون وإيلي كرامة، وشخصيات مستقلة مثل نسيب لحود، أو أكاديمية مثل فريد الخازن، فضلًا

عن شخصيتين يساريتين، هما سمير فرنجية وتوفيق الهندي. عقد أركان قرنة شهوان اجتماعات خلال أربعة أعوام، من نيسان/أبريل 2001 حتى نيسان/أبريل 2005، وأصدروا 64 نصًّا، ما بين وثيقة ومذكرة وبيان ودعوة وإدانة وجردة، ورحّبوا بعودة الجنرال ميشال عون من منفاه الفرنسي، أي بتحقيق واحد من مطالبه؛ إذ كان عون وقتها من أصحاب الموقف نفسه. وتتمحور كل نصوص قرنة شهوان حول بيانها التأسيسي الأول الذي لا يختلف عن النقطتين الأساسيتين اللتين أعلنهما نداء المطارنة الموارنة: المقاومة أولًا، والدولة تأتي قبلها، الدولة النظيفة من المحاصصة والاستباحة، وأن التحرير ليس إنجاز فئة واحدة «إنما هو برهان إضافي على أهلية لبنان واللبنانيين في البقاء والعيش المشترك». ثم سورية ثانيًا التي لا يجوز أن تبقى العلاقة معها على ما تقوم عليه «من شوائب ونواقص تعود بالضرر على البلدين معًا، وهو أمر يرفضه اللبنانيون الذين يجمعون على قيام أفضل علاقات الأخوة بين البلدين»[370].

من بين الموضوعات التي تطرق إليها هذا اللقاء، قضية توقيف توفيق الهندي، أحد المشاركين في لقاء قرنة شهوان، وإدانته هذا التوقيف، وإدانة الازدواجية القائمة بين الدولة و«المقاومة». يتناول سمير قصير هذه القضية، فيسرد أنه بعد اعتقال الهندي ورفيقيه ودخولهم في محنة أقبية وزارة الدفاع بتهمة ملفقة بالتعامل مع إسرائيل، والحرج الذي وقعت فيه السلطة: «صار واضحًا أن القضاء، ولو عسكريًا، ليس مدعوًّا إلى إدانتهم أو تبرئتهم بمقدار ما هو مطلوب إيجاد مخرج يحفظ ماء الوجه بالنسبة إلى الذين زجوهم في تلك الأقبية»، وذلك في إشارة واضحة إلى اعتباطية التوقيف، وشبهة «الاعتقال السياسي التي اتسم بها». ولا يخفي قصير إعجابه بنشاط رجالات قرنة شهوان، فهو يرى في موقفهم «منطق الاعتدال والحوار»، ويقترح قائلًا: «ماذا لو يستهل رئيس الجمهورية اجتماعه هذا الصباح مع وفد àلقاء قرنة شهوان’؟ [ماذا لو] قرر إطلاق آلية استشارية واسعة وهادفة ترمي إلى تعيين مكامن الخلل في تطبيق اتفاق الطائف والعلاقات اللبنانية – السورية؟»[371].

كان سمير قصير قد أصدر سلسلة من المقالات في صحيفة **النهار** تتعلق بهاتين المسألتين، وجمعهما في الكتابين المذكورين آنفًا، كانت تواريخ كتابتها تراوح بين عامَي 1997 و2004. في الأول، **عسكر على مين؟ لبنان الجمهورية المفقودة،** لازمته الوصاية السورية ونشاطات المخابرات، ونقد لرئيس الوزراء رفيق الحريري لضعف موقفه من هذه الوصاية: «الحريري يستسلم للتركيبة الحاكمة حين لا ينتفض بوجه التعدي على الحريات [...]، وحين يرفض أن يرى في الوصاية السورية ما يعكر اللعبة السياسية [...]، يعطي سلطة الوصاية السورية [...] صورة الشقيقة الكبرى التي لا تتوانى عن التضحية لإنقاذ الشقيق الأصغر، فيما هو أكثر العارفين بالتكلفة الاقتصادية الناتجة من الحالة الشاذة المرعية سوريًا»[372]. ويكرر قصير مأخذه على رفيق الحريري؛ لموقفه من المسيحيين المعتدلين الذين أصدروا بيانات قرنة شهوان وخطأه في تجاهله[373]. السلطة الفعلية في نظر قصير هي بيد أجهزة مخابرات، وبانفلاش المخابرات السورية، بينما الدولة «تُدار في أفضل الأحوال كشركة خاصة وفي أسوئها كإقطاع»[374].

يسجل قصير في هذا الكتاب، ربما للمرة الأولى بهذه العلنية (في مقال نُشر عام 1997)، الجاذبية القائمة بين «شباب اليسار» والأحزاب المسيحية، الداعية إلى خروج الجيش السوري من لبنان، والناشطة في تظاهرات تعرضت للقمع. ومن هذه الأحزاب، بعد الشخصيات المستقلة، التيار العوني، وتيار القوات اللبنانية، وحزب الوطنيين الأحرار، وكلها أحزاب عُرفت باليمينية الطائفية. ويقول عن التحرك الطلابي الذي قادته هذه الأحزاب: «وإذا أضفنا إلى ذلك أن التحرك الطلابي [للطلاب التسعة من] اليسار، وبعضهم يعرّف نفسه بـ âطلاب اليسار’، أدركنا أننا أمام وضع طلابي يتجاوز المعارضة المسيحية المعهودة»[375]، فمحور الكتاب هو العلاقة بين الوصاية السورية ولبنان الذي يضيق ذرعًا بها، وبرئيس الجمهورية الموالي لها، والمدعوم منها برغبته في التمديد لولايته، فضلًا عن حزب الله، المطلوب منه، من منطلق وطني، أن يترك الجنوب للجيش اللبناني، ملاحظًا بصورة مبكرة، مسألة مزارع شبعا التي بقيت عالقة بعد الانسحاب الإسرائيلي من جنوب لبنان: «الأرجح أن السوريين بدؤوا يندمون على تركهم وكلاءهم اللبنانيين يسترسلون في فن المناورة في موضوع مزارع شبعا من دون أن تكون في أيديهم الحجج الدامغة، ليست المسألة في لبنانية المزارع أو في سوريتها [...]. المشكلة أثيرت في مرحلة ما قبل الانسحاب الإسرائيلي في سياق واضح يهدف إلى إحراج الأمم المتحدة، وتكبير حجم المعوقات التي قد تؤدي إلى تأخير الخروج الإسرائيلي، عسى ولعل، فإذا هي تتحول إلى مصدر إحراج لسورية، ولما تبقى من تلازم المسارين»[376]، لكنه يلاحظ، في المقابل، متنبئًا، «عدًّا عكسيًا» للنظام السوري؛ ذلك أن «الوصاية السورية لم تعد تقدر أن تبقى على ما كانت عليه لأعوام وأعوام»[377].

في التمهيد لكتابه الثاني، **ديموقراطية سوريا واستقلال لبنان: البحث عن ربيع دمشق**، يشرح قصير عنوانه بالقول: «كأن استبطنْتُ لاشعوريًا التلازم بين ديموقراطية سوريا واستقلال لبنان». ويعطي المخرج السوري المعارض عمر أميرالاي، فسحة في تقديمه الكتاب، فيه ذِكر لوثيقة وقعها عام 1976 خمسون مثقفًا سوريًّا «نددوا فيها بالتدخل العسكري السوري في لبنان في أيامه الأولى، وكان لي يومها شرف أن أكون من عداد هؤلاء»[378]، لكن قصير يعود إلى هذه النقطة، فيعاتب المعارضة السورية بقوله «لا يبدو لبنان حاضرًا في اهتمامات المعارضة السورية، فخلا بعض الاستثناءات القليلة، أهمها ما جاء من رياض الترك، يشكل لبنان نوعًا من âالثقب الأسود’ في الخطاب السوري المعارض»، فيستغرب «غياب جزء كامل من سياسة النظام السوري عن نقدهم»[379].

ثم يستغرق في وصف مثالب هذا النظام داخليًا: لا تنمية ولا اشتراكية ولا تصدّي، وتهديدات نائب الرئيس عبد الحليم خدام بـ «الجزأرة»[380]، أي بالفوضى المسلحة، في حال الاستجابة لمطالب المعارضة بالديمقراطية. والنبوءة الثانية يسجلها قصير هي أن «تأخير التغيير في سوريا هو تكبير كلفة التغيير»[381]، ثم يصف خطر التطبّع بطبائع الاستبداد السوري، ويخصص سبع مقالات يحلم فيها بـ «ماذا لو تنسحب سوريا بالكامل؟»، لا ينفي انقلاب موازين القوى الدولية ضد سورية، ودور الأميركيين فيها، خصوصًا بعدما خيّب بشار الأسد الأميركيين في حربهم على العراق، ولكنه لا يرى غضاضة في تطابق الموقفين، ولا يهتم بالغمز الدائر حولهما، وهو يضع آليات لإعادة التأسيس في كل من سورية ولبنان: في الأولى رفع الطوارئ والأحكام العرفية، وفي الثانية تنفيذ الطائف بانسحاب سورية من لبنان وحزب الله من الجنوب[382]، ما

يضيف، في رأيه، إلى الانسحاب السوري من لبنان وانسحاب حزب الله من الجنوب، وتنفيذ اتفاق الطائف، لُحمة إضافية هي دمقْطرة النظام السوري.

ويُصدر جوزيف سماحة بدوره مواقف هي النقيض التام لمواقف صديقه سمير قصير. صحيفة **السفير**، التي كان يرأس تحريرها، جمعت مقالاته في كتاب عام 2007، مباشرة بعد رحيله، وعنوانه **الآن هنا**[383]، وهذه المقالات تبدأ عام 2001، وتنتهي عام 2006، تاريخ انتقال سماحة إلى تأسيس صحيفة أخرى، هي **الأخبار**. ماذا في هذا الكتاب؟ أولًا، وصف للموقف الأميركي المتآمر على لبنان؛ تحت شعارات «مخدّرة» من نوع «احترام الدستور»، و«استعادة السيادة»، و«منع التدخل السوري»، و«الازدهار»، و«الخلاص من الإرهاب». تريد الولايات المتحدة من لبنان أن يهدئ التوتر مع إسرائيل، أن تتوتر علاقة لبنان بسورية، أن يخوض لبنان مواجهة مع حزب الله، أي إن الولايات المتحدة تدعو اللبنانيين إلى «الانتقال إلى صف âالمنتصرين’ [بعد حرب العراق] وترك سوريا والفلسطينيين والعراقيين يواجهون مصائرهم منفردين»[384].

أما مشروع القرار الأميركي حول لبنان رقم 1559 المرفوض، فهو يريد ما يريده سمير قصير، أي «إخراج القوات السورية من دون تأخير من لبنان، وحلّ ونزع سلاح جميع الميليشيات اللبنانية وغير اللبنانية»، وهو يرى أن «لا وجود لقوة سياسية محلية جدية ترفع هذه المطالب»، مضيفًا يقينه بأن «أذناب المحافظين الجدد في الولايات المتحدة يروجون لهذا الخطاب»[385]. أما شعار الديمقراطية المرفوع الآن ضد الدولة الأمنية، وضد حكم المخابرات، فلا صدق فيه عند الأميركيين. إنه «شعار كاذب، مخادع»؛ فالولايات المتحدة «لا تمانع في إدارة الفوضى والأزمات»، هذا هو المعنى الفعلي لسياستها، ولا معنى سواه، لتحويله (أي شعار الديمقراطية) إلى سيف يستخدم حيث تدعو «إعادة الهيكلة استخدامه»[386]، وهو يعبّر عن إعجابه بخطاب فاروق الشرع في الأمم المتحدة؛ لأن الخطاب يبيّن بوضوح أن سورية تضع نفسها في مواجهة مع الولايات المتحدة. ومن هذا المنطلق الذي يشدد سماحة على صحته «يصبح ممكنًا فهم التشدد الذي تظهره السلطة اللبنانية تجاه معارضة تضع نفسها في موقع واضح إلى جانب الأميركيين أو في موقع ملتبس»[387].

هكذا نفهم لماذا يقف سماحة ضد الانسحاب السوري من لبنان؛ إذ يصف الدور السوري في لبنان على النحو التالي: «لقد لعبت سوريا دورًا رئيسيًا في مشروع إعادة بناء الدولة اللبنانية منذ التسعينات وحتى اليوم. وليسمح لنا بأن نقول إننا، بالقياس إلى الحالتين الفلسطينية والعراقية، أمام قصة نجاح». ويتابع واصفًا دور الجيش السوري في لبنان: «نعم إن للبنان وظيفة إقليمية بالمنظور السوري. ونعم له وظيفة اقتصادية. ونعم ثمة âاقتصاد سياسي’ أسود للعلاقات السياسية. ونعم إن دور الدولة الراعية كان مناطًا بالدولة الأكثر تقدمًا». ولبنان من هذه الزاوية «ليس مستعدًا، ولا الظروف مؤاتية من أجل تغيير بهذه الجذرية، سواء تلك التي يدعو إليها قرار مجلس الأمن جهارًا، أم تلك التي يهمس بها بعض أصحاب الرؤوس الحامية»[388].

لذلك، لا عجب من وجود تيارين في لبنان «الأول يتشكل من القوى الداعية [والعاملة] لأن يكون بلدها وازنًا في كفة التسويات العادلة لأزمات المنطقة [وحصيلتها] تمكين الشعوب من تحصيل الحد الأدنى من حقوقها»، في حين أن التيار الثاني «يتشكل من قوى تقترح سياسة حيال àحزب الله’ وسوريا وفلسطين، وتقدمها بصفتها àمصلحة وطنية لبنانية’، وتصر على نكران حقيقة أنها àتصبّ في مجرى التعديل المطلوب أميركيًا وإسرائيليًا [...] لجعل أي حل عادل أبعد منالًا’»[389]، فيكون من الطبيعي أن يمتدح سماحة حزب الله، فيسجل مثلًا إيجابية في حق هذا الحزب، لحضور أمينه العام، حسن نصر الله، جلسة افتتاح القمة الفرنكوفونية، ودحضه المزج بين المقاومة والإرهاب، ورفضه انسحاب هذا الحزب من جنوب لبنان، وانسحاب الجيش السوري من لبنان، لأنهما يثيران «انقسامات أشد خطورة»، فيقارن بين تحرير الجنوب وانسحاب سورية: «إذا كان التحرير يضع [الوطنية اللبنانية] في مواجهة إسرائيل، فإن àالاستقلال’ [أي انسحاب الجيش السوري من لبنان. والمزدوجان من عنده] يحاول وضعها، حصرًا، في مواجهة العروبة، وفي تناقض مع سوريا. الواضح أن القصد من ترسيخ هذه àاللبنانوية’ فتح ملف المقاومة بسرعة»[390]، فيجدّد تأكيده أن «مصلحة البقاء مع àحزب الله’ بصفته مستهدفًا من الأميركيين». وعلى النهج ذاته، يتناول مسألة التمديد للرئيس إميل لحود (ولد عام 1936)[391]، المؤيد للنظام السوري، مفضلًا سياسته الاقتصادية على سياسة رفيق الحريري، وينتقد الحركة التي بدأت تتبلور لمعارضة هذا التمديد والانسحاب، إلى ما هنالك من نقاط أخرى، أكثر تفصيلية، تضعه في منطق يناقض تمامًا، ذاك الذي يتكلم به سمير قصير.

وفي عام 2006، ينتقل جوزيف سماحة من صحيفة **السفير**، ليؤسس مع صديقه وزميله إبراهيم الأمين، صحيفة **الأخبار**؛ هو القيادي السابق في منظمة العمل الشيوعي، استطاع أن يجد ما يشترك فيه مع عضو سابق في الحزب الشيوعي اللبناني، ليؤسسا صحيفة، يأخذان فيها راحتهما في تأييد المقاومة، أي حزب الله، من دون ضغوط ولا تدخلات، كما يقول في مقابلة صحافية معه في التاريخ نفسه، تتناول مسائل عن حياته الشخصية، ومسيرته المهنية، وقناعاته السياسية، فضلًا عن مسائل عقيدية منسجمة مع ما طرحه في مقالاته السياسية. ومع لازمة أن الأولوية الآن تدور حول التدخل الخارجي وضرورة التصدي له، يمضي سماحة: «àحزب الله’ أكثر من àحماس’، ولكن لنقل: كلاهما [...] هما في الاتجاه الصحيح للتاريخ [...] نستطيع أن نخالف أيديولوجيتهما الدينية، نستطيع أن ننتقد بعض الجوانب في استراتيجيتهما أو تكتيكهما أو الشعارات التي يرفعانها»، فخلف هذا الترحيب بالتنظيمَين الإسلاميّين فكرة أن «التيار الإسلامي هو الذي استعاد خطاب التحرر الوطني الخطاب الوحيد القادر على تحريك الجماهير العربية. حتى هذه اللحظة، لم ينجح أي تيار سياسي آخر في القيام بذلك».

فالمهم عنده الاستجابة للجماهير العربية التي «تريد سياسة تشكل جوابًا عن التهديدات التي تشعر بها، جوابًا عن الهيمنة الأميركية وعن نتائج هذه السياسة التي تزداد توسعًا كل يوم»، فما يهمّه من الإسلام السياسي هو: «في العمق، هي القومية العربية التي يعبّر عنها بواسطة أيديولوجيا غالبة، وقد صارت مهيمنة، وهي الإسلام». ويعيد التعبير عن إعجابه بحزب الله، فيسرد زيارته قاعدة تابعة للحزب في إقليم التفاح (الجنوب)، ولقاءه بالقائد العسكري للحزب، عماد مغنية، من

دون أن يتعرف إليه، وعن دهشته بالاستعدادات التنظيمية الدقيقة والتدريبات التي يقوم بها الحزب في تلك المنطقة. وتذكر الصحافية التي قابلته بقولين، واحد لجوزيف سماحة والثاني عنه، انتشرا كثيرًا في الوسط المؤيد للحزب. الأول، في خضمّ نقاش، كان رد الأمين العام لحزب الله حسن نصر الله على سؤال طرحه عليه جوزيف سماحة أن سبب عدم إمكانية إجابته عن هذا السؤال بأنه «رجل غيبيّ يؤمن بأنّ الكثير من الأمور هي من صنع الله وليس من صنعنا كبشر». وقد رأى سماحة في هذا الجواب دليل صدق صاحبه. أما الثاني، فهو كذلك قول آخر لحسن نصر الله، وهو مطروح بصيغة الإعجاب، أو الامتنان: «تخيّل لو أن جوزيف ضدنا!»[392].

أين هم اليساريون الباقون؟ عودة قليلًا إلى ما قبل عام 2000، بأربع سنوات. يتحدث زين رحمة عن تلك السنوات قائلًا: «الفكرة صارت بعد عام 1996. وقت جاء رفيق الحريري، وقال بإعادة إعمار البلد، ارتأينا إعادة بناء اليسار وسميناه اللقاء اليساري. في البداية كان معنا فواز طرابلسي، وغسان عيسى، وجوزيف سماحة، وإلياس عطا الله، وسمير قصير، وإبراهيم الأمين، وفؤاد المقدم، ومحمد فران، وسعد الله مزرعاني الذي شارك قليلًا [...]. المهم، كان هناك أيضًا مجموعات يسارية مستقلة، شباب، مثل خالد صاغية، خارجين من منظمة âبلا حدود’. اتفقنا ألا نضع معايير صارمة للحضور والمشاركة، وبقينا نجتمع لمدة ثلاث سنوات. كان بيننا أناس من منظمة العمل الشيوعي، ومن حزب العمل الاشتراكي العربي، ومن الجبهة الديمقراطية، ومن حركة âفتح’ ومن الحزب الشيوعي اللبناني، شخصيات مثل يوسف الخليل، ومنهم موظفون لا يجب أن نفصح عن أسمائهم». ويتابع زين رحمة: «كل الموجودين في هذا اللقاء كانوا مؤيدين للمقاومة. كان ذلك قبل تحرير الجنوب. لا يعقل أن نكون مع بقاء إسرائيل في الجنوب [...]. لم يكن هناك خلافات سياسية، لكن الواضح أن كل واحد في هذا اللقاء آت من مكان مختلف، وعنده طريقة معينة في التفكير، وكان هناك أناس متفقون مع بعضهم أكثر من أناس آخرين»[393].

خالد صاغية، بدوره، وهو من جيل أحدث، كما يذكر زين رحمة، له كلام قريب: خرج من الحرب الأهلية وهو لا يرى الحزب الشيوعي بعين الرضا «أنا من طرابلس، والحزب الشيوعي كان يقصفنا مع الجيش السوري»، ولكنه يبحث عن يسار ما، فيروي قائلًا: «كنا طلابًا في الجامعة، نريد أيضًا أن نؤسس حزبًا يساريًا. كنا نجتمع مع بعضنا، وفي الوقت نفسه نجتمع مع مجموعة من اليساريين القدامى [...]. في الجامعة، بدأت ميولنا السياسية تتجه نحو القومية العربية. وبعد سنة، وبعد القراءة والاطلاع، اكتشفنا تهافت ما كنا نفكر به، فشكّلنا مجموعة، مؤلفة من نحو عشرة أو خمسة عشر طالبًا، جمعنا أننا كنا عروبيين، واتفقنا على أن نقرأ ونكتشف التراث. لم نكن حزبًا ولا أي شيء آخر. ومن خلال القراءة تمرّكسنا. كان سمير أمين (1931–2018)[394] صلة الوصل بين العروبة والماركسية، وكان معنا أناس يعتبرون أنفسهم يساريين وعروبيين، وليس عروبيين فقط. وتفاعلنا مع الشباب وصرنا مجموعة يسارية [...]. سنة 1997 جئنا إلى اللقاء الذي صار اسمه في ما بعد âاللقاء التشاوري اليساري’ كانت اللقاءات تتم في المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، وقد دعيت إلى اجتماعاته، ولكن لم يطلع من هذا اللقاء شيء، ولا أدت اجتماعاته ونقاشاته إلى تأسيس أي شيء»[395].

كان يشارك في هذا اللقاء الخارجون من أحزابهم، أو المفصولون عنها، منهم إلياس عطا الله، المذكور آنفًا، والذي بات يقود «الحركة الشعبية الديمقراطية»، ومعه عدد من الحزبيين الذين اختلفوا مع الحزب الشيوعي بخصوص العلاقة مع النظام السوري. بدءًا من عام 2000، في إثر الانسحاب الإسرائيلي من جنوب لبنان، برز الخلاف بين المجتمعين في هذا اللقاء؛ من بعده فرزت المواقف، وتوضحت التوجهات، وصار عندنا يساران: يسار سيبقى اسمه «اللقاء التشاوري»، ويقوده الحزب الشيوعي، سوف يصدر وثيقة مفصلة في عام 2008؛ ويسار يقف على نقيضه، ينضم إليه، بعد إلياس عطا الله، قيادي آخر من منظمة العمل الشيوعي، كان مشاركًا في اللقاء التشاوري، هو حكمت العيد (1945-2014)[396]، الذي سيلتحق بعد ذلك بحركة اليسار الديمقراطي.

يقول زين رحمة الذي بقي مع المعسكر المؤيد للنظام السوري وحزب الله: «جاء حكمت العيد، يقول إنه علينا أن نأخذ موقف سيادة واستقلال، وإنه ليس هناك بلد يتمتع بسيادة واستقلال، ولا يكون الجيش منتشرًا في كافة أنحائه. قلت له: لا تمزح، ولا تخدع الجماعة بخيارَي السيادة والاستقلال. بهذه البديهيات ما من مواطن على الكرة الأرضية يقول لك إنه ضد السيادة والاستقلال والحرية. سألت حكمت العيد: هل تريد أن يذهب الجيش إلى الجنوب؟ قال: نعم، فأجبته: إذًا، علينا أن نتفق من الآن، أنا – بوضوح – ضد عودة الجيش إلى الجنوب، وأنت كان رأيك – منذ خمسة وعشرين عامًا – أن يترك الجيش الجنوب، حين كان رقيب من جونية يأمر بإحضار فلان أو علان من مقاتلي الجنوب ليضعه في السجن، هل تريد أن يقوم الجيش ثانية بما كان يقوم به في الماضي؟».

ويتابع زين رحمة ناقلًا نقاشه مع حكمت العيد: «في هذا اللقاء، دخل النقاش في تفاصيل أكبر، جوهره أنّ هناك أناسًا حرروا أرضًا تَركتَها لهم منذ خمسة وعشرين عامًا، والآن تريد أن تعود. قال لي حكمت: إذا رجع الجيش فسوف ترجع مؤسسات الدولة كلها، قلت له: لتعد، ولكن لتتفق مع الذي حررها، بأي قدر تعود، وما مهماتها، وما مجالات تدخلها؟ أجابني حكمت: يعود الجيش إلى الجنوب ليحمي البلد، فأجبته: لا تضحك علينا يا حكمت، أنت تعلم أن جيشك لا يستطيع أن يحمي قرية من إسرائيل، فكيف بالجنوب بأسره؟». ويتابع رحمة: «في النقاش بين دولة أو لا دولة، لو كانت دولة جدية، لصرنا كلنا جنودها. خلف شعار الدولة، تقف كل طائفة تصبح باحثة عن حقها، السنّة، الموارنة، سوف يسألون أين حقوقنا، والشيعة معهم. والشيعة اليوم صاعدون، يزيدون على الباقين أنهم يحملون البارودة. لماذا حملوا البارودة؟ لهذا السبب بالذات، الدولة الضعيفة والطائفية القوية»[397].

هكذا تتوافر الشروط لتأسيس مشروع خاص لليساريين المتبقين، بتأسيس نادٍ ثقافي فني، يحمل اسم «نادي اليسار». يقول زين رحمة مرة أخرى: «مع عام 2000، عملتُ ترخيصًا لملتقى باسم ànادي اللقاء’، يهتم بالأمور الاجتماعية والثقافية. واستأجرنا مركزًا وقلنا لزياد سحاب وفرقته تعالوا اعزفوا الموسيقى، وقلنا للمخرجين تعالوا اعرضوا أفلامكم، وذلك بصرف النظر عن الميول التفصيلية. طبعًا ميولهم يجب أن تكون يسارية بشكل عام جدًّا جدًّا جدًّا، بالمعنى الواسع»[398].

على الضفة الأخرى، في عام 2004، تتأسس حركة «اليسار الديمقراطي»، على رأسها إلياس عطا الله، وبمبادرة منه، فعطا الله كان عشية هذا التأسيس قائدًا «للخط المواجه لسورية في القيادة، ورافضًا لهيمنتها على الحزب الشيوعي والمقاومة

الوطنية اللبنانية، ومن المعروف أنه كان قد أبعد بإيعاز من النظام السوري إلى موسكو مع زياد صعب، قائد القوات العسكرية للحزب الشيوعي حينها وعضو لجنة الحزب المركزية، وأبقي فيها بشبه إقامة جبرية لإنهاء ملف المقاومة في الحزب وتحويلها إلى إسلامية بقيادة حزب الله بإشراف سوري – لبناني»[399].

تتكوّن حركة «اليسار الديمقراطي» من ثلاث مجموعات: أولها بزعامة إلياس عطا الله، تلك التي انشقت عن الحزب الشيوعي، بعد فشلها، في إثر المؤتمر السادس في «ترتيب» وضعها داخل الحزب الشيوعي، وفشل قيادة الحزب في التجاوب مع طروحاتها، وتضم الكتلة البشرية الأكثر عددًا، وفيها كوادر وقياديون، مثل نديم عبد الصمد، عضو المكتب السياسي للحزب، ويدور عددها حول خمسمئة رفيق. المجموعة الثانية مثل مجموعة «بلا حدود»، التي تكلم عليها خالد صاغية، وتضم شبابًا جامعيين، يساريين، مستقلين، يختلفون مع الحزب الشيوعي في القضايا التنظيمية والسياسية، ومنها الوصاية السورية. المجموعة الأخيرة مكونة من أفراد قياديين وكوادر ومثقفين وصحافيين يساريين أمثال سمير قصير وزياد ماجد وإلياس خوري ووديع حمدان وحكمت العيد الذي انضم متأخرًا، وغالبيتهم كانت تحضّر للحركة منذ أواخر التسعينيات[400].

عقدت حركة «اليسار الديمقراطي» جمعيتها العمومية التأسيسية الأولى في 18 أيلول/سبتمبر 2004، وكان من أعمالها مناقشة الوثيقة السياسية ومشروع النظام الداخلي، ثم أجرت مشاورات لتعيين قيادتها، وقد حضر هذه الجمعية ستمئة عضو. الوثيقة السياسية والمشروع التنظيمي ينطويان على كل ما بدأ يظهر من تمايز بين يساريين. تُشدد الوثيقة على التنوع، وتأخذ المسافة من التجارب الحزبية السابقة، لا تريد لليسار الديمقراطي أن يكون «ثوريًا أو انقلابيًا»، وتستبعد تجربة «المركزية» في التنظيم التي عرفتها الأحزاب الشيوعية، في حين يخرج تعريفها لليسار عن «إطار المفاهيم الضيقة الفئوية التي سادت في الحقبة السوفياتية»؛ إذ تنتقد نظرية المركزية الديمقراطية وفلسفة التغيير الانقلابي، وممارسات إسقاط الهيئات القيادية والخيارات السياسية على قواعد الحزب. ولا ترى في الماركسية شرطًا للتعاقد بين اليساريين «فاليسار أوسع من الماركسية»، وهي ضد الرأسمالية، ولكنها أيضًا مع «مراجعة التجربة الاشتراكية»، وتركز على الديمقراطية الراسخة، وعلى أوجه متعددة منها، وهي تنتقد سياسة رفيق الحريري الاقتصادية: «خطة عشرية منحازة وغير واقعية اجتماعيًا لإعادة إعمار البلاد، وقد تضمنت الخطة منذ تصميمها الأول على الورق، تحقيق النمو من خلال زيادة المديونية، وزيادة الضرائب غير المباشرة ورفع أسعار الخدمات، المترافق مع تقليص الإنفاق الحكومي àغير المجدي’».

وتدين الوثيقة الوجهة التي يندفع فيها لبنان، مثل «تغليب وزن الرأسمال المعولم [...]، وابتلاع الرأسمال الكبير للرأسمال الصغير والمتوسط»، وتربط هذه التحولات بحصول «اتجاه إلى تعديل في التحالف الاجتماعي – السياسي الحاكم، الذي كان يجمع بين برجوازية تجارية – مالية، وأرستقراطية عائلية لصالح ممثلي الرأسمال المعولم [...]، ومن خلال ممثليهم المباشرين، وليس من خلال العائلات السياسية التقليدية فحسب».

ولكن، في المقابل، تتكلم الوثيقة على مرحلة ما بعد الانسحاب الإسرائيلي، فتتحدث عن «المقاومة الإسلامية»، من دون تحديد حزب الله. تقرّ بالدور «الأساسي والبطولي الذي لعبته المقاومة الإسلامية في التحرير»، والذي قد ينقلب إلى نقيضه «إذا لم تتحمل الدولة وحدها مسؤولية الأمن والاجتماع وحماية الحدود وضمان الحريات». فعلى المقاومة، بعد توقف الحرب

الأهلية، أن تساهم في إعادة بناء الدولة والمجتمع وترسيخ السلم الأهلي. وأي انفراد لها هو «بالغ الخطورة». ومن تجليات هذه الخطورة «طغيان البعد الإقليمي لمسار التسوية على البعد الوطني اللبناني في تقرير شكل المواجهة في الجنوب، على إيقاع التفاوض على المسار السوري، وخدمة لأهداف هذا الأخير»، مما سبّب «أعطابًا بنيوية في الأداء السياسي اللبناني، نتج عنها تغييب للدور اللبناني في عملية التسوية وتحويل للسياسة الخارجية إلى مجرد ملحق للسياسة السورية، وحتى ربط النشاط المقاوم بسوريا»؛ فتحْت عنوان «تصحيح العلاقة مع سوريا»، تطرح الوثيقة ضرورة إيجاد فهم مشترك بين لبنان وسورية حول التنمية وإشاعة الديمقراطية، وهي تدين طابع «الانتفاع السياسي والاقتصادي للنظام السوري وحلفائه على حساب لبنان»، وتطرح جملة من المطالب تجاه النظام السوري، تراها «تطبيقًا عمليًا لاتفاق الطائف». وتصوغ علاقة أخرى مع سورية: «تتطلّب العلاقات الاستراتيجية السورية – اللبنانية أن يكون لبنان حاضرًا وفق قدراته لنصرة سوريا في الصراع العربي – الإسرائيلي، كما في الدفاع عن حق الشعب الفلسطيني في دولة مستقلة تعبر عن حقوقه الوطنية والتاريخية المشروعة. ولقد لعب لبنان دورًا بالغ الأهمية في مقاومته الاحتلال الإسرائيلي ومشاريعه في لبنان بالتحالف مع سوريا، إلا أن هذا لا يجب أن يكون على حساب استقلاله، وعلى حساب حق أبنائه في اختيار نظامهم وقواهم السياسية». وتتابع الوثيقة أن هذه الشراكة الاستراتيجية يجب أن «تتم بين بلدين مستقلين سيدين متوافقين على المصالح المشتركة بين الشعبين، لا على أسس تغليب مصالح أهل النظام السوري وأتباعهم اللبنانيين ومنافعهم»، فالمشكلة الأصلية في نظرها تكمن في «علاقة التبعية القائمة لصالح النظام السوري»[401].

(359) «'Four Mothers' Leave Lebanon in Peace,» accessed on 5/2/2021, at: https://bit.ly/2MvFbyY

(360) سمير قصير، **ديموقراطية سوريا واستقلال لبنان: البحث عن ربيع دمشق**، تقديم عمر أميرالاي (بيروت: دار النهار، 2004)، ص 62.

(361) سمير قصير، **عسكر على مين؟ لبنان الجمهورية المفقودة**، تقديم غسان تويني (بيروت: دار النهار، 2004)، ص 110-112.

(362) المرجع نفسه، ص 110، 113-114.

(363) Jean-Pierre Perrin, «A Damas, le printemps a duré huit mois,» *Liberation*, 25/6/2001, accessed on 5/2/2021, at: https://bit.ly/2YLIGnk

(364) نُشر البيان في عدد من الصحف اللبنانية، يوم 29/9/2000، منها **الحياة** و**السفير**. وللمزيد من التفاصيل عنه، ينظر: عبد الله حنا، **صفحات من تاريخ الأحزاب السياسية في سورية القرن العشرين وأجواؤها الاجتماعية** (الدوحة/بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2018)، ص 447-448.

(365) ينظر نص البيان في: «الوثيقة التأسيسية للجان إحياء المجتمع المدني في سورية»، ملتقى العروبيين، 29 حزيران/يونيو 2020، شوهد في 29/6/2021، في: https://bit.ly/3dpK5aF. وللمزيد عن سياق ظهور هذا البيان، ينظر: عبد الوهاب عاصي، «تجربة المجتمع المدني السوري»، جسور للدراسات، 15/9/2020، شوهد في 29/6/2021، في: https://bit.ly/3qKwBfr

(366) قصير، **ديموقراطية سوريا**، ص 15-16.

(367) رئيس وزراء إسرائيل من عام 2001 إلى عام 2006، تاريخ دخوله في الغيبوبة. كان وزير دفاع إسرائيل في خلال الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام 1982. اتهم بغض الطرف عن مجزرة صبرا وشاتيلا التي تلت هذا الاجتياح.

(368) رجل دين مسيحي، ترأس الكنيسة المارونية (1986-2011)، حيث استقال من مهماته حتى وفاته.

(369) «نداء المطارنة الموارنة في العام 2000»، موقع القوات اللبنانية، 20/4/2014، شوهد في 6/2/2021، في: Yeead2'SZe&y'3TLI AA5

(370) **لقاء قرنة شهوان في سنواته الأربع: مواقف وبيانات، 30 نيسان 2001 - 30 نيسان 2005** ([د. م.]: [د. ن.]، 2005)، ص 21.

(371) قصير، **عسكر على مين؟**، ص 72-75.

(372) المرجع نفسه، ص 99.

(373) المرجع نفسه، ص 98.

(374) المرجع نفسه، ص 31.

(375) المرجع نفسه، ص 193.

(376) المرجع نفسه، ص 119-120.

(377) المرجع نفسه، ص 69.

(378) قصير، **ديموقراطية سوريا**، ص 10.

(379) المرجع نفسه، ص 70-71.

(380) في الإشارة إلى أعمال العنف الأهلي، التي شهدتها الجزائر في عقد التسعينيات من القرن العشرين، والذي بات يُسمّى في الأدبيات الجزائرية «العشرية السوداء».

(381) المرجع نفسه، ص 34.

(382) المرجع نفسه، ص 164.

(383) جوزيف سماحة، **الآن هنا** (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2007).

(384) المرجع نفسه، ص 48-49.

(385) المرجع نفسه، ص 51.

(386) المرجع نفسه، ص 47.

(387) المرجع نفسه، ص 20.

(388) المرجع نفسه، ص 59-60.

(389) المرجع نفسه، ص 72-73.

(390) المرجع نفسه، ص 110.

(391) رئيس جمهورية لبنان (1998-2007).

(392) أسرة التحرير، «جوزف سماحة: لم يستوحش طريق الصواب»، **الأخبار**، 25/2/2019، شوهد في 6/2/2021، في: Yeea d2' SZe&y' 3THU) cD

(393) مقابلة مع زين رحمة، 27/10/2018.

(394) مفكر واقتصادي مصري ماركسي.

(395) مقابلة مع خالد صاغية، 10/11/2018.

(396) قيادي لبناني في منظمة العمل الشيوعي.

(397) مقابلة مع زين رحمة.

(398) المرجع نفسه.

(399) مستيكا الخوري، «خاص موقع àالقوات’: àاليسار الديمقراطي’ بين الانكفاء والانتفاضة الذاتية»، موقع القوات اللبنانية، 13/8/2016، شوهد في 6/2/2021، في: Yeea d2'SZe&]y'2L A5 XD`

(400) حسين يعقوب، **يسار لبنان: تاريخ موجز وشهادات من التجربة** (برلين: مؤسسة روزا لوكسمبورغ، 2013)، ص 122، 131، 134-137. في هذا الكتاب يروي زياد صعب تفاصيل مجريات هذا الانشقاق.

(401) طلاب شيوعيون، «حركة اليسار الديمقراطي - مسودة لمشروع وثيقة سياسية»، **الحوار المتمدن**، 27/4/2004، شوهد في 6/2/2021، في: Yeea d2'SZe&]y'3` I ` [y`؛ حركة اليسار الديموقراطي، «مشروع النظام الداخلي لحركة اليسار الديموقراطي في لبنان»، **الحوار المتمدن**، 19/8/2004، شوهد في 6/2/2021، في:

Yeea d2'SZe&]y'3TI8 YU3

الفصل الثالث عشر: «0 آذار» و« ,) آذار»

اغتيل رفيق الحريري في 14 شباط/فبراير 2005 بتفجير موكبه واحتراق من فيه. الدنيا تنقلب رأسًا على عقب. الانقسام يتكرّس برقمين: 8 و14. ما يشبه الانتفاضة الشعبية يعيد فرز الانحيازات السياسية. تجمعها، أو تفرّقها، المطالبة بانسحاب الجيش السوري من لبنان، وبمحاكمة القتلة. والقليلون يصدقون الشريط المصور الذي خرج بعد الاغتيال بخمس ساعات، حيث يتكلم فيه شخص مغمور، أحمد أبو عدس، و«يعترف» بأنه هو منفذ عملية التفجير، لصالح جماعة مجهولة اسمها «جماعة النصرة والجهاد في بلاد الشام»، فالمناخ عارم وغاضب والإصرار على التخلص من الوصاية السورية مدعوم من مناخ غربي موازٍ، متعاطف معه، بعدما خسرت سورية تغطية الأميركيين على حكمها لبنان، إثر موقفها السلبي من غزوهم العراق عام 2003، ودعمها «الجهاديين» المقاتلين لجيشهم.

في 8 آذار/مارس، وبعد اجتماع مع الأحزاب الحليفة له، يطلّ الأمين العام لحزب الله، حسن نصر الله على تظاهرة حاشدة في ساحة رياض الصلح، يؤكد خلالها رفضه التدخل الأجنبي، وتنديده بالقرار 1559، القاضي بانسحاب الجيش السوري من لبنان وذهاب الجيش اللبناني إلى جنوب لبنان، ويعبّر عن شكره ووفائه وتقديره لسورية على «إنجازاتها الكبرى في لبنان». الحشود المشتركة في هذه التظاهرة ذات غالبية شيعية، إضافة إلى أحزاب موالية لسورية، أهمها، حركة أمل، وحزب البعث، والتنظيم الشعبي الناصري، وجمعية المشاريع الخيرية الإسلامية والحزب السوري القومي الاجتماعي وتيار المردة، أي مزيج من التجمعات المناطقية والطائفية والإسلامية، والأحزاب العلمانية الحليفة لحزب الله وللنظام السوري.

في 14 آذار/مارس، وبعد سلسلة من التظاهرات والاعتصامات الشعبية، ونَصْب الخيم الشبابية، تخرج تظاهرة أخرى، مليونية، تطالب بالعكس تمامًا: تطبيق القرار 1559، ومحاكمة القتلة في محكمة دولية خاصة بلبنان، وإعادة الدولة إلى دورها المطلوب، بصفتها وحدها القادرة على حكم لبنان بعد الانسحاب السوري المطلوب، وبإلحاح. تشارك في هذه التظاهرة، أول مرة، أحزاب يمينية طائفية وأخرى يسارية، ليس الحزب الشيوعي من بينها: القوات اللبنانية (المنشق عن حزب الكتائب)، وحزب الكتائب نفسه، وحزب الوطنيين الأحرار، فضلًا عن تيار المستقبل (الحريري)، والحزب التقدمي الاشتراكي (وليد جنبلاط)، والكتلة الوطنية، ولقاء قرنة شهوان، وحركتان حديثتا العهد: حركة التجدّد الديمقراطي وحركة اليسار الديمقراطي. أورد كل هذه الأسماء للإشارة ثانية إلى أن التوزع الحزبي بين «8 آذار» و«14 آذار» خرج عن مألوفه، بين يسار ويمين، وأن الأول (8 آذار) يجمع علمانيين وقوميين وإسلاميين تحت قيادة حزب الله، وأن الثاني (14 آذار) يشمل أحزابًا علمانية ويسارية – جديدة، بقيادة زعامات طائفية، بعضها كان متناحرًا أيام الحرب الأهلية، أي القوات اللبنانية بقيادة سمير جعجع والحزب التقدمي الاشتراكي، بقيادة جنبلاط، وإلى جانبها وريث الزعامة السنّية، سعد الحريري، ابن رفيق الحريري.

أين الحزب الشيوعي اللبناني من كل هذا، وهو أكبر الأحزاب اللبنانية وأقدمها؟ ليس ظاهرًا لا في التظاهرات ولا البيانات ولا الخطابات، وقد نصبت خشبة (بوديوم) وسط ساحة الشهداء، يتحدث فيها الأنصار أمام الميكروفون بما يجودون من

مواقف وآمال. ضمن لائحة الأحزاب المشاركة في خيمة «14 آذار» فقط، ثمة مجموعة صغيرة اسمها «مجموعة من الحزب الشيوعي اللبناني». الحزب الشيوعي غائب، وأزمة داخلية تشغله، فحيرة في المواقف. إنها الأزمة التي ستولد «حركة الإنقاذ». سوف يأتي الكلام على هذه الأخيرة. ولكن الآن، ثمة تململ داخل الحزب يعبر عنه يوسف مرتضى: «بعدما أصبح هناك 14à و8 آذار’، وقت اغتيال الحريري، نحن تبنّينا وجهة نظر، ومفادها أنه على الحزب [الشيوعي] أن يستغل هذه اللحظة: لحظة الشارع المنتفض من أجل استعادة القرار الوطني المستقل، ومن ثمّ أن يأخذ الحزب خيار مطالبة سورية بالانسحاب من لبنان. هذا كان خيارنا مع جورج حاوي. ونحن، مجموعة صغيرة من الحزب، نزلنا إلى الخيم [في ساحة الشهداء] وكنا مع 14à آذار’، وكنا نتفاعل مع هذه اللغة. ونحن ضغطنا على الحزب ليشارك في لقاءات البريستول، أول إرهاصات 14à آذار’. واجتمعوا بالمكتب السياسي لبحث هذا الموضوع فانقسموا. لم ينقسموا على مبدأ المشاركة، إنما على شيء آخر. انقسموا وقالوا ما دام إلياس عطا الله [àاليسار الديمقراطي’] هناك، فنحن لن ننزل ولن نشارك. وانقسموا وكان الخلاف حول نقطة بسيطة. انظري كم هو عظيم هذا الحزب! وبعد ذلك، التحقوا بفريق 8à آذار’ بطريقة مستورة ثم بطريقة علنية»[402].

هذه المجموعة البازغة الآن، داخل الحزب الشيوعي، التي يتكلم عليها يوسف مرتضى، تحاول أن تلتحق بنشاطات «14 آذار»، فرديًّا، أو بمجموعات حزبية غير «رسمية»، بأسماء مختلفة، لا لتضيف إليه جماهيرية هي بالأساس كاسحة، إنما لتشارك أيضًا في قرارات قيادة «14 آذار». يتحدث يوسف مرتضى عن محاولات المشاركة هذه: «بالسياسة نزلنا مع 14à آذار’ كحركة شعبية وحاولنا وكنا ملحقين بتركيبة طائفية أمسكت بنا. وهذا تحالف طائفي وقاعدته شعبية واسعة؛ فلنكن موجودين وفاعلين. وعلينا أن نكون في موقع القرار، وكانوا قد شكلوا لجنة متابعة لـ14à آذار’. طرحنا الموضوع مع فارس سعيد [من الأمانة العامة لـ14à آذار’] والشباب، وقلتُ إنه لا مانع لدينا أن نكون في لجنة المتابعة؛ لأننا نريد أن يكون لنا رأي في القرار، لا أن تأخذوا قرارًا ونحن نصفق لكم. وطرحنا الموضوع مع وليد جنبلاط. ذهبتُ إليه برفقة غسان الرفاعي ومحمود أبو شقرا. قال جنبلاط: حسنًا، تابعوا الموضوع مع أكرم شهيب، وصار محمود أبو شقرا يتابع الموضوع معهم. قال له أكرم شهيب: àلماذا لا تدخلون مع إلياس عطا الله [اليسار الديمقراطي]؟ أنتم قليلو العدد [...]’. ولكن نحن لنا اعتباراتنا، وإذا أنتم هذا النوع من اليسار مع إلياس عطا الله موجود، فليس أكرم شهيب هو الذي يقرر ما هو نوع يساريتنا، وما هو نوع يسارية إلياس عطا الله»[403]. سوف تنتظر هذه الحركة اغتيال جورج حاوي، بعد أربعة أشهر على اغتيال رفيق الحريري، لتعلن عن نفسها وتخرج إلى العلن، باسم «حركة الإنقاذ» في الحزب الشيوعي اللبناني.

ولكن الآن، عودة إلى عشية اغتيال الحريري، إلى الحركة السياسية التي غذّت المناخ السياسي بالمواقف والكلمات: بعد التمديد لرئيس الجمهورية، إميل لحود، الموالي لسورية، وهو قرار سياسي مناقض للتيار الذي كان بدأ يلوح منذ عام 2000، والمطالب بانسحاب سوري وذهاب الجيش إلى الجنوب، فكانت محاولة الاغتيال الفاشلة التي استهدفت النائب الجنبلاطي مروان حمادة. بعدها، تداعت أحزاب وشخصيات إلى الاجتماع في فندق «بريستول» في أواخر عام 2004، وأنشأت جبهة سياسية، عرفت بـ «لقاء البريستول». ومن بين الأطراف التي شاركت في هذا اللقاء، حركة اليسار

الديمقراطي. الناطق الرسمي باسم هذا اللقاء، هو سمير فرنجية، أيضًا، هو الذي يتلو البيان رقم واحد للقاء الذي يتضمن مطالب تتناغم تمامًا مع ما لحق من مواقف «14 آذار»، ثم بيان آخر، بعيد اغتيال رفيق الحريري، يطالب بلجنة تحقيق دولية بإشراف الأمم المتحدة للتحقيق في اغتيال الحريري، وتشكيل حكومة انتقالية، ودعوة الجاليات اللبنانية للمشاركة في ما سماه «انتفاضة الاستقلال» (ربما المرة الأولى)، ودعوة العرب إلى تحمّل مسؤولياتهم. وسمير فرنجية كان مدير مكتب الدراسات الذي أنشأه الحريري قبل اغتياله، ولكن فرنجية ليس وحده من الملتحقين بالحريري، معه أيضًا الراحلان حكمت العيد ونصير الأسعد (1951–2012)، القياديان في منظمة العمل الشيوعي اللذان حضرا بعض اجتماعات «البريستول»، بينما حسن منيمنة، وهو رفيق آخر في المنظمة، سبق الاثنين في الالتحاق برفيق الحريري، وتأسيس تيار المستقبل، وقد وجد في تاريخ 14 آذار/مارس نقطة لانخراطه «بنشاط في كل نشاطاته، بالاجتماعات والحراك والنقاشات»، وبصفته مسؤول «قطاع التربية» في التيار، كان نشاطه هذا مطلوبًا «لأن الشباب هم مادته الحيّة»[404].

تتألق حركة اليسار الديمقراطي بين الخيم المنصوبة للأحزاب المشاركة في 14 آذار/مارس. وتشارك الحركة منذ البداية وبكثافة، وهي التي تدير البوديوم وسط الخيم، وهو المنبر الرسمي لقيادة الانتفاضة، ويتناوب على الكلام فيه من شاء من مؤيدين ووجوه بارزة، بل تنظر حركة اليسار الديمقراطي بعين الرضا عن نفسها وعن زعيمها إلياس عطا الله. وفي الخيم المنصوبة في ساحة الشهداء، يعتز شبابها بنوعية مشاركتهم: «من جهتها اعتبرت مجموعة اليسار [الديمقراطي] أنها كانت àالمطبخ’ الذي كانت تصدر عنه جميع الأفكار والشعارات فكان [شبابها] خلاقين في إخراج الصورة الجميلة للانتفاضة وتحويلها من انتفاضة إلى مهرجان بألوان مختلفة ونشاطات حماسية جميلة غير مسلحة أعطت البعد الوطني الحقيقي والمثالي، فلولا وجود شباب اليسار [الديمقراطي] بحسب المجموعة نفسها، لكانت الإشكاليات بين المشاركين في المخيم أكبر [...]. وتضيف المجموعة أنها نصبت أولى خيم المخيم، وأن شبابها أدوا دورًا مهمًا جدًّا في الوصل بين جميع الأطراف، لكونهم غير مقيدين بطائفة معينة [...]. وأشارت المجموعة نفسها إلى دور إلياس عطا الله من خلال توجيه نداء مباشر في السابع عشر من شباط [فبراير] 2005 عبر وسائل الإعلام، وتحديدًا تلفزيون المستقبل، بالنزول إلى ساحة الشهداء للاعتصام»[405].

وسمير قصير، منظّر الحركة، يؤدي دورًا تعبويًا عاليًا باعتراف مشاركين من أحزاب أخرى وسط هذه الخيم الشبابية: «اعتبرت مجموعة الحزب التقدمي الاشتراكي [جنبلاط] أن سمير قصير كان àمهندس انتفاضة الاستقلال’». وأضافت المجموعة نفسها أن «العبارات والشعارات التي كانت تتصدر اللافتات كانت من ابتكار سمير قصير»، وأشارت إلى «دور سمير قصير في تشجيع شباب المخيم على الاستقلال في قراراتهم عن قادتهم السياسيين، ورفض سمير قصير ما كان يتعرض له العمال السوريون، واعترض على النواب الذين كانوا يصعدون مع حراسهم إلى البوديوم، فسمير قصير، المطارَد من قبل نظام الوصاية السوري بحسب مجموعة اليسار الديمقراطي، دافع عن شعب سورية على البوديوم في الوقت الذي كانت الناس معبأة ضد السوريين»[406].

تحت الضغط الشعبي والدولي، ينسحب الجيش السوري من لبنان في 21 نيسان/أبريل من العام نفسه. وبعد هذا الانسحاب بستة أشهر، يصدر في دمشق بيان «إعلان دمشق للتغيير الوطني الديمقراطي»، يرفع أهدافًا كإقامة النظام

الوطني الديمقراطي، ونبذ الفكر الشمولي، ووقف العمل بقانون الطوارئ، إلى ما هنالك من مطالب باتت تحملها المعارضة السورية. ولا يذكر البيان لبنان ودور النظام فيه إلا في سياق سريع يفسر فيه «انهياره الاقتصادي»، و«أزماته المتفاقمة»، و«عزلته الخانقة»، بأنها جميعها «نتيجة سياسته المدمرة والمغامرة وقصيرة النظر على المستوى العربي والإقليمي، وخاصة في لبنان»[407].

ولكن كتب معارض سوري، هو علي العبد الله، مقالًا يلقي الضوء على ظروف صياغة هذا البيان، يذكر أحداث 2005، وما سبقها وما تلاها، ليضع البيان في سياقها، فيروي قصة المؤتمر العاشر لحزب البعث الذي عقد بين 7 و9 حزيران/يونيو 2005، بدفع من تطورات يصفها بـ «السياسية الميدانية الضاغطة»، فيعددها على النحو التالي: «قرار مجلس الأمن الدولي رقم 1559 الذي صدر في 2 أيلول/سبتمبر 2004، والقاضي بخروج جميع القوات الأجنبية من لبنان، والمقصود جيش النظام. اغتيال رئيس الوزراء اللبناني السابق رفيق الحريري يوم 14 شباط/فبراير 2005. تشكيل لجنة تحقيق دولية للتحقيق باغتيال الحريري، بموجب قرار مجلس الأمن الدولي رقم 1595 في 7 نيسان/أبريل 2005 [...]. تشكيل محكمة خاصة للبنان للتحقيق في اغتيالات ضد سياسيين وصحافيين بدءًا من عام 2004». ويحيل الكاتب قرار المؤتمر إلى «محاولةٍ منه للتغطية على مجريات التحقيق الدولي، والمصاعب التي يواجهها، واضطراره إلى سحب جيشه من لبنان بسرعة، وبشكل غير منظم»[408]. والمقصود بهذا الاستطراد أن بيان المعارضة حول الحريات، هو من ثمرات خذلان النظام أمام المدّ الكاسح الذي أخرج جيشه من لبنان، وتجري مياهه كما لو كانت داخل أوان مستطرقة.

الاغتيالات لا تتوقف في هذه الأثناء. اللائحة طويلة، وتضم شخصيات سياسية كلها من «معسكر 14 آذار»، لكنْ اغتيالان يهزان الوسط اليساري بالتحديد: سمير قصير في 2 حزيران/يونيو 2005، وجورج حاوي بعده بتسعة عشر يومًا. اغتيال الأول خسارة ثقافية سياسية لأحد أبرز منظِّري الانتفاضة ضد نظام الوصاية وربطها بخلاص السوريين أنفسهم منه. والثاني هو الأمين العام السابق للحزب الشيوعي اللبناني، جورج حاوي، الذي كان قائدًا فعليًا لحزبه، أو لجناح منه، القريب من «14 آذار».

يقول محمد علي مقلد إن في لحظة الاغتيال اتهمت القيادة الرسمية للحزب الشيوعي اللبناني الطرف الخاطئ: «مات جورج حاوي. فراح [الأمين العام للحزب] ووقف على باب السيارة، وقال àالطوائف قتلته’، في الوقت الذي كل البلاد تقول إن سورية هي التي تقتل، فأخذت القيادة التاريخية للحزب موقفًا منه ومنعته من إلقاء كلمته، ومنعه أيضًا كريم مروة وجورج البطل وأهل جورج حاوي وكل الموجودين، معتبرين أن هذا التصريح àخنفشاري’ [بلا معنى]»[409].

بعد شهرين على تاريخ هذا الاغتيال، تظهر مجموعة من داخل الحزب، لمِحتُ إليها آنفًا، كانت متناغمة سابقة حول عموميات، وتتفق على تأسيس «حركة الإنقاذ» التابعة للحزب الشيوعي اللبناني. يروي يوسف مرتضى في هذا الصدد: «نحن كنا مجموعة من ستة أعضاء بالمجلس الوطني [للحزب] فُصلوا من المجلس لأنهم اختلفوا معهم في الرأي. نحن كنا نطالب بأن يكون هناك تيارات داخل الحزب، وهم [القيادة] يجيبون àمستحيل أن يحصل هذا الانقسام داخل الحزب’، فذهبنا واجتمعنا. كنا حوالى 500 واحد، عملنا لقاء في ملتقى النهرين سنة 2005 بعد اغتيال جورج حاوي بشهرين،

وكان من قيادة هذه المجموعة غسان الرفاعي وأنا ومحمد علي مقلد، وسناء أبو شقرا، وشفيق شعيب وأديب نعمة. وكنا أعضاء مكتب سياسي سابق ومن اللجنة المركزية، واتفقنا على أن نعمل âحركة إنقاذ’ للحزب وفق البرنامج الصادر عن المؤتمر السادس، وكانوا جميعهم مقتنعين به». ويذكر يوسف مرتضى بالخلافات التي بلورت الحركة داخل الحزب: «وهم [قيادة الحزب] مع âحزب الله’ ولكنهم يخجلون من التصريح بذلك، وهم مع نبيه بري ولكنهم يخجلون أيضًا، فقلت لهم أنتم تمارسون العادة السرية في هذا الموضوع. مؤخرًا حنا غريب [الأمين العام] طلع على التلفزيون عشية التظاهرة [المطلبية] ليعلن أن المسؤول عن هذه الأزمة هو المارونية السياسية ومعها السنّية السياسية، ولكن لا وجود للشيعية السياسية. الحاكم في البلاد منذ 1992، أي الشيعية السياسية، غير واردة أبدًا في ذهنه»[410].

يحيل يوسف مرتضى أصول هذا الخلاف داخل الحزب إلى المؤتمر السادس، كما يبين ذلك قائلًا: «كنا من قلب الحزب، نطرح ضرورة العودة إلى إحياء فكرة الديمقراطية داخل الحزب. حاولنا في المؤتمر السادس أن نكرسها وفشلنا. بعد ذلك، عدنا نُحيي الفكرة، فالحزب كيف يطالب بالديمقراطية في البلاد، ونحن ليس عندنا ديمقراطية؟ الديمقراطية تعني الاختلاف في الرأي وأن يكون في الحزب تيارات. أين المشكلة في أن تكون هناك تيارات، وأن تكون هذه التيارات تحت سقف الديمقراطية الأكثرية والأقلية، وحق الأقلية في أن تظل تعبر عن رأيها بكل الأشكال، من دون ما تنْفصل؟ لم يستوعبوا هذه الفكرة، بعدما عملوا المؤتمر نحن تكتلنا داخل الحزب الشيوعي، وسمينا أنفسنا المعارضة في المجلس الوطني. بعد ذلك، إثر استشهاد جورج حاوي، سمينا أنفسنا âحركة الإنقاذ’»[411].

أما غسان الرفاعي، فيذهب أبعد من التسعينيات، ويرى أن الأزمة تكمن في بداية الثمانينيات، قبل انهيار الاتحاد السوفياتي وقبل المؤتمر السادس: «تقديري غير المنحاز أن أزمتنا بدأت بعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان سنة 1982. أتصور أنه من وقتها بدأت أزمتنا، لأن الاجتياح الإسرائيلي غيّر المعادلات الداخلية والإقليمية بشكل كبير. وبعد الاجتياح انتقل القرار السياسي إلى أيدي السوريين بشكل واضح. انتقل القرار إلى يد السوري بعد موجات طالعة ونازلة بالعلاقات الأميركية – السورية منذ عام 1975، واجتماعات حافظ الأسد مع [الرئيس الأميركي] بيل كلينتون [...] فصارت سورية القوة الرئيسية في لبنان». ويتابع غسان الرفاعي واصفًا الضعف الذي أصاب اليسار اللبناني من جرّاء خروج الفلسطينيين من لبنان عام 1982: «طبعًا مع انسحاب الفلسطينيين من لبنان خرج سند كبير للحركة الوطنية. هناك أقسام من الحركة الوطنية صارت تميل إلى سورية لأن سورية هي مركز القرار. نحن لم نستطع أن نسير بهذا الانعطاف، ولا يجب أن نسير أيضًا، ولكن النتيجة أننا ضقنا بهذا الموضوع [...]. نحن خدعنا أنفسنا وغطينا هزيمتنا بستار تنكري خادع. من وقتها بدأت أزمتنا الحقيقية». ويتابع الرفاعي قائلًا «إنّ قسمًا من الرفاق مالَ إلى مركز القرار الجديد وقتها، ومعه ميل إلى تأييد التمديد لإميل لحود [رئيس الجمهورية]، لأن السوريين يريدون ذلك، فكبُر الميل نحو التحالف السوري – الإيراني [...]. أتصور أن الضعضعة حصلت في الحزب نتيجة التغيرات العامة. لم تحصل مباشرة، كأن نكون ضُربنا فضعفنا. لم يحصل الأمر هكذا، بل حصلت تراكمات»، ليخلص إلى وصف السياق الذي فجر الخلاف داخل الحزب: انفجر لأن الخلافات لم يعد ممكنًا تسويتها ضمن إطار قيادة موحدة. المفروض أن يكون الحد الأدنى موحدًا من الموقف من السوريين، والموقف

من إيران ومن حزب الله ومن الكفاح المسلح. حاليًا ماذا يفعل حزب الله بالكفاح المسلح؟ أليس هو بطل الكفاح المسلح؟ إنه لا يفعل شيئًا، إنه ملتزم بقرار مجلس الأمن 1701»[412].

محمد علي مقلد، المؤسس الآخر لـ «حركة الإنقاذ»، يلتقي برفيق الحريري عدة مرات، يثني على شخصيته، يتلقى منه تهانئ على مقال كتبه، ويلاقي داخل الحزب اعتراضات على أفكاره وسلوكه، فالحزب منقسم حول الحريري. ومقلد يساجل داخل الحزب، حول أصول فكرة الاستبداد التي راودته أولويتها منذ اغتيال مهدي عامل: «المعضلة في بلادنا هي الاستبداد، لا الرأسمالية ولا التوحش الرأسمالي». ويتابع مفصِّلًا: «لا تمثل إسرائيل الخطر الأساسي وهي خطر، ولا الرأسمالية تمثل الخطر الأساسي وهي خطر؛ الذي يمثل الخطر الأساسي على بلادنا هو الاستبداد». ويرى أن سورية زرعت الاستبداد في لبنان «عندما جاءت سورية، قلبت عمليًّا الجوانب الديمقراطية من الدستور، وألغت الفصل بين السلطات، واستحدثت شيئًا اسمه ترويكا الرؤساء الثلاثة». ويعطي مثلًا عن ذلك في كيفية اختيار النظام السوري مرشحي الانتخابات النيابية: «محمد رعد [نائب عن حزب الله] قال له السفير الياباني في إحدى المناسبات: àنحن غدًا عندنا انتخابات’، فضحك الحضور وقال له محمد رعد: àونحن أيضًا عندنا انتخابات، ولكن الفرق بيننا وبينكم أنكم تعرفون النتائج بعد الانتخابات، ونحن نعرفها قبل الانتخابات’، ويروى عن لسان وليد جنبلاط سالفة، أنه أتاه شخص من مهاجري البرازيل، وطلب منه أن يرشحه في لائحته في الانتخابات. قال له إنه سيدفع القدر الذي يريد، فأجابه جنبلاط بالعبارة العامية àشو بدك بهل الشغلة؟ [...] بالأمس كنتُ في سورية، ولم أر اسمك على طاولة عبد الحليم خدام’. ومفاد القول إن الانتخابات عندنا ألغوا الجانب الديمقراطي منها»[413].

لكنهم جميعهم، الرفاعي ومقلد ومرتضى، رغم اعتراضهم على خط القيادة الحزبية، يرفضون الخروج من الحزب الشيوعي على غرار إلياس عطا الله، مؤسس حركة اليسار الديمقراطي. يردد محمد علي مقلد، جوابًا عن سؤال عن الفرق بين حركة الإنقاذ وحركة اليسار الديمقراطي، أن الأولى، «الإنقاذ»، ترفض جميع أنواع الانشقاقات، ويستشهد بكلمة قالها يومًا الراحل جوزيف سماحة: «لا يسار من دون الحزب الشيوعي. ولا يسار مع هكذا حزب شيوعي». أعضاء حركة الإنقاذ لا يخرجون من الحزب، وإن خالفهم الحزب أو عاقبهم أو حطّ من شأنهم أو رتبتهم الحزبية.

لماذا لا يخرجون؟ يجيب غسان الرفاعي: «الحزب كمؤسسة فيه عصبوية عالية. العسْكرة أثناء الحرب قوّت هذه العصبوية الحزبية، ومعها أيضًا المعارك العسكرية التي خاضها أثناء هذه الحرب. فهناك ضريبة دم وشهداء، وهناك رفاق لا يحلفون إلا بدم الشهداء»[414].

ثمة إجماع ضمن «حركة الإنقاذ» على إدانة الانشقاق الذي أحدثه إلياس عطا الله داخل الحزب، وسحب على إثره خمسمئة رفيق من الحزب، بمن فيهم عضو المكتب السياسي، نديم عبد الصمد، وإجماع إضافي على نقد «ذاتيته»، لكن النقد الذي يبتغي شيئًا من الشمول يصدر في السنة نفسها للإعلان عن «حركة الإنقاذ»، وهو بقلم محمد علي مقلد، في كتيب عنوانه **اليسار بين الأنقاض والإنقاذ: قراءة نقدية من أجل تجديد اليسار**[415]. يقول الكاتب إنه طبع هذا الكتيّب على نفقته الخاصة، بعدما أعطت قيادة الحزب أمرًا لمطبعة دار الفارابي بمنع طبعه. يأخذ مقلد على اليسار

الديمقراطي طبيعته «الانشقاقية»، التي ظهرت منذ اللحظة الأولى لتأسيسه، «بالرغم من التصريحات التي تنفي هذه الصفة»، معتبرًا أن الانشقاق «هو تعبير عن أزمة وليس حلًّا لها». ثم يبحث عن جذور هذه الحركة ويجدها في نصوص تعود إلى التسعينيات: «عام 1994 صدر أول نص عن اليسار الديمقراطي، وقّعه عشرة رفاق من أعضاء المؤتمر السابع، وهو عبارة عن بيان اعتراض على نهج الحزب السياسي والتنظيمي، ولم يكن مضمونه يختلف عن مضمون مشروع الوثائق التي صاغتها القيادة إلا في أمر واحد، فإلى جانب تباين تكتيكي في مسألة العلاقات اللبنانية – السورية، طرح المعترضون مسألة النسبية في انتخاب الهيئات القيادية»، بينما النص الثاني كُتب بمناسبة المؤتمر الثامن عام 1998، «وقد أصدره هذه المرة تيار اليسار الديمقراطي [...] غير أن القيادة لم تعره الاهتمام الكافي».

وينتقد موقف اليسار الديمقراطي الذي اختار «الساحة الخطأ للمنازلة»، فلم يقدم أي جديد سياسيًا، حتى في مسألة الاستقلال؛ إذ كان عليه أن «يقدم في السياسة برنامجًا أيديولوجيًا أو سياسيًا، وأن يترك الطائفيين يتراشقون ليفضحوا أنفسهم»، ويأخذ على الوثيقة التأسيسية أنها «تسرّعت في تأكيدها عدم اعتبار الماركسية شرطًا ضروريًا ولازمًا للتعاقد في ما بيننا كيساريين»، بينما أعطت الجانب التنظيمي من الحركة أهمية بالغة: «نأخذ على وثيقة اليسار الديمقراطي إغفالها المسوغات السياسية وتركيزها على قضايا التنظيم، وبالتالي عجزها الأكيد عن إخراج اليسار من أزمته، ذلك أن النظام الداخلي الذي اقترحته يشبه في كل شيء أي نظام داخلي آخر، وأن البحث الجدي عن سبل خروج اليسار من أزمته يقتضي نقاشًا سياسيًا وليس تنظيميًا مع الحزب»[416].

(402) مقابلة مع يوسف مرتضى، 19/12/2018.

(403) المرجع نفسه.

(404) مقابلة مع حسن منيمنة، 7/3/2019.

(405) طانيوس جريس شهوان، **انتفاضة الاستقلال: مخيم ساحة الحرية**، تقديم فريد الخازن (بيروت: دار الساقي، 2012)، ص 159.

(406) المرجع نفسه، ص 163.

(407) «إعلان دمشق للتغيير الوطني الديمقراطي»، **ويكي مصدر**، شوهد في 6/2/2021، في:

Yeead2'SZe&y'3[`UHb:

(408) علي العبد الله، «إعلان دمشق.. àاستكمال القصة الكاملة'»، **العربي الجديد**، 17/4/2019، شوهد في 6/2/2021، في: Yeead2'SZe&y'3cegG-.

(409) مقابلة مع محمد علي مقلد، 12/11/2018.

(410) مقابلة مع يوسف مرتضى.

(411) المرجع نفسه.

(412) مقابلة مع غسان الرفاعي، 3/1/2019.

(413) مقابلة مع محمد علي مقلد.

(414) مقابلة مع غسان الرفاعي.

(415) محمد علي مقلد، **اليسار بين الأنقاض والإنقاذ: قراءة نقدية من أجل تجديد اليسار** ([د. م.]: [د. ن.]، 2005).

(416) المرجع نفسه، ص 28-29، 33-34، 55-56، 85، 102.

الفصل الرابع عشر: حرب تموز/ يوليو .((2

قبل ستة أشهر من اندلاع حرب تموز/يوليو 2006، ينعقد حلف متين بين حسن نصر الله وميشال عون، سُمِّي لاحقًا بـ «ورقة التفاهم بين حزب الله والتيار الوطني الحر». في البند المتعلق بالعلاقات اللبنانية – السورية من هذه الورقة، تتصدر نقطة مزارع شبعا ما عداها من بنود، سوف تبين الأيام اللاحقة أهميتها، وهامشية النقاط التي تلتها. تطالب الورقة الحكومة اللبنانية بـ «اتخاذ كافة الخطوات والإجراءات القانونية المتعلقة بتثبيت لبنانية مزارع شبعا، وتقديمها إلى الأمم المتحدة، وذلك بعد أن أعلنت الدولة السورية لبنانيتها الكاملة». وتستند الورقة إلى هذه الديباجة لتضفي على سلاح حزب الله ما يتطلبه من مزيد من الشرعية، فتنتهي باكتمالها؛ إذ تقول: «وبما أن إسرائيل تحتل مزارع شبعا وتأسر المقاومين اللبنانيين وتهدّد لبنان، فإن على اللبنانيين تحمّل مسؤولياتهم وتقاسم أعباء حماية لبنان وصيانة كيانه وأمنه والحفاظ على استقلاله وسيادته من خلال: أولًا، تحرير مزارع شبعا من الاحتلال الإسرائيلي. ثانيًا، تحرير الأسرى اللبنانيين من السجون الإسرائيلية. ثالثًا، حماية لبنان من الأخطار الإسرائيلية من خلال حوار وطني يؤدي إلى صياغة استراتيجية دفاع وطني يتوافق عليها اللبنانيون، وينخرطون فيها عبر تحمّل أعبائها والإفادة من نتائجها»[417].

بقوة هذا التحالف المتين الذي يحتاج إليه حزب الله من تغطية لممثلي كبرى الطوائف المسيحية، يشعل الحزب في 12 تموز/يوليو 2006 حربًا تدوم أكثر من ثلاثين يومًا. الحزب هو المبادر إلى هذه الحرب؛ إذ يخطف جنديين ويقتل ثلاثة ويجرح ثلاثة آخرين، وهي حرب غير متوازنة، غير متناظرة، بين دولة هي الأقوى عسكريًا في الشرق الأوسط ومجموعة حزبية أهلية، تملك صواريخ الكاتيوشا والبنادق، ومنظّمة على طريقة حرب العصابات. يقول عنها النائب الإسرائيلي دان مريدور: «نحن مثل الولايات المتحدة الأميركية نجد أنفسنا أمام دولة في مواجهة تنظيم، دولة في مواجهة لاعب غير دوْلتي»[418]. لكن العميد الركن [المتقاعد] أمين حطيط، المنظّر الاستراتيجي لحزب الله، يرى الأمر من زاوية مختلفة؛ فإسرائيل هي التي شنّت الحرب، وهي «ذات أهداف بعيدة المدى وجذرية التأثير [...] حرب أريد لها أن تكون المدخل إلى إعادة صياغة الشرق الأوسط الجديد، أو الكبير، أو بالأصح الشرق الأوسط المستعمر أميركيًا». ويرى العميد أن الإسرائيليين اصطدموا، خلال هذه الحرب، بثلاث عقبات: أولاها «إيران التي رفضت التخلي عن برنامجها النووي، كما رفضت مدّ أميركا بالتسهيلات اللازمة لاستقرار احتلالها العراق». وثانية هذه العقبات هي «سورية التي رفضت نزع سلاح حزب الله في لبنان، كما أنها لم تقدم لأميركا الخدمات الأمنية والعسكرية في الداخل العراقي لتجعل الاحتلال فيه أمرًا يسيرًا، كما رفضت طرد ممثلي المقاومة الفلسطينية من أراضيها». أما العقبة الثالثة، فتلتقي مع ملاحظة النائب الإسرائيلي، حول حزب الله، «الذي هزم إسرائيل عام 2000 واستمر في بناء قدرة عسكرية فريدة من نوعها تقع بين القوة التقليدية النظامية [جيش] وغير النظامية، وصاغ هيكلية عسكرية ذات قدرات مناسبة لتشكيل تهديد جدي لإسرائيل يمكّن الحزب من شل قدراتها، إذا شاءت العمل بسياسة àالذراع الطويلة' القادرة على التأثير في كامل الشرق الأوسط لخدمة المصالح الأميركية الإسرائيلية المشتركة». ويخلص العميد حطيط إلى أن «إسرائيل خسرت حربها»؛ خسرت في كل المراحل، وخصوصًا في

المرحلة الثالثة، «وكانت هزيمتها في خطة الإنقاذ تفوق الخيال، هزيمة سيكون لها الأثر الزلزالي في إسرائيل»، فهذه الحرب فضحت «وهن الدبابة ميركافا [...] وهن البنية الدفاعية [...] عجز منظومة الاستطلاع [...] وهن البارجة ساعر [...] ضعف البنية التنظيمية للجيش [...] العجز في البنية التنظيمية للجيش»[419].

أفراد من الحزب الشيوعي اللبناني شاركوا في القتال. عدد شهدائه في هذه الحرب يبلغ التسعة. الأقل شبابًا من بينهم، الذين ولدوا قبل أواسط الثمانينيات، كانوا قد شاركوا في جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية «جمول». وجميعهم قاتلوا إلى جانب حزب الله ضد إسرائيل. وكل واحد منهم: «بقي مناضلًا في صفوف الحزب الشيوعي اللبناني حتى تاريخ استشهاده في واحدة من البلدات الجنوبية التي كانت مسرحًا للقتال»[420].

الباقون من اليسار الذي نحن بصدده، سواء شخصيات أو مجموعات، لم يتعاطفوا جميعهم مع حزب الله، بل يحمّلونه مسؤولية الحرب والدمار، ولا يرون مبررًا لها غير مزيد من التشريع لسلاحه. تكاد مواقفهم تلتقي مع أحزاب «14 آذار» وشخصياته السياسية.

لكن، داخل حركة «اليسار الديمقراطي» ثمة اضطراب. رئيسها إلياس عطا الله الذي أصبح الآن نائبًا عن «تيار المستقبل» في دائرة الشمال، يتبنى مواقف هذا المعسكر، أي «14 آذار»، وهذا الاضطراب يعود إلى رفض داخل الحركة لهذا التطابق السياسي بين نائبهم اليساري وأحزاب «14 آذار» غير اليسارية. وثمرته، بعد أسبوعين على هذه الحرب، خروج رسالة مفتوحة إلى الإعلام، موجهة إلى «رفاقنا في حركة اليسار الديمقراطي»، يوقعها اثنان من أبرز وجوهها، إلياس خوري وزياد ماجد. يعلن الكاتبان بداية أن «واجبنا الوطني والأخلاقي واليساري يفرض علينا اليوم التذكير بثوابت يؤسفنا أن تغيب عن بال بعض الرفاق والأصدقاء والحلفاء». يرفض الكاتبان «ما يُقال اليوم في أوساط بعض رفاقنا وأصدقائنا في àقوى 14 آذار’» من أن «لا علاقة للبنان بالحرب الدائرة»، وبـ «تحميل حزب الله وحده مسؤولية استمرارها». ويعترضان على «تجنّب التطرق إلى الدور الأميركي في تغطية العدوان وإعطائه المهل الإضافية للاستمرار»، وعلى «التردّد في المطالبة بوقف إطلاق النار، وربط ذلك بدفتر شروط داخلي تأخر الجميع في المناداة بمضمونه». ويلاحظان التناقض بين «المناداة بعدم الانخراط في سياسات محاور إقليمية والتماهي في الوقت نفسه مع خطاب المحور السعودي – المصري – الأردني الذي لا نرى فيه الخيار الأنسب للرد على المحور السوري – الإيراني». ويخلصان أيضًا إلى أن حركة اليسار الديمقراطي «لم تكن يومًا حيادية تجاه المعركة الدائرة مع العدو الإسرائيلي»، رغم اختلافها مع حزب الله في الفكر والعقيدة والسياسة والتحالفات الإقليمية، وعلاقته بـ «النظام الاستبدادي في سوريا»[421].

لا تكفي هذه الرسالة لتضفي على حركة اليسار الديمقراطي ما أراده الكاتبان من «تصحيح» لمواقفها. يرى كاتب آخر، إسكندر منصور، مؤيد لحزب الله، أنه يصعب «على القارئ أو السامع أن يميز بين سمير جعجع وإلياس عطا الله»؛ ففي أدبيات الحركة التي يتزعمها هذا الأخير «لا وجود للإمبريالية [...] باستثناء بعض مقالات زياد ماجد الصحافية وبعض مقالات إلياس خوري في ملحق àالنهار’ خلال العدوان، هل نستطيع اعتبار مقالات خوري وماجد، وخاصة في رسالتهما إلى àرفاق في حركة اليسار الديمقراطي’ جزءًا من الموقف الرسمي للحركة [اليسار الديمقراطي] المناقض لكل نهج وتصريحات

عطا الله؟ كان هذا الموقف النقدي نسبيًا جنينًا ولد مع الرسالة ومات»[422]، مع أن هناك انقسامًا حقيقيًا داخل حركة اليسار الديمقراطي، بين من يرى أن «لا معركة تعلو فوق المعركة مع حزب الله وسوريا»، كما تفعل مجمل «قوى 14 آذار» وأحزابها، ومن يرى من جهة أخرى أن «من الضروري التمايز عن 14à آذار'»؛ وهذا الانقسام مرفق بفشل تنظيمي بعد عامين فقط من تأسيس هذه الحركة[423].

وهذا ما يدفع «الجناح» المختلف عن القائد ومعه، إلى إصدار مجلة تعبر عن هذا التمايز. إنها مجلة **الأفق**، التي يتكلم عليها وديع حمدان، وهو أحد مؤسسيها، وعن ظروف تأسيسها: «كانت التركيبة التنظيمية لليسار الديمقراطي هلامية. تأتي إلى اجتماعاتها فلا تجد فيها شخصية متمايزة عن 14à آذار'، خصوصًا في المضمون الطائفي، ونحن غير موافقين على ذلك، صحيح أن الأكثرية قادمة من الحزب الشيوعي اللبناني، ولكننا كنا شخصيات مستقلة. أنا أول من تكلم على هذا التمايز، خصوصًا أنني آتٍ من منظمة العمل الشيوعي، ولي شخصيتي المستقلة. خلال العامين الأولين، قليلون تكلموا على هذا التمايز. ومع الوقت، بدأت أزمة 14à آذار'، وبدأت تنعكس طائفيًا على اليسار الديمقراطي. المتفاعلون مع الفكرة كانوا زياد ماجد وإلياس خوري، وبعض الشباب الجامعيين. بعد هاتين السنتين، ارتفع النقد وبدأت بالمطالبة المكررة لأخذ مسافة مع 14à آذار'. بدأنا باللقاء. ترافق ذلك مع وضع تنظيمي مائع. لم يكن جوًّا ديمقراطيًا. إلياس عطا الله كان عمله فرديًا. القيادة الجماعية لم تكن جماعية. زياد ماجد وإلياس خوري شعرا بالتهميش، مقابل مركزية إلياس عطا الله. كان الخروج من التهميش عبر تأسيس المجلة. فرضنا، أنا وإلياس وزياد ومجموعة من الشباب، عقد مؤتمرٍ ثان في الرميلة، مؤتمرٍ ذي طابع تنظيمي [...] في هذا المؤتمر اختلفنا حول الموضوع المالي؛ إذ كان إلياس عطا الله يريد أن يفرض جماعته في اللجنة المالية. اعترضتُ على ذلك. وقتها، وُضعنا أمام واحد من اثنين: إما نخرج، أو نحاول التطوير من الداخل. والخيار الثاني يحتاج إلى وسيلة إعلامية تساعد على التميز داخل اليسار الديمقراطي وخارجه، ومع كل القوى»[424].

هكذا، كان الاختيار الثاني، الوسيلة الإعلامية، فخرجت **الأفق**، من تشرين الثاني/نوفمبر 2007 حتى حزيران/يونيو 2010، بمعدل شبه شهري، وأصدرت ستة وعشرين عددًا. وكانت موضوعاتها تراوح بين القضايا المعيشية والفلسطينيين والنقابية وضرورة اليسار وانتفاضة الاستقلال و«7 أيار»، وإعادة إعمار الجنوب وحرب غزة، ونقد الحزب الشيوعي اللبناني، فضلًا عن مقالات تتعلق بالمعارضة السورية: مقابلة مع حسن هويدي، وتحقيق عن السجون السورية، عن مجزرة حماة، عن سوريّي الخارج، عن معتقلي بيان «إعلان دمشق الديمقراطي» السوريين، ومقال عنوانه «حرية ميشال كيلو وذكرى سمير قصير». وفي غالبية مقالات هذه المجلة، نفحة نضالية، مناخ، أو أسلوب، أو إخراج، أو حتى حجم الورق، كلها تُحيلك إلى المجلات الحزبية القديمة، مع فرق غير بسيط أنّ المواقف لم تَعُد كما كانت أيام تلك المجلات. غاب ذاك الإجماع اليساري حول أولوية محاربة الإمبريالية والصهيونية[425].

تألفت هيئة تحرير مجلة **الأفق** من زياد ماجد ووديع حمدان. أدار وديع حمدان الجانب الإداري منها، من طباعة وتوزيع ومالية. حرر موادها وكتب غالبية افتتاحياتها زياد ماجد، شاركه أحيانًا وديع حمدان في الافتتاحيات. اشترك في هذه التجربة كتاب يساريون سابقون أصبحوا على موقف سلبي من النظام السوري وحزب الله. منهم من كتب خصيصًا للمجلة،

ومنهم من جرت معهم مقابلات، أو أعيد نشر مقالاتهم. ويمكن فرزهم إلى فئتين: الفئة الغالبة، وهي تنحدر من منظمة العمل الشيوعي، ويبلغ عدد كتابها عشرة كتاب؛ منهم بول طبر، ومنى فياض، وجورج ناصيف، وأحمد بيضون، وحازم صاغية، ووداد حلواني، ووداد شختورة، في حين أنّ الأعضاء السابقين في الحزب الشيوعي لا يتجاوز عددهم التسعة؛ منهم كريم مروة، وبشير هلال (1949–2015)[426]، وزياد صعب، وجمال القرى، ورامي الأمين، علمًا أن عدد الأعضاء السابقين في الحزب الشيوعي داخل اليسار الديمقراطي أعلى من عدد السابقين في منظمة العمل الشيوعي؛ أي إن نسبة المثقفين المشتركين في أعداد هذه المجلة، والعائدة أصولهم إلى المنظمة، لا تتناسب مع نسبة الخائضين تنظيميًا في تجربة اليسار الديمقراطي. إنها أعلى منها. والعكس يقال عن العائدة أصولهم إلى الحزب الشيوعي اللبناني؛ عددهم التنظيمي أعلى، لا يتناسب مع عدد كتابهم ومثقفيهم.

كيف انتهت تجربة المجلة بهذه السرعة؟ يقول وديع حمدان: «بعد سنتين ونصف، صرتُ متيقنًا بأن تجربة المجلة تنطوي على الكثير من الإرادوية، والشغل كله كان عليّ. شعرتُ بأن لا أفق في مجلة àالأفق’، أبذل جهودًا بلا أفق. قلت في البداية لنأخذ إجازة. بعد ذلك، فهم الشباب أنهم يطالبونني بأكثر من المستحيل». وعن سؤالي ما الفرق بين نهاية التجربتين، حركة اليسار الديمقراطي ومجلة **الأفق** الناطقة بجناحها النقدي، يجيب وديع حمدان: «ترشُّح إلياس عطا الله إلى الانتخابات النيابية ساهم في انفراط اليسار الديمقراطي. نائب يسار يُفترض أنه يمثل جوًّا شعبيًّا، فئات، قضايا، مواضيع [...] ولكنه أُسقِط على منطقة [الشمال] لا علاقة له بها [هو من ساحل الشوف]. المنطقة الفقيرة التي يمثلها نيابيًا كانت فرصة ليعمل زعيمًا شعبيًا لو انسجم مع أقواله. لم يفعل، ولا حتى ذهب إلى هنالك. أمضى نيابته، يصرّح على التلفزيونات».

وعن نهاية المجلة، يقول وديع حمدان: «اليسار الديمقراطي كان محاولة لليسار أن يلتئم مع حركة وطنية من دون أن يبرز شخصيته، فطُمس وسُحق [...] تجربة المجلة هي العكس: محاولة الخروج من هذه الحالة التي أصابت اليسار الديمقراطي، ولم تكمل لأن القوى الذاتية ضعيفة»[427].

قبل هذا الفشل، أو ربما خلفه، فشلٌ إسرائيلي في القضاء على سلاح حزب الله بنتيجة حرب 2006. خرج الحزب من هذا الإخفاق بانتصار وصفه أمينه العام بـ «التاريخي، الاستراتيجي، الإلهي»؛ ما رفع من منسوب التخوين لكل من يشك في هذا الانتصار، أو لا يجيّره لصالح الحزب ذي السطوة الآخذة في التعاظم، خصوصًا في البيئة الشيعية، الجنوبية منها، أكثر من البقاعية.

منى فياض، الأكاديمية الشيعية الجنوبية كانت من بين هؤلاء؛ إذ كان موقفها رافضًا للحرب، النفوذ الميداني لحزب الله، تكتب مقالًا في صحيفة **النهار**، بعد مرور شهر واحد على هذا الانتصار، عنوانه «معنى أن تكون شيعيًا الآن...»، يلخص بكلمات بسيطة جملة المواقف والأوصاف التي يمكن أن تنسحب على لبنانيين آخرين، من طوائف أخرى، ليسوا على قناعة بما يروّجه حزب الله من انتصارات ووطنيات. تصف فياض المناخ الذي تكتب فيه مقالها، تضعه في سياق «الانتصار» الجديد الذي أحرزه حزب الله، فتقول «نمر بمرحلة كارثية [...] سوف تنعكس آثارها على بلدنا والمنطقة على

امتداد القرن الطالع، وبما أنها على مثل هذه الخطورة ارتأيتُ أن أطرح علنًا الأسئلة التي يطرحها البعض بينه وبين نفسه أو خفْية، فلا يتجرأ على إعلانها مخافة مخالفة الجماعة والإجماع، ومخافة أن يُتهم بالعمالة والخيانة إذا لم يكن الكفر».

ثم تخوض فياض في المعنى نفسه، «أن تكون شيعيًّا اليوم، يعني: أن تسلم أمرك للقيادة الحكيمة والمعصومة دون التجرؤ على طرح أي تساؤل ولو من باب الاستفسار [...]، أن تشاهد محطة àالمنار' وàنيو تي في' وàإن بي إن' وتنتشي بأغانيها وأخبارها حصرًا [...]، ألّا تسأل عن معنى النصر [...]، ألّا تسأل عن معنى الصمود والكبرياء [...]، أن تسهم في فبركة كربلاء 2 اللبنانية [...]، ألّا تتألم ولا تشتكي ولا تتأزم نفسيًّا، وتقبل التضحية بنفسك وبلدك [...]، أن يخرب بلدك أمام عينيك – غير المندهشتين – وينهدم على رأسك وتتهجر [...] طالما أنّ هناك صاروخًا يمكنه أن يطلق على شمال إسرائيل [...]، أن تقبل بأن تضحي بكل شيء ما دام هناك من سيعوض عليك بالمال [...]، أن تلتزم الصمت ولا تسأل ما هو دور تحرير الأوطان في العادة [...]، أن يكون بإمكانك فقط أن تشكر الحزب لبطولته وتضحياته [...]، أن تفوّض سيد المقاومة [حسن نصر الله] بطلًا مخلصًا للأمة العربية بأجمعها [...]، أن تستمع إلى محدثك الشيعي المتوتر والغاضب [...] يوزع العمالة والخيانة والأمركة والصهينة يمينًا وشمالًا دون أن تنبس ببنت شفة [...]».

وتنهي منى فياض اللائحة بالربط بين حزب الله وإيران، على نحوٍ، بانتْ دقته لاحقًا؛ إذ تكتب، ضمن اللائحة نفسها: «أن تكون شيعيًّا يعني أن تدافع عن تدخل الوزير الإيراني السافر بشؤون الدولة اللبنانية من دون مراعاة حتى للمظاهر، هو ربما أتى لينبّه وزيري àحزب الله' في الحكومة أنهما àلم يوافقا' على البنود السبعة àبل هيئ لهما'، وخاصة بند القوات الدولية في جنوب لبنان كي لا نقفل باب المقاومة، ونبقي البلد مشرعًا مستباحًا وساحة للاستغلال، بعدما تبيّن الآن أن مزارع شبعا سورية وتخضع للقرار 242 وإلى عدم وجود إجماع حول هذا البند [...]، فعليهما رغم أنفهما أن يغلّبا مصلحة البرنامج النووي الإيراني ومصلحة الدولة الإيرانية على مصلحة دولتهما وأولوية الحفاظ على أرواح اللبنانيين وممتلكاتهم»[428].

وفي مقال آخر، تردّ فيه فياض على السيل العارم من الانتقادات والتهديدات على مقالها الأول، تطرح سؤالًا يُجْمل كل الحجج التي يمكن ليساري سابق، لا ينضوي تحت جناح حزب الله، أن يطرحها على غيره: «نقرأ ونسمع عن أن انتصار المقاومة هذا يستدعي إعادة توزيع في موقعها في السلطة، من المؤكد أن السلطة لم تكن موزعة بشكل عادل، ولست ضد إعادة توزيع السلطة بشكل ديمقراطي وحقيقي وعبر المؤسسات الدستورية [...] أسأل نفسي: هل حقًّا تطلب المقاومة الآن ثمنًا لهذا الانتصار عبر تمثيل أفضل في الحكومة؟ وهل كانت الحرب من أجل ذلك في أحد جوانبها؟ كل هذا الدمار من أجل تحسين مواقع؟»[429].

منى فياض يسارية سابقة، فردٌ من جماعة زال وجودها من زمان؛ منظمة العمل الشيوعي. أما محمد علي مقلد، فهو عضو في مجموعة «حركة الإنقاذ»، داخل جماعة أكبر، هي الحزب الشيوعي اللبناني. والمجموعة أصلًا رفضت الانفصال عن الحزب الشيوعي؛ رغم نقدها له، ورغم إفشاله الاقتراحات الإصلاحية التي تقدمت بها المجموعة في مؤتمر الحزب السادس، ما ينعكس في كتابه **اغتيال الدولة**، المتزامن مع مقال منى فياض، حيث يؤاخذ مقلد النظامَ السوري الذي «شوه القومية

العربية»، وحزب الله؛ رغم اعتزازه بـ «نصره الفريد على إسرائيل»، إلا أنه يتوقف عند جذور المقاومة التي يتبناها الآن الحزب، والتي «أسسها الشيوعيون ببيان تاريخي غداة الغزو الصهيوني للعاصمة بيروت [1982]، ثم مُنعوا من متابعة دورهم فيها حتى النهاية»[430].

وفي هذا الكتاب، يركز مقلد، بل يكرر لازمةً محورية هي أن المطلوب الآن، أكثر من أي يوم مضى، هو «بناء الدولة»، في وجه مقاومة تابعة للنظام السوري. رفيق الحريري، رغم اللقاءات شبه الودية القائمة معه، ليس في نظره «مشروع بناء دولة». يأخذ على اليساريين الذين انضموا إليه تبنّيهم الاشتراكية وبرامج الحريري النيوليبرالية في آن. ينتقد القراءة «الاقتصادوية» للظاهرة الحريرية، فيتكلم على ثغراتها التي تعرقل قيام الدولة، ثم يعدد المجموعات المؤيدة لبناء الدولة، ويرى أنها «الأغلبية الساحقة»، فهي تضم «القوى المتنورة، المثقفين، القوى الديمقراطية، القوى العلمانية، وأهل الكفاءة في أجهزة الدولة والقضاء والجيش والجامعة اللبنانية ومؤسسات الرقابة، الرأسمال المتنور [...] والقوى المسحوقة اجتماعيًا»[431].

أما «أعداء الدولة»، فمنهم داخل السلطة، ومنهم خارجها. إنهم المتمسكون بالدولة الطائفية والبنى المذهبية «إنهم فحسب القوى الطائفية التي تستشعر الخطر من بناء الدولة [...] القوى التي تعتدي على القانون [...] القوى التي توزع سلطة الدولة على سلطات رديفة من خارج الدولة في طوائف وميليشيات، القوى التي تتماهى مع الدولة وتصور للمجتمع أن السلطة هي الدولة والدولة هي السلطة، القوى التي تخلط بين ثروتها الخاصة والثروة العامة»[432]. وفي مكان آخر من الكتاب، يضم مقلد حزب الله إلى جناح السلطة الحاكمة؛ إذ يصف واحدًا من أوجه مشاركته فيها: «لا يكفي حزب الله أن يكون خارج الحكومة ليكون خارج السلطة، فهو ارتضى طوعًا، ضمن منطق المحاصصة، بأن تكون حصته من السلطة كافية، حيزًا يكفيه للمحافظة على سلاحه ودوره في المقاومة، مقابل إحجام تام عن الدفاع عن مصالح الناس المعيشية [...] وهو يعبئ جماهيره على القضايا الكبرى وأعداء الخارج»[433].

يرى مقلد أن بناء الدولة هو مهمة الشيوعيين بامتياز، مهمة ثورية بامتياز؛ بناء الدولة سوف ينقذهم من براثن الطائفية التي غرقوا بها أثناء الحرب الأهلية: «هكذا بدا الحزب الشيوعي مثلًا خلال الحرب الأهلية إسلاميًا بامتياز، لأنه دافع عن شعارات طائفية كشعار المشاركة، وانزوى في المناطق ذات الأغلبية الإسلامية، حتى إذا انحدرت الحرب الأهلية إلى قعرها الطائفي لم يعد مرغوبًا به في المناطق الإسلامية ولا مرغوبًا بعودته، بعد الحرب، إلى المناطق المسيحية»[434]. ويعرض المعضلة التي تقف خلف تعثر بناء الدولة على يد شيوعيين؛ إذ يصفها عن طريق السؤال: «كيف السبيل إلى أن تكون هذه الدولة دولته [دولة الحزب الشيوعي]، في وقت عليه أن يناضل ضد توحش رأس المال؟ [...] كيف يمكن للحزب [الشيوعي] أن يكون مناصرًا لقيام سلطة سياسية رأسمالية، ومعارضًا لنزوع رأس المال إلى إفقار الفئات المسحوقة وإغناء الفئات الغنية؟»، فيجد شيئًا من الجواب في «التحدي الذي واجهته اللينينية غداة وصولها إلى السلطة في ما سمي يومذاك بسياسة àالنيب' [NEP، المعروفة بـ àالسياسة الاقتصادية الجديدة']، لقد واجهته وهو في موقع السلطة، فكيف تواجهه القوى التقدمية من خارج السلطة»[435].

ثم كانت هجمة «7 أيار» 2008 على بيروت، التي تضرب تطلّع مقلد من الصميم؛ إذ كانت، ميدانيًا، الواقعة الأكثر بُعدًا عن الرجاء ببناء دولة. أصل الهجمة قراران، اتخذهما مجلس الوزراء، وهما مصادرة شبكة الاتصالات التابعة لسلاح الإشارة الخاص بحزب الله، وإقالة قائد أمن مطار بيروت، العميد وفيق شعيب، القريب من الحزب، فقد اعتبر مجلس الوزراء أن هذه «الشبكة الهاتفية التي أقامها حزب الله غير شرعية وغير دستورية، وتشكل اعتداء على سيادة الدولة والمال العام». كما أُلحق هذا القرار بتصريح للشخصية الأبرز في «14 آذار»، النائب وليد جنبلاط، اتهم فيه حزب الله بـ «مراقبة مطار بيروت الدولي بواسطة كاميرات خاصة»، فكان ردّ حزب الله على القرارين بهجمته المسلحة مع حلفائه على العاصمة، بيروت، وتقطيع أوصالها، وترويع سكانها، وإطلاق الصواريخ على مبنى صحيفة **المستقبل**، وإحراق الطابق الرابع منه، فضلًا عن الهجوم على تلفزيونه وإذاعته، وهجمات متفرقة، واستفزازات مسلحة ضد منازل شخصيات من خصومه.
خلفت الهجمة وراءها عشرات القتلى، وكادت تنتصر على جبل الشوف، لولا الاستنفار العفوي لسكانه بكل أسلحتهم، الجديدة منها، والعائدة إلى عقود خلت. الإعلام المؤيد لحزب الله لم يُعِر الهجمة كلها خطورة تُذكر، بل أعلن نائب الأمين العام للحزب، نعيم قاسم، أنها كانت مجرد «عملية جراحية موضعية». وعلى منواله صار أنصار الحزب وحلفاؤه يتغنون بالموقعة «المجيدة»، والنتيجة كانت الإبقاء على شبكة الاتصالات غير الشرعية، وإضعاف المعسكر الخصم سياسيًا، فتراجع جنبلاط نفسه، الذي كان رأس الحربة في بداية هذه المعركة.
لم يمض ثمانية عشر يومًا على الموقعة، حتى يباشر اللقاء اليساري التشاوري عقد مؤتمره «التأسيسي الأول». وقد سبق أن ذكرتُ الاتصالات القائمة بين أعضائه قبل عام 2000. والمبادر إليه، هو خالد حدادة، الأمين العام للحزب الشيوعي اللبناني، فكانت لجنة متابعة ونقاشات ومشاورات، أفضت إلى تعيين أعضاء اللجنة، على رأسهم خالد حدادة، واسمان آخران من المكتب السياسي للحزب، رُجّح أنهما ماري الدبس وحنا غريب، فضلًا عن أسماء شيوعية أخرى، منهم سليمان تقي الدين، القيادي السابق في منظمة العمل الشيوعي، ورئيس اتحاد الكتاب اللبنانيين، وهما الفئتان، الأولى والثانية المنضمتان إلى اللقاء، شيوعيون سابقون وشيوعيون في الحزب الشيوعي. أما الفئة الثالثة، فسيكون ممثلوها أعضاء «نادي اللقاء»، الذي أتيت إلى ذكره أيضًا، ويتمثل في زهير رحال وغسان عيسى، وهما أيضًا مسؤولان سابقان في منظمة العمل الشيوعي. والفئة الرابعة تتمثل في «الشباب»، أي عدد من المنتسبين إلى «اتحاد الشباب الديمقراطي» (التابع للحزب الشيوعي)، و«التجمع اليساري من أجل التغيير»، وهي مجموعة طلابية يسارية ناشئة[436].
يصدر اللقاء وثيقة يسميها «الرؤية السياسية والبرنامجية الشاملة للقاء اليساري التشاوري (5)»، يستهلها بتعيين التناقض الأساسي الدائر بين «أوسع الفئات والقوى الاجتماعية والسياسية الوطنية والتقدمية» هذا من جهة، ومن جهة أخرى «المشروع الإمبريالي الأميركي والصهيونية العالمية، ومع النظام الرسمي العربي في تركيبته الراهنة»[437]. وتترتب على طبيعة هذا الصراع مهمات وخطوات، على رأسها، أولًا «أن يتخذ اليسار موقعه الطبيعي في مقاومة الهجمة الأميركية – الصهيونية كل الأشكال الممكنة [...] الأمر الذي يؤكد تلازم النضالين الوطني والاجتماعي، كوجهين للصراع الطبقي في بلادنا، التضامن المدني معها». ثانيًا «أن يبلور [اليسار] صيغة ملموسة للعمل المقاوم تستند إلى جبهة تضم شتى قوى اليسار في

لبنان، وتعمل بالتنسيق الوثيق مع المقاومة الإسلامية متمثلة بـ àحزب الله’». ثالثًا «أن ينشر ثقافة المقاومة بما يؤمِّن أوسع انخراط شعبي فيها»[438]، وهذا في ضوء تحليل للساحة العالمية، تعتمد فيه الإمبريالية التوسع والهيمنة، وتعسْكر العلاقات الدولية، وتحجّم دور الدول، في حين أن المملكة العربية السعودية هي رئيسة هذا النظام الرسمي.

ثم تعرج الوثيقة على منظمة التحرير الفلسطينية التي اعترفت بإسرائيل عام 1988 وباتفاقية أوسلو، وتدين «لهاثها خلف الإدارة الأميركية وإسرائيل»، لكن الوثيقة، أثناء تناولها النظام الإيراني، تبتغي الدقة والموضوعية، فتركز على جانبَيه «الإيجابي والسلبي». في الإيجابي من الجانبين، تشير الوثيقة إلى عداء الأنظمة العربية الحاكمة والولايات المتحدة وإسرائيل لدولة إيران، وذلك «تسهيلًا لإسقاط النظام الإيراني الذي يُربك المخططات الأميركية والإسرائيلية، فطهران التي تنفذ برنامجًا طموحًا جدًّا لتخصيب اليورانيوم وتتطلع إلى موقع إقليمي متقدم، تدعم العديد من المقاومات الوطنية [الإسلامية] في المنطقة العربية، وهذا ما يطول سلبًا المشروع الأميركي للهيمنة على المنطقة، كما يطول إسرائيل للإبقاء على جبروتها العسكري»، فيما الجانب السلبي في النظام الإيراني أقل شأنًا؛ إذ تختصره الوثيقة بـ «تسهيله للاجتياح الأميركي لكل من العراق وأفغانستان، ودعمه قوى وأحزابًا عراقية متعاونة مع الاحتلال»، فضلًا عن «غَلَبة الطابع الديني لديه»، و«إعاقته تحرر المرأة» ومحافظته «على الطبيعة السلطوية للدولة، بما هي سلطة برجوازية تابعة»[439].

الجبروت الإسرائيلي استطاعت أن تهزمه «مواجهة حزب الله الظافرة في حرب تموز 2006»، وهذا ما على اليسار تعلمه من حزب الله، فتصف الوثيقة هذا التعلّم: «محاولة الإفادة من الجانب الإيجابي من عمل القوى الإسلامية في إطار مقاومتها الاحتلال. والمقصود هنا بوجه خاص ما يضطلع به àحزب الله’ من دور متقدم في مواجهة الدولة الصهيونية». فحزب الله الذي تصفه الوثيقة بـ «الحليف الموضوعي المؤقت»، تُثمِّنه بصفته «صاحب الإنجاز بانسحاب إسرائيل من لبنان». ومع أن الوثيقة تتأسف على انسحاب الشيوعيين من المعركة مع إسرائيل، بانسحاب جبهة المقاومة اللبنانية: «بعد ثلاث سنوات من نضال هذه الجبهة ضد إسرائيل، وجدت هذه المقاومة نفسها مضطرة، عند درجة محددة من الضغوط الإقليمية للانكفاء وإخلاء الساحة أمام قوى أخرى أريد لها أن تحتكر، عمليًّا، العمل المقاوم، تحت مسمى المقاومة الإسلامية»، فتعدِّد العوامل الواقفة خلف هذه الضغوط، منها «غياب الدعم المادي بعد انهيار الاتحاد السوفياتي»، و«غلبة النهج الرامي إلى ضبط إيقاع المقاومة بما يتناسب مع الوجهة العامة للنظام السوري وتحالفاته [إيران تحديدًا]»؛ ما حصر هذه المقاومة «ضمن فئة من اللبنانيين، وسهّل إسباغ سمات مذهبية وطائفية قاتلة عليها»[440].

[(417)] «نص ورقة التفاهم بين حزب الله والتيار الوطني الحر المعلنة بتاريخ 6 شباط/فبراير 2006»، **قناة المنار**، 6/2/2017، شوهد في 10/3/2021، في: Yeead2'SZe&y'3. DGi E0

[(418)] رندة حيدر، «10 سنوات على حرب تموز: التغيرات والانعكاسات البعيدة المدى: وجهات نظر إسرائيلية»، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، شوهد في 6/2/2021، في: Yeead2'SZe&y'3` B5 4 TX

[(419)] أمين محمد حطيط، «حرب 2006 على لبنان.. خلفية وأداء ونتائج»، **الجزيرة. نت**، 15/8/2006، شوهد في 6/2/2021، في: Yeead2'SZe&y'3aHk8DH

[(420)] لائحة الأسماء وتواريخ الميلاد في: حسين سمور، «شهداء الحزب الشيوعي اللبناني في مواجهة العدوان الصهيوني في تموز 2006»، **الخيام**، 26/7/2010، شوهد في 6/2/2021، في: Yeead2'SZe&y'3` J 9fk:

[(421)] إلياس خوري وزياد ماجد، «رسالة إلى رفاقنا في حركة اليسار الديمقراطي اللبناني»، **الحوار المتمدن**، 30/7/2006، شوهد في 6/2/2021، في: Yeead2'SZe&y'3[4 7 4 n7

[(422)] إسكندر منصور، «حركةàاليسار الديموقراطي’: إلى اليمين در»، **الأخبار**، 8/12/2007، شوهد في 6/2/2021، في: Yeead2'SZe&y'3eyULh ,

[(423)] حسين يعقوب، **يسار لبنان: تاريخ موجز وشهادات من التجربة** (برلين: مؤسسة روزا لوكسمبورغ، 2013)، ص 37، 80.

[(424)] مقابلة مع وديع حمدان، 7/9/2019.

[(425)] كل أعداد مجلة **الأفق** مجموعة ضمن غلاف من الحجم الكبير. عنوانها الكبير **الأفق**، وتحت العنوان: «نشرة يسارية ديموقراطية مستقلة، تشرين الثاني 2007 - حزيران 2010، من العدد 1 إلى العدد 36».

[(426)] صحافي وكاتب لبناني.

[(427)] مقابلة مع وديع حمدان.

[(428)] منى فياض، **معنى أن تكون لبنانياً: مقالات في حال الوطن... وأحوال المواطن** (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2008)، ص 19-22.

[(429)] المرجع نفسه، ص 43.

[(430)] محمد علي مقلد، **اغتيال الدولة** (بيروت: مؤسسة الانتشار العربي، 2006)، ص 49.

[(431)] المرجع نفسه، ص 37.

[(432)] المرجع نفسه، ص 37-38.

(433) المرجع نفسه، ص 81.

(434) المرجع نفسه، ص 106.

(435) المرجع نفسه، ص 38.

(436) ثائر غندور، «لجنة المتابعة للّقاء اليساري ناجزة وتنتظر الاجتماع الأوّل»، **الأخبار**، 26/3/2008، شوهد في 6/2/2021، في: Yeead2'SZe&y'3. Cd2R7

(437) «وثيقة: الرؤية السياسية والبرنامجية الشاملة للقاء اليساري التشاوري (5)»، **السفير**، 18/11/2008، شوهد في 6/2/2021، في: Yeead2'SZe&y'2B, J : 1f

(438) المرجع نفسه.

(439) المرجع نفسه.

(440) المرجع نفسه.

الفصل الخامس عشر: الثورة السورية، عشيتها، وأثناءها

أين هم اليساريون الآن، عشية الثورة السورية؟

نصل إلى المحطة الأخيرة لهذا الانقسام الذي يأتي مع اندلاع الثورة السورية. وبعيدها، عبور «حزب الله» بمقاتليه وسلاحه للمحاربة في سورية إلى جانب قوات النظام السوري. كما يتبين لاحقًا، أخفى حزب الله هذا التدخل، الذي بدأ في نهاية عام اندلاع الثورة 2011. قبل هذا بأشهر، كان حسن نصر الله، الأمين العام لحزب الله، ينقلب، مثل صحيفة **الأخبار**، من مؤيد لثورتَي تونس ومصر، وأن الثورتين جزء «لا يتجزأ من مشروع المقاومة»، ورافض لنظريات المؤامرات التي أُلصقت، والقائلة إن الولايات المتحدة الأميركية تقف خلفها؛ ينقلب موقفه هذا إلى العكس تمامًا، حينما اندلعت الثورة السورية، فألبسها ثوبَي المؤامرة، والدعم الأجنبي، وسوف يضيف إليهما بعد قليل، صفة «الإرهاب»[441].

فراحت تتسرّب أخبار من هنا وهناك يتم تداولها في الإعلام اللبناني ومواقع التواصل الاجتماعي. تبدو مثل الإشاعات، لشدة هولها، أخبارًا من نوع أنّ «عددًا من مقاتلي حزب الله قُتلوا في سورية، أثناء مساندتهم حملة النظام ضد المتظاهرين»، أو أنه، أي الحزب، «شوهد يقاتل إلى جانب الأسد» في الزبداني أو في حمص أو دمشق، أو إعلان مسؤولين أميركيين، عام 2012، عن حيازتهم أدلة «موثوقة» على أن حزب الله تدرب قبل عام في سورية وسهّل تدريب القوات السورية، وأنه «لعب دورًا كبيرًا في الجهود المبذولة لطرد قوات المعارضة السورية من مناطق داخل سورية». ويقوم هذا الدور، بحسب أحد المحللين، على تبادل «مصالح» بين حزب الله والنظام السوري: الحزب يقدم للنظام «خبرات عسكرية يتمتع بها، منها تكتيكات المدن والمشاة الخفيفة، والاستطلاع ونيران القناصة، مسح التضاريس، تدريب قوات جديدة. في المقابل، تقدم سوريا للحزب مجالات نقل السلاح والمال من إيران، ومنه الصواريخ الدقيقة، ومعسكرات التدريب ومخازن الأسلحة»[442]. كل هذا وسط صمت الحزب وعدم تعليقه على أي من هذه التسريبات.

لكن الجنازات تتكرر، وبعضها لقادة عسكريين في الحزب، ثم تأتي جنازة محمد حسين الحاج ناصيف الملقب بأبو العباس، في تشرين الأول/أكتوبر 2012، لترغم الحزب على الاعتراف علنًا بتدخله هذا. يرصد أحد الصحافيين هذه اللحظة: في إثر مقتل هذا القائد «طلب الحزب من عشيرته من آل شمص [كما كان يطلب طوال الأشهر الماضية من عائلات قتلى آخرين في سورية]، التِزام الصمت حيال أسباب مصْرعه ودفْنه بهدوء، لكن هذه العشيرة البقاعية القوية رفضت بشدة وطالبته بنعْي أبو العباس رسميًا. وهكذا، اضطر حزب الله إلى إصدار بيان رسمي، قال فيه: إن محمد حسين ناصيف [أبو العباس] àاستشهد خلال قيامه بمهمّةٍ جِهادية’، بيْد أن مصادر رسمية أمنية لبنانية وعربية وأمريكية، أكّدت [وحزب الله لم ينفِ]، أن أبو العباس ومجموعة من مُرافقيه، قَضوا نحبهم في كمين نصبه لهم الجيش السوري الحُر، في بلدة القصير بمحافظة حمص». ويعلق الصحافي نفسه بعد ذلك أن «ثمة سِرًّا معروفًا أن حزب الله أوقف عملياته العسكرية ضد إسرائيل، منذ أن وضعت حرب تموز 2006 أوزارها»، ويخلص إلى أنه ليس ثمة تفسير لـ «àالمهمة الجهادية’ التي كان يقوم بها أبو العباس [...] سوى أنها جرت في سورية»[443].

الحزب الشيوعي اللبناني، وعن طريق أمينه العام، خالد حدادة، ينفي شائعات أخرى عن تلقّي الحزب أموالًا من حزب الله، في ذاك الوقت. يتكلم على الإحباطات التي أصابت الحزب الشيوعي، منها سقوط «الحلم السوفياتي»، «هزيمة» الطائف، «حرمان» الحزب من التعيينات النيابية منذ نهاية الحرب، فضلًا عن «تلبس المقاومة لبوسًا مذهبيًا». وبشأن سؤال عن مآخذ على الحزب الشيوعي بدخول أعضائه في الانقسام السياسي، «ربطًا بمواقف الكتل الطائفية»، لا ينكر حدادة إصابة الشيوعيين بداء «الطائفية»، ويحيل هذه الإصابة إلى ظرف سياسي محدّد، هو «ما حصل منذ اغتيال رفيق الحريري»، وما تبعه من اندلاع للعداء المذهبي، ولكنه يجزم بأن الانقسام لم يكن على أساس طائفي، «إنما على أساس الموقف السياسي». فلحدادة قراءة لمسيرة حزبه منذ عام 2005. يؤكد أنه كان أقرب إلى «14 آذار» في ذاك العام، لكن «المعادلة» تغيرت معه بعد حرب تموز/يوليو 2006، بسبب موقف بعض قيادات هذا المعسكر من هذه الحرب الذي كان «مشبوهًا ومراهنًا على هزيمة المقاومة»؛ فقد سمع من أحدهم دعوة إلى التوقف عن دعم حزب الله في حربه، لأنّ قيادييه سيُساقون إلى غوانتانامو. أما الآن، كما يؤكد حدادة، فإن العلاقة متساوية مع المعسكرين، مع تحفّظ «أن الحزب الشيوعي لا يمكن أن يبقى بعيدًا عن المقاومة»[444].

في عام 2015، بعدما صارت مشاركة حزب الله في القتال في سورية مسألة علنية، خرجت صورة إلى الإعلام ومواقع التواصل، لأكثر من عشرين عنصرًا مسلحًا ببزات عسكرية، وعلى أكتافهم شعار الحزب الشيوعي، وهم في البقاع، في ظل المعارك التي كان يخوضها حزب الله داخل سورية. هذه الصور تثير الفضول والتساؤلات، فكانت تحقيقات صحافية عن «طبيعة» هذه المشاركة، فإعلان خالد حدادة صراحة عن مشاركة الحزب الشيوعي في قتال «التكفيريين» أنفسهم الذين يقاتلهم حزب الله، وكلمة صريحة أخرى أمام محازبيه بأن «الحزب سيقاوم أي اعتداء على أرضنا خلف الجيش، وإلى جانب كل المقاومين في هذا البلد»، ثم معلومات عن هذه المشاركة، منها، «وفق مصادر» الحزب، أن عدد المقاتلين الشيوعيين هناك يبلغ السبعين، ينسّقون مع حزب الله الذي «يحدد مواقع انتشارهم ودورهم»، فتصريحات لقياديين في الحزب الشيوعي، بين معترض على هذه المشاركة، وموافق عليها[445].

ولخالد حدادة بعد ذلك «حيثيات» خاصة بهذه المشاركة، يعرضها على موقع «سبوتنيك الروسي»، في مقابلة عنوانها «الحزب الشيوعي اللبناني يعود لحمل السلاح لمواجهة التكفيريين»، حيث يعلن عن أسباب حمله السلاح إلى جانب حزب الله، منها أن «الدور الأميركي في المنطقة كان سببًا في خلق الأدوات الإرهابية في المنطقة لخدمة المشروع الأميركي»، ومنها أيضًا «ازدياد خطر تمدّد التنظيمات الإرهابية إلى لبنان»، و«تصاعد حدة الاشتباكات بين âجبهة النصرة’ وâداعش’ من جهة، وâحزب الله’ من جهة أخرى في جرود القلمون [في شرق لبنان]»، وتشديده على أن «داعش» والخطر الإرهابي على الحدود الشرقية «يساوي خطر العدوان الإسرائيلي على الجنوب»[446].

ويؤكد كمال حمدان على تململ داخل الحزب الشيوعي بسبب هذه المشاركة، انعكس صمتًا حزبيًا عنه على المستوى الإعلامي؛ هو صمت يُراد منه سحب فتيل خضّات داخلية. يقول كمال حمدان: «في المكتب السياسي ثمة من يقولون بعدم التأخر في حمل السلاح والذهاب للقتال في سورية مع بشار، مع النظام، مع المحور الذي يقف ضد الجهاديين، ضد

الأميركيين، ضد الإسرائيليين، ضد السعودية. وإن كل لحظة تأخير هي، في رأيهم، ضرب لمشروعنا. لدينا هذا التوجه داخل الحزب، ولكن كيف يمكن أن تطلبي من التشكيلة اللبنانية الموزعة على مئة طائفة ومنطقة، ومن الذين لا يجدون ما يشربون ويأكلون، ولا عندهم فرص عمل ولا ضمانات اجتماعية ولا نظام صحي ولا كل هذه الأشياء [...] كيف تقولين لهم هيا نريد أن نقاتل مع هذا المحور؟!»[447].

في هذه الأثناء، أو بُعيدها، كان كريم مروة، القيادي في الحزب الشيوعي اللبناني، يصدر مشاريع لتجديد اليسار اللبناني، و«البحث عن مستقبل جديد وواقعي لليسار في عالمنا العربي»، بغية «خروج اليسار من أزمته الراهنة»، فيطرح «السؤال الكبير» حول «الأسباب التي قادت جميع هذه الثورات إلى الفشل». أما شروط هذا التجديد، واستنادًا إلى نصوص ماركس وإنغلز وبليخانوف وروزا لوكسمبورغ وغرامشي، فهي أن «يبادر أهل اليسار إلى قراءة موضوعية لتاريخ اليسار القديم»، وأن «يقرأ أهل اليسار بدقة سمات العالم المعاصر بكل مكوناته». وبعد ذلك فليبذلوا «الجهد، استنادًا إلى العلوم الإنسانية، حول الأسباب التي تجعل الوعي البشري قاصرًا عن الارتقاء إلى المستوى الذي جعل البشر يكتشفون طريقهم إلى تحقيق تلك العلاقة الإنسانية الجوهرية بين الحرية والتقدم والعدالة الاجتماعية». وكل ذلك بالاعتماد على نص لكارل ماركس، صدر عام 1856، وجد فيه مروة طريقة ماركس في التغيير الديمقراطي، يصفها بـ «الواقعية [...] يحترم فيها ماركس دقة اختلاف المراحل»، نقيض الطريقة «الشعبوية التي يكتفي أصحابها بطرح الشعارات»، ويردفه بتطبيق يصفه بـ «العملي» أنه «مثال لينين»، الذي أقام «رأسمالية الدولة» من أجل المحافظة على «السلطة السوفياتية». ثم ينتقل إلى أسباب توسيع دائرة اليسار، ويطرح عشرين قضية على بساط البحث في هذا التوسيع، على رأسها «بناء الدولة الديمقراطية الحديثة»، تليها في البند الخامس عشر من بين القضايا «العمل بكل الوسائل لإزالة الاستبداد في بلادنا»، قبل «السيادة والوحدة والاستقلال»، وبعد «التضامن مع الشعب الفلسطيني»[448].

هذا في حين أن محمد علي مقلد، الوجه الأبرز لـ «حركة الإنقاذ»، داخل الحزب الشيوعي، يغزل في الوقت نفسه على حيثيات أخرى لرفضه مشاركة الحزب في القتال في سورية. في كتابه **الشيعية السياسية**، الصادر في العام الثاني للثورة السورية، يتناول مقلد الموضوع من زوايا يرى أنها الأخطر. وهو يرى أنّ الشيعية السياسية «كمثيلاتها، المارونية والسنّية، تستند إلى قوة ذات تركيبة طائفية، بل مذهبية، لكنها ليست مشروعًا طائفيًا، بل مشروع سياسي حزبي فئوي يقوم على المحاصصة، ولا يستطيع، شأنه في ذلك شأن سواه، أن يرجح حصته في السلطة والثروة الوطنية إلا إذا استقوى بقوة خارجية». ويتوقف مقلد عند محطة الوصاية السورية: في ظلها نمت الشيعية السياسية، حيث منحها النظام السوري «رعاية خاصة»، فأدت «دورًا مزدوجًا: استكمال الدفاع عن مصالح النظام السوري من داخل السلطة [...] والإمعان في تخريب بنية الدولة تحت ستار الدفاع عن المصالح الشيعية، وكانت الأولوية [فيها] إبداء الطاعة والولاء للنظام السوري». أما مصلحة النظام السوري فكانت «إلغاء دور لبنان كبلد مستقل». وخدمةً لهذا الغرض، كانت الشيعية السياسية ترتكب في حق الدولة تهديمًا، من أوجهه: «تعزيز نفوذها في أجهزة الدولة [...] تخريب ممنهج للدولة [...] تعطيل دور القضاء ومؤسسات الرقابة». وكل ذلك قائم على كفاءة واحدة هي «الاستزلام وتقديم واجب الطاعة والولاء للوالي المحلي أو

للسلطان الدمشقي». ويتابع مقلد المراحل، فيرى أنه، بعد التحرير، عام 2000، وظفت الشيعية السياسية «هذا الإنجاز في غير مصلحة الوحدة الوطنية». وينتقد «الجيل الثاني» من الشيعة، اليساري، الذي «راح ينتصر للنهج السوري في مواجهة الثورة الفلسطينية». فكانت الحصيلة عنده أن «الشيعة الذين تدربوا على أيدي المقاومة الفلسطينية وتعلموا منها حمل السلاح، إلى أن حملوه ضدها بقسوة، وضد إسرائيل ببطولة وبسالة، وضد الدولة اللبنانية بغباء»[449].

اليساريون الخارجون من منظمة العمل الشيوعي لهم مصير أكثر فردية، أقل انضباطًا في الأطر، بعدما فقدت المنظمة حيويتها وقدرتها على إنتاج نصوص ومواقف ذات أثر. عشية الثورة السورية، توزعوا على ثلاث مجموعات، غالبيتها العظمى من اليساريين القدماء، وتقود منابر فكرية سياسية.

المجموعة الأولى التي أسست مجلة **كلمن** عشية الثورة السورية، وهي مكونة من هيئة تحرير غير رسمية، يطغى عليها قدماء من المنظمة؛ هم حازم صاغية، وأحمد بيضون، وعباس بيضون، وعزة شرارة بيضون. يليهم اثنان من قدماء الحزب الشيوعي؛ هما حسام عيتاني، وحسن داوود. وثلاثة من الكتّاب الشباب، غير المؤطرين بأي إطار حزبي؛ هم ربيع مروة، وسامر فرنجية، وبشار حيدر. ما من رئيس تحرير لهذه المجلة، بل تتغير أسماء أصحاب المقالات الآتية في الصدارة. ويتناوب عليها أعضاء من هيئة التحرير غير الرسمية، وأسماء سورية معروفة، وأخرى سورية ولبنانية غير معروفة.

الأسماء اللبنانية المشاركة، إضافةً إلى هيئة التحرير، منها عائد إلى منظمة العمل الشيوعي، مثل أرليت خوري، ومنها إلى الحزب الشيوعي مثل حازم الأمين، ورامي الأمين، وبشير هلال، ووسام سعادة، ومنها عائد إلى اليسار الديمقراطي، مثل زياد ماجد. الأسماء السورية لا تنقطع في الأعداد الأحد عشر التي ملأت صفحات المجلة، وكلها تتناول الثورة السورية: عمر قدور، وياسين الحاج صالح، ورستم محمود، وإيلي عبدو، ورزان زيتونة، وبكر صدقي، وعلي جازو. وإضافة إلى وقوف جميع كتابها مع الثورة السورية، تصوغ المجلة شخصيتها عبر رسم أهدافها ورؤيتها: عن الأولى، أي شخصيتها، تقول المجلة إنها تهدف إلى «إعادة النقاش المفقود أو المعطّل بين التيارات الفكرية والسياسية [...] [و] التقريب بين المثقفين [...] وإيجاد مجال ثقافي [...] وأن تكون àكلمن' جسرًا بين أجيال». أما الثانية، أي الرؤية، فترسمها المجلة بثلاث مواصفات محدّدة: توسيع حلقة الملتقين حول المجلة، وأن تكون المجلة وثيقة الصلة بالراهن، ولا تكون مجلة أيديولوجية[450]. وقد أصدرت المجلة أعدادها على امتداد خمسة أعوام، من ربيع 2010 حتى ربيع 2015. وتوقفت عن الصدور، لأسباب تتعلق بالتمويل.

المبادرة الثانية تأتي من شخص واحد، هو القيادي السابق في منظمة العمل الشيوعي، فواز طرابلسي، الذي يُخرج مجلة أيضًا، اسمها **بدايات**، بدأت بالصدور في شتاء–ربيع 2012، ولم تتوقف حتى الآن. لا هيئة تحرير فيها، إنما مؤسس واحد، فواز طرابلسي، يوقع «الافتتاحيات»، في زاوية ثابتة أسماها «من باب أولى»، وربما أيضًا يصوغ هو بنفسه «أهداف المجلة»، فيعلن فيها عن تزامن صدورها مع «الانتفاضات العربية»، التي تطرح تطورات جديدة، والتي كشفت «العلاقة الحميمة بين الاقتصاديات النيوليبرالية ومشكلات البطالة والإفقار، وكشفت أيضًا عن تلازم بين هذه الاقتصاديات وأنظمة

الاستبداد». أما «رؤية» المجلة فتنطلق من «منظار عربي شامل، ديمقراطي، علماني، ملتزم بالعمق بالقضايا الاجتماعية على أساس قيمتي الحرية والمساواة»[451].

تتصدر أسماء يساريين سابقين في منظمة العمل الشيوعي الأعداد الأولى للمجلة. نهلة الشهال التي تشارك في البداية، ثم تترك لمشروعها الخاص. سليمان تقي الدين، قيادي سابق أيضًا من المنظمة، وقد أصبح «ممانعًا»، يشارك في أول الأعداد قبل رحيله، فضلًا عن وضاح شرارة وبول أشقر، فأعضاء سابقين في الحزب الشيوعي، مثل جاد تابت، وقليل لوسام سعادة وعباس بيضون. الأسماء السورية المشاركة في الثورة، تساهم في العددين الأول والثاني، ميشال كيلو، وياسين الحاج صالح، وبكر صدقي، وسلامة كيلة، ثم تختفي عن المجلة، ليبقى منها عزيز العظمة وفيصل دراج، ومؤخرًا ثائر ديب، المعروف بمثابرته على كشف عيوب الثورة السورية.

ولا يكتمل التعرف إلى شخصية المجلة من دون قراءة المقال الافتتاحي الأول لرئيس تحريرها فواز طرابلسي، بعنوان «اليسار في الزمن الثوري». «لا بد من منظور جديد»، بحسب ما يقترح طرابلسي في هذا المقال. ولا بد أيضًا من «إعادة تأسيس قوى المشروع اليساري وتياراته»، الذي يحتاج إلى «أشكال مبتكرة من التنظيم والتمثيل»، هذا من الناحية التنظيمية. أما «المهمة الفكرية»، لهذا «المشروع» فهي ستعتمد «المنظور الاجتماعي»، وتدرس «العلاقات الاجتماعية في تحولها وفي ما تنطوي عليه من تمييز وتراتب وفوارق»، فتحضره الثوابت «العولمة النيوليبرالية»، أو «إملاءات البنك الدولي»، أو «صندوق النقد الدولي»، وإلى جانبها «طليعية اليساريين».

وتكون ترجمة هذه الثوابت بالعبارات التالية: «لا بد لليسار أن يستعيد مشروعه المجتمعي كاملًا [...] هذا إن أراد البقاء على قيد الحياة والمنافسة في كسب الرأي العام والجماهير الشعبية التي يفترض به تمثيل مصالحها الأكثر جذرية»، أو ثابتة أخرى: «ضرورة تطعيم الديمقراطية السياسية بالديمقراطية الاجتماعية عن طريق المساهمة في حل التناقض بين المساواة السياسية للمواطنين في الدولة واللامساواة بينهم في المجتمع، وهي المساواة الناجمة عن الفوارق والامتيازات الطبقية بينهم». ما يعزّز هذا التطعيم أن التاريخ نفسه «بات يسمح بتجاوز الرأسمالية». لماذا؟ لأن «البشرية بلغت درجة من التطور [...] ما يسمح بسد الحاجات الأساسية لجميع سكان المعمورة، فيما العقبة الأساسية أمام تحقيق تلك المهمة التاريخية [أي تجاوز الرأسمالية] هي الملكية الفردية ومبدأ الربح». هذه القواطع وغيرها تعبرها لازمات، من قبيل «الديمقراطية هي طريق الاشتراكية» أو «التقاء المصالح بين المتضررين من الإمبريالية المعاصِرة». وبعد كل هذا الجهد، يمرّ طرابلسي سريعًا فوق «الاشتراكية المتحقِّقة»، السوفياتية، ويقترح النموذج البرازيلي، وهو ينطوي على «محاولات حل تستحق الدرس»، بعدما حكمها حزب العمال البرازيلي، اليساري، خلال العقدين الأخيرين[452].

ثالثة المبادرات هي لنهلة الشهال، وقد ساهمت مع فواز طرابلسي في بداية **بدايات**، كما أشرتُ آنفًا. بعد أشهر على صدور هذه الأخيرة، تصدُر **السفير العربي**، برئاستها، وبدعم لوجستي من مؤسسة **السفير** المقفلة. لا تفترق كثيرًا أهداف **السفير العربي** عن أهداف **بدايات**، وإن ارتدت صياغات مختلفة. في تقديمها للمجلة الإلكترونية في عددها الأول، تقول الشهال إن مسعاها هو «استعادة طرح شروط تحقيق مشروع التحرر الوطني الاجتماعي الاقتصادي». تنفي

عن مشروعها الصفة الأيديولوجية، تدعو إلى «وعي نقدي صارم»، إلى مركزية القضية الفلسطينية، وإلى تحديد محور اهتمامها: «ما هو إشكالي ومفارق حين يحمل ديناميات حراك أو تغيير، وهمّ البحث عما يمتلك المعنى [...] إبراز الأمل القائم بتجاوزه»[453].

وفي باب «من نحن؟»، تصف الشهال المجلة بـ «المنصة الإعلامية المستقلة»، للجميع، وليس للأكاديميين فحسب. وفكرتها «الجديدة»، تسميها «التقاطعات»، على مستوى الجغرافيا والميادين، وتضع على المجلة مهمة «إبرازها [أي التقاطعات] وتقديمها للقارئ». ولازِمتها في هذا التعريف عن المجلة أنها «تبحث عما ليس خرابًا وسط الخراب»؛ إذ تعتبر الشهال أن مجلتها «جزء من هذه الدينامية الصراعية» المتجسدة بموجة الثورات، وأنها أخذت على عاتقها مهمة الإثبات بأن «الفقر السائد ليس قدرًا أو معطًى موضوعيًا [...] وأن تراجع التعليم والصحة يتناسب مع الفساد [...] والقمع، ومنه العاري». وهي تعاهد القارئ، ونفسها، بألا تساوم على تلك «الملامح»، ليس «تصلبًا، بل ذودًا عن المعنى الذي يحمله» مشروعها. وتشترط على الكُتّاب المقبولين في مجلتها صفات عالية النضالية: «ولا يُنشر إلا لكتّاب وكاتبات وباحثين وباحثات ورسامين ورسامات وفوتوغرافيين ...إلخ من أبناء المنطقة، يمتلكون الجدارة أولًا، ويتقاطعون في ما بينهم في اهتماماتهم وقناعاتهم، وفي تصديهم للبشاعة والإحباط والتيئيس، وهو بذا يضع في التطبيق شعاره: âالبحث وسط الخراب عما ليس خرابًا'، والتمسك به وتقديمه، كبرهان على âالاحتمال' الذي يتطلب بالطبع جهدًا عنيدًا ذكيًا متواصلًا ليصبح âإمكانًا'»[454].

أما «قيادة» هذه المجلة، فتعود برمتها إلى رئيستها ورئيسة تحريرها وكاتبة افتتاحياتها، من دون تقطّع، كما أن الأسماء المشاركة في هذا الموقع ليست معروفة بالنسبة إلى الجمهور الواسع من القراء، باستثناء ثائر ديب، المذكور آنفًا، وضحى شمس، وهي كانت صحافية في الصحيفة نفسها. والمجلة ما زالت تصدر حتى الآن.

عشية الثورة السورية أيضًا، يؤلف حازم صاغية كتابًا، **هجاء السلاح**، يصف فيه تجارب مقاومات مسلحة، الفرنسية والجزائرية والإيرلندية، فضلًا عن الجنوب – أوروبية والجنوب شرق آسيوية وأفريقيا، يخلص إلى تحولها إلى الاستبداد. وفي مقدمة الكتاب يسرد، بتركيز عال، ظروف النشأة الحديثة للمقاومة المسلحة، ولا يذكر اسم حزب الله، ولكنك تفهم ذلك، من مواقف صاغية السابقة ومن تطابق السمات، بين تلك المقاومة الموصوفة وحزب الله. وعند صاغية، ثمة مدافعون عن «هذه» المقاومة، متماهون معها؛ تجدهم بين أصحاب الوعي الديني، القومي، اليساري، اليميني، التحديثي، والمحافظ: «كلٌّ بطريقته وبقاموسه وعدّته المفهومية»، فلرواية المقاومة حبكة رومنطيقية، حيث «هناك طرف مستعمر أو محتل، يتّحد الشعب ردًّا عليه، في مقاومة تصهره وتذيب تناقضاته، فيما هي تستولد المستقبل المضيء»، فتصوَّر مرحلة ما قبل الاحتلال أنها «جنة على الأرض»، يجب استعادتها. هكذا تتكوّن جنينية الاستبداد، عندما «يتحول مقاوم الأمس إلى سلطة سياسية تبحث دومًا عن توظيف المردود النفعي».

ويعطي صاغية مثلًا عن ماو تسي تونغ؛ إذ يقول إنه هو «الذي طوّر حرب العصابات الوطنية لتصبح âحربًا ثورية' هدفها الاستيلاء على السلطة». وينظر صاغية إلى فرانز فانون، صاحب كتاب **معذبو الأرض**، على أنه «ربما كان أكبر أنبياء

المقاومة بوصفها حتمية ووصفة إطلاقية شاملة يصير معها الفعل العنفي هو ذاته هدفًا». وكانت أهم سبل فرانز فانون في السير بعيدًا نحو هذه المقاومة أنه «دعا إلى إهلاك الحواضر المدينية للدول الأفريقية الجديدة؛ إذ هي مواقع للظلم الإمبريالي». ويحمّل صاغية مسؤولية بَتْر حداثتنا إلى هذه المقاومة، وقد تسببت في دخولنا السياسة «من بوابة الصراع مع الاستعمار من دون التعرّض للمهام الأوروبية التي ترافقت مع ولادة السياسة بمعناها الحديث». لهذا السبب، بدا الحداثي في بلادنا «منزوعة عنه كافة الأبعاد الأخرى، مؤهلًا تمام التأهيل لأن يلبي ذاك اللقاء مع القديم في منتصف الطريق».

هكذا سهلت عليه صياغة علاقة ترادف كامل بين «مقاومة الاستعمار وبين الكرامة والشرف، أو بين حق تقرير المصير وبين الرجولة والمروءة»، فتأسست شرعية المقاومة بتقديس يضاهي ما عرفته من جلافة في السلوك الكولونيالي، ومعطوف على تعزيز «الهوية في مواجهة هوية الغازي». ويصل صاغية إلى صلب موضوعه حينما يصوِّب على حالة الاستبداد المستديمة التي يمكن «المقاومة» هذه بالذات أن تزرع بذورها، فيقول: «إن التعويل على المقاومة بوصفها شرعية لحياة مستقبلية، هو تأسيس للاستبداد».

ويطرح مشكلة «الشرعية» مع «المقاومة»، وعلاقتهما: الأولى، أي الشرعية، «مفهوم مدني يتصل بالإرادة الشعبية كما تعبر عن نفسها في زمن سلمي تعريفًا، فضلًا عن اتصالها الوثيق بسلطة معينة تبلورها وتجلوها في دولة ما»، في حين أنّ الثانية، المقاومة، هي «الخيار الأيديولوجي، أو الأهلي المموّه أيديولوجيًا الذي يستقي شرعيته من تقديره لما هو صواب وما هو خطأ، وما هو àمعنا' وما هو àضدنا'». وهي، أي المقاومة، بعلاقتها مع المجتمع، «لا تتوقف مرة عن تعميم تضحياتها وتحويلها مادة للمقايضة الضمنية مع المجتمع»، هكذا، تُنزع عن هذا المجتمع «حريته وسلطته ويُستولى على إدارة شؤونه»، ما يضاعف هذا التسلّط أن «المقاومين أكثر تعطشًا إلى السلطة بسبب صدورهم عن بيئات مقصاة منها تاريخيًا»، فتكون المقاومة أمام احتمالين: «إما تحكم وينشأ الاستبداد، وإما لا تحكم فتندلع الحرب الأهلية»؛ إذ إن أهم ما تملكه المقاومة، «بحكم طبيعتها وظروف نشأتها، هو إتيان العنف في وجه عنفها»[455].

في الضفة المقابلة، في صحيفة **الأخبار** التي يتصدر رئيس تحريرها، إبراهيم الأمين، صياغة الموقف «المقاوم»، المدافع عن حزب الله وسلاحه. تتسبّب الثورة السورية في خضّة داخل هيئة تحريرها، باستقالة خالد صاغية، نائب رئيس التحرير.

ويروي إبراهيم الأمين، بكثير من الأريحية وبشيء من الفروسية، قصة هذه المغادرة. يقول الأمين إنه «مع تطورات الأحداث في سوريا، انتقل الانقسام حول ما يجري في سوريا إلى قلب لبنان بقوة». ويصف هذا الانقسام، قائلًا: «الذين يتبنّون خيار المقاومة ويرون في حمايته أولوية مطلقة لا تتقدم عليها أي أولوية، وهؤلاء وقفوا إلى جانب النظام في سوريا باعتبار ما يحصل مؤامرة خارجية، من دون إغفال تبنّيهم حركة إصلاحية يقودها الرئيس الأسد بنفسه»، ويواجههم من جهة أخرى «خصوم سوريا وخصوم المقاومة الذين قالوا إن الأمر يتطلب سقوط النظام كليًّا».

ويصف إبراهيم موقف خالد صاغية بأنه «كان صريحًا وواضحًا في اعتبار ما يجري في سورية ثورة شعبية مشروعة ضد نظام مستبد»، ولكن إدراك خالد صاغية خطورة هذا الانقسام، واستنادًا إلى موقف **الأخبار** الإيجابي من بقية الثورات العربية، و«لكون الأسد ونظامه يدعمان المقاومة»، قدّم خالد تسوية لصيغة العمل في الصحيفة، تجنّبها خطر الانقسام، وقوامها

سَقفان: «الأدنى فيهما يقول بإدانة أعمال القمع والتعاطف مع مطالب الشعب السوري وعدم الترويج لخطاب النظام، والأعلى فيهما يقف عند حدود المطالب الإصلاحية، ولا يذهب صوب تبنّي الدعوة إلى تغيير النظام أو إسقاطه»، لكن الصيغة لم تعش. ويتابع إبراهيم الأمين قائلًا: «تعرّضت الصحيفة لصدام هو الأعنف»، حينما قررت السلطات السورية منع دخول **الأخبار** نهائيًا إلى الأراضي السورية، «وهو قرار أرفق بحملة سياسية تولّاها أركان في النظام بمساعدة حلفاء لبنانيين لهم، ضد àالأخبار' وضد كتاب رئيسيين فيها أبرزهم خالد. ثم أطلقت الاستخبارات السورية العنان لبعض المرتزقة كي يتولّوا حملة شخصية ضد زملاء بارزين في àالأخبار'، وفي مقدمهم خالد صاغية، والحديث عنه بطريقة مقزّزة»، ولا يرى الأمين حرجًا في الإشارة إلى نوع آخر من الضغوط، هو ضغط ناشر **الأخبار** نفسه، «الدكتور حسن خليل، وآخرين من المساهمين»؛ إذ «يقفون سياسيًا في الجانب الأقرب إلى وجهة النظر الرافضة فكرة إسقاط النظام في سوريا». يسافر خالد، ويعود وهو يشعر بمشكلة أعمق: «ولكن خالد لم يكن يخفي في هذه الأثناء أنه بدأ يشعر بمشكلة مزدوجة: شعر بأن موقفه وطريقة مقاربته الأزمة السورية قد تحولت [تحوّلا] عبئًا على àالأخبار'، وشعر في الوقت نفسه بأن اعتماد àالأخبار' سياسة مهادنة مع النظام في دمشق يحوّلها إلى عبء عليه هو. وقال بصراحة إنه لا يريد أن يكون عبئًا على أحد، كما لا يريد أن تكون المؤسسة عبئًا أخلاقيًا وسياسيًا ومهنيًا عليه، ولذلك يجد أن الخروج هو الحل الأفضل، وأن هذا هو التوقيت المناسب»[456].

أما خالد صاغية، فيتكلم على خروجه من الصحيفة المقاومة بلغة بدأت تختلف: «كنتُ أعتقد أنّي وحزب الله في خندقٍ واحد، إنّه الخندق الذي أعلن منه نصر الله: مطار رفيق الحريري مقابل مطار بن غوريون [...] وهو الخندق الذي اعتقدتُ أنّه سينجزُ بعد حرب تموز ما لم تنجزه وزارة جورج قرم، ولا برنامج شربل نحاس، من انقلابٍ على السياسات النيوليبرالية. وحين أعلن نصر الله ذات مرّة استعداده للاتفاق مع سعد الحريري، واستئناف تقسيم العمل بين الإعمار والمقاومة، أحسستُ بطعنةٍ في الظهر [...] لم أشعر بأنّ الصحيفة باتت فعلًا هي àالأخبار' التي أحبّها ويحبّها جوزيف [سماحة]، إلا مع الثورات العربيّة [...] فمع تونس والغلاف الرؤيوي الذي اقترحه أنسي الحاج àآخر أيام بن علي'، ثمّ مع مصر وثورة يناير، اعتقدتُ أنّ àالأخبار' باتت الصحيفة اليسارية التي وصل صداها إلى العالم العربي وشعوبه التي حطّمت أخيرًا جدار الخوف [...] حاولت àالأخبار' التمايز عن فريق 8à آذار' في بداية الثورة السورية. ظننتُ أنّ بإمكاننا أقلّه الابتعاد عن بروباغندا النظام، فننتقد قمعه الوحشيّ للتظاهرات، وإن لم نتبنَّ الدعوة لإسقاطه. ظننتُ أنّ بإمكاننا أقلّه أن نقول إنّ فلسطين الحرّة وسوريا الديمقراطية ليستا متناقضتين، لكن سرعان ما تبيّن أنّ حتّى هذا الطريق مسدودٌ مسدود. وكان ذلك قبل داعش، وقبل النصرة، وقبل مشاركة حزب الله في قمع الثورة السورية. بدت أضلع اليسار التي ادّعيتُ ذات يوم أنّ الصحيفة قادرة على التوفيق بينها، وقد انفكّت عن بعضها بعضًا [كذا] [...] كنتُ أظنّ أنّ مواقفي التي اتخذتها ممّا يجري في سوريا هي المواقف الطبيعية التي ينبغي لأيّ يساري أن يتّخذها، وزاد من اقتناعي هذا أنّ كلّ الحجج التي ساقها الموالون لبشار الأسد آنذاك لم يكن أصحابها يصدّقونها، أو أنّي لم أصدّق يومًا أنّهم يصدّقون أنّ ثمّة مؤامرة عالمية حرّكت مئات آلاف السوريين، أو أنّ تنظيمات وأيديولوجيات إسلامية متطرّفة تكمن وراء صرخات àحرية! حرية!'، أو أنّ مقاومة

إسرائيل تستدعي قلع أظافر أطفال درعا. الوحيدون الذين صدّقتُهم هم الذين قدّموا لي الأمر ببساطة وصراحة مطلقتين، قالوا إنّ ما يجري في سوريا ليس من مصلحة àحزب الله’، ونحن غير مستعدّين للتضحية بكلّ ما بنيناه منذ الثمانينات من أجل حفنة متظاهرين يطالبون بالحرية. صدّقتُهم وصدّقتُ رامي مخلوف حين حذّر الغرب من خطورة انهيار النظام السوري على أمن إسرائيل، لقد كان على تصريحٍ كهذا أن يأتي على لسان مخلوف بالذات حتّى أعودَ إلى àالتراكم بواسطة النهب’، وأكتشفَ وجهًا آخر لـàالإمبريالية الجديدة’ [...] تذكّرتُ حين سألني أستاذي الماركسي الأميركي عمّا يجري في بيروت في العام 2005، قائلًا إنّه لم يفهم ماذا تعنيه تظاهرتا à8 و14 آذار’. وحين حاولتُ أن أشرح له، أطلق تنهيدةً طويلة وقال: كم كانت الأمور أشدّ وضوحًا في الستينات. أتساءلُ الآن: هل كانت كذلك فعلًا؟»[457].

(441) Joseph Daher, «Les conséquences de l’intervention militaire du Hezbollah en Syrie sur la population libanaise chiite et les rapports avec Israël,» Fondation pour la recherche stratégique, 26/9/2017, accessed on 6/2/2021, at: https://bit.ly/3pXJCRl

(442) منصور العمري، «حزب الله في سوريا: بدايات – قادة – ممارسات»، **أورينت نت**، 2/11/2014، شوهد في 6/2/2021، في: Yeea d2'SZe&y'3e5 X/ R

(443) سعد محيو، «ماذا يفعل حزب الله.. في سوريا»، **سويس إنفو**، 11/10/2012، شوهد في 6/2/2021، في: Yeea d2'SZe&y'3R8 eYf e

(444) إيلي الفرزلي، «لا أمانع حتى البحث بتغيير اسم الحزب في المؤتمر العاشر: حدادة لـâالسفير’: لست مرشحًا للأمانة العامة.. ولكن»، موقع الحزب الشيوعي اللبناني، 23/10/2014، شوهد في 6/2/2014، في: Yeea d2'SZe&y'3aJ k2Kh

(445) إبراهيم حيدر، «الشيوعي يقاتل تحت راية âحزب الله’!»، **النهار**، 18/6/2015، شوهد في 6/2/2021، في: Yeea d2'SZe&y'3ei EK(U

(446) زهراء الأمير، «خالد حدادة: الحزب الشيوعي اللبناني يعود لحمل السلاح لمواجهة التكفيريين»، **سبوتنيك**، 22/6/2015، شوهد في 6/2/2021، في: Yeea d2'SZe&y'3` GA6 , T

(447) مقابلة مع كمال حمدان، 20/11/2021.

(448) كريم مروة، «نحو نهضة جديدة لليسار في العالم العربي»، **الحوار المتمدن**، 9/12/2018، شوهد في 15/2/2021، في: Yeea d2'SZe&y'2LbD5 GG

(449) محمد علي مقلد، **الشيعية السياسية: بحث في معوقات بناء الدولة** (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2012)، ص 10، 13-15، 19، 24.

(450) «عن كلمن»، **كلمن**، شوهد في 6/2/2021، في: Yeea d2'SZe&y'3RK- 4 5 S

(451) «من نحن؟ بدايات لكل فصول التغيير»، **بدايات**، شوهد في 6/2/2021، في: Yeea d2'SZe&y'3` M{h W

(452) فواز طرابلسي، «اليسار في الزمن الثوري»، **بدايات**، العدد 1 (شتاء-ربيع 2012)، شوهد في 6/2/2021، في: Yeea d2'SZe&y'2L CKei ,

(453) نهلة الشهال، «افتتاحية السفير العربي»، **السفير العربي**، 4/7/2012، شوهد في 6/2/2021، في:

Yeead2'SZe&y'3e5 baHX

(454) «من نحن»، **السفير العربي**، شوهد في 6/2/2021، في: Yeead2'SZe&y'3`I kVd/

(455) حازم صاغية، **هجاء السلاح: المقاومات كحروب أهلية مقنعة** (بيروت: دار الساقي، 2011)، ص 10، 12-17، 19.

(456) إبراهيم الأمين، «لماذا غادر خالد صاغية àالأخبار’»، **الأخبار**، 20/8/2011، شوهد في 6/2/2021، في:

Yeead2'SZe&y'2M- Xlda

(457) خالد صاغية، «عن اليسار وشياطين أخرى: محاولة أولى لكتابة سيرة ذاتية»، **الجمهورية**، 20/5/2016، شوهد في 6/2/2021، في: Yeead2'SZe&y'3. B) dZY

خاتمة

كل الذين قابلتهم كانوا شيوعيين ذات يوم. غالبيتهم العظمى انخرطت، وبأوقات وأشكال مختلفة، في منظمة العمل الشيوعي أو الحزب الشيوعي اللبناني. وبقيت الأقلية من بينهم في أحزابها، والأكثرية تفرّعت، وامتدت في جهات متفاوتة، وغالبًا متخاصمة، خصوصًا في القضية الأساسية، ذات العناوين المعروفة: سلاح حزب الله، النظامان السوري والإيراني، والولايات المتحدة الأميركية وإسرائيل.

ما زال نهاد حشيشو يعتبر نفسه شيوعيًا، لكنه لا يجد في الساحة «حزبًا ثوريًا» يرضي حلمه بالمساواة. مثله شربل داغر، الذي ما زال يساريًا، ولكنه منذ ترك المنظمة لم يدخل أي تجمع أو نقابة، بينما يصف غسان الرفاعي نفسه بـ «شيوعي»، ولكن ماركسي، لا لينيني. هو يعتبر أن «الماركسية ما زالت منهجية فكرية فلسفية صالحة لفهم العالم مهما كانت تغيراته». وهذا موقف تؤيده جمال القرى؛ إذ تعتبر نفسها «ماركسية متصالحة مع ماركس، ولكن غير لينينية». هي أيضًا عادت وقرأت الماركسية «التي لم نقرأها» (أي في الحزب)، بدلًا من تلك التي «كان يترجمها السوفيات».

باستثناء هؤلاء، فإن التفرّع يأخذ النصيب الأكبر بين الذين اشترطوا على يساريتهم الراهنة أن تُضاف إليها غصون، لتستحق نعْتها، فيرفقون يساريتهم بعبارة «بمعنى»: أي «أنا يساري بمعنى كذا». عباس بيضون يساري بمعنى أن ينكبّ اليسار على قضايا الأقليات المهمّشة، مثل المثليين والمومسات، وأن يطلق حرية التفكير على مصراعيه. على رصيف شبيه، يقف بول طبر، باشتراطه أن تكون هذه اليسارية مقرونة بالليبرالية الديمقراطية «على نواقصها»، لبناء الخيار اليساري، فضلًا عن وسام سعادة الذي يدعو إلى استفادة اليسار من عصر التنوير الأوروبي، فهو من نتاجه. ومثله وديع حمدان يغرف من التراث التنويري نفسه، ليدعو إلى يسار إنسانوي، يصفه بالفرنسية «Humaniste»، رغم أنه في النهاية لا يرى ضرورة لليسار الآن: فالمطالب المرفوعة «لا تحتاج إلى يسار أو تنظيمات يسارية لتحملها». ويؤكد رضا إسماعيل أنه ما زال يساريًا، ولكن ليس بمعنى «النموذج الاشتراكي السابق الذي انتهى»، إنما بالعمل كالأنظمة الأوروبية التي تطبق الشعارات الأساسية للعدالة الاجتماعية، بينما يريد وليد نويهض أن يضيف إلى يساريته، التي ما زال ثابتًا عليها، عنصرًا آخر، لا يجد فيه نقيضًا: أي الإسلام. ومن دون أن يكون إسلاميًا ملتزمًا، يرى أنه لا يمكن إلغاء الهوية الإسلامية، بل «تبنّيها».

يلتقي جاد تابت مع كريم مروة في استبدال «الشيوعي» بـ «اليساري». الأول يقول إنه «حتمًا غير شيوعي»، ولكنه «بالتأكيد يساري». والثاني، مروة، يعطي «كلمة يساري محل كلمتَي شيوعي واشتراكي». ومثلهما أحمد الديراني الذي يرى أن اليسار لم يعد يقتصر على الشيوعية والماركسية. على ضفة قريبة، يعتبر حسام عيتاني أنه أصبح «اشتراكيًا ديمقراطيًا»، لأن العدالة الاجتماعية «لا يجب أن تتحقق بالإكراه، وإلا فعودة إلى الستالينية».

يُخرج حسن منيمنة نفسه من التصنيف اليساري، ويفضل صفة «التقدمي»، أي إنه يسعى إلى أن يكون بلده «بلدًا»، يريد له «التغيير والتجديد». عكسه محمود سويد الذي يعتبر نفسه يساريًا حتى الآن، ولكنه ينظر إلى اليسار كتراث ثقافي

فكري وحتى سلوكي حياتي، في حين أنّ جهاد الزين لم يبقَ عنده «شيء كثير من اليسارية»، ولكنه معجب بالمرحلة اليسارية لأنها كانت غنية بـ «الثقافة الإنسانية»، يعتزّ بها أمام الأجيال التي لم تعاصرها.

اثنان يختلفان عن الزين: أحمد بيضون وحازم الأمين، اللذان لم يعودا يعرفان معنى مفردة «اليساري». الأول، بيضون، «مؤمن بحريات الناس وليس بالحريات ضد الناس»، ويتساءل إن كان هذا الإيمان نابعًا من كونه يساريًا، أو يساريًا سابقًا؟ لا يعلم، لم يعد يعرف ما المقصود بـ «اليساري». ومثله حازم الأمين. ولكنه يعطي أمثلة غير مألوفة بشأن جهله، بمعنى أن يكون يساريًا أو لا يكون: «إذا أردتُ أن أختار أصدقاء بين شخصين في إسرائيل، أختار اليساري. إذا أردتُ أن أختار في الأردن بين إخواني (àإخوان مسلمين’) وبين يساري أختار الإخواني».

ثلاثة بقوا على يساريتهم السابقة لأسباب تلتقي ببعضها. ثلاثتهم عاشوا مدة طويلة في فرنسا، وهم يواصلون الذهاب والإياب، منها وإليها. رياض الدادا «يساري [...] أكيد مئة بالمئة». بأي معنى؟ ليس بمفهوم «الاشتراكية السابقة»، إنما بعدالة اجتماعية وفلسطين وتحرر وطني من الاستعمار. محمد بلوط صار بعد إقامته الطويلة في فرنسا، «أكثر يسارية من أي وقت آخر». يسارية فيصل جلول لا تختلف كثيرًا. في باريس، اصطدم بالمجتمع الأجنبي وبطغيانه، وأصبح مثل بلوط أكثر «قومية». والاثنان توثقت «الهوية القومية» لديهما، بفعل الإقامة في فرنسا، فأعطت معنى للوفاء، ليسارية كانوا عليها أيام شبابهما. «هوية» لا تناقض إسلامية حزب الله، بل تحاكيها، و«قومية» هي نفسها تلك التي وصفها جوزيف سماحة آنفًا: «القومية العربية التي يعبّر عنها بواسطة أيديولوجيا غالبة، وقد صارت مهيمنة، وهي الإسلام».

تبقى ثلاثة استثناءات صريحة بالمسافة التي أخذتها من يسارية أصحابها. خالد صاغية يعتبر أن كلمة «يساري»، من دون إضافات أخرى، لم تَعُد تعني شيئًا. المعضلة الأساسية عنده أنه أمام الدمار الذي يتعرض له السوريون، فإن اليساريين لا يملكون الجواب نفسه. أما لقمان سليم، فيجمع بين اليسارية واليمينية، يريدها يسارية «فلسفيًا»، ويمينية سياسيًا. والصيغة التي يقترحها «نهج جدلي بالتفكير، ولكن بمكان يميني»، تجمع في رأيه بين الثقافة والسياسة، كما هو معهود في اليسار، ولكن ملحم شاوول يفصل نهائيًا، لأن «الماركسية انتهت»، ويذهب إلى اعتبار أن «أهم ما حصل للإنسانية منذ سنة 1400 هو الرأسمالية».

وهذه «اليسارية»، على أشكالها وروافدها، لم تجد تطابقًا في القضية الأساسية، أي الممانعة. الجميع قال موقفه من الثورة السورية بألوان مختلفة من اللهجة والمنهج والإطار والانتظام والحضور. مواقف تراوح بين البوست والمقال والمقابلة، بل منهم من أصدر كتبًا بعينها عن الثورة السورية، مؤيدًا لها ومنكبًّا عليها؛ مثل زياد ماجد وكتابه **الثورة اليتيمة**.

وإذا ما نقّبنا في السجال، عن «كتلة» سجالية، بين يساريين؛ سجال نادر، شبه منتظم الوتيرة، غير مباشر غالبًا، فلن نجد أفضل تمثيلًا من ذاك الذي حصل بين إبراهيم الأمين وحازم صاغية. الأول بقي على يسار البداية، بل «يساري جدًّا». يصف نفسه باليساري «من الطراز القديم»، بالعبارة الإنكليزية «old fashion»؛ بمعنى، أيضًا، تمسّكه بـ «المعايير الأولى لليسارية»، أي «إن أميركا يجب أن تنتهي كدولة»؛ أن ينتهي نموذجها «لتحلّ العدالة في العالم»، وهذه واحدة من قواعد المنظومة التي تُهَيْكل لفكر الممانعة، بعد الصهيونية والسلاح والإرهاب، فإبراهيم الأمين اشتهر بعد الثورة السورية كأغزر

المساجلين ضدها، وأنشط المدافعين عن دخول حزب الله إلى سورية، للقتال إلى جانب الرئيس بشار الأسد، في حربه على شعبه. وقد تواجه الأمين مع صاغية من عام 2011 وحتى أواسط عام 2015 في سجال غير مباشر: الأمين في صحيفة **الأخبار**، وصاغية في صحيفة **الحياة**، بمقالات فاق عددها مئة وخمسين مقالًا، وبما يقترب من التساوي بين الاثنين؛ إذ يقف حازم صاغية الموقف الصافي النقيض من آراء إبراهيم الأمين، وهو يجيب عن سؤال اليسارية بأنه «إيه نعم ما زلتُ يساريًا»، ولكنه «اليساري الذي لم تتحقّق أفكاره»، لذلك فهو مصاب بـ «الميلانْكوليا» (Melancholy)، يقولها أيضًا بالإنكليزية؛ أي بنوع من الحزن الجاري، أو الكآبة، أو الحِداد.

بين تمسّك إبراهيم الأمين باليسارية القديمة كما وُجدت، و«ميلانْكوليا» حازم صاغية، ثمة معنى لاختلاف الرجلين حول موضوع الممانعة وما يترتب عليها. اليساري الذي يبقى على إيمانه الأول، الأمين، يكمّل بيساريته التي توصله إلى الممانعة، بينما صاغية، الذي فقد ثوابت هذا الإيمان، يخرج عنه وعما يعتبره الأمين تتماته. الأول بـ «من الطراز القديم»، والثاني بالـ «ميلانْكوليا» يلخصان الزاوية، أو واحدة من الزوايا التي يقفان خلفها لدى مقاربتهما موضوع الثورة السورية. والأساس في هذا الاختلاف أن الأول، إبراهيم الأمين، يعتقد أن التجربة اليسارية قابلة للاستمرار، وإنْ بقيادة دينية، فيتحمس، ويزهو، بما يتحقق لهذا الاستمرار من انتصارات، في حين يعترف الثاني، حازم صاغية، حزينًا، بفشل التجربة اليسارية برمتها، ولا يشفيه سعيه لفتح ثغرات جديدة للتفكير في التغيير.

من أين يأتي هذا الانقسام بعد الجذور الواحدة؟ ما سياقاتهما؟

من سمتين يتحلى بهما هذا اليسار:

الأولى، سمة «البرانية»: اليسار اللبناني تشكّل تحت قبة سماء مترامية، تتجاوز الحدود الوطنية – القُطرية. الذين عاشوا تحت تلك السماء لم يكونوا يَلْمحون تلك البرانية، كانت حدودهم مفتوحة. فوق أنهم كانوا قوميين عربًا، كانوا يحتمون بالمظلة السوفياتية الواسعة. من غير أن يكونوا بالضرورة قوميين عربًا أقحاحًا، أو ملتزمين بتعليمات الكومنترن، فالماركسية قاعدة الشيوعية، كانت مسيطرة على جميع الحركات الثورية في أواسط القرن الماضي؛ أوروبية أكانت أم عالمثالثية. وإذا كان حزب البعث السوري قد فشل في الوحدة مع عبد الناصر، فإن الاثنتين، الناصرية والبعثية، كان لهما دور المحرّك، في البداية إيجابي، ثم من بعدها إيجابي – سلبي، في تحديد مسار اليسار الذي نحن بصدده. كانت القضية الفلسطينية عاملًا برانيًا آخر، ضخّت التجربة والمال والجاه الثوري، بل صاغت جوانب أساسية من رؤية اليسار، وقلبت بعضها الآخر. حتى الخبرة النقابية الأولى استقاها اليسار من خارج آخر: المصري العمالي، عبر فؤاد الشمالي، أحد مؤسسي الحزب الشيوعي اللبناني، وهو جادَ على التنظيم الوليد بكل تجربته النقابية العمالية التي اكتسبها أثناء نضاله مع العمال المصريين. وعشرات الأمثلة الشبيهة أتى بعضها من أرمينيا، والبعض الآخر من فرنسا أو بريطانيا أو الولايات المتحدة.

ومع أن هزيمة عبد الناصر في عام 1967 أطلقت هذا اليسار؛ بأن حمّلته السلاح ردًّا على هزيمة الجيوش العربية «النظامية»، فإنّ رحيله كان أولى مَيْتات هذا اليسار. ضيَّق هذا الرحيل قُطْر القبة التي كانت تحميه. ميتة ثانية ساهمت في هذا التضييق، مع هزيمة السلاح الفلسطيني – اليساري أمام الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام 1982. الميتة الأخيرة كانت

بانهيار الاتحاد السوفياتي، ومعها الحصانتان، المعنوية والجيوسياسية، اللتان كانت تتمتع بهما الأحزاب الشيوعية، ومن يدور في فلكها، قريبًا أو بعيدًا، من مجموعات وأحزاب يسارية أخرى، فحصل الانتقال «السهل»، البراني المصدر بدوره، إلى الطليعية الإسلامية، بنسختها الشيعية – الإيرانية.

السمة الثانية هي الاستمرارية، وهذا الانتقال لم يتم دائمًا بالاغتيالات أو الملاحقات أو التضييقات في حق اليساريين المصرّين على الاستمرار في أداء دورهم، خصوصًا دور التحرير من الاحتلال الإسرائيلي، فهذا جانب يشبه الضرر الجسدي أو التنظيمي أو اللوجستي، في حين أنّ الجانب «المعنوي» أو «الفكري» لهذا الانتقال كان ميسّرًا بفضل عامل الاستمرارية بين إرث اليسار والعدّة الأيديولوجية للإسلامية الصاعدة. طلال عتريسي، وهو واحد من الذين غادروا اليسار ليستقر في إسلامية أصولية، كما سبق آنفًا، يروي قصة الاستمرارية بين اليساري الذي كانه، والإسلامي الذي أصبح عليه. يقول إن المرحلة اليسارية، السابقة، كانت مفيدة بالنسبة إليه، غرست في وجدانه «التزامًا جديًّا بالقضايا يشبه الالتزام الديني»، ومن دون مقابل، ولا تفكير في أرباح ذاتية. ويتابع عتريسي واصفًا مستوًى «إيجابيًا» آخر من الإرث اليساري، خاصًا بـ «التفكير والبحث ومنهج التحليل»، فقراءة كارل ماركس مثلًا، علّمته أشياء عن النظام الرأسمالي. والمؤكد بالنسبة إليه أنه، مع الإسلامية، لم يبدأ بهدم الإرث اليساري كليًّا، لم يبدأ «من الصفر».

ولا يتوقف «التوافق» عند هذا المستوى «الإتيقي» أو «المنهجي»؛ هو يتجاوزه إلى المستوى السياسي المباشر، الذي تختصره ثلاثة شعارات. كان اليسار في ذروة قوته لا يؤمن بغير التحرير من خلال السلاح، وإسرائيل هي الهدف المباشر لهذا السلاح. ونظرًا إلى العلاقة التي كان يجد أنها «عضوية» بين إسرائيل والولايات المتحدة، فضلًا عن دور هذه الأخيرة بصفتها إمبريالية جامحة نحو إخضاع شعوب العام، كان اليسار معاديًا لها، عداءً صافيًا، ومعه للغرب الاستعماري القديم، مع أن ثقافة هذا الاستعمار كانت تلهمه، في الوقت نفسه. أمسكت الإسلامية بهذا النوع من العداء، وما زالت. والفئات الشعبية، المنهوبة أو المطحونة، كانت هي المحرّك الجماهيري لليسار. لم تتغير الإسلامية الشيعية الإيرانية كثيرًا حينما حدّدت الفئة التي ستتوسّل احتضانها، على أنها «المستضعفون».

وعنصر الاستمرارية الديموغرافي كان جاهزًا أيضًا، وربما هو أول مذلّل لعقبات قد تكون واجهتها الإسلامية الشيعية في أيام نشأتها الأولى لكسب الجمهور؛ فالإسلامية التي نحن بصددها، بما أنها بنت الأصولية الشيعية، فمن الطبيعي أن تستقطب أبناء هذا المذهب. هذا الاستقطاب حصل أيضًا بسلاسة، ومن دون انقطاع، كون غالبية اليساريين كانت من الشيعة. انتقالهم إلى الإسلامية الشيعية تيسّر بفضل التقارب في الشعارات المذكورة آنفًا، ولكن، خصوصًا، بفضل انتمائهم «الطبيعي، الأولي»، إلى المذهب الشيعي.

فبالسرعة نفسها التي جرى عليها «التمرْكس»، خطَا «التأسْلم» خطاه الواثقة، وهي سرعة تجدها قبل ذلك في المحطات الانتقالية لتحولات اليساريين، منذ بداية دراستنا؛ من البعث إلى الشيوعية، من القومية العربية إلى الشيوعية، من الاتحاد السوفياتي والتسفْيت إلى التظاهر لعبد الناصر، من تأييد تقسيم فلسطين إلى حمل السلاح من أجلها، من المركزية الديمقراطية إلى الديمقراطية المركزية، من اليسارية إلى الإسلامية، مع بعض الانشقاقات صحيح، ولكن ولا مرة بقطيعة تامة

مع الأساس. خُذْ واحدة من نقاط الاستدلال على هذه السرعة: بين الانفصال السوري – المصري عام 1961، أو انعقاد المؤتمر السادس للحزب الشيوعي اللبناني عام 1992، وسوف تجد أنه خلال ثلاثة عقود من الزمن، سبح اليسار في بحور القومية والناصرية والشيوعية والفلسطينية والإسلامية، من دون أن يغرق تمامًا.

الملاحق

الملحق (1): لائحة الأشخاص الذين حاورتهم الدراسة

1920–1929

غسان الرفاعي. 1929. العراق. الحزب الشيوعي اللبناني. قيادي متفرغ.

1930–1939

كريم مروة. 1930. شيعي. الجنوب. حداثا. الحزب الشيوعي اللبناني. قيادي متفرغ.

محمد كشلي. 1936. سني. بيروت. منظمة العمل الشيوعي. ناشر وكاتب.

محمود سويد. 1936. سني. الجنوب. كفرحمام. لبنان الاشتراكي. مدير مركز البحوث الفلسطينية.

1940–1949

نهاد حشيشو. 1941. سني. الجنوب. صيدا. الحزب الشيوعي اللبناني. صحافي.

وضاح شرارة. 1942. شيعي. الجنوب. بنت جبيل. منظمة العمل الشيوعي. أستاذ جامعي وكاتب.

أحمد بيضون. 1943. شيعي. الجنوب. بنت جبيل. منظمة العمل الشيوعي. أستاذ جامعي وكاتب.

الفضل شلق. 1943. سني. الشمال. كفريا. حزب العمال الثوري. مهندس وكاتب.

جاد تابت. 1944. كاثوليكي. جبل لبنان. بحمدون. الحزب الشيوعي اللبناني. مهندس ونقابي وكاتب.

عباس بيضون. 1945. شيعي. الجنوب. بنت جبيل. الحزب الشيوعي اللبناني ومنظمة العمل الشيوعي. شاعر وروائي.

توفيق الهندي. 1947. كاثوليكي. بيروت. منظمة العمل الشيوعي. أستاذ جامعي وكاتب.

محمد علي مقلد. 1947. شيعي. الجنوب. جرجوع. الحزب الشيوعي اللبناني. أستاذ جامعي وباحث.

زين رحمة. 1948. شيعي. ساحل المتن الجنوبي (الضاحية الجنوبية لبيروت). برج البراجنة. منظمة العمل الشيوعي. قيادي متفرغ.

فيصل جلول. 1949. شيعي. البقاع. حوش الأمراء. منظمة العمل الشيوعي. صحافي وكاتب.

كمال حمدان. 1949. شيعي. الجنوب. حومين. الحزب الشيوعي. خبير اقتصادي وكاتب.

وليد نويهض. 1949. درزي. جبل لبنان. رأس المتن. منظمة العمل الشيوعي. صحافي وكاتب.

حسن منيمنة. 1949. سني. بيروت. منظمة العمل الشيوعي. أستاذ جامعي وكاتب.

1950–1959

أحمد الديراني. 1950. شيعي. البقاع. قصرنبا. منظمة العمل الشيوعي. مدير «المرصد العمالي».

زكي طه. 1950. سني. الجنوب. كفرشوبا. منظمة العمل الشيوعي. قيادي متفرغ.

ملحم شاوول. 1950. كاثوليكي. البقاع. زحلة. منظمة العمل الشيوعي. أستاذ جامعي وكاتب.

شربل داغر. 1950. ماروني. الشمال. تنورين. منظمة العمل الشيوعي. أستاذ جامعي وشاعر.

يوسف مرتضى. 1950. شيعي. البقاع. تمنين التحتا. الحزب الشيوعي. إعلامي وصحافي.

حسن داوود. 1950. شيعي. الجنوب. النميرية. الحزب الشيوعي اللبناني. أستاذ ثانوي وروائي.

موسى إدلبي. 1950. شيعي. الجنوب. منظمة العمل الشيوعي. أستاذ ثانوي وصحافي.

منى فياض. 1950. شيعية. الجنوب. أنصار. منظمة العمل الشيوعي. أستاذة جامعية وكاتبة.

وديع حمدان. 1951. شيعي. الجنوب. حومين. منظمة العمل الشيوعي. خبير في الاقتصاد التعاوني وكاتب.

حازم صاغية. 1951. كاثوليكي. الشمال. بينو. منظمة العمل الشيوعي. صحافي وكاتب.

رضا إسماعيل. 1951. شيعي. إقليم التفاح. كفربيت. منظمة العمل الشيوعي والحزب الشيوعي اللبناني. خبير تربوي. مدير دار نشر.

جهاد الزين. 1951. شيعي. الجنوب. النبطية. منظمة العمل الشيوعي. صحافي وكاتب.

طلال عتريسي. 1951. شيعي. الجنوب. منظمة العمل الشيوعي. أستاذ جامعي وكاتب.

بول طبر. 1953. ماروني. زغرتا. منظمة العمل الشيوعي. أستاذ جامعي وكاتب.

طلال طعمة. 1953. سني. إقليم الخروب. مزبود. منظمة العمل الشيوعي. إعلامي وصحافي.

رياض الدادا. 1953. سني. صيدا. منظمة العمل الشيوعي. مدير شركة إلكترونيات.

جمال القرى. 1954. سنية. بيروت. الحزب الشيوعي اللبناني. طبيبة، مترجمة وكاتبة.

محمد بلوط. 1958. شيعي. الجنوب. حومين. منظمة العمل الشيوعي والحزب الشيوعي اللبناني. صحافي.

زياد صعب: 1958. درزي. البقاع. راشيا الوادي. الحزب الشيوعي اللبناني. رئيس جمعية «محاربون من أجل السلام».

1960–1969

لقمان سليم. 1962. شيعي. ساحل المتن الجنوبي. الغبيري. منظمة العمل الشيوعي والحزب الشيوعي. ناشر ومدير مؤسسة ثقافية.

حسام عيتاني. 1965. سني. بيروت. الحزب الشيوعي اللبناني. صحافي وكاتب.

إبراهيم الأمين. 1965. شيعي الجنوب. شقرا. الحزب الشيوعي اللبناني. صحافي.

حازم الأمين. 1966. شيعي. الجنوب. شقرا. الحزب الشيوعي اللبناني. صحافي وكاتب.

1970–1979

زياد ماجد. 1970. شيعي. الجنوب. خربة سلم. أستاذ جامعي وكاتب.

خالد صاغية. 1974. كاثوليكي. الشمال. بينو. صحافي.

وسام سعادة. 1977. ماروني. جبيل. الحزب الشيوعي اللبناني. أستاذ جامعي وكاتب.

الملحق (2): تواريخ أحداث

1916	اتفاقية سايكس – بيكو
1920	تأسيس لبنان الكبير
1924	تأسيس الحزب الشيوعي السوري–اللبناني
1943	استقلال لبنان تشرين الثاني/نوفمبر
1943–1944	المؤتمر الأول للحزب الشيوعي اللبناني
1950	تأسيس حركة القوميين العرب
1952	انقلاب الضباط الأحرار في مصر
1954	اندلاع حرب التحرير الجزائرية
1956	تأميم قناة السويس تموز/يوليو
1956	العدوان الثلاثي على مصر تشرين الأول/أكتوبر
1958	الحرب الأهلية اللبنانية المصغَّرة
1958	الوحدة السورية – المصرية
1961	الانفصال السوري – المصري
1961	الانقلاب الفاشل للحزب السوري القومي الاجتماعي
1962	استقلال الجزائر
1964	انفصال الحزب الشيوعي اللبناني عن الحزب الشيوعي السوري

1964	تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية
1964	تأسيس لبنان الاشتراكي
1965	تأسيس حركة التحرير الوطني الفلسطيني «فتح»
1965	الانطلاقة الأولى لحركة «فتح»
1966	تأسيس حزب العمال الثوري العربي
1967	الانطلاقة الثانية لحركة «فتح»
1967	تأسيس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين
1968	المؤتمر الثاني للحزب الشيوعي اللبناني
1968	ربيع براغ
1968	تأسيس منظمة الاشتراكيين اللبنانيين
1969	تأسيس الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين
1969	الإمام موسى الصدر يؤسس المجلس الشيعي الأعلى
1969	قمع دموي لتظاهرة مؤيدة للفلسطينيين في بيروت
1969	اتفاق القاهرة
1970	المؤتمر الأول لمنظمة العمل الشيوعي في لبنان
1970	«أيلول الأسود»
1970	وفاة جمال عبد الناصر
1976	دخول قوات الردع العربية إلى بيروت
1977	اغتيال كمال جنبلاط
1977	الاجتياح الأول لجنوب لبنان

1977	زيارة أنور السادات القدس
1978	عملية «الليطاني» الإسرائيلية ضد جنوب لبنان
1978	اختفاء الإمام موسى الصدر
1978	اتفاقية كامب ديفيد
1979	الثورة الإسلامية في إيران
1979	الاجتياح السوفياتي لأفغانستان
1982	الاجتياح الإسرائيلي للبنان
1983	تفجير السفارة الأميركية في بيروت
1983	أول عمليتين لحزب الله ضد القوات الفرنسية والأميركية
1985-1988	حرب المخيمات
1986-1987	اغتيال شيوعيين
1987	إلغاء اتفاق القاهرة
1989	اتفاق الطائف
1991	انهيار الاتحاد السوفياتي
1992	المؤتمر السادس للحزب الشيوعي اللبناني
1993	عملية «تصفية الحساب» الإسرائيلية ضد لبنان
1993	إعلان المبادىء الفلسطيني – الإسرائيلي بشأن ترتيبات الحكومة الذاتية المعروف باتفاق أوسلو
1995	اغتيال يتسحاق رابين
1996	عملية «عناقيد الغضب» الإسرائيلية
1996	اتفاقية نيسان

2000	انسحاب إسرائيل من جنوب لبنان
2000	وفاة حافظ الأسد
2000	بيان المطارنة الموارنة
2000	بيان الـ 99 للمعارضة السورية
2001	لقاء قرنة شهوان
2004	تأسيس اليسار الديمقراطي
2004	القرار 1559(الأمم المتحدة)
2005	اغتيال رفيق الحريري
2005	انتفاضة الاستقلال ونشأة «14 آذار»
2005	اغتيال جورج حاوي حزيران/يونيو
2005	الإعلان عن «حركة الإنقاذ» الشيوعية
2005	إعلان دمشق للتغيير الديمقراطي
2006	اتفاقية مار مخايل
2006	إعلان بيروت دمشق
2006	حرب تموز/يوليو

الملحق (3): قائمة رؤساء الجمهورية اللبنانيين بعد الاستقلال

1943-1952	بشارة الخوري
1952-1958	كميل شمعون

1958-1964	فؤاد شهاب
1964-1970	شارل حلو
1970-1976	سليمان فرنجية
1976-1982	إلياس سركيس
1982	بشير الجميل 23 آب/أغسطس - 14 أيلول/سبتمبر
1982-1988	أمين الجميل
1989	رينيه معوّض 5 تشرين الثاني/نوفمبر - 22 تشرين الثاني/نوفمبر
1989-1998	إلياس الهراوي
1998-2007	إميل لحود
2008-2014	ميشال سليمان
2016 حتى الآن	ميشال عون

المراجع

1 – العربية

إبراهيم، محسن. **الحرب وتجربة الحركة الوطنية اللبنانية**. بيروت: بيروت المساء، 1983.

PPPPP. **آفاق العمل الوطني**. بيروت: بيروت المساء، 1984.

PPPPP. **قضايا نظرية وسياسية بعد الحرب**. بيروت: بيروت المساء، 1984.

PPPPP. **الحرب الأهلية اللبنانية وأزمة الوضع العربي**. بيروت: بيروت المساء، 1985.

أبو شريف، بسام. **بيروت مدينتي**. بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، 2010.

اشتي، فارس وأحمد جابر وشوكت اشتي. **الاحتباس الديمقراطي في الأحزاب اللبنانية: نماذج: الحزب الشيوعي اللبناني – حزب الله – التيار الوطني الحر**. بيروت: الفرات للنشر والتوزيع، 2010.

البزري، دلال. **دنيا الدين والدولة: الإسلاميون والتباسات مشروعهم**. بيروت: دار النهار، 1994.

البطل، جورج. **أنا الشيوعي الوحيد**. حاوره فواز طرابلسي. بغداد: دار المدى، 2019.

بقرادوني، كريم. **السلام المفقود: عهد الياس سركيس 1976–1982**. ط 7. بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 2010.

بيضون، أحمد. **مداخل ومخارج: مشاركات نقدية**. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1985.

PPPPP. **ما علمتم وذقتم: مسالك في الحرب اللبنانية**. بيروت: المركز الثقافي العربي، 1990.

PPPPP. «àلبنان الاشتراكي' ظهور جماعة من شبيبة àاليسار الجديد' ومسارها في لبنان الستينات». **كلمن**. العدد 8 (خريف 2013). في: https://bit.ly/317yq9U

بيضون، عباس. **مرايا فرانكنشتاين**. بيروت: دار الساقي، 2011.

PPPPP. **ألبوم الخسارة**. بيروت: دار الساقي، 2012.

PPPPP. **ساعة التخلي**. بيروت: دار الساقي، 2013.

PPPPP. **الشافيات**. بيروت: دار الساقي، 2014.

PPPPP. «الحزب الذي لم يقع». **بدايات**. العدد 14 (ربيع–صيف 2016).

تقي الدين، سليمان. «30 àجمول': مقاومتان». **بدايات**. العددان 3–4 (خريف 2012 – شتاء 2013).

PPPPP. **اليسار اللبناني وتجربة الحرب: منظمة العمل الشيوعي، اللحمة والتفكك**. بيروت: دار الفارابي، 2013.

جلول، فيصل. **دفاعًا عن السلام العربي**. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1999.

جورج حاوي... شهيدًا: البدايات 1938–1967. إعداد وتوثيق يوسف مرتضى ومصطفى أحمد. تقديم جورج البطل. بيروت: دار الفارابي، 2006.

حبش، جورج. **صفحات من مسيرتي النضالية**. تدوين هيلدا حبش. تحرير وتقديم سيف دعنا. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2019.

حنا، عبد الله. **صفحات من تاريخ الأحزاب السياسية في سورية القرن العشرين وأجواؤها الاجتماعية**. الدوحة/بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2018.

الخازن، فريد. **تفكك أوصال الدولة في لبنان 1967–1976**. بيروت: دار النهار، 2002.

الخالدي، رشيد. **تحت الحصار: صناعة القرار في منظمة التحرير الفلسطينية خلال حرب 1982**. ترجمة نسرين ناضر. مراجعة الترجمة جابر سليمان. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2018.

خبيز، بلال. **سقطت سهوًا مرتين: سيرة مقاوم يبحث عن وطن**. بيروت: هيا بنا، 2008.

خلف، سمير. **لبنان في مدار العنف: قراءة في تدويل النزاعات الفئوية**. ترجمة شكري رحيم. بيروت: دار النهار، 2002.

دكروب، محمد. **جذور السنديانة الحمراء: حكاية نشوء الحزب الشيوعي اللبناني 1924–1931**. ط 2. بيروت: دار الفارابي، 1984.

ذبيان، سامي. **الحركة الوطنية اللبنانية: الماضي والحاضر والمستقبل من منظور استراتيجي**. بيروت: دار المسيرة، 1977.

سماحة، جوزيف. **سلام عابر: نحو حل عربي لـ «المسألة اليهودية»**. بيروت: دار النهار، 1993.

PPPPP. **الآن هنا**. بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2007.

شاوول، ملحم. **التفكك والانطواء**. بيروت: منشورات شرق الكتاب، 2018.

شرارة، وضاح. **دولة حزب الله: لبنان مجتمعًا إسلاميًا**. بيروت: دار النهار، 1996.

PPPPP. **في أصول لبنان الطائفي: خط اليمين الجماهيري**. بيروت: جداول للنشر والتوزيع، 2011 [1975].

PPPPP. **أحوال أهل الغيبة: خاتمة الأحزان والمراثي**. بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، 2018.

شهوان، طانيوس جريس. **انتفاضة الاستقلال: مخيم ساحة الحرية**. تقديم فريد الخازن. بيروت: دار الساقي، 2012.

صاغية، حازم. **دفاعًا عن السلام**. بيروت: دار النهار، 1997.

PPPPP. **هذه ليست سيرة**. بيروت: دار الساقي، 2007.

PPPPP. **هجاء السلاح: المقاومات كحروب أهلية مقنعة**. بيروت: دار الساقي، 2011.

طرابلسي، فواز. **صورة الفتى بالأحمر: أيام في السلم والحرب**. بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، 1997.

PPPPP. «30 على انطلاقة àجمول’: شهادة عن فترة التأسيس». **بدايات**، العددان 3-4 (خريف 2012 - شتاء 2013).

PPPPP. «اليسار في الزمن الثوري». **بدايات**. العدد 1 (شتاء-ربيع 2012). في: https://bit.ly/2YPXtx4

طرابيشي، جورج. **معجم الفلاسفة: الفلاسفة، المناطقة، المتكلمون، اللاهوتيون، المتصوفون**. ط 3. بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 2006.

عاصي، عبد الوهاب. «تجربة المجتمع المدني السوري». جسور للدراسات. 15/9/2020. في: https://bit.ly/3qKwBfr

العظم، صادق جلال. **نقد الفكر الديني**. ط 3. بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 1972.

عنداري، بول. **هذه شهادتي: لبنان 1975-1992**. ط 5. بيروت: [د. ن.]. 2010.

عيتاني، حسام. «قبر أبي». **كلمن**. العدد 4 (خريف 2001). في: https://bit.ly/2PgMZFC

PPPPP. **هويات كثيرة وحيرة واحدة: سيرة لبنانية**. بيروت: دار الساقي، 2007.

فياض، منى. **معنى أن تكون لبنانيًا: مقالات في حال الوطن... وأحوال المواطن**. بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2008.

قصير، سمير. **ديموقراطية سوريا واستقلال لبنان: البحث عن ربيع دمشق**. تقديم عمر أميرالاي. بيروت: دار النهار، 2004.

PPPPP. **عسكر على مين؟ لبنان الجمهورية المفقودة**. تقديم غسان تويني. بيروت: دار النهار، 2004.

الكبيسي، باسل. **حركة القوميين العرب**. بيروت: دار الطليعة للطباعة النشر، 1974.

لقاء قرنة شهوان في سنواته الأربع: مواقف وبيانات، 30 نيسان 2001 - 30 نيسان 2005. [د. م.]: [د. ن.]، 2005.

مادويان، أرتين. **حياة على المتراس**. تقديم جورج حاوي. ط 2. بيروت: دار الفارابي، 2011.

مقلد، محمد علي. **اليسار بين الأنقاض والإنقاذ: قراءة نقدية من أجل تجديد اليسار**. [د. م.]: [د. ن.]، 2005.

PPPPP. **اغتيال الدولة**. بيروت: مؤسسة الانتشار العربي، 2006.

PPPPP. **الشيعية السياسية: بحث في معوقات بناء الدولة**. بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2012.

منصور، ألبير. **الانقلاب على الطائف**. بيروت: دار الجديد، 1993.

منظمة العمل الشيوعي في لبنان. **أوراق يسارية: نصوص حزبية لمنظمة العمل الشيوعي في لبنان**. بيروت: منشورات بيروت المساء، 2016.

المولى، سعود. **طريق ذات الشوكة: الشيعة اللبنانيون في تبلور وعيهم الوطني**. بيروت: دار الجديد، 2008.

ناجي، إبراهيم. **ديوان إبراهيم ناجي**. بيروت: دار العودة، 1980.

نصر، سليم وكلود دوبار. **الطبقات الاجتماعية في لبنان: مقاربة سوسيولوجية تطبيقية**. ترجمة جورج أبي صالح. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1982.

نصر، سليم. **سوسيولوجيا الحرب في لبنان: أطراف الصراع الاجتماعي والاقتصادي 1970-1990**. بيروت: دار النهار، 2013.

«الوثيقة التأسيسية للجان إحياء المجتمع المدني في سورية». ملتقى العروبيين. 29 حزيران/يونيو 2020. في: https://bit.ly/3dpK5aF

يعقوب، حسين. **يسار لبنان: تاريخ موجز وشهادات من التجربة**. برلين: مؤسسة روزا لوكسمبورغ، 2013.

2 – الأجنبية

Alexievitch, Svetlana. *La fin de l'homme rouge: Ou le temps du désenchantement*. Sophie Benech (trad.). Michel Parfenov (dir.). Paris: Babel, 2013.

Bahout, Joseph & Chawqi Douayhi (eds.). *La vie publique au Liban: Expressions et recompositions du politique*. Les cahiers du cermoc 18. Beyrouth: Centre d'Etude et de Recherches sur le Moyen-Orient Contemporain, 1997.

Bardawil, Fadi A. «When All This Revolution Melts Into Air: The Disenchantment of Levantine Marxist Intellectuals.» PHD. Dissertation. Columbia University. New York. 2010.

Christofferson, Michael Scott. *Les Intellectuels contre la gauche: L'idéologie antitotalitaire en France (1968-1981)*. Philippe Olivera (préf.). André Merlot & Françoise Jaouen (trad.). Paris: Éléments, 2014.

Daher, Joseph. «Les conséquences de l'intervention militaire du Hezbollah en Syrie sur la population libanaise chiite et les rapports avec Israël.» Fondation pour la recherche stratégique. at: https://bit.ly/3pXJCRl

Dot-Pouillard, Nicolas. «De Pékin à Téhéran, en regardant vers Jérusalem: La singulière conversion à l'islamisme des àMaos du Fatah'.» *Cahiers de l'Institut Religioscope*. no. 2 (Décembre 2008).

Favier, Agnes. «Logiques de l'engagement et modes de contestation au Liban: Genèse et éclatement d'une génération de militants intellectuels (1958-1975).» PhD. Dissertation. Université Paul Cezanne. Aix Marseille III. Marseille. 2004.

Frangié, Samir. *La révolution tranquille.* Beyrouth: L'Orient des Livres, 2017.

Furet, Francois. *Penser la révolution française*. Collection Folio histoire 3. Paris: Gallimard, 1985.

Hindi, Toufic. *Une troisième guerre mondiale pas comme les autres: Stratégie pour confronter un djihadisme sans frontières.* Paris: Les éditions du Panthéon, 2018.

Jennings, Jeremy. «L'anti-intellectualisme britannique et l'image de l'intellectuel français» *Mil neuf cent*. no. 15 (1997). at: https://bit.ly/3cy9lfs

Katsakioris, Constantin. «Les étudiants de pays arabes formés en Union Soviétique pendant la Guerre froide (1956-1991).» *Revue Européenne des Migrations Internationals*. vol. 32, no. 2 (September 2016).

Koestler, Arthur. *Spartacus.* Paris: Calman-Levy, 1945.

Mannheim, Karl. *Le problème des générations*. G. Mauger & N. Perivolaropoulou (trads.). G. Mauger (intro.). Paris: Nathan, 1990 [1928].

Montaigne, Michel de. *Les Essais.* V. L. Saulnier (ed.). Pierre Villey (intro.). Paris: PUF, 1965.

Sand, Shlomo. *La fin de l'intellectuel français?.* Paris: La Découverte, 2016.

Zaleski, Eugène. «La crise du pouvoir en U.R.S.S. (1988-Juillet 1991).» *Revue d'études comparatives Est-Ouest*. vol. 22, no. 2 (1991).